

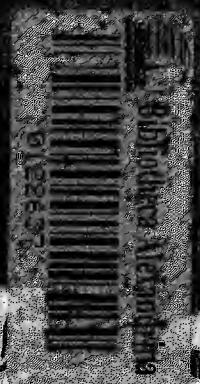
في هوكة النسيب

دراسة تحليلية هادفة لسيرة الأنبياء السابقين
في ضوء الآيات القرآنية والكتاب من الأحاديث الشريفة

الجزء الثاني



إحمد الكيلاني



في موكب النبيين
أحداث و عبر

فِي هَوَاكِيزِ النَّبِيِّينَ

الجزء الثاني

تأليف
سيد أحمد الكيلاني



تطلب جميع منشوراتنا من :

دار القلم الكويت

شارع السور - عمارة السور - بجوار وزارة الخارجية
ص . ب : ٢٠١٤٦ — هاتف / ٢٤٥٧٤٠٧ / ٢٤٥٨٤٧٨

الطبعة الأولى

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

حقوق الطبع محفوظة

موسى — عليه السلام — قبل الرسالة

- مصر وفرعونها .
- فرعون يملك وحده كل خيرات مصر .
- فرعون يوزع عطاياه على من يخدمونه فقط .
- فرعون يحرم الناس التفكير .
- فرعون يث الفرقة ، ويفرق الجماعات ، ويقتل من يشاء .
- قبيل ولادة موسى — عليه السلام .
- موسى — عليه السلام — طفلاً .
- موسى — عليه السلام — فى قصر فرعون .
- أم موسى — عليه السلام — ترضع ابنها ،
- ويصدق وعد الله سبحانه لها .
- بلوغ موسى — عليه السلام ، وفتوته ، واكتماله .
- من مظاهر الرجولة والفتوة لموسى — عليه السلام .
- تطلب الرسالة اكتمال الجسم ، والعقل ، والسلوك السوى .
- قصة الرجلين المقتلين .
- الخروج من مصر إلى مدين .
- دروس وعبر .

مصر وفرعونها :

كانت مصر آنذاك ذات مركز تجارى ، وسياسى ، واجتماعى ، وما يتصل بذلك من تلك الحضارة المادية القديمة ، والتي أُسْتَغْلَتْ حقبة طويلة في قهر الشعوب ، وخاصة من يخالفون الحكام ، أو من يتخوف منهم الحكام من تعرضهم للسلطان بالنقد .

وتوالت القوافل من كل صوب ، وخاصة من جهة الشرق إلى مصر ؛ طلباً للقتل والطعام ، وتبادل السلع ، وكانت في وقت إقامة نبي الله سبحانه يوسف — عليه السلام — رائدة في هذا المجال ؛ بسبب ما حباها الله به من وجود هذا النبی ، ومسئوليته عن المواد التموينية في سنواتها الخصبة ، وسنواتها الجذباء ، وبسبب ما آتاهها من إمكانية أرضها على الإنتاج الزراعى الكبير .

والرؤيا التى رآها فتى السجن الأول ، تدل من بعيد على ما كان بالأرض من زراعة الأعناب . فالطاقة البشرية موجودة ، والقدرة على عصر العنب ممكنة .

والرؤيا التى رآها فتى السجن الثانى تدل على صورة مألوفة بين الناس ، وهى حمل الخبز على رأس المرء ، وما كان كذلك محمولاً فهو كثير ، عكس ما يرفع باليد ، ثم يقلم بها .

ثم رد نبي الله سبحانه عليها ، وتأويله لرؤيتهما ؛ فقد ركز على الطعام الذى يرزقانه ، على الرغم من وجودهما بالسجن .

ثم رؤيا الملك نفسه ، فجزؤها الأول يتحدث عن البقر بنوعيه : ما كان منه سميناً معافى مكتظاً بالشحم ، واللحم ، مدرأً للبن ، وما كان منه هزيلاً فقد صفات النوع الأول . والنوعان حين طرحا عند تفسير الرؤيا لم يكن السؤال عن ماهية السمان والعجاف ، فذاك مألوف للناس في حياتهم ، وإنما كان من الغرابة في أن تملك عجاف البقر القدرة على أكل سمانها ، وأن كلا منها سبع .

وجزؤها الثانى عن إنتاج القمح ذى السنابل الممتلئة بجباته ؛ والغرابة في الرؤيا ، وجود نوعين فيها : من سنابل القمح ، خضر ويايسات متجاورات ، وأن

كلا منها سبع .

كما أن تكرر السبع في الرؤيا له مغزى فيها ، ولكن يبقى الأصل وهو أن مصر نعمت بالإنتاج الحيواني ، والزراعى ، والذي كان له من أثر الإسهام في حل أزماتها ، وأزمات البلاد المجاورة .

وأهمية هذا الإنتاج وخطورته رغب يوسف — عليه السلام ، حين قال له الملك : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (١) في أن يوضع على هذا المرفق المهم مسئولاً عنه ، قال : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) فقد وصل بهذا الإنتاج أن كانت له خزائن ، ومسئولية مصر من هذا الجانب عن غيرها من الدول أضيفت الخزائن إلى الأرض ، ولم تضاف إلى مصر .

وتلك هى الحالة الاقتصادية ، والتي لم تتوقف عند هذا الحد ، بل كانت سبباً في زمن يوسف — عليه السلام — أن أسهمت في نشر الأمن بين الناس ، والذي شمل الوافدين أيضاً فقد قال لإخوته : ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ (٣) .

ودخل بنو إسرائيل الاثنا عشر مصر ، ولأول مرة ، تحت قيادة نبي الله يوسف — عليه السلام ، كما كان معهم والده يوسف أيضاً (٤) .

ولكن ماذا كان من شأن من ملكوا مصر بعد ذلك ؟

هل استمر ذلك الأمن ، الذى نعم به الناس فترة قيادة نبي الله يوسف — عليه السلام ؟

(١) سورة يوسف ، الآية رقم ٥٤ .

(٢) سورة يوسف ، الآية رقم ٥٥ .

(٣) سورة يوسف ، الآية رقم ٩٩ .

(٤) ظل بنو إسرائيل على التمايز فيما بينهم ، مكونين اثنتى عشرة جماعة فيما بعد ذلك ، ولأمر أراحه الله انفجرت اثنا عشرة عيناً بعد ضرب موسى وحدد لكل جماعة العين التى تشرب منها ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَا عَشَرَ عَيْنًا ﴾ (البقرة آية ٦٠)

هل كان احترام الإنسان فكرياً ، واقتصادياً ، واجتماعياً ؟

وتشهد أهرامات الجيزة بمصر أسوأ قضية في تاريخها ، آلاف من البشر يسخرون سنوات طويلة لبناء مقبرة للملك عبّد الناس له .

إن المرء وهو يُشاهد تلك الأهرامات ليتذكر بقلب يعتصره الألم حقبة سوداء في تاريخ دولة ضاربة الجذور في التاريخ . الملايين من البشر يعبدون فرداً ، ويقدمون له ، ويذلّون حياتهم رخيصة دون مقابل إلا رضا المتأله من البشر .

وسُخرت الخيرات التي نعمت بها مصر آنذاك لصالح فرد واحد ، وكل من اتصل به نفاقاً ، وبذل أن تكون الخيرات لمصر ، وغيرها ، كما كانت في عهد يوسف — عليه السلام — كانت لفرد ، ولم تكن حتى لأبناء البلد المصريين .

فرعون يملك وحده كل خيرات مصر :

من المالك الأوحده لخيرات مصر في نظر فرعون الطاغية ؟

ومن الذي يوزعها حيث يشاء ؟

إنه هذا المتأله بالباطل ، ولا يشركه إلا من أذعن له بهذا الحق من أمثال هامان وغيره .

إن الأيام التي كان يوسف — عليه السلام — فيها على خزائن مصر التموينية قد مضت بما كان فيها من إسهام لحل مشكلات الناس داخل مصر ، وخارجها ، وتجمعت كل هذه الأرزاق في قبضة هذا الفرعون ، فهو الملك الأوحده لمصر ، وأنهارها التي تكون سبباً في إحياء الأرض بالنبات ، وفي إنماء الحيوان ، فضلاً عن ضرورة مائها لحياة الإنسان ؛ إن هذه الأنهار تجري من تحته ، وتحت قصره ، وهم يبصرونها على هذا النحو .

وحين نادى قومه لمواجهة دعوة موسى — عليه السلام — من عليهم بهذا .

يقول الله تعالى :

﴿ ونادى فرعون في قومه ، قال : يا قوم ، أليس لي ملك مصر وهذه
الأنهار تجري من تحتي . أفلا تبصرون ؟ ﴾ (٥) .

وطالما أنه المالك ، والغني ، فهو الأحق بعبودية الناس له ، أو عبودية الناس
لماله ، ولذا أثار في نفوس قومه أن موسى فقير ، فلا يستحق هذا التكريم حيث
قال الله تعالى علي لسانه :

﴿ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب ﴾ (٦) .

وتمكن الغباء في القوم فالإلحاح علي الاستخفاف بهم ، وحرمانهم من أى
حق لهم جعلهم يتصورون أن هذا حق قعلاً لفرعون . فأطاعوه في كل ما يزعم .
قال الله تعالى :

﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ، إثمهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ (٧) .

فرعون يوزع عطاياه علي من يخدمونه فقط :

إن الأرض لله سبحانه ، يورثها من يشاء من عباده ، وإن المال مال الله
سبحانه وهو مستخلف فيه عباده ، فنأظر كيف يعملون ؟
كيف يكون توزيع الثروات هذه ؟ ، والتي نعمت بها مصر بالذات دون
غيرها .

إن السحرة في موقفهم الأول فهموا من الطاغية هذا ، ورتبوا عليه
أمورهم . فتحرك لسانهم مخاطبين فرعون .

﴿ فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئن لنا لأجراً إن كنا نحن
الغالبين ، قال : نعم وإنكم إذا لمن المقربين ﴾ (٨) .

(٥) سورة الزخرف ، الآية رقم ٥١ . (٧) سورة الزخرف ، الآية رقم ٥٤ .
(٦) سورة الزخرف ، الآية رقم ٥٣ . (٨) سورة الشعراء ، الآية رقم ٤١ ، ٤٢ .

فبذل الأجر والعطاء سبيله تقديم فروض الطاعة والولاء لفرعون ، والدفاع عن طغيانه ، وقد تعرض للإطاحة .

ولأن الطغيان قد تعرض لهزة ، كانت إجابة فرعون بنعم سريعة جداً ، فليبدل اليسير إذن للسحرة ليبقى الكثير له ، بل أعلن لهم أنهم سيكونون مقرين لديه ؛ شريطة أن يحققوا غلبة ، ولو بالباطل ، ولا تُربأبداً من هذا الطاغية إلا إذا تحقق هذا الكسب .

فرعون يحرم الناس التفكير :

حين ينتشر الطغيان والظلم ببلد أى بلد ، فأول شيء يذبح ، والذي يجعل له ألف حساب التفكير الحر .

والطاغية يعلم علم اليقين قيمة التفكير الحر ، ووقوفه في وجه أى انحراف في السياسة أو الاقتصاد ، أو في التوزيع ، أو في اختيار المسؤولين ؛ ولذا يجند من الأشخاص المنافقين الذين من السهل عليهم أن يزينوا للناس خطورة هذا التفكير ، وأن الذات العليا مقدسة لا يصح أن تُمس ، وبطول المدة على الناس يألفون هذا الظلام الذي يُلْفَهُمْ لَفّاً من كل جانب ، بل قد يحارب الواحد منهم في سبيل الحفاظ على بقاء ذلك الوضع العفن ، وتصبح النافذة الواحدة التي يخرج التفكير منها نافذة الإله المزعوم .

ويصور القرآن الكريم هذا الأمر بقوله :

﴿ قال فرعون : ما أرىكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ (٩)

إن رأى الناس من خلال رأيه هو فقط ، بل هو الذي يعلن عليهم هذا الأمر ، ويلدبهم عليه ، بل يصف هذا الحرمان من إبداء الرأي بأنه سبيل الرشاد ؛

(٩) سورة غافر ، الآية رقم ٢٩ .

لتنقلب الأوضاع ، فيصبح التفكير الحر ، ضللاً ، والحرمان رشاداً في الرأي والعقل وهداية للناس .

ولا نعجب إذا ما كان لأفعال هذا الفرعون تصفيق حاد من قبل البطون الجائعة ، والمحرومين من نعمة الرؤية والرأي والتفكير .

إن فرعون يحكم على الشعب بأسلوب الحصر ﴿ ما أرىكم إلا ما أرى ﴾ فله الحكم والأمر وعلى الشعب المسكين أن ينصاع له ، ويسجد خاضعاً ذليلاً له .

وإذا مرت بأفراد من الشعب يقظة بسبب نبوة ، وتحررت من عبوديتها لهذا الإله المزعوم ، كان الاستغراب الكبير جداً من فرعون وملئه . قال تعالى :

﴿ قال فرعون : آمنتم به قبل أن آذن لكم ﴾ (١٠) .

إنه ينكر على السحرة فعلهم هذا ، ويزعم أنه هو المتصرف الأوحد في شئون المسحوقين من البشر ، فحين أشير لكم ، أو آذن بفعل فليفعل ، وإلا فالويل ، والصلب ، والسفك ، والقتل الجماعي لمن يخالف رأيه .

ودور المنافقين خطير جداً في نفخ هذا البالون ، وإقناع الطاغية بأنه العبقري الأوحد وأن للعبقرية إلهامات خاصة . ومن مصلحة هؤلاء المنافقين ألا تدب في الأرض حياة ، وأن يُحرم الناس إبداء الرأي ، بل يثيرون الطاغية على من فكر بإصلاح البشرية وإنقاذها من وهدة العبودية لغير الله سبحانه .

يقول الله تعالى في شأن هؤلاء المنافقين ، بطانة السوء :

﴿ وقال الملأ من قوم فرعون : أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ؟ ﴾ (١١) .

(١٠) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٢٣ .

(١١) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٢٧ .

وصار التحرر من الطغيان ، والخروج من عبودية العباد ، إلى عبودية رب العباد ، في نظر هؤلاء الدجالين إفساداً في الأرض وهكذا يكون الحال حين تنقلب الأوضاع متى وأين كان ؟ .

فرعون ييث الفرقة ، ويفرق الجماعات ، ويقتل من يشاء :

لا يمكن لمستكبر في الأرض ، متمرد على سلطان الله سبحانه أن يستمر على ظلمه إلا أن يشيع الفرقة ، والإفساد بين الناس بالوشاية الكاذبة ، بواسطة زبانيته ، وأعوانه ؛ للرجة أن يتصور الناس العاديون أن الفرقة هذه بسبب ضعف ذاتي في جدار الجماعة ، وليس وارداً من خارجها . وتأمل في قوله تعالى :

﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً ﴾ (١٢) .

فقد كان من نتيجة العلو في الأرض ، أن جعل أهلها شيعاً وأحزاباً ، كل يكره الآخر ، وحسب فرعون أن يهناً بالاً ، ويقر قراراً طالما أن مبدأه (فرق تسد) وجد مناخه الخصب بين الناس ، وأصبح مفعوله قوياً فيهم .

أيتصور إنسان أن شخصاً ما يتوجه بالقتل لكل مولود ذكر حين العلم بولادته ؟ إن هذا قد حدث فعلاً من فرعون ، فبعد أن وضع الفتنة بين جماعات الناس إذ به يتوجه إلى الضعيفة منها فيذبح الأبناء الذكور حيث تكون القوة ، والمعارضة منهم ويترك النساء لما عُرف عنهن من لين وضعف ، وذاك إفساد في الأرض وأى إفساد .

يقول الله تعالى :

﴿ إن فرعون علا في الأرض ، وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ، ويستحيى نساءهم ، إنه كان من المفسدين ﴾ (١٣) .

(١٢) سورة القصص ، الآية رقم ٤ .

(١٣) سورة القصص ، الآية رقم ٤ .

قبيل ولادة موسى — عليه السلام :

ذلك هو الجو العام لمصر ، وفرعون قبيل ولادة موسى — عليه السلام — إن دل على شيء فإنما يدل على مدى الانحطاط الذى تردت فيه مصر فى عهد فرعون سياسياً ، واجتماعياً ، وخلقياً ، وإن كانت قد نعمت بالإنتاج الزراعى ، والفكر الهندسى ، والمعمارى ، فقد أُستغل ذلك لصالح فرد واحد هو فرعون ، فضاعت القيمة منه لعدم استفادة الشعب من هذا التقدم .

وإذا تناول العقل البشرى هذه الأحداث فيمكن أن يجعلها سبباً فى فناء الأمة ، ودمارها ، وإهلاكها ، ولكن الله سبحانه هو صانع الأسباب ، وصانع فعاليتها للمسيبات . نقل العقاد عن الغزالي قوله : إن الحوادث تجرى عند حصول الأسباب ، ولا تجرى بحصول الأسباب ، فليست خصائص المادة من فعلها ولا إرادتها ، ولكن المادة وخصائصها جميعاً من فعل الحكمة الإلهية التى تُسخر كل شيء بمقدار (١٤) .

فكان فى هذا الجو الخائق والمعتم بداية الإنقاذ لمن تعرضوا لهذا الاضطهاد ، ويُمكن لهم فى الأرض ، وتلك إرادة الله سبحانه التى نفذت وسجلها القرآن الكريم قبيل ولادة موسى — عليه السلام .

يقول الله تعالى فى أول سورة القصص مخاطباً نبيه محمداً — ﷺ :

﴿ طَسَمَ ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يُدْبِحُ أبناءهم ، ويستحى نساءهم ، إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نُمَنَّ على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونُمَكِّن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما

(١٤) مطلع النور ، أو طوابع البعثة المحمدية ، الطوابع والنبوءات ص ٩ . منشورات المكتبة العصرية .

منهم ما كانوا يحذرون ﴿١٥﴾ .

فالقرآن الكريم والذي تُكوّن من تلك الحروف العربية التي استعملها العرب في كلامهم ، جاء بالمعجز من الأخبار الغيبية ، والتي يَقصّها بالحق . وإن المؤمنين هم الذين يتلقونها بالقبول والرضا ، أما غيرهم فلا يملكون أيضاً أن يأتوا بما يخالفها في الأخبار ، وتبدأ القصة في عرضها ، فقد علا فرعون في الأرض ، وفرّق الناس شيعاً ، وأحزاباً ، واستضعف بنى إسرائيل ، فذبح الذكور الذين ولدوا حديثاً ، وترك الإناث ؛ لما حُكي له من أن رجلاً سيولد تكون نهايتك على يديه ، وفرعون بهذا قد أفسد في الأرض . وأراد الله سبحانه أن يَمُنَّ على هؤلاء المستضعفين من بنى إسرائيل ؛ ليكونوا أئمة ، وليكونوا الوارثين لملك فرعون بعد هلاكه ، ويُمكن الله سبحانه لهم في الأرض ، ويُرى طاغية الكفر ومساعدته هامان ومن عاونهما من الجتود العاقبة التي كانوا يحذرون منها ، حيث لم ينفعهم الحذر . فالله سبحانه هو الذي أنقذ ما أراد بولادة طفل صغير من بنى إسرائيل تتحقق هذه الأمور على يديه بإذن الله سبحانه .

وما يلفت الانتباه هنا هو طول المدة بين الواقع المرير المؤلم ، وتكليف موسى وهارون — عليهما السلام — بأن يذهبوا إلى فرعون ؛ لأنه طغى . وذلك يدل على الوصية بالصبر ، فمهما طال عهد الظلم فلا بد أن يعقبه فرج ، وتأتى سورة القصص التي نزلت بحكمة تعطي هذه الدلالة وتغرسها في قلب النبي — ﷺ — وهى السورة الوحيدة التي تحدثت عن طفولة موسى — عليه السلام — أما السور المدنية الأخرى فقصلت القول في تعامل بنى إسرائيل وعلاقتهم بنبيهم ، وبالنبي محمد — عليهما الصلاة والسلام — كما أن المناخ الذي عاشته المدينة المنورة من مكر اليهود وخيبتهم كان سبباً في نزول ما نزل من الآيات يفضح هذا الخبث ، وهذا المكر ، وأتهم بدلو ، وحرفوا في التوراة ، كما سنعرف في المستقبل إن شاء الله تعالى .

(١٥) سورة القصص ، الآيات من ١ إلى ٦٦ -

موسى — عليه السلام — طفلاً :

إن كانت تستطيع الأم أن تتخفى وهى حامل ، فسوف لا تستطيع أبداً أن تخفى طفلاً وليداً ، يصرخ إذا ما جاع ، وإذا ما أَلَمَ به شيء ، أو أَلَمَ به مرض. ولم يصلنا أى خبر من أمهات بنى إسرائيل أنهم قدمن أطفالهن عن طوعية . فذلك أمر يُخالف ما أودعه الله سبحانه فى قلب الأم من حنو نحو وليدها ، بل قد تعرض نفسها للهلاك إذا كان فى ذلك إبقاء على هذا الوليد . فلا بد والحال هذه أن يكون فرعون قد جند لذلك جنوداً يخبرونه بما يُولد من الذكور ، وأنسب من يختار لذلك القابلات اللاتي يقمن بأمر الولادة ، وسهولة التعرف على المرأة التى وضعت حديثاً ، وتقوم بأمر إرضاع الولد ، ولا بد أيضاً أن أم موسى على إحدى حالتين :

(أ) إما أن تكون قد ولدت وحدها ، ولا يعرف شأن هذه الولادة إلا أخص الناس من أسرتها .

(ب) وإما أن تكون قد ولدت على يد قابلة ، ورأت خوف أم موسى عليه ، فأسهمت فى كتمان هذا السر .

وربما يكون فى الحال الثانية أن ترى القابلة من الطفل من أمارات ، وسمات لم ترها فى غيره ، وشجعته على ما تقوم به من كتمانه .

وفى كلتا الحالتين الموقف خطير على كل من تستر على هذا الأمر ، وعدم إيصال النبأ إلى الطاغية فرعون . والخطر هنا لا يقع على الطفل وحده ، بل سيقع عليه وعلى أمه ، وعلى أخته ، وعلى القابلة إن كانت قد شاركت فى إخفاء أمر الولادة ونوع المولود .

ولا يدور فى خلد ذى لب ، أنه ربما أن يكون قد ادّعت الأم أن نوع المولود أنثى ، والواقع أنه ذكر ، فليس بعيداً والموقف متأزم جداً من فرعون أن يُرسل من يتعرف على حقيقة الأمر ، ولم يبق لنا إلا أن نرجح أحد الاحتمالين السابقين ، والله أعلم بالصواب .

هذا هو الموقف ، فماذا كان من أمر السماء التي أعلنت بادئ ذي بدء أنها تئن على الذين أضعفوا في الأرض وتجعلهم أئمة وتجعلهم وارثين ، وتمكنين في الأرض ؟

أوحى الله سبحانه إلى أم موسى — عليه السلام — وإذا ما بدئ الأمر بوحى من السماء فذاك أول الفرج ، وأى فرج أكبر وأجمل منه ، وقد تسلمت السماء زمام الموقف .

أوحى الله إلى أم موسى — عليه السلام — أن ترضعه وهي مطمئنة ، وإن لم تستطع كتمان خوفها فعليها أن تقوم بتجربة ما سبق لأم أن فعلتها ، وهي إلقاءه في نهر النيل على نوع لا يمكن لأم أن تفعله ، وتأمين عليه من الغرق لساعات من وضعه في صندوق^(١٦) لا يظهر منه الطفل ، ويكون مُحكماً لا يصل الماء إلى داخله هذه الفترة الممكنة . فإذا ما علمنا أن نهر النيل بصفحة ملساء في غالب أيام السنة أمكننا أن نرجح هذا الأمر ولكن لا يجوز لنا أن نجزم به طالما هو غيب ، ولم تأت النصوص بخبرة به ، فنحن أمام أم تلقى بوليدها في النهر . إن أمنت عليه ساعات ، فلا تأمن عليه امتداد هذا الأمن .

ولكن الذى أوحى إليها أول الأمر وهو الله سبحانه وتعالى هو الذى يأمرها بإلقائه في اليم إذا ما كان خوف ، وألا تخاف ولا تحزن من هذا ، وأن الله سبحانه يبشرها برده إليها ، بل سيجعل هذا الوليد رسولاً إلى قومه . فلا تردد من الأم إذن وقد صعدت البشرى إلى درجة الرسالة ، وها هي تنفذ الأمر . وتلقى الأم بوليدها موسى — عليه السلام — في نهر النيل . وتبقى منتظرة تلك البشرى التي أعلنتها السماء لها بالوحى الكريم إليها .

(١٦) قال تعالى : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ (سورة طه ٣٨ ، ٣٩) .

= معنى الوحى :

= يُقال : وحيت إليه ، وأوحيت ، إذا كلمته بما تخفيه عن غيره ، والوحى : الإشارة السريعة ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز ، والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد ، وبإشارة بعض الجوارح .

والوحى : مصدر ، ومادة الكلمة تدل على معنيين أصليين ، هما : الخفاء ، والسرعة ، ولذا قيل في معناه : الإعلام الخفى السريع الخاص بمن يوجه إليه ، بحيث يخفى على غيره ، وهذا معنى المصدر ، ويُطلق ويُراد به الموحى ، أى بمعنى اسم المفعول ، والوحى بمعناه اللغوى يتناول :

١ - الإلهام الفطرى للإنسان كالوحى إلى أم موسى — عليه السلام — قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (القصص — ٧) .

٢ - والإلهام الغريزى للحيوان ، كالوحى إلى النحل ، قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ : أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا ، وَمِنَ الشَّجَرِ ، وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (النحل — ٦٨)

٣ - والإشارة السريعة على سبيل الرمز ، الإيحاء ؛ كإيحاء زكريا — عليه السلام — فيما حكاه القرآن الكريم عنه : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ، فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ، أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً ، وَعَشِيًّا ﴾ (مريم — ١١) .

٤ - ووسوسة الشيطان ، وتزيينه الشر في نفس الإنسان ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ (الأنعام — ١٢١) . وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (الأنعام — ١١٢) .

٥ - وما يلقيه الله سبحانه إلى ملائكته من أمر ليفعلوه ، قال تعالى : ﴿ إِذْ يُوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَتَىٰ مَعَكُمْ ، فَتَبَايَعُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾ (الأنفال — ١٢) .

أما وحى الله سبحانه إلى أنبيائه — عليهم الصلاة والسلام — فقد عرفوه شرعاً بأنه :

كلام الله المنزل على نبي من أنبيائه . وهو تعريف بمعنى اسم المفعول ، أى الموحى .

ولاختلاف مدلول الوحى باختلاف القرائن لزم التنويه بذلك ، والله أعلم .

عن كتاب « مباحث في علوم القرآن » للشيخ مناع قطان ، مؤسسة دار الرسالة — بيروت . الطبعة السادسة ص ٣٢ ، ٣٣ .

موسى — عليه السلام — فى قصر فرعون :

مرت مفاجأتان ، الأولى : ولادة مولود ذكر ، والثانية ، توجه الأمر بالإلقاء فى اليم إلى أم موسى . ونحن هنا إزاء مفاجأة أشد غرابة .

إن الطفل يمر بقصر فرعون ، فيلتقطه آله وجنوده ، ولا زالت حالة الطوارئ معلنة على بنى إسرائيل بذبح من ولد ذكراً منهم .

ومن يجزئ على إلقاء طفله إلا من ارتعدت فرائصه خوفاً ، وهلعاً فيتوهم فى اليم نجاة من القتل ، وسوف لا يدور بخلد من عنده مسكة من عقل أن هذا الطفل من غير بنى إسرائيل .

إذن فقد بقى الخطر محققاً إذا ما تركنا للأسباب أن تعمل وحدها ، ولكن الذى صنع الأسباب هو الذى يملك إجرائها وهو الله سبحانه ، وها هى القصة تعطينا الدليل على أن الفرج الذى سيكون هنا سيكون لك أيها النبى الخاتم أيضاً ، وقد أهدق الخطر من قريش على القلة المستضعفة فى مكة .

ولو كان فرعون وهامان ومن تبعهما من جنود يملكون شئون أنفسهم لما سارت الأحداث على هذا النحو ، ويكونون هم عناصر تعتمد عليها الأحداث .

فكيف يزعم فرعون أنه إله إذن ، وهو لا يملك دفع الأذى عن نفسه ، ولا يعرف خطراً ينتظره هو بالذات ؟

وجند الله سبحانه لخدمة الطفل امرأة ، وما أشد حاجة كل طفل إلى امرأة حتى والخطر يحدق بالطفل فالناموس الطبيعى أن يخدم الطفل فى سنواته الأولى امرأة وأى امرأة كانت هذه ؟ إنها رئيسة هذا القصر . أصبح هذا ؟ . نعم صحيح ألم تسمع قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو

نتخذه ولداً ﴿ (١٧) .

أترضى امرأة فرعون ، وهى من هى أن تتبنى ذلك الوليد الغريب ؟
إن الذى أنطق عيسى — عليه السلام — وهو فى المهد ، حرك مشاعر تلك
المرأة نحو الطفل موسى — عليه السلام .

إنها تتمناه لها فى الدرجة الأولى ﴿ قرة عين لى ﴾ ولا يكون الطفل قرة
عين إلا فى حالات منها :

— ألا تكون قد أنجبت قبل ذلك مثلاً ، فيكون الطفل تعويضاً لها ، وذلك
جائز .

— أن يكون الطفل الجديد قد تمتع بنصيب من الجمال والوضاءة والصباحة
وذاك أيضاً جائز .

وسواء هذا أو ذاك فإن الذى هداها إلى إعلان ما أعلنت هو رب
الأحوال ، والأسباب ، إنها تناقش وتجاوز زوجاً تعلم عنه علم اليقين مدى تعذيبه
لبنى إسرائيل بالقتل ، والسفك ، وتقترح عليه أن يترك الطفل لديها ، لأحد
أمرين ؛ أن يكون :

(أ) ابناً لنا بالتبنى ، فتقر عينى وعينك على السواء .

(ب) فتى يساعدنا فى أمور حياتنا المنزلية . وهذا يدل على كمال عقلها
ورشدتها ، فعن أبى موسى — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ :

« كَمُلْ من الرجال كثير ، ولم يَكْمُلْ من النساء إلا آسية امرأة فرعون ،
ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر
الطعام » (١٨) .

(١٧) سورة القصص ، الآية رقم ٩ .

(١٨) أخرجه الشيخان : البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى : ﴿ وضرب الله
مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ﴾ سورة التحريم — (١١) ج ٤ ص ١٩٣ . =

وتتنزل نعم السماء على الطفل الصغير ، حتى وهو في قصر فرعون ، بصورة لم ينعم بها أى طفل آخر ، وتبديل صورة الخوف ، والفرع على الطفل جزءاً ، وهرباً من الشر ، إلى صور العناية التى تأتى من كل صوب ، ويكون للأم التى افتقدت وليدها نصيب فى هذا الدور .

**أم موسى — عليه السلام — ترضع ابنها ،
ويصدق وعد الله سبحانه لها :**

لك الله يا أم موسى ، ألقيت بولدك فى اليم ، وفى اليم مكاره ، ومخاوف ؛ إنقاذاً له من المكاره والمخاوف . وأصبح تفكيرك خالياً من كل أمر إلا من طفلك الصغير .

ثم هنيئاً لك يا أم موسى وقد قرت عينك من جديد برد الطفل إليك وقد حُفَّ بالأمن والتكريم ، وحفتك الهدايا والهبات .

فكيف كان ذلك ؟

بعد أن أَلقت الأم بالطفل فى اليم أصابها الجزع الذى كاد أن يفقدها التوازن ، وكتمان سر ابنها ، وخيف أن تكشف حركاتها ، وتصرفاتها سر الصندوق ، وقد احتوى طفلاً مجهولاً فى نظر فرعون ، وقومه ، ولكن الله سبحانه ربط على قلبها ، وهدأ روعها ، وذكرها بوعدة لها ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ فأذعنت لربها سبحانه من جديد ، وآمنت صدق الإيمان ، وفوضت الأمر لرب رحيم ؛ إنه نعم المولى ونعم النصير ، ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ (١٩) ، ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا

= مختصر مسلم ، كتاب فضائل أصحاب النبى — ﷺ ، باب فضل عائشة — رضى الله عنها . رقم ١٦٦٧ ج ٢ ص ٢٠٢ ، واللؤلؤ والمرجان رقم ١٥٧٤ ص ٦٤٦ .
(١٩) سورة البقرة ، الآية رقم ٢١٦ .

شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴿ (٢٠) .

قال الله تعالى :

﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين﴾ (٢١) .

والتفويض إلى الله سبحانه ، والتوكل عليه ، والإيمان الصادق بوعده للمؤمنين ليس معناه التقاعس عن بذل الأسباب المقلورة للإنسان ، واللازمة لكل ظرف من الظروف ، فإن كانت قد أمرت بإلقاء الطفل في اليم من ربه فلا مجال لها إلا أن تنفذ ، والله وحده هنا الذى يعلم مصير هذا التنفيذ ، فصار الإلقاء على عنفه سبباً فى النجاة . أما والأمر الجديد فى طوق الإنسان فليبذل الإنسان ما يمكن أن يبذله .

إن الأم قد اختارت شخصاً يستخبر عن الطفل ، إن هذا الشخص أخت الطفل ، وتحركت لأنها أخت لا لأنها بنت لأم ، لتفيدنا الآيات الكريمة أن شخص الاستخبارات تلزمه الرغبة الذاتية فيما يقوم به من عمل ، وما يصادفه من صعوبات كما تفيدنا أن الشخص المسئول يلزمه أن يختار الأكفأ الصالحين لمثل هذا العمل ، كما اختارت الأم الأخت لتعرف على أحوال أخيها ، وأوصتها الأم بأن تعرف قصته .

فماذا صنعت فى هذا التكليف الصادر إليها من الأم ؟

تحسست الأخبار عن قرب ، برباطة جأش ، وشجاعة نفس ، وتلك مهمة صعبة ، حتى وصلت قريباً من القصر ، وحتى بصرت به ، واطمأنت على أخيها ، دون أن يشعر زبانية فرعون الذين ظنوا أنهم قد ملكوا كل شيء ، فإذا هم لا يملكون أى شيء مما حذروا منه ، وليتأمل كل منا مسيرة طفل فى اليم حتى وصل داخل القصر ، ومسيرة أخت حتى تصل قرب القصر ، وقرب الطفل ، ويسجل

(٢٠) سورة النساء ، الآية رقم ١٩ ، (٢١) سورة القصص ، الآية رقم ١٠ .

الفرآن الكريم تلك المسيرة في آية كريمة ، قال تعالى :

﴿ وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ﴾ (٢٢)

وتصل الأخت إلى ما هو أبعد من ذلك ، إنها تسهم في التفاوض بشأن الطفل ، ودخلت إلى عمق المهمة المنوطة بها ، وهم لا يشعرون . فماذا أبصرت ؟ وماذا اقترحت ؟ . أبصرت طفلاً صغيراً لم تتردد في أنه أخوها الذي ألقى ليلاً في اليم ، وقد ظهرت عليه الرغبة في الرضاعة ولكن عجباً له ، وقد أرى فمه أن يلتقم ثدى أى امرأة على الرغم من جوعه ، إنه لغز لا يعرف حله من البشر غير الأخت . وأعلنت الحل بهدوء ، بسؤال تقريرى فيه نصح دون إلحاح ، فالإلحاح مجال شك ، ومضمون النصح بيت يكفله ، لا أم تكفله ، وإن كانت النتيجة واحدة ، ولكن الظرف يختار التعبير الأول ، ويأتى الثانى لما فيه من توهّم افتضاح السر .

وفى هذا يقول الله تعالى :

﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ، فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ (٢٣)

ويقول :

﴿ إذ تمشى أختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله ، فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن ﴾ (٢٤) .

هنيئاً لك أيها الطفل الكريم كنت قرة عين لامرأة فرعون .
وكنت محظوظاً حتى من أعدائك ، وقد كان منهم إكرام .
وتمتلك امرأة غير أمك أن تكون ابناً لها .

(٢٢) سورة القصص ، الآية ١١ (٢٣) سورة القصص ، الآية ١٢ ، ١٣ .

(٢٤) سورة طه الآية رقم ٤٠

ثم رُددت إلى أمك فقرت عينها بعودتك سالماً إليها ، وغائمة بأجر
إرضاعك .

ذهب بك الحزن ، وحل بك الفرح .

وصدق وعد الله سبحانه معك .

وصدق الله حيث يقول :

﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (٢٥)

وإذا ما تعرفنا على جانب من تلك الرعاية الإلهية بالطفل ، فقد توالى عليه
أيضاً وهو فتى .

بلوغ موسى ، وفتوته ، واكتماله :

يأتى الوصف بالفتوة أو الرجولة إذا ما كان اكتمال الجسم ، واكتمال فى
العقل .

فى قصة أصحاب الكهف المؤمنين ورد قوله تعالى :

﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم ، وزدناهم هدى ﴾ (٢٦) .

وفى قصة يوسف — عليه السلام — قال تعالى :

﴿ وقال نسوة فى المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾ (٢٧)

وفى وصف الناس بالتوازن النفسى والسلوكى يقول تعالى :

﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ... ﴾ (٢٨) .

(٢٧) سورة يوسف ، الآية رقم ٣٠ .

(٢٨) سورة النور ، الآية رقم ٣٧ .

(٢٥) سورة الأنعام ، الآية رقم ١٢٤ .

(٢٦) سورة الكهف ، الآية رقم ١٣ .

وقد جمع موسى — عليه السلام — من مظاهر الرجولة ، والفتوة ، ما يلزم لأداء الرسالة وما يبعده عن اللمز والطعن ، ولذا لم نسمع عن رسول كان به عيب جسمي أبداً ، والله سبحانه الحكمة في ذلك .

- من مظاهر الرجولة والفتوة لموسى — عليه السلام :

(١) يقول الله تعالى :

﴿ ولما بلغ أشده ، واستوى آتيناه حكماً وعلماً ﴾ (٢٩)

ولكن بنو إسرائيل فسروا الأمور على غير وجهها ، حين رأوا به حياء . وفي ذلك يروى أبو هريرة — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ —

قال :

« كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض ، وكان موسى يغتسل وحده . فقالوا : والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه أدر ، فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ، ففر الحجر بثوبه ، فخرج موسى في أثره ، يقول : ثوبى ، يا حجر . حتى نظرت بنو إسرائيل إلى موسى ، فقالوا : والله ما بموسى من بأس ، وأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضرباً » (٣٠) .

(٢٩) سورة القصص ، الآية رقم ١٤ .

(٣٠) حديث متفق عليه . اللؤلؤ والمرجان ، فيما اتفق عليه الشيخان ، جمع / محمد فؤاد عبد الباقي ، مراجعة / عبد الستار أبو غدة ، طبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت ، حديث رقم ١٥٣٢ ص ٦٢٥ كتاب الفضائل ، باب من فضائل موسى — عليه السلام — وورد في هامش مختصر مسلم تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى رقم ١٦١٠ ص ١٨٦ ج ٢ ، أدر : عظيم الخصيتين ، وورد في رواية مختصرة بدل « كان موسى يغتسل وحده » قوله : « كان موسى رجلاً حياً فكان لا يرى متجرداً » ، مع الاختلاف في الألفاظ ، وفي نهاية الرواية : « ونزلت : ﴿ يأيا الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا =

ويُفهم من هذا أنه على اكتمال في الجسم ، حتى ما يستمر منه ، لأنه عورة .
(ب) حدث أن تعرض موسى — عليه السلام — لفك نزاع بين شخصين الأول من بنى إسرائيل والثاني من القبط ، وغير خاف أن الأول من المستضعفين في مصر ، فالقتال إذن غير متكافئ ، فالثاني يقاتل ووراء وضع اجتماعي ، وسياسي يعطيه قوة ، قد تدفعه إلى مجاوزة الحد بالظلم ، بل قد يكون السبب تمرد الإسرائيلى على هذا الوضع نفسه ، والقبطى في موقف التأديب له ، والضرب له ، وصادف أن رأى موسى هذا القتال بينهما ، وتلك فرصة للإسرائيلى أن يستنجد بموسى — عليه السلام ، وما على موسى والحال هذه أن يدفع القبطى بيده وكراً ، وتكشفت قوة القبطى المنتفخة حين هذا الوجد .

فقد قضى عليه سريعاً .

وقد ندم موسى — عليه السلام — لهذه النتيجة غير المرادة منه ، إنه أراد فقط فك القتال ، حين رأى أن بالقبطى قوة من عصيته بقومه .

وعلى أى حال فقد أسف موسى — عليه السلام — واعتبر هذا من عمل الشيطان ، وأنه قد ظلم نفسه وطلب المغفرة من ربه ، عاهده ألا يكون ظهيراً لأى مجرم ، ونجاه الله سبحانه من الغم بسبب هذا العمل ، وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ وقاتل نفساً ، فنجيناك من الغم ، وفتاك فتوناً ﴾ (٣١) .

= موسى فبراه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴿ (سورة الأحزاب الآية رقم ٦٩)

والتصرف الذى كان عليه بنو إسرائيل يرجح أنه كان من قبل إيمانهم وإرسال موسى عليه السلام إليهم ، ويمكنك أن ترجع أيضاً إلى متن البخارى ج ٤ ص ١٩١ . كتاب الأنبياء .
وورد في هامش اللؤلؤ والمرجان نقل عن الإمام النووى : « وفي هذا الحديث فوائد أى بالإضافة إلى ما صرح به في الحديث منها :

أن فيه معجزتين ظاهرتين لموسى — عليه السلام — إحداهما مشي الحجر بثوبه إلى ملا بنى إسرائيل ، والثانية : حصول الندب (وهو الأثر) في الحجر .
(٣١) سورة طه الآية ٤٠ .

ويقول تعالى أيضاً :

﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان : هذا من شيعته ، وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ، فوكزه موسى فقضى عليه ، قال : هذا من عمل الشيطان ، إنه عدو مضل مبين ، قال : رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ، قال : رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ (٣٢) .

(ج) وفي هذا أيضاً حديث أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال :

« أرسل ملك الموت إلى موسى عليهما السلام ، فلما جاءه صكه ، فرجع إلى ربه فقال : أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت فرد الله عليه عينه ، وقال : ارجع فقل له : يضع يده على متن ثور ، فله بكل ما غطت به يده ، بكل شعرة سنة ، قال : أى رب ، ثم ، ماذا . قال : ثم الموت ، قال : فالآن ، فسأل الله أن يدينه من الأرض المقدسة رمية بحجر ، قال (أى أبى هريرة) : قال رسول الله — ﷺ — : فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق ، عند الكتيب الأحمر » (٣٣) .

فضربة تذهب بعين من وقعت عليه ، تدل على قوة ، وشدة ، وصدق الله سبحانه حيث قال :

﴿ ولما بلغ أشده واستوى ﴾ .

(٣٢) سورة القصص ، الآيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

(٣٣) متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان رقم ١٥٣٣ ص ٦٢٥ الكتاب والباب السابقان (متن البخارى ج ٤ ص ١٩١) .

وجاء بالهامش : أرسل ملك الموت : فى صورة آدمى اختبراً وابتلاءً ، صكه : أى لطمه على عينه التى ركبت فى الصورة البشرية التى جاء فيها ، دون الصورة الملكية فقفاها . متن ثور : أى ظهره ، أى رب ، ثم ماذا . أى ماذا يكون بعد هذه السنين ؟ ثم الموت : ثم يكون بعدها الموت ، رمية بحجر : أى دنوا ، لو رمى رام بحجر من ذلك الموضع الذى هو موضع قبره لوصل إلى بيت المقدس . ثم : هناك ، الكتيب الأحمر : الرمل المتجمع .

وأراد الله سبحانه أن يعطى موسى من القوة لتعوض ما افتقده القوم المستضعفون فكانت قوته تعويضاً لما افتقدوه في هذا الجانب .

(د) وقد ورد حديث يبين الصورة ، التي كان عليها جسمه المكتمل ، فعن ابن عباس — رضى الله عنهما — عن النبي — ﷺ — قال :
« رأيت ليلة أسرى لى موسى ، رجلاً آدم طَوَّالاً ، جعداً ، كأنه من رجال شنوءة .. » .

وفي حديث آخر عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — ليلة أسرى به :

« رأيت موسى ، وإذا رجل ضرب رجلَ كأنه من رجال شنوءة ... » (٣٤) .

ويدل الحديثان على ما كان عليه موسى — عليه السلام — من صفات الرجل القوى من طول وخفة لحم ، بالإضافة إلى صفات أخرى من لون البشرة ، وشكل الشعر ..

وتلك الأحاديث ما كانت إلا بياناً لقوله تعالى :

﴿ بلغ أشده ، واستوى ﴾ .

(هـ) وحين خرج من المدينة متجهاً إلى مدين ، خرج على ماء بالطريق ، ازدحم عليه الناس للدرجة ألا يستطيع الضعيف أن يسقى إبله وأغنامه ،

(٣٤) الحديثان متفق عليهما . اللؤلؤ والمرجان رقم ١٠٤ ، ١٠٦ ص ٣٨ ، ٣٩ ، وتكملة كل من الحديثين وصف لعيسى بن مريم ، وورد في تفسير المراجع بالهامش قوله : آدم : أسمر . الطوال (بضم الطاء) : الطويل . جعداً : جعد الشعر جعودة . إذا كان فيه التواء وتقبط فهو جعد ، وذلك خلاف المسترسل . شنوءة : أى فى طوله وسمرة ، وشنوءة : قبيلة من قحطان . ضرب : نحيف خفيف اللحم . رجل (بكسر الجيم) : أى مرجل الشعر . ويمكن الرجوع إلى متن البخارى أيضاً ج ٤ ص ١٨٦ كتاب الأنبياء .

وفي القوم فتاتان تمنعان أغنامهما ؛ حتى لا تختلط بأغنام القوم ، مخافة إيذاؤها فَرَّقَ موسى — عليه السلام — لحالهما .

وسأل موسى — عليه السلام — الفتاتين عن شأنهما .

وكانت إجابتهما حكيمة للدرجة كبيرة : فقد تضمنت :

التعبير عن ضعفهما ، وعدم قدرتهما في مشاركة القوم في أثناء سقيهم .

﴿ لا نسقى حتى يُصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير ﴾ (٣٥) .

وأُنهما مضطرتان إلى ذلك لأن أباهما شيخ كبير لا يقدر على المجيء، فهو إذن أشد منهما ضعفاً . وهما خرجتا لهذا العمل لمبرر قهري ، وهو ضعف الأب .

ويشير التعبير أيضاً إلى عدم وجود أخ كبير يعوض ما عليه الأب من ضعف والسياق يؤدي إلى ذلك .

وبمجموع هذه الأمور ، وغيرها من مشاهدات موسى — عليه السلام — قوى الدافع إلى المساعدة ، وقد سبق له أن ساعد رجلاً مظلوماً ، فأولى به والحال هكذا أن تلتقى المروءة والقوة ، والمساعدة عند ماء مدين ، وقد كان .

وبإضافة الموقف الثاني عند الأب ، وقول الفتاتين :

﴿ يا أبت استأجره ؛ إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾

يتبين لنا أن فيما عمله من سقى الأغنام قوة شاهدها الفتاتان دون تحديد ، وليس بمقبول أن يكون غطاء البئر صخرة لا ترفع إلا بعشرة رجال (٣٦) ،

(٣٥) سورة القصص ، الآية ٢٣ .

(٣٦) ومن الجائز أن يكون هذا صحيحاً فقد أورد ابن كثير عند تفسيره الآيات أثراً بإسناد صحيح رواه أبو بكر بن أبي شيبة عن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — أن موسى — عليه السلام — لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال فإذا هو بأمرأتين تنودان ، قال : ما خطبكما . فحدثاه ، فألقى الحجر فرفعه ، ثم لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم .

فالفتاتان قد جاءتا وحدهما ، وفي ظنهما أن يقوموا بهذا الأمر ، وإن كان في العمل معاناة لضعفهما ولكن يبقى الأصل الأول ، وهو أن الفتاتين رأتا من موسى — عليه السلام — قوة في مساعدته لهما دون تحديد والله أعلم ...

تطلب الرسالة اكتمال الجسم ، والعقل ، والسلوك السوى :

إن تلك المظاهر التي سبق الحديث عنها لازمة لكل رسول يتوجه إلى الناس بإبلاغ دعوة الله سبحانه وتعالى ، والآية الكريمة :

﴿ ولما بلغ أشده ، واستوى آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين ﴾ (٣٧) .

تؤكد هذا الأمر ، فإتياء الحكم ، والعلم ، مترتب على بلوغ الجسم أشده ، واستواءه . والاتزان النفسى ، والآية على هذا تكملة للصورة السابقة لها والتي نتحدث عن تربيته طفلاً ، ومعنى ذلك أن المراد بالحكم ، والعلم ، هنا النبوة ، وتكون الآية التالية التي نتحدث عن الرجلين المقتتلين ، نتحدث عن موقف جديد ، يسبق في الزمن إعطاء النبوة .

ويدفعنا إلى ذلك ما تحكيه الآيات الأخرى في شكل حوار بين فرعون وموسى — عليه السلام — يقول تعالى :

﴿ قال : ألم نربك فينا وليداً ، ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ، قال : فعلتها إذن وأنا من الضالين ، ففررت منكم لما خفتكم فوهد لى ربي حكماً وجعلنى من المرسلين ﴾ (٣٨) .

والشاهد في رد موسى — عليه السلام — على فرعون في الآيتين الأخيرتين ، فهو يتضمن أن ما حدث قبل الفرار وهو قتل الشخص خطأ كان قبل

(٣٧) سورة القصص ، الآية رقم ١٤ .

(٣٨) سورة الشعراء ، الآيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

النبوة والرسالة ، وتفسير الحكم بمعنى الوحي والنبوة ورد في القرآن الكريم في أكثر من موضع ؛ ففي الحديث عن يوسف — عليه السلام — قال تعالى :

﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ﴾ (٣٩) .

وفي الحديث عن لوط — عليه السلام — قال تعالى :

﴿ ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ﴾ (٤٠) .

وفي الحديث عن داود وسليمان عليهما السلام قال تعالى :

﴿ وكلا آتيناه حكماً وعلماً ﴾ (٤١) .

وارتبط الحكم بالقرآن الكريم حيث قال تعالى :

﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ﴾ (٤٢) .

وخلاصة هذا :

أن دخول المدينة على حين غفلة ، وفك الشجار بأسلوب معين من موسى — عليه السلام ، والذي أدى إلى قتل الرجل القبطي كان قبل تكليفه الرسالة ، وإن كان دليلاً على قوة الجسم واستوائه ، والله أعلم بالصواب .

قصة الرجلين المقتلين :

استكمالاً لما سبق في الحديث عن هذين الرجلين للاستدلال على قوة موسي الجسمية نقول هنا وبالله التوفيق :

حدث أن دخل موسي — عليه السلام — المدينة في وقت الناس فيه قد لزموا بيوتهم ، وهجعوا ، ويكون هذا مع بداية الليل ، ولأمر ما تصارع

(٣٩) سورة يوسف الآية رقم ٢٢ . (٤٠) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٧٤ .

(٤١) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٧٩ . (٤٢) سورة الرعد ، الآية رقم ٣٧ .

شخصان ، دون ثالث ، فالقوم قد تركوا الحركة ولزموا البيوت ، ولو كان بالمكان حركة ما كان يحدث أبداً أن يجرؤ أحد من بنى إسرائيل على أن يقف نداً لآخر قبلي ، فالأول من المستضعفين ، عكس الآخر ، ولو حدث أن فكر الإسرائيلي في رد ظلم واقع عليه سيجد أكثر من فرد يزيده ظملاً وضرباً ، ولكن أراد الله سبحانه أن يكون الأمر هكذا ، ويكون الفرد الثالث هو موسى — عليه السلام ، ولا رابع من البشر .

وفُرصة للإسرائيلي أن يستغيث بمن يظن فيه النخوة والمروءة ، والقوة ، كما هو واضح من موسى — عليه السلام — والتعبير بالاستغاثة يفيد أن بالإسرائيلي ضعفاً لا يُمكنه من دفع ظلم واقع عليه .

وكان من موسى — عليه السلام — التلبية الفورية للاستغاثة كما تفيد الفاء في قوله تعالى ﴿ فوكزه ﴾ ثم الأثر القاتل والسريع ﴿ ففضى عليه ﴾ .
وفي هذا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ (٤٣) .

وأحس موسى — عليه السلام — الخطأ من هذا الفعل ، وهو إعطاء التركيز قوة تجاوزت الغرض منها وهو فك القتال ، والتجاوز أدى إلى القتل ، فليس القتل في التركيز مطلقاً ، ولكن في مجاوزته الحد وزيادته قوة .
وترك هذا الخطأ جملة آثار نفسية ، واجتماعية ، وشغله في الحوار مع فرعون .

ومن هذه الآثار :

منها إحساسه أنه وقع فريسة للشيطان ، وقد صرح بذلك في قوله تعالى :

(٤٣) سورة القصص ، الآية رقم ١٥ .

﴿ قال : هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ﴾ (٤٤)

فاسم الفاعل ﴿ مضل ﴾ من أضل يدل على أن فاعل الإضلال هو الشيطان لعنة الله عليه ، ولا يمنع هذا التعبير في موقف آخر قال : ﴿ فعلتها إذن وأنا من الضالين ﴾ (٤٥) ، فاسم الفاعل ضال من ضل أى أخطأت طريق الصواب ، فاعله هو موسى — عليه السلام — لأنه قام بالفعل من حيث الواقع .
ومنها : إحساسه أنه ظلم نفسه بهذا العمل ، ويلزمه الاستغفار من هذا الذنب ، وقد لجأ إلى طلب المغفرة بالذلة لله سبحانه ، وتقديم الاعتراف بالذنب ، قال تعالى :

﴿ رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (٤٦) .

ومنها : الإفادة في المستقبل من هذه التجربة ، وأن هذه الإفادة غير منحصرة في مثل هذا الوقت فقط بل على مستوى أعرض وأطول .

﴿ قال : رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ (٤٧)
ومنها : تخوفه من فتك القوم به حين يعلمون .

فقد حدث في صباح اليوم التالى أن تكرر موقف الإسرائيل مع قبلى آخر ، بعدما عاهد موسى — عليه السلام — ربه ألا يكون ظهيراً للمجرمين ، فما كان من موسى — عليه السلام — إلا أن وجه للإسرائيل لوماً ، وكأنه دون إخوانه الإسرائيليين على جانب من الشغب . وتوهم الضعيف أن الوكزة هذه المرة له ، فأسرع بإفشاء سر الليلة السابقة ، وإن كان قد فك الشجار دون وكز ودون بطش فقد تابعت الآثار لما حدث سابقاً .

قال تعالى :

-
- (٤٤) سورة القصص ، الآية رقم ١٥ . (٤٥) سورة الشعراء ، الآية رقم ٢٠ .
(٤٦) سورة القصص ، الآية رقم ١٦ . (٤٧) سورة القصص ، الآية رقم ١٧ .

﴿ فأصبح في المدينة خائفاً يترقب فإذا الذي استصره بالأمس يستصرحه ، قال له موسى : إنك لغوى مبين ، فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال : يا موسى ، أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ (٤٨) .

وبالإضافة إلى هذا الفهم تدل الآيات أيضاً أنه قد شاع بين الناس وبخاصة الإسرائيليين أن موسى يدعو إلى الإصلاح بشكل عام ، شأن كل رسول قبل مبعثه بالرسالة .

وكان التناقض بين الدعوة إلى الخير ، والعمل في الواقع مدعاة للإنكار والتكذيب للدعاة .

ومنها : تأمر رؤساء القوم للانتقام للرجل المقتول الذي قتله موسى — عليه السلام — ولم يعلم موسى من القوم من يُسرِع إليه بالنصح وتجنب خطر القوم ، وذلك بالخروج من البلد بالكلية .

﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال : يا موسى إن الملاّ يَأْتِمِرُونَ بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين ﴾ (٤٩) .

الخروج من مصر إلى مدين :

واستجاب موسى — عليه السلام — لمن قدم له النصيحة ؛ لأنه وجد نفسه أمام أمرين لا ثالث لهما :

(١) الخروج من مصر ، والفرار من وجه القوم الذين يلاحقونه ، وقد كانوا من رؤسائهم وسادتهم وفي هذا يأمن على نفسه من جهة ، ولكنه سيُحرم من الوطن الذي ولد فيه ، وعاش ، وبه قومه وعشيرته .

(٤٩) سورة القصص ، الآية رقم ٢٠ . (٤٨) سورة القصص ، الآيتان ١٨ ، ١٩ .

(ب) الإقامة بالوطن ومواجهة القوة بالقوة ، وفي هذا علم حرمان من الوطن ولكن المخاطر ستظل تلاحقه ، فعليه أن يدبر أمرها .

ورضى موسى — عليه السلام — بالعمل الأول ، وفضله على الثانى ، لأن الإقامة بالوطن إذا ما تعارضت مع الاستمرار فى الإصلاح ، كان المرء مع الإصلاح أين كان ، وقد يكون فى مستقبل الأيام عودة ، وقد كان ، وقدمت هذه التجربة التاريخية للنبي الخاتم — ﷺ — فكانت هجرته إلى المدينة المنورة لنفس السبب ، ثم كانت العودة بفتح مكة ، وعلى الرغم مما لحق موسى من خوف ، وصار يتلفت حوله وقد صمم على الخروج من مصر ، والهجرة إلى أرض مدين فى سيناء .

فقد تضرع إلى ربه الكريم راجياً منه النجاة من القوم الظالمين ، فإن كان قد بذل من الأسباب المقنونة فهو يعلم علم اليقين بأن ربه سبحانه هو الذى سينجيه الآن ، كما أنجاه سابقاً .

وعبر موسى — عليه السلام — الحدود حتى دخل أرض سيناء إلى أرض مدين حول خليج العقبة ، والجزء الذى أقام به هو الذى بداخل الجزيرة فى سيناء لا الجزء المقابل داخل الجزيرة العربية ، والتى كان بها شعيب — عليه السلام — كما سبق آنفاً .

وحدث أن رأى فتاتين تذودان ، وقدم لهما المساعدة ، ﴿ ثم تولى إلى الظل فقال : رب إني لما أنزلت إلی من خير فقير ﴾ (٥٠) وبدأت الأمور تبتسم له ؛ فهذا ظل قد تفيأه ، وتلك الفرص قد أتيحت له بالمساعدة ؛ لأنها النافذة إلى قلوب الناس ، وهو بحاجة فى دعوته إلى القلوب أولاً .

وقد كان .

وكانت تلك الأسرة الطيبة أسرة شعيب — عليه السلام — وأى كسب أعظم ، وأكبر من كسب قلوب أسرة نبوية .

(٥٠) سورة القصص ، الآية رقم ٢٤ .

وها هي بوادرها ، فالفتاة ، أتت إليه ، تمشي على استياء وليست متبرجة
سافرة متبجحة ، ﴿ قالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ (٥١)
إنه لم يفعل ما فعل لقاء أجر ، ولكنه أسرع بالذهاب إلى الرجل الكبير ، ولهذا
طوت الآيات ما كان من رده على الفتاة ، وتنقلنا مباشرة إلى بيت الشيخ الكبير ،
يحكى قصته ، وقد آنس فيه ، وفي أهل بيته الراحة ، والاطمئنان .

﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص قال : لا تخف نجوت من القوم
الظالمين ﴾ (٥٢) .

وأشارت إحدى الفتاتين على الوالد بأن يستأجر هذا الرجل ، وذلك اقتراح
يكمل الفهم للفتاة ، فهي على استحياء حين تمشي ، وهي تقدم النصيح ، وتبرهن
على اقتراحها ؛ فالرجل قوى أمين ، فمن صفات العامل الأساسية :

(أ) القوة الجسمية التي تمكن من أداء العمل .

(ب) الأمانة وهي هنا لها جهتان :

— أمانة على الأموال التي ستكون في حوزته .

— وأمانة على الفتاتين فلا يفكر فيما يخذش الحياء .

وقد لمست الفتاتان تلك الجوانب :

— فالقوة قد ظهرت في سقيه الأغنام كما اتضح من الأثر الذي رواه
ابن أبى شيبة السابق بالهامش .

— والأمانة على الأموال تظهر من عدم طلبه أجراً لقاء ما قدم من
مساعدة .

— والأمانة على الأهل فهمتها الفتاتان من تصرفه معهما ، ودل عليه
ما سبق من حديث مسلم أن موسى كان رجلاً حياً ، وما رواه كل من البخاري

(٥١) سورة القصص ، الآية رقم ٢٥ . (٥٢) سورة القصص ، الآية رقم ٢٥ .

ومسلم من أنه لم يكن يغتسل عرياناً كعادة قومه ، فرجل على هذا الحياء ، وهذا التصرف كفيل بأن يرضى شيخاً كبيراً بإقامته أجيراً عنده حرصاً على بناته ، وإبقاءً على حياته .

ولكن استجابة الشيخ الكبير كانت أبعد من الاقتراح فقد طلب إليه أن يستمر أجيراً عنده ثمانى حجج أو عشر حجج نظير أن يزوجه إحدى البنتين ، ولعلها التي قدمت اقتراح الاستعجار .

وشاء الله تعالى أن تكون صفات زوجة النبی موسى — عليه السلام ، قد جمعت سلفاً ، من براءة السلوك وسلامة التفكير ، والاستدلال على الرأى ، فهي ستسهم في سير الدعوة إلى الله تعالى مع الزوج الكريم .

وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا : يَا أَبْتَ اسْتَأْجِرْهُ ؛ إِنْ خَيْرٍ مِنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينَ ، قَالَ إِنْى أَرِيدُ أَنْ أَنْكُحَكَ إِحْدَى ابْنَتَى هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرْنِى ثَمَانِي حَجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ، وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ، قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ، وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (٥٣) .

وقد قضى موسى — عليه السلام — الأجل الأكبر (٥٤) وفاءً منه ، ورحم الله رجلاً سمحاً ، إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى .

(٥٣) سورة القصص ، الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

(٥٤) ذكر ابن كثير أثراً عن البخارى عن طريق سعيد بن جبير ، وقد سأل ابن عباس فأجابه بهذا .

دروس وعبر :

— كان الاقتصاد المصرى آنذاك يعتمد فى الدرجة الأولى على الإنتاج الزراعى والحيوانى ، وكانت مصر مركزاً لتوزيع الثروات الزراعية ، والتحكم بشأن الكثير من بلدان الأطراف .

— إن الإشراف على المرافق المهمة للدولة كمرفق التموين ، وتوزيع الأرزاق مطلب من يريد إصلاح الأمة ، ولا يصح له أن يتراجع عن مثل هذه المناصب إلا إذا كان فى قبولها تضییع لما هو أهم .

— إن ترك هذه المرافق فى أيدي العابثين من الأمة يضيع الفائدة المرجوة منها ، فبدل أن تكون سبباً للأمن والرخاء تكون سبباً لإثراء طائفة على حساب الطوائف الأخرى ، وامتصاص دماء الشعوب .

— إن الحلقة الأولى التى يبدؤها الطاغية تجويع الشعب بالتدريج ؛ حتى يلهث وتمتد الأيدي بالضراعة إلى محتكرى الأقوات ، وتكون الفرصة لما يأتى من حلقات الإذلال للشعب .

كما سُمع فى الستينيات مسئول كبير يقول على الهواء مباشرة :

[إننا سنرفع أسعار المواد الغذائية والسلع بشكل عام ، فتمتص بالتدريج النقود التى بأيدي الناس ، فلا يجدون مالاً يشترون به ما يحتاجون فتوفر السلع فنصدرها إلى العالم الخارجى لنحصل على عملة صعبة] .

— امتلاك مصادر الثروة مسعى وغاية للطاغية ، وقد يعلن تبرير ذلك فى البداية ، ويدخل على البسطاء من الأمة ، ولكن على الداعية أن يفقه خطورة هذا التحكم .

— الذى ينعم فى ظل الجاهلية هو من يقدم فروض الولاء والطاعة لفرعون ﴿ أَتَن لَّنَا لِأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ، قَالَ : نَعَمْ وَإِنكُمْ إِذَا لَمُنْ

المقربين ﴿٥٥﴾ .

— بمرور الأيام على احتكار الطاغية للخيرات يظن هو كما يظن الأفراد الكثيرون أن هذا حق له ، ويزعم قائلاً :

﴿ أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتى أفلا تبصرون ﴾ (٥٦) .

— التفكير الحر سمة من سمات المجتمع الصالح ، وهو سبيل لمنع أى إنسان يريد الإفساد فى الأرض .

— مقياس الناس بمقياس امتلاك المال والغنى ، ميزان فرعونى ينكره الإسلام .

— الحرمان من التفكير الحر هو السبيل الثانى لإذلال الشعوب ، ويوطد للظلم والطغيان .

— إلباس الحرمان من التفكير الحر ثوب الوحدة فى الرأى صورة من صور التزييف الجاهلى .

— من السهل على الطاغية ، وقد جوع الشعب وحرمه التفكير أن يزعم الألوهية حيث يقول : ﴿ ما أرىكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ وتزعم بطانته أن رأيه هو الأصوب .

وكما حدث عند تغيير حكم فى إحدى البلاد أن سأل طاغية جديد نائين له فتخوف كل منهما أن يرى رأياً مخالفاً لما سيراه ، فاتفقاً على أن قالا :

[اخل إلى نفسك وإلهام العبقريه سيهديك إلى الأصوب ونحن نتبعك على كل حال] .

— دور المنافقين فى الفساد الموافقة على ظلم الأمة ، ثم يعلنون على الناس أنهم مصلحون .

﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن

(٥٥) سورة الشعراء ، الآيات رقم ٤١ ، ٤٢ . (٥٦) سورة الزخرف ، الآية رقم ٥١

مصلحون ﴿ (٥٧) .

بل إن خطورتهم تتعدى هذا أيضاً فيصرون المصلحين بأنهم يفسدون في الأرض .

﴿ أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ؟ ﴾ (٥٨) .

ومن الوسائل لتمكّن الظالم أيضاً بث الفرقة بين الناس .

﴿ وجعل أهلها شيعاً ﴾ .

— وعلى الداعية أن يقطن لمسعى الجاهلية من أول الطريق فمعظم النار من مستصغر الشرر .

— ذروة المرحلة للظالم قتل المخالف في الرأي ، أو من يظن في المستقبل أن يخالفه الرأي ، وربما يصل إلى ذبح الأطفال لأحد سببين :

١ - تخويف الكبار ، كما حدث بذبح تلاميذ مدرسة ابتدائية وتلميذاتها جميعاً كما حدث في دير ياسين ١٩٤٨/٤/٩ م .

٢ - وإما لتوقع أن يكبر منهم شخص يظن منه المعارضة ﴿ يستضعف طائفة منهم يُذبح أبناءهم ﴾ (٥٩) .

وكما حدث من قتل الكبار للتصفية الجسدية لكل معارض .

فقد أُعدم ألف شخص في ساعات بالرصاص .

وكما قذف بعشرات الشباب إغراقاً عند كوبرى عباس ١٩٤٦/٢/٩ م .

وكما دفن من ماتوا تحت التعذيب في الرمال تحت بند هارب .

وكما تمت إبادة الآلاف في صبرا ، و شاتيلا ، عام ١٩٨٢ .

(٥٧) سورة البقرة ، الآية رقم ١١ . (٥٨) سورة الأعراف الآية رقم ١٢٧ .

(٥٩) سورة القصص ، الآية رقم ٤ .

— على الداعية أن يعتقد أن الظلم مهما اشتدت وطأته وظلمته سيزول بأمر الله على أيدي بشر وتكون الخلافة للحق كما حدث لبني إسرائيل حين انتصر موسى وقومه على فرعون .

— إن الله إذا أراد شيئاً جند لنصره الجنود ، حتى ولو كان هؤلاء الجنود من أعتى الطغاة ، ومن كان يظن أن فرعون يقوم بتربية موسى .

— ربما يأتي الخير مما يُتصور أنه شر في البداية :

فأم موسى ألفت بطفلها في البحر تنفيذاً لوحى من الله .

ومحمد عليه الصلاة والسلام قبل في صلح الحديبية أن يحو كلمة رسول الله أمام اعتراض سهيل بن عمرو وقبل رد من يسلم من المشركين ، على عكس قريش لا ترد من يكفر من المسلمين .

— قد يفتقد بعض المسلمين بُعد النظر كما قيل علام تُعطي الدنية في ديننا ؟ ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ ولكن أبا بكر رضى الله عنه قال : إنه رسول الله ﷺ .

— وكما جند الله فرعون لخدمة الطفل موسى — عليه السلام — رقق قلب الزوجة فكانت نعم المربية ﴿ وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك ﴾ (٦٠)

— على الداعية أن يأخذ من سيرة الأخت مثلاً .

إن أخت موسى — عليه السلام — ضربت مثلاً طيباً في أسلوب الاستخبارات :

الاقتراب من مكان الحادث .

عدم إشعار الخصم بالمهمة ، ثم الوصول إلى الغاية .

التمعية على الخصم بالإسهام في حل المشكلة .

(٦٠) سورة القصص ، الآية رقم ٩ .

— على المرء أن يعتقد أن الله يكلف الأصحاء الأقوياء الأذكياء ذوى العفة والمروعة برسائله . كما كان موسى — عليه السلام — ، وأن الله سبحانه يبرئه من أى عيب يחדش هذا .
— مقياس التفاضل بين العمال أمران :

١ - القوة بجميع جوانبها .

٢ - الأمانة بجميع علاماتها .

إن بنت شيخ مدين هُديت وقدمت نصيحة لأبيها « إن خير من استأجرت القوى الأمين » ، على هذا الأساس ، ولم يمنعها الحياء عن النصيحة فى الحق .
— عزة الداعية فى الخشية من الله سبحانه ، وعدم الخوف من الناس ، وإن طلب إليه الحذر منهم .

— التفاوت بين الطبقات من سمات المجتمع المصرى آنذاك وشجع ذلك الطاغية فرعون ليستقر فى سلطانه .. فالفرقة لا تكون قوة .

— تقديم النصيحة للمؤمن حرصاً على حياته واجب دينى ﴿ فاخرج إلى لك من الناصحين ﴾ والاستجابة للناصح مطلوبة ، وإلا فالتعرض للفتنة غير مطلوبة شرعاً [اللهم لا تفتنا فى ديننا ولا تجعل مصيبتنا فى أنفسنا] .

على الأب أن يختار لابنته من كان على دين وأمانة ويؤدى واجب الزوجية .
ومنطوق الحديث النبوى فافظر بذات الدين تربت يداك ^(٦١) يدل على اختيار الزوجة الصالحة ومفهومه أيضاً يدل على اختيار الزوج الصالح .

(٦١) جزء من حديث أخرجه الشيخان ، وغيرهما .

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال :

« تُنكح المرأة لأربع : لجمالها ، ولحسبها ، ولدينها ، فافظر بذات الدين تربت يداك » البخارى ج ٧ ص ٩ كتاب النكاح ، باب الأكماء فى الدين . ومختصر مسلم ج ١ ص ٢٠٧ كتاب النكاح ، باب فى نكاح ذات الدين رقم ٧٩٨ . مع تغيير لفظ « ولجمالها » ، وعزاه صاحب مفتاح كنوز السنة إلى أبى داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، والدارمى ، وأحمد .

— موسى وهارون — عليهما السلام — المرسلان إلى فرعون

- عبر سيناء في طريق العودة .
- التكليف بالرسالة ، والبراهين على صدق الدعوة .
- الآيات الدالة على صدق دعوة موسى — عليه السلام .
- سؤال موسى ربه .
- لمن أرسل موسى وهارون — عليهما السلام ؟
- من فضائل الخضر — عليه السلام .
- وتعلم موسى — عليه السلام — منه .
- الذهاب إلى فرعون بمصر .
- اللقاء بفرعون .
- حوار حول العقيدة .
- دور المعجزة في الدعوة .
- دروس وعبر .

عبر سيناء في طريق العودة :

وفي طريق العودة إلى مصر بهدف رؤية الأهل ، والوطن ، يُعدل هذا الهدف بتكليف من السماء ، صار الهدف الجديد هو مواجهة فرعون نفسه منكراً عليه زعمه الألوهية ، وداعياً له ولقومه على اختلافهم إلى عبادة الله وحده ، وطالما أن التكليف من الله سبحانه الذي رعاه ، وحماه منذ ولادته فعليه أن يذعن للأمر ويقوم بالرسالة على خير وجه .

فمتى كان هذا التكليف ؟

اتجه موسى — عليه السلام — بأهله نحو مصر عابراً سيناء ، الجو بارد ، والليل دامس ، والمكان جزء من الوادي الأيمن في بقعة مباركة على شاطئ خليج العقبة الشرقى قريباً من ديار مدين ، وحيث الشجرة هناك والطور ، وتكون الحاجة ملحة لأمرين :

(أ) الاستفسار عن الطريق الصحيح .

(ب) إحضار جنوة يستدفئ هو وأهله بها .

واتجه موسى — عا

الهدف الأسمى : نداء الله

والرسالة .

وقد تناولت الآيات القرآنية هذا الموقف في أكثر من موضع في سور
مكية .

فمغادرته إلى مصر يُفهم من قوله تعالى :

﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور
ناراً ﴾ (١) .

(١) سورة القصص الآية ٢٩

- ومروره بسيناء يُفهم من قوله : ﴿ من جانب الطور ﴾ (٢) .
- وبرودة الجو مما يدل على فصل الشتاء يُفهم من :
- ﴿ جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ (٣)
- و ﴿ لعل آتاكم منها بقبس ﴾ (٤)
- و ﴿ آتاكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ (٥)
- والوقت ليل يُفهم من قوله تعالى : جذوة ، قبس ، وشهاب .
- وشاطئ الخليج الشرق لسيناء من قوله : ﴿ الوادى الأيمن ﴾ (٦)
- والاستفسار عن الطريق ، من قوله :
- ﴿ لعل آتاكم منها بخبر ﴾ (٧)
- و ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ (٨)
- و ﴿ سأتيكم منها بخبر ﴾ (٩)
- وفى بقعة مباركة ووصف الشجرة من قوله :
- ﴿ فى البقعة المباركة من الشجرة ﴾ (١٠)
- و ﴿ أن بُورك من فى النار ومن حولها ﴾ (١١)
- و ﴿ بالوادى المقدس ﴾ (١٢)

-
- (٢) سورة القصص الآية ٢٩
- (٣) سورة القصص الآية ٢٩ (٤) سورة طه الآية ١٠
- (٥) سورة النمل الآية ٧ (٦) سورة القصص الآية ٣٠
- (٧) سورة القصص الآية ٢٩ (٨) سورة طه الآية ١٠
- (٩) سورة النمل الآية ٧ (١٠) سورة القصص الآية ٣٠
- (١١) سورة النمل الآية ٨ (١٢) سورة طه الآية ١٢

والنداء من الله سبحانه يُفهم من :

﴿ أن يا موسى ، إني أنا الله رب العالمين ﴾ (١٣)

و ﴿ يا موسى ، إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ (١٤)

و ﴿ وأنا اخترتك فاستمع لما يُوحى ﴾ (١٥)

والقرب من الطور يُفهم من :

﴿ من جانب الطور ﴾ (١٦)

وهكذا يعطينا القرآن الكريم تحديدات واضحة للموقف .

التكليف بالرسالة ، والبراهين على صدق الدعوة :

وأصاخ موسى — عليه السلام — للنداء ووعاه تماماً :

﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾

﴿ يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴾

﴿ إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يُوحى ، إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ، إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾ (١٧)

وكان النداء تكليفاً ، ثم كانت براهين ومعجزات منذ اللحظة الأولى .

أُعْلِمَ الله سبحانه موسى — عليه السلام — حين ناداه بالوادى المقدس في طور سيناء جملة أمور :

(١٣) سورة القصص الآية ٣٠ (١٤) سورة النمل الآية ٩

(١٥) سورة طه الآية ١٣ (١٦) سورة القصص الآية ٢٩

(١٧) سورة طه الآيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦

- ١ - أنه قد اختاره نبياً ﴿ وأنا اخترتك ﴾
- ٢ - وأن وحياً سينزل عليه من السماء .
- ٣ - وأن عليه أن يستمع لهذا الوحي ﴿ فاستمع لما يُوحى ﴾ .
- ٤ - أن الله إله واحد ، ولا إله إلا هو ﴿ إني أنا الله لا إله إلا أنا ﴾ .
- ٥ - وعليه أن يتوجه إليه وحده بالعبادة ، وإقامة الصلاة ﴿ فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ .
- ٦ - وأن الحياة الدنيا ستنتهى حتماً .
- ٧ - وأن يوم القيامة آت .
- وأن كل نفس تُجْزَى في الآخرة على ما عملته ، وقدمته في الدنيا ﴿ إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ .
- ٩ - وعليه أن يثبت على دعوة الحق ، ولا يؤثر فيه من كفر بالله سبحانه .
- ١٠ - وأن من كفر متبع للهوى ، والغايات الشخصية .
- ١١ - وأن الراض لمنهج الحق سيهلك حتماً بالآخرة ، وقد يعجل الله له جزءاً من العذاب في الدنيا ﴿ فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها ، واتبع هواه فتردى ﴾ .
- ١٢ - وأن الله سبحانه يحذر نبيه من النكوص عن منهج الدعوة .
- وتلك عقيدة التوحيد ، وتشريع موحى به من الله سبحانه ، وحياة تقوم على أساس من هذا التشريع عبادة وتحملاً للمسئولية ، ونبذاً للكفر وأوليائه ، وصموداً أمام جنوده وأتباعه ، وثباتاً على الحق الذي يجب أن يكون في كل أمور الحياة .

ولكن أُنّي للكفر أن يستمع للمنطق ، ويترك الهوى والشيطان ، فكانت الآيات المادية يظهرها الله سبحانه على أيدي رسله — عليهم الصلاة والسلام — دليل على صدق دعواهم .

الآيات الدالة على صدق دعوة موسى — عليه السلام :

١ - العصا :

إنها عصا عادية ليس فيها من حيث أصلها ما يُخالف غيرها من العصي ، والعصا تُتخذ للمرء يتوكأ عليها وهو يسير ، وتعينه على جمع غنمه ، وهو يرعى ، ويدفع الأذى العادى بها عن نفسه إذا ما تعرض إليه .

وأراد الله سبحانه أن يُظهر لموسى — عليه السلام — أن عصاه على هذه الصفات ، قبل أن يكون ما يكون ، وعلى موسى — عليه السلام — أن يُراجع عصاه ؛ ليتأكد من هذه الصفات ، ونلمح هذا من السؤال والجواب التاليين :

سأله الله تعالى ، قائلاً : ﴿ وما تلك يمينك يا موسى ؟ ﴾ .

وكانت إجابته : ﴿ قال : هي عصاى أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمى ﴾ (١٨) ، ولى فيها مآرب أخرى ﴿ (١٩) .

ثم قال الله سبحانه لنبيه موسى — عليه السلام — أن يلقى عصاه على

(١٩) سورة طه الآيات رقم ١٧ ، ١٨

(١٨) وفى ذلك ما روى عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال : كنا مع رسول الله - ﷺ - (بمر الظهران) نجنى الكَبَاثَ (وهو النضيج من ثمر الأراك) وأن رسول الله - ﷺ - قال : « عليكم بالأسود منه (زاد البخارى : فإنه أطيبه) قالوا : أكننت ترعى الغنم ؟ قال : وهل من نبي إلا وقد رعاها » رواه الشيخان ، مختصر مسلم رقم ١٣٢١ ج ٢ ص ١١٤ كتاب الأطعمة باب الكبَاث الأسود ، البخارى كتاب الأنبياء ج ٤ ص ١٩١ .

الأرض ، فألقاها ممثلاً أمر ربه سبحانه فإذا هي حية تسعى وتهتز كالجان .
وعلى الرغم من يقينه بربه سبحانه ، فهول المفاجأة الأولى كان له تأثير في نفسه فقد ولى مدبراً دون أن ينظر ثانية إلى العصا الحية ، وكان الأمر الصريح الواضح بالإقبال إلى عصاه وتناولها من جديد ثم النهى عن الخوف ، وإثبات أن الأمن والأمان للمرسلين ، وكان امتثال النبي الكريم ، وعادت العصا إلى سيرتها الأولى .

وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ قال : ألقها يا موسى ، فألقاها فإذا هي حية تسعى ، قال : خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ (٢٠) .

وقال : ﴿ وأن ألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب ، يا موسى ، أقبل ، ولا تخف إنك من الآمنين ﴾ (٢١) .

وقال : ﴿ وألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ، ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدى المرسلون ﴾ (٢٢) .

وزال الخوف الذى عرض لموسى — عليه السلام — لتكون التجربة الثانية أمام فرعون بعيدة عنه .

وكانت معجزة العصا فى مقدمة معجزاته ؛ لتواجه ما كان عليه القوم من سحر لا يغير من طبيعة الأشياء ويقف عند حد التخيل والمكر ، وخداع الأنظار . كما سيأتى .

(٢٠) سورة طه الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١

(٢١) سورة القصص الآية ٣١

(٢٢) سورة النمل الآية ١٠

٢ - اليد :

مهدت معجزة العصا السابقة لمعجزة أخرى ، وهى اليد ، فلم تسبقها مراجعة كما سبق للمعجزة الأولى .

فقد أمر الله سبحانه بأن يدخل يده فى جيبه (والجيب هو فتحة الصدر من الثوب) فإذا ما أخرجها ثانية ظهرت بيضاء تلفت الانتباه ، دون سبب ماضى اعتاده البشر ، وهذا البياض الذى ظهر باليد لم يسيء إليها فالذى وهبها هذا البياض هو الذى خلقها ، وخلق صاحبها ، وخلق الناس أجمعين .

ولأمر أرواده الله سبحانه كانت معجزة اليد هى الثانية بعد معجزة العصا ، ولو كانت الأولى فهول المفاجأة يكون أعنف لأن اليد لا يستطيع أن يفر منها .
قال الله تعالى :

﴿ اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ (٢٣) .

وقال : ﴿ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه ﴾ (٢٤) .

وقال : ﴿ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ﴾ (٢٥) .

وهاتان الآيتان مصاحبتان لموسى — عليه السلام ، ويواجه بهما ما عليه القوم من سحر .

والآيات القادمة ، تتصل بفرعون وآله عقوبة وانتقاماً .

٣ - ذكر الله سبحانه فى موضعين من القرآن الكريم أن الآيات التالية

(٢٣) سورة القصص الآية ٣٢

(٢٤) سورة النمل الآية ١٢ . (٢٥) سورة طه الآية ٢٢

على صدق دعوة موسى — عليه السلام — تسع فقد قال في آية النمل السابقة ﴿ في تسع آيات إلى فرعون وقومه ﴾ وقال أيضاً : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ (٢٦) ولكن حصر هذه الآيات جاء في موضع ثالث فبعد الحديث عن الآيتين السابقتين في سورة الأعراف ، وما كان بشأنهما في مواجهة القوم ، بدأ بقية الآيات بما يفيد الغاية من السبع الباقية وهي الاختبار ، والابتلاء فقال :

﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ، ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ (٢٧) وقال : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل ، والضفادع والدم آيات مفصلات ﴾ (٢٨) .

فالآيتان : السنين وهي الجذب وقحط الأرض ، ونقص الثمرات كانتا بعد التمرد على آيتي العصا واليد ، وتصورهم الخاطيء أن موسى يفسد في الأرض . فأخذهم الله سبحانه من جنس ما زعموا لعلهم يذكرون .

والآيات الخمس الباقية كانت رداً عليهم حين جدد تصور خاطيء فإذا ما كانت نعمة نسبوها إليهم ، وإذا ما كانت مصيبة ردوا سببها إلى موسى — عليه السلام — تطيراً وتشاؤماً ثم إصرارهم على الكفر والعناد وعدم الإيمان بموسى . والآيات الخمس هي : إرسال الطوفان ، والجراد ، والقمل والضفادع ، والدم .

فكانت الأمطار الغزيرة المتلفة للزروع .

وكان الجراد على غير المعهود منه فهو يمثل في ذاته طعاماً للإنسان ، ولكنه هنا أكل ما يأكله الإنسان فكان عذاباً عليهم .

وكان القمل وهو في ذاته أذى ، والآية تؤكد ذلك ، وتشير إلى أن تركه بعدم النظافة مخالف لما أمر الله به من النظافة والطهارة .

(٢٦) سورة الإسراء الآية ١٠١ (٢٧) سورة الأعراف الآية ١٣٠
(٢٨) سورة الأعراف الآية ١٣٣

وكانت الضفادع التي مثلت بكثرتها أذى وعذاباً على قوم فرعون .
 وكان الدم ، وهو لسيولته يشير إلى اختلاطه بما هو سائل من ماء
 يشربونه ، أو أكل يطعمونه .
 فهل كانت هذه الآيات على تنوعها مجال تصديق من فرعون وقومه ؟ لا .
 وقد رتبها الله سبحانه على هذا النحو ، ولم تكن آيات الأخذ والإرسال
 إلا بعد أن جعلوا بآيتي العصا واليد .
 وهى أيضاً من حيث الزمن على هذا الترتيب فآيتا العصا ، واليد بدأت مع
 اختيار موسى — عليه السلام — نبياً ، ورسولاً ، وهو بالوادي المقدس في طور
 سيناء ، والآيات الباقية كانت بمصر حيث المكان والناس .
 وكلف الله سبحانه موسى — عليه السلام — الذهاب إلى فرعون مصر
 بالأولين العصا واليد . والله أعلم .

سؤال موسى ربه :

اتجه موسى — عليه السلام — بعد تكليفه الرسالة والدعوة إلى ربه فسأله
 وطلب إليه ، وتمنى أموراً تساعد وتعينه في دعوته للناس .
 قال الله تعالى في ذلك :

﴿ قال : رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، واحلل عقدة من
 لساني يفقهوا قولي ، واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ، اشدد به أزري
 وأشركه في أمري ، كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا
 بصيراً ﴾ (٢٩) .

ما طلبه موسى — عليه السلام — هنا ، يعتبر من قبيل الأمور الطبيعية

(٢٩) سورة طه الآيات ٢٥ - ٣٥ .

المساعدة له ، أما ما أُعْطِيَ له من ربه من آتَى العصا ، واليد ، فمن قبيل المعجزة ، وإعطاء الله سبحانه يدل على أنه الخالق للأشياء جميعها .

ومع كل سؤال طلبه موسى — عليه السلام — يَبَيِّنُ الغاية منه ، مما يدل على حرصه على بلوغ الدعوة مبلغها ، منذ تكليفه إياها .

المطلب الأول : شرح الصدر .

إن الأساس الذي يركز عليه نجاح الداعية في دعوته أن يكون صدره مستريحاً ومطمئناً لدعوته ، يحبها ، ويبدل الكثير من أجلها ، على الرغم من العقبات التي تقف حاجزاً في سبيل إنجاحها ، وإلا فأى كسب يتحقق لدعوة جوفاء لا تلتصق بنوايا القلب ، وراحته .

المطلب الثاني : تيسير الأسباب .

إن مداخل النفوس ببذل الأسباب بعد دراستها ، مظنة الإجابة ، وإلا فكيف تستجيب القلوب الغلاظ إذا واجهتها بما لا تعرف ؟ بالإضافة إلى جِدَّةِ الدعوة .

وتيسير الأمور من الله سبحانه وتعالى ، ولذا طلب إلى ربه أن ييسر له الأسباب بشكل عام ، وما طلبه سابقاً ولاحقاً هو من تيسير الأسباب أيضاً .

المطلب الثالث : طلاقة اللسان .

إذا ما كان الداعية فصيح اللسان ، واضح اللفظ والعبارة ، فقه الناس قوله دون معاناة ، وهذا يدل من جهة على اختيار الأكفء في الحديث لدعوة الناس حتى تؤتي الدعوة ثمارها ، وتنكير عقدة في قوله عقدة من لسان يدل على أنه طلب ما تكون به الحجة أبلغ فقط .

المطلب الرابع : الاستعانة بهارون — عليه السلام .

في المطلبين الأول والثاني لم تُذكر العلة لوضوحها ، فشرح الصدر ،
وتيسير الله الأمر لازمان لكل الحمل يُرتجى منه النجاح ، وفي المطلبين الثالث ،
والرابع يَبَيِّنُ العلة ، فحل عقدة اللسان لمزيد من الفقه والفهم من المخاطب ،
والاستعانة بالبشر — شريطة أن يصحبها إيمان بتوفيق الله سبحانه — لمزيد من
النجاح في الدعوة .

وفي هذا المطلب أمران :

تحديده وتعليله .

وحدد مطلبه بقوله : ﴿ واجعل لى وزيراً من أهلى ، هارون أخى ﴾ .
فقد توجه إلى الله سبحانه بقوله : ﴿ واجعل ﴾ ، فالذى يدبر الأمور هو
خالق الأمور وهو الله سبحانه .

وحدد أيضاً أن يكون له معيناً في الذهاب إلى فرعون كما قال : ﴿ لى ﴾
والإعانة في درجة المشاركة والتبعية لأن التكليف أصلاً لموسى — عليه السلام ،
ولا يليق به إلا أن يتحمل معاناة أكثر ، وحدد الشخص حين قال :
﴿ هارون أخى ﴾ فليس أى هارون ، ولكنه هارون الأخ .

وتعليله : وإن فهمَ ضمناً من السابق ، فقد صرح به بعد :

﴿ اشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى ، كى نسبحك كثيراً ،
ونذكرك كثيراً ﴾ .

وامتداد التعليل على هذا النمط يعطينا تلك المودة التى أحسها موسى من
ربه سبحانه ، وهو الذى كان قد بدأ الخطاب بالخوف حين انقلبت العصا حية ،
وها هو الآن قد اطمأن جانبه إلى العزيز الغفار ، البصير بعباده ﴿ إنك كنت بنا
بصيراً ﴾ كنت بنا ، لا كنت لى ؛ فالموقف يدعو إلى ذلك ، وكأنه يستذكر
تلك الأحداث الفائتة له ولأسرته ، ولجميع بنى إسرائيل .

والتعليل يتضمن أربعة جوانب جاءت في صيغة الرجاء :

- شد الأزر بهارون — عليه السلام .
- المشاركة في أمره ، وليس من أمر هنا إلا الرسالة ، وترشح هذا الآيات اللاحقة ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى ، اذهب إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ... ﴾ (٣٠) .
- والهدف الأسمى تحقيق معنى العبودية للإله الواحد ، وتنزيهه عن الشريك ؛ ﴿ كى نسبحك كثيراً ﴾ .
- ثم الذكر في كل مكان وزمان سراً ، وعلانية ، بيننا ، وبين أنفسنا ، وأمام من طغى وتجبّر ؛ صدعاً بقول الحق .
- وكانت الإجابة سريعة وفي عبارة وجيزة ، ﴿ قال : قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ ولتعلم يا موسى أن الله قد منّ عليك بنعمه السابقة منذ أن ولدت ، كما تذكر الآيات اللاحقة ﴿ ولقد منّنا عليك مرة أخرى ... ﴾ .
- وقال أيضاً :
- ﴿ وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً يصدقنى إني أخاف أن يكذبون ﴾ (٣١) .
- وقد لبي الله طلبه فقال :
- ﴿ قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ (٣٢) .
- وقال : ﴿ قال : قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ (٣٣) .

(٣٠) سورة طه الآية ٤٢ وما بعدها (٣١) سورة القصص الآية ٣٤
(٣٢) سورة القصص الآية ٣٥ (٣٣) سورة طه الآية ٣٦

فالغاية المرادة فقه الدعوة ، فهل يتأتى ذلك بغير فصاحة الداعية .

إن موسى — عليه السلام — يزن نفسه بميزان دقيق ، لا يحاى نفسه ، وحاشاه عن المحابة ، فإذا ما كان به من عيب ، فليقرع باب الرجاء لمولاه الكريم ، الذى لا يرد من يلجأ إليه ، فإن كان بلسانه من عقدة فعليه أن يطلب حلها .

المطلب الخامس : وزارة هارون — عليه السلام .

ويختتم موسى — عليه السلام — سؤاله ربه سبحانه ببيان صفات من يرافقه فى مسيرة الدعوة إلى الله سبحانه وهو هنا هارون — عليه السلام .
إنه بمثابة الوزير لى أستاذه ، وأسأله (٣٤) .

(٣٤) وقد حدث فى غزوة تبوك أن خلف النبى — ﷺ — على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فقال : يا رسول الله ، تخلفنى فى النساء والصبيان . فقال : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى — غير أنه لا نبى بعدى ؟ » رواه مسلم عن سعد بن أبى وقاص — رضى الله عنه — ، مختصر مسلم ج ٢ ص ١٩٤ رقم ١٦٣٩ باب فى فضائل على — رضى الله عنه .

ويدل الحديث على تلك العلاقة التى أسس عليها موسى سؤاله من شد الأزر ، والتقوى ، والوزارة فى حياته دون انتقاص للآخرين ، ودون امتداد لها بعد حياته فى صورة وراثته ، ونبوة ، ثم الموقف الذى سبق فيه الحديث ، وتكليفه جندياً مأموراً ، بأن يكون على الثغرة الداخلية بالمدينة ، وتطبيب خاطر الذى تكرر فى كثير من المواقف مع كثير من الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين .

ويرد سؤال هنا : ما مقدار صحة الاستعانة بغير الله سبحانه ؟ ومتى تكون ؟

طلب موسى — عليه السلام — إلى ربه الاستعانة بهارون كما سبق ، وقد روى الترمذى حديثاً : وقال : حديث حسن صحيح : عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : كنت خلف النبى — ﷺ — يوماً فقال :

« يا غلام ، إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله . وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن =

= ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف .

الأربعون النووية وشرحها للإمام النووي ، الحديث التاسع عشر ، نشر قصي الدين الخطيب . قال النووي في شرحه لهذا الحديث :

قوله - ﷺ - « إذا سألت فاسأل الله » إشارة إلى أن العبد لا ينبغي له أن يعلق سره بغير الله ، بل يتوكل عليه في كل أموره ، ثم إن كانت الحاجة التي يسألها لم تجر العادة بجريانها على أيدي خلقه كطلب الهداية ، والعلم ، والفهم في القرآن والسنة وشفاء المرض وحصول العافية من بلاء الدنيا ، وعذاب الآخرة سأل ربه ذلك .

وإن كانت الحاجة التي يسألها جرت العادة أن الله سبحانه وتعالى يجريها على أيدي خلقه ، كالحاجات المتعلقة بأصحاب الحرف ، والصنائع وولاية الأمور سأل الله تعالى أن يعطف عليه قلوبهم فيقول : اللهم حن علينا قلوب عبادك وإمائك وما أشبه ذلك . ولا يدعو الله تعالى باستغنائه عن الخلق لأنه - ﷺ - سمع علياً يقول : اللهم اغننا عن خلقك فقال : « لا تقل هكذا ، فإن الخلق يحتاج بعضهم إلى بعض ، ولكن قل : اللهم اغننا عن شرار خلقك » .

وأما سؤال الخلق والاعتماد عليهم فمذموم ...

قوله - ﷺ - « واعلم أن الأمة ... » لما كان قد يُطمع في بر من يحبه ، ويخاف شر من يحذره ، قطع الله اليأس من نفع الخلق بقوله : ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ﴾ (سورة يونس ١٠٧) ولا ينافي هذا قوله تعالى حكاية عن موسى - عليه الصلاة والسلام - ﴿ فأخاف أن يقتلون ﴾ (سورة القصص ٣٣) وقوله تعالى : ﴿ إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ (سورة طه ٤٥) وكذا قوله : ﴿ خذوا حذركم ﴾ (سورة النساء ٧١) إلى غير ذلك . بل السلامة بقدر الله ، والعطب بقدر الله ، والإنسان يفر من أسباب العطب إلى أسباب السلامة ، قال الله تعالى : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ (سورة البقرة ١٩٥) . انتهى كلام النووي .

وعلم المؤمن بأن كل شيء مكتوب لا ينافي في إعطاء الأسباب حقها ، فإن الأقدار تجري =

وتتحقق الوزارة بصورة أتم في مثل هذا الظرف التكليفي بأن يكون من أهله .

وتشير الصفتان السابقتان إلى هارون أخيه قبل ذكر اسمه ، ثم عقب على هذا الاختيار بتعليل جديد لهذا التحديد :

أن يشد به الأزر فتكون به قوة ، وتكون به مشاركة في أمر الدعوة ، ويضيف موسى — عليه السلام — ما يتودد به حيث يقول : ﴿ كى نسبك كثيراً ، ونذكرك كثيراً ، إنك كنت بنا بصيراً ﴾ وتدل هذه المطالب على ما أمره الله سبحانه من أمر عظيم وخطب جسيم ، بعثه الله إلى أظلم ملك على وجه الأرض إذ ذاك ، وأشهدهم كفرأ ، وأكثرهم جنودأ ، وأعمرهم ملكأ ، وأطغاهم ، وأبلغهم تمردأ ، بلغ من أمره أنه ادعى أنه لا يعرف الله ، ولا يعلم لرعاياه إلهأ غيره ، هذا وقد مكث موسى — عليه السلام — في داره مدة وليدأ عندهم ، في حجر فرعون وعلى فراشه ، ثم قتل منهم نفسأ فخافهم أن يقتلوه ، فهرب منهم هذه المدة بكماها ، ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيراً ؛ يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له .

= ربط الأسباب بالمسببات . (الناشر للأربعين النووية) .

وقد ورد في صحيح البخارى قول ابن مسعود - رضى الله عنه - « ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر » (ج ٥ ص ١٤ مناقب عمر ، رضى الله عنه ، طبعة كتاب الشعب) وعن سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال : « والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكأ فجأأ إلا سلك فجأأ غير فجلك » (متفق عليه - اللؤلؤ والمرجان . رقم ١٥٥٢ ص ٦٣٦ ، ٦٣٧) فقد جمع بين السبب والموفق للسبب أن يجرى على سنته فالإسلام يعز بالأقوياء الذين يؤمنون به ، والله سبحانه هو الذى يوفقهم إلى ذلك .

أما الحديث بشأن على - رضى الله عنه - فإنه يثبت تكرماً خاصأ بعلى - رضى الله عنه - حيث إنه من أهل النبوة ، وحيث إنه من الطلائع الأولى للصحابه ، وحيث تميزه عن كثير من أصحاب النبى - ﷺ .

وينفى ما عدا ذلك من إثبات نبوة له ، أو أى شىء يدل على ذلك . والله أعلم .

هذا وقد قال الله تعالى في الشاء عليه ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ (٣٥) .

لمن أرسل موسى وهارون — عليهما السلام .

حدد الله سبحانه دعوة موسى — عليه السلام — وذلك بالذهاب إلى فرعون مصر لطغيانه على بني إسرائيل وتخليصهم منه ، وفي ذلك يقول الله تعالى في أكثر من موقع في القرآن الكريم :

﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ (٣٦) .

﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه ، فظلموا بها ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ، وقال موسى : يا فرعون ، إني رسول من رب العالمين ، حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم بينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل ﴾ (٣٧) .

وفي آيات أخرى كان الحديث عن موسى وهارون — عليهما السلام — بعد استجابة الله سبحانه لسؤال موسى ، وفي ذلك يقول الله تعالى :
﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ (٣٨) .

ويقول : ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى ، اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولاً له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ، قالاً : ربنا إنما نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال : لا تخافا إني معكما أسمع وأرى ، فأتياه فقولا : إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ؛ قد جئتكم

- (٣٥) سورة الأحزاب الآية ٦٩

(٣٦) سورة طه الآية ٢٤ .

(٣٧) سورة الأعراف الآيات ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥

(٣٨) سورة يونس الآية ٧٥

بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ﴿٣٩﴾ .

وفي آيات كان الحديث عن إتيانه الكتاب وهو التوراة .

يقول الله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ﴾ (٤٠) .

ويقول : ﴿ وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً ﴾ (٤١) .

ويقول : ﴿ قال : يا موسى إني اصطفتك على الناس برسالاتي وبكلامي ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ، وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين ﴾ (٤٢) .

وفي ضوء هذا الآيات وأمثالها يتبين لنا أن موسى — عليه السلام — أرسله الله سبحانه إلى فرعون بمصر ؛ لإنقاذ بني إسرائيل منه ، وقد أرسل معه لهذه المهمة أخاه هارون — عليه السلام — وقد أوحى الله سبحانه إلى موسى وأنزل الكتاب وهو التوراة موعظة وتفصيلاً لكل شيء .

من فضائل الخضير وتعلم موسى — عليهما السلام — منه :

يقول الله تعالى :

﴿ وإذ قال موسى لفتهاه : لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ، أو أمضي حُقباً ، فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ، فاتخذ سبيله في البحر سرياً ، فلما جاوزا قال لفتهاه : آتنا غداءنا ؛ لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ، قال :

(٣٩) - سورة طه الآيات من ٤٢ إلى ٤٧

(٤٠) سورة هود الآية ١١٠

(٤١) سورة الإسراء الآية ٢

(٤٢) سورة الأعراف ١٤٤ ، ١٤٥

أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ؛ فإني نسيت الحوت ؟ وما أنسانيه
إلا الشيطان ، أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر عجباً ، قال : ذلك ما كنا
نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصاً ، فوجدنا عبداً من عبادنا آتينا به رحمة من
عندنا ، وعلمناه من لدنا علماً ، قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمني
مما علّمت رشداً ، قال : إنك لن تستطيع معي صبراً ، وكيف تصبر على ما لم
تُحط به خبراً ؟ قال : ستجدني - إن شاء الله - صابراً ، ولا أعصى لك
أمراً ، قال : فإن اتبعتني ، فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ،
فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها ، قال : أخرقتها ؛ لتغرق أهلها ؟ لقد
جئت شيئاً إمرأ ، قال : ألم أقل : إنك لن تستطيع معي صبراً ، قال :
لا تؤاخذني بما نسيت ، ولا ترهقني من أمري عسراً ، فانطلقا ، حتى إذا لقيا
غلاماً فقتله ، قال : أقتلت نفساً زكية بغير نفس ؟ لقد جئت شيئاً نكراً ،
قال : ألم أقل لك : إنك لن تستطيع معي صبراً ، قال : إن سألتك عن شيء بعدها
فلا تُصاحبني قد بلغت من لدني عذراً ، فانطلقا ، حتى إذا أتيا أهل قرية
استطعما أهلها فأبوا أن يُضيفوهما ، فوجدنا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ،
قال : لو شئت لاتخذت عليه أجراً ، قال : هذا فراق بيني وبينك ، سأنبئك
بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ، أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في
البحر ، فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ،
وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، فأردنا أن
يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً ، وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين
في المدينة ، وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحاً ، فأراد ربك أن يبلغا
أشدهما ، ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمري ، ذلك
تأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴿ ٤٢ ﴾ .

عن أبي بن كعب — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — أنه قال :

(٤٢) سورة الكهف ، من ٦٠ إلى ٨٢ .

« قام موسى النبي خطيباً في بني إسرائيل ، فسُئِلَ : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا أعلم . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه . فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادى بجميع البحرين هو أعلم منك ، قال : يا رب وكيف به ؟ فقيل له : احمل حوتاً في مِكتَلٍ ، فإذا فقدته فهو ثَمٌّ ، فانطلق ، وانطلق بفتاه يوشع بن نون ، وحملوا حوتاً في مِكتَلٍ ، حتى كانا عند الصخرة ، وضعا رءوسهما وناما ، فانسل الحوت من المِكتَلِ فاتخذ سبيله في البحر سرباً ، وكان لموسى وفتاه عجباً ، فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما ، فلما أصبح ، قال موسى لفتاه : آتينا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً . ولم يجد موسى مساً من النصب حتى جاوز المكان الذى أمر به . فقال له فتاه : أرايت إذ أوتينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت . قال موسى : ذلك ما كنا نبغي . فارتدا على آثارهما قصصاً . فلما انتبيا إلى الصخرة ، إذا رجل مسحى بثوب (أو قال تسجى بثوبه) فسلم موسى . فقال الخضر (بفتح الخاء ، وكسر الضاد) : وأنتى بأرضك السلام ؟ فقال : أنا موسى . فقال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم . قال : هل أتبعك على أن تعلمننى مما علمت رشداً ؟ قال : إنك لن تستطيع معى صبراً يا موسى . إني على علم من علم الله علمنيه . لا تعلمه أنت ، وأنت على علم علمكه لا أعلمه . قال : ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً . فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ، ليس لهما سقيفة . فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوها ، فَعَرَفَ الْخَضِرُ ، فحملوها بغير تَوَلَّى فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة ، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر . فقال الخضر : يا موسى . ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر . فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه . فقال موسى : قوم حملونا بغير تَوَلَّى ، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها . قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً . قال : لا تؤاخذنى بما نسيت فكانت الأولى من موسى نسياناً . فانطلقا فإذا غلام يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر برأسه من أعلاه فاقتلع رأسه بيده . فقال موسى : أقتلت نفساً زكية

بغير نفس . قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أن يضيفوهما ، فوجدنا فيها جداراً يريد أن ينقض ، فأقامه قال الخضر بيده ، فأقامه . فقال موسى : لو شئت لاتخذت عليه أجراً . قال : هذا فراق بيني وبينك .

قال النبي ﷺ : « يرحم الله موسى لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما » (٤٣) .

(٤٣) متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٥٣٩ ص ٦٢٨ كتاب الفضائل ، وورد في مختصر مسلم مع اختلاف يسير ج ٢ ص ١٨٦ رقم ١٦١١ . وورد في هامش اللؤلؤ تفسير لمعاني مفردات هذا الحديث ، على هذا النحو :

أى الناس أعلم ؟ : أى منهم ، على حد (الله أكبر) أى من كل شيء . أنا أعلم : أى فى اعتقاده . لم يرد العلم إليه : أى كان حقه أن يقول : (الله أعلم) . بمجمع البحرين : أى ملتقى بحرى فارس والروم من جهة الشرق ، أو بإفريقية ، أو طنجة . مكمل : هو شبه الزنبيل ، يسع خمسة عشر صاعاً . فهو ثم : أى العبد أعلم منك هناك . فاتخذ سبيله : أى طريقه . سرباً : أى مسلكاً . وكان : أى لإحياء الحوت المملوح وإمسك جريه الماء حتى صار مسلكاً . غداءنا : هو الطعام يؤكل أول النهار ، نصباً : تعباً . أرأيت ؟ : أى أخبرنى ما دهانى ؟ . نسيت الحوت : أى فقدته أو نسيت ذكره بما رأيت . ذلك ما كنا نبغى : أى أمر الحوت هو الذى كنا نطلب ، لأنه علامة وجدان المطلوب . فارتدنا على آثارهما قصصاً : أى فرجعا فى الطريق الذى جاء فيه يتبعان آثارهما اتباعاً . مسجى : مغطى كله . أنى ؟ : من أين ؟ . رشداً : أى علماً ذا رشد أرشد به فى ديني . الثؤل : الأجرة . فأخذ الخضر برأسه من أعلاه : أى جَرَّ الغلام برأسه . زكية : أى طاهرة من الذنوب وهى أبلغ من زاكية . بغير نفس : أى بغير قصاص لك عليها . يريد أن ينقض : أى يسقط ، فاستعبرت الإرادة للمشاركة وإلا فالجدار لا إرادة له حقيقة . قال الخضر بيده : أى أشار بها . هذا فراق بيني وبينك : بإضافة الفراق إلى البين إضافة المصدر إلى الظرف على الاتساع .

قال الإمام النووى فى شرح مسلم وفى القصة بيان أصل عظيم من أصول الإسلام وهو وجوب التسليم لكل ما جاء به الشرع وإن كان بعضه لا تظهر حكمته للعقول ، ولا يفهمه =

= أكثر الناس وقد لا يفهمونه كله . اه الهامش .

« والأحاديث التي يُذكر فيها الخضر ، وحياته ، كلها كذب ، ولا يصح في حياته حديث واحد . » .

هكذا نص ابن القيم في كتابه « المنار المنيف في الصحيح والضعيف » ص ٦٧ فصل ١٦ ثم تابع حديثه : « سئل إبراهيم الحري عن تعمير الخضر ، وأنه باق ، قال : من أحال على غائب لم ينتصف له ، وما ألقى هذا إلا شيطان » وسئل البخاري عن الخضر ، وإلياس ، هل هما أحياء ؟ فقال :

كيف يكون هذا ؟ وقد قال النبي - ﷺ :

« لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد » (رواه مسلم أيضاً) وسئل عن ذلك كثير غيرهما فقالوا : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدون ﴾ (سورة الأنبياء ٣٤) .

وسئل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، فقال : لو كان حياً لوجب عليه أن يأتي النبي - ﷺ - ويجاهد بين يديه ، ويتعلم منه ، وقد قال النبي - ﷺ - يوم بدر :

« اللهم إن تهلك هذه العصابة ، لا تُعبد في الأرض » (رواه مسلم . المختصر رقم ١١٥٨ ، وأحمد في المسند) وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، معروفين بأسمائهم ، وأسماء آبائهم ، وقبائلهم ، فأين كان الخضر حينئذ ؟ . اه .

هذا وقد تابع ابن القيم حديثه مستشهداً بأقوال العلماء المستتلة إلى القرآن والسنة ، وإجماع المحققين من العلماء ، والمعقول . فمن أراد المزيد فليرجع إلى نفس المصدر . هذا ونص الحديث المتفق عليه السابق في اللؤلؤ والمرجان هكذا :

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : صلى بنا النبي - ﷺ - العشاء في آخر حياته ، فلما سلم قام فقال :

« أرايتكم ليلتكم هذه ؟ فإن رأس مائة سنة منها لا يبقى على ظهر الأرض أحد » .

كتاب فضائل الصحابة ، باب قوله - ﷺ - لا تأتي مائة سنة وعلى ظهر الأرض نفس منفوسة اليوم . رقم ١٦٤٨ ص ٦٩٠ .

وجاء في رواية البخارى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه تمارى هو ، وألحُرُّ بن قيس الفزارى فى صاحب موسى — عليه السلام — قال ابن عباس : هو خَضِرٌ ، فمر بهما أبى بن كعب ، فدعاه ابن عباس ، فقال : إني تماريت أنا وصاحبى هذا فى صاحب موسى الذى سأل السبيل إلى لُقَيْه ، هل سمعت رسول الله — ﷺ — يذكر شأنه ؟ قال : نعم ، سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : (وذكر الحديث) (٤٤) .

وجاء فى رواية مسلم عن سعيد بن جبير ، قال : قلت لابن عباس : إن نوحاً البكالى يزعم أن موسى — عليه السلام — صاحب بنى إسرائيل ، ليس هو موسى صاحب الخضر ، فقال : كذب عدو الله ، سمعت أبى بن كعب يقول : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : (وذكر الحديث) (٤٥) .

وجاء فى رواية أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال : « إنما سُمى الخضر ؛ لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتز من خلفه خضراء » (٤٦) .

وفى ضوء الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة يتبين لنا الآتى :

— أن الإنسان مهما أوتى من علم ، فالله سبحانه هو الأعلم بكل شىء ، وعلى المرء أن يرد العلم إلى الله سبحانه ، ولا يزعم أنه بلغ الغاية فيه .

(٤٤) صحيح البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب حديث الخضر مع موسى — عليهما السلام . فتح البارى بشرح صحيح البخارى رقم ٣٤٠٠ ج ١٣ ، ص ١٨١ .
(٤٥) مختصر مسلم رقم ١٦١١ ج ٢ ، ص ١٨٦ طبعة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت .

(٤٦) أخرجه البخارى ، فتح البارى ج ٣ ، ص ١٨٦ رقم ٣٤٠٢ ، وقال ابن حجر فى شرح الحديث : الفروة الحشيش الأبيض ، وما أشبهه ، والحشيش يبيض إذا جف ويس ، وقيل : الفروة : الأرض البيضاء ..

— أن الله سبحانه يرى أنبياءه على أقوم السبل ، كما يخص عباده المؤمنين بهدايته إياهم .

— السعى فى طلب العلم ، وبذل الجهد فى هذا السبيل ؛ كما تحمل موسى — عليه السلام — الحركة ، والمعاناة للوصول إلى من هو أعلم منه ، يتعلم على يديه .

— وأن المسافر يحتاج إلى صحبة طيبة ، كما اصطحب موسى ، يوشع ابن نون — عليهما السلام .

— أن نزول الحوت إلى البحر ، وجريانه فى الماء من دواعى العجب لكل من موسى ، ويوشع . ولا يدعو الأمر إلى العجب إذا كانت بالحوت حياة ، فلزم من ذلك ، أن الحوت كان من الصغر للدرجة أن يوضع فى مقطف ، وللدرجة أن يقوى على حمله شخص ويسير به مسافة طويلة ، وأن هذا الحوت لم تكن به حياة ، ولكن الله سبحانه أراد أن يلفت انتباههما بحدوث أمر عجيب ليتذكرا الغرض الذى سعيا إليه .

— وحين افتقدا الحوت ، وحاولا الرجوع إلى الصخرة تذكر موسى أنهما سيجدان من يتعلم على يديه ، كما قال له ربه .

— على الرغم من أن النسيان للحوت ثم جريانه كان السبب فى الوصول إلى الخضر ، فإن مبدأ النسيان فى ذاته من الشيطان ﴿ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ .

— الحالة التى كان عليها الخضر — عليه السلام — أنه كان مغطى بثوب ، وقد اختار مكاناً مبيضاً ، أكان الايضاض من حشيش يابس ، أم أرض يضاء فى ذاتها وأن حلوله فى المكان يجعله يخضر ، وتلك مكربة من الله سبحانه للخضر — عليه السلام .

— أن تحية الأنبياء — عليهم السلام — السلام ، كما يفهم من قوله : « فسلم موسى » .

— وأن الخصوصية التى علمها الخضر بفضل الله ، ورحمته ، لا تعنى أنه يعلم

الغيب مطلقاً ، ولذا استفسر عمن ألقى عليه السلام متعجباً وقال : « وأنى بأرضك السلام ؟ » ولو كان يعلم الغيب ، لعلم أن محدثه موسى بن عمران نبي بنى إسرائيل ، وبعد أن عرف خاطبه بقوله : « وأنت على علم علمكه الله لا أعلمه » .

— الأدب مع المعلم ، والاستئذان برفق في أن يقوم بالتلمذة على يديه ﴿ هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً ﴾ ؟ .

— وأن المعلم من لوازم تربيته ، وتعليمه أن يهيئ تلامذته ذهنياً ، ويوصيهم بالصبر على طلب العلم ، وأن التلميذ إذا ما وجدت هذه التهيئة رضى ببذل الجهد في سبيل تحقيق الهدف المنشود ﴿ قال ستجدني — إن شاء الله — صابراً ، ولا أعصى لك أمراً ﴾ .

١ - وأن المعلم الأمثل هو من يجمع عدة أمور :

(أ) أن يتصف بالرحمة والرفق فما كان الرفق في شيء إلى زانه ، وما نزع من شيء إلا شانه (٤٧) .

(ب) وأن هذه الرحمة قيس يقذفه الله سبحانه في قلوب عباده ﴿ آتيناه رحمة من عندنا ﴾ .

(ج) الأصل المراد نقله إلى المتعلم ، وهو العلم في دائرة الرحمة السابقة .

(د) وأن هذا العلم علمان : علم مادي مجرد عن الاعتقاد الصحيح ، وعلم متكامل وعلى أساس عقيدة التوحيد ﴿ وعلمناه من لدنا علماً ﴾ .

(٤٧) نص هذا الحديث الشريف : « إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله » متفق عليه رقم ٦٣١ من رياض الصالحين ، باب الحلم والأناة ، وفي رواية لمسلم : « إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ، وما لا يعطي على ما سواه » رقم ٦٣٢ ولمسلم أيضاً : « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه » رقم ٦٣٣ من الرياض و رقم ١٧٨٤ من مختصر مسلم ج ٢ ص ٢٣٤ باب في الرفق .

(هـ) وأن التعليم لا بد وأن يسبقه تعلم ، فعن عثمان - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (٤٨) .

والتعليم فيه مشاركة من الطرفين : التلميذ ، والمدرس ؛ فالتلميذ يرغب ويتجاوب . ويبدل من ذات نفسه .

(و) وأن المعلم يختار من مشاهد الطبيعة وسائل إيضاح تعينه على فهم المقصود كما اختار الخضر العصفور الذى أخذ قطرة ماء ، للدلالة على مقصده .

— وأن الأمر الغريب سريعاً ما ينكره التلميذ ، ولكن بيان الأسباب يصل إلى درجة الاقتناع ، والرضا .

— وأن الداعية إذا ما كان معروفاً لدى قومه بالصلاح ، وجد منهم المساعدة ، والخدمة ؛ كما خدم أهل السفينة الخضر بنقله ، دون مقابل .

— وأن النفس تُقَادُ بالنفس قصاصاً ، وأن البرىء زكية نفسه ، وأن القصاص كان فى شريعة موسى — عليه السلام — وهذا موافق أيضاً لقوله تعالى :

﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ (٤٩) .

— الرد على الإساءة بالإحسان ، وأن اتخاذ الأجر على العمل جائز فى ذاته ، وللعامل أن يتنازل عنه .

— التحايل على الطاغوت الذى يغتصب أموال الناس ، كما عيبت السفينة ؛ حتى لا يأخذها هذا الطاغوت لما بها من عيب .

— أن المال الذى جُمع من حلال له قيمة كبيرة عند الله سبحانه ، وأن الوالد عليه أن ينظف مكسبه من الحرام ، وأن المال الحلال ، الله سبحانه يُبارك فيه .

(٤٨) رواه البخارى . كتاب فضائل القرآن . باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه . ج ٦ ص ٢٣٦ كما عزاه صاحب كتاب مفتاح كنوز السنة إلى أبى داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، والدارمى وأحمد .
(٤٩) سورة المائدة ٤٤ .

— وأن ترك المال ميراثاً للصغار رحمة من الله سبحانه لهم ، وهذا بالإضافة إلى الأصل المفهوم من النص أيضاً ، وهو تقوى الله من الوالد ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ وكما قال سبحانه أيضاً :

﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم ، فليتقوا الله ، وليقولوا قولاً سديداً ﴾ (٥٠) .

والحديث وإن كان في عباراته ما يدل على تأخر زمنه ، ولكنه يدل على عناية الله سبحانه بنبيه موسى — عليه السلام — وتعليمه إياه على يد الخضر — عليه السلام — وتعليمه أيضاً تفويض الأمور إلى الله سبحانه ، وأنه — وإن كان أخطأ حين لم يفوض في موقف من المواقف — كان على علم آتاه الله إياه بشكل عام ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

وفي الآيات والأحاديث عبر وعظات أكثر آثرت أن أكتفى بما ذكر ، وبالله التوفيق ، والسداد .

الذهاب إلى فرعون بمصر :

اصطنع الله سبحانه موسى — عليه السلام — على عينه ، وأعدّه الإعداد الكامل للقيام بالدعوة ، ووجهه نفسياً إلى اعتقاد ذلك أيضاً ؛ لتضاف إلى قلبه شحنة قوية في الانطلاق وتحمل الأعباء فخاطبه ممتناً عليه بقوله :

﴿ ولتضع على عيني ﴾ و ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾ (٥١) و ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾ (٥٢) .

وبعد أن آتاه الله البراهين المادية . وآزره وشد عضده بهارون . ونجاه من الغم . وأعطاه من فصاحة اللسان ما أعطاه . وعلمه من التفويض ما علمه .

(٥٠) سورة النساء ٩ .

(٥١) سورة طه ٣٩ ، ٤١ .

(٥٢) سورة طه ٤٦ .

وعمق اعتقاده بأن الله سبحانه هو وحده الذى أعده وصنعه أكرم صنع وإعداد .
بعد هذا كله قال له ولأخيه :

﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ، ولا تنيا في ذكرى ، اذهبا إلى فرعون ؛
إنه طغى ﴾ (٥٣) .

وعلى الرغم من الاعتقاد بأن فرعون بلغ من طغيانه مبلغاً كبيراً ، وتميز عن
سابقه من المجرمين بأنه استعبد أمة بأكملها ، وادعى الألوهية ، يقتل ويذبح من
يعارض ، على الرغم من الاعتقاد بذلك أوصى الله سبحانه وتعالى موسى
وأخاه - عليهما السلام - بأن يقولوا له قولاً ليناً ، وعلى الرغم أيضاً من علم الله
سبحانه أزلاً بأنه سوف لا يستجيب للدعوة ، وسيظل على طغيانه وجبروته ،
ويموت على هذا ، علل القول اللين بأنه سبيل معروف للتذكر والخشية ، وكل
نبي ورسول ، ومن تصدر الدعوة إلى الله سبحانه عليه أن يسلك هذا المسلك ،
ومصدق ذلك قول الله تعالى : ﴿ فقولاً له قولاً ليناً لعله يتذكر
أو يخشى ﴾ (٥٤) وعلى الرغم من أمرهما بذلك فقد أوضح لهما ربهما سبحانه
صورة من الصور اللينة في بدء الدعوة قال تعالى : ﴿ فأتياه ، فقولا : إنا رسولا
ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك ، والسلام
على من اتبع الهدى ﴾ (٥٥)

وقال : ﴿ حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئكم ببينة من
ربكم فأرسل معي بنى إسرائيل ﴾ (٥٦) .

فليس الأمر إذن هوى من عند أنفسنا ، ولكننا مكلفون من قبل
الله جل وعلا . وما نبغيه أولاً : أن اترك بنى إسرائيل لنا ، ولا توقع بهم عذاباً ،
وغيرهم يتمتع بالأمن والأمان ، ونحن بهذا نريد الأمن للجميع وسينعم به من هداه
الله سبحانه ، وتلك بينات ودلائل على صدق قولنا .

ذاك لين ورفق ولا شك ، والغاية التى يسعى الداعية إليها واضحة

(٥٣) سورة طه ٤٢ ، ٤٣ . (٥٤) سورة طه ٤٤ .

(٥٥) سورة طه الآية ٤٧ . (٥٦) سورة الأعراف الآية ١٠٥ .

تحققت أم لا ، وما عليه إلا الإذعان والالتزام .

ومما يلزم في هذا المقام بيان المرحلة التي يمر بها الداعية ، والتي يُؤمر فيها باللين والرفق ، وهي واضحة أيضاً من الحال التي عليها موسى - عليه السلام :
— فهو في بدء مرحلة الدعوة ، والتي يراد لها أن تستمر ، ولا تتوآد في مهدها .

— وهو فرد استعان بأخ له .

— وهما أصلاً من بني إسرائيل حيث لا عصية من البشر تمنع عنه الإيذاء .

— وفرعون يدين له الناس بالولاء راضين ، أو مكرهين .

— وفرعون طاغية ادعى الألوهية .

— كل خيرات مصر تحت تصرفه ، وكل إنتاج بشرى زراعى أو عمرانى المستفيد منه فقط هو (٥٧) .

هذه الحال التي عليها موسى وأخوه هارون ، والتي عليها فرعون مصر ، لا يناسبها إلا الرفق واللين فهل استمر هذا الرفق واللين حين اتبع بنو إسرائيل موسى - عليه السلام ؟ وهل استمر اللين بعد أن آمن السحرة بموسى أم كان الرد حاسماً جازماً ؟ .

إن الموقف يُدرس حتى يختار له من أسلوب الدعوة المناسب ، والموافق لمدى قدرة الجماعة المسلمة .

اللقاء بفرعون :

وصدع موسى - عليه السلام - بالدعوة كما أمره ربه ، وجهر بها ، ولكن

(٥٧) ارجع إلى ما سبق بهذا الشأن

بالأسلوب اللين الهادئ كما اتضح سابقاً من وصية الله سبحانه له .

فماذا كان من أمر فرعون حين المواجهة الأولى ؟

إنه تصرف كما يتصرف كل طاغية متجبر في الأرض ، وقد وجد العزم ، والإصرار ، والجهر بالدعوة أمام الملأ من أتباع هذا الفرعون ، اتخذ اللؤم والخبث بداية لحديثه ، وحواره ، وأى لؤم أحبث من التذكير بالنعمة التي أسديت لموسى - عليه السلام ؟ فكيف يخرج من عبوديته لفرعون ؟ (٥٨) . وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ قال : ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ﴾ (٥٩) .

والله سبحانه وتعالى قد هياً نبيه لتلقى مثل تلك الادعاءات ، ولذا لم يهتم بالرد على هذا الأمر .

ولو رجع فرعون لنفسه ، وتذكر ما كان من شأنه حين التقاط موسى من النهر ، وحين قالت له زوجته : قرّة عين لى ولك لا تقتلوه ؛ عسى أن ينفعنا ، أو نتخذه ولداً . لو تذكر هذا واعترف به ما كان يطلق كلامه هكذا في موقف المواجهة الأولى .

ولكن الطاغية يتناسى ، ويزعم بالباطل أن موسى لم يرد الخير بمثله . ويضيف فرعون منكراً في زعمه على موسى : ﴿ وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ﴾ (٦٠) . ويتغير الموقف ، فيتغير الرد :

إن الوكزة التي قضت على الرجل خطأ اعترف بها موسى ، وكان القتل

(٥٨) إن الله سبحانه جعل الإنسان مستخلفاً في المال فناظر إليه ، أوضعه في حقه أم لا . فلا مجال إذن للمَن على الناس فقد وصل المال إلى مستحقه ، وليس للخليفة إلا السبب فقط . فبطل بذلك مسلك من هذا النوع الفرعونى .

(٥٩) سورة الشعراء الآية ١٨

(٦٠) سورة الشعراء الآية ١٩

سبباً في أن حُرِمَ من وطنه سنين . ولكن موسى تغير حاله عن ذي قبل . فإن كان قد هرب من فرعون لأنه كان خائفاً ، فهذا هو الآن يعود دون ما خوف ؛ لأن الله سبحانه قد أرسله إلى فرعون وأعطاه حكماً وعلماً . حوار في أول المواجهة فيه صراحة مع لين ، وفيه إهمال لما يشغل عن الهدف المقصود ، وفيه اعتراض على المخاطب حين استعبد أمة ، وينكر عليها الخروج من عبوديته له .

﴿ وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بني إسرائيل ﴾ (٦١) .

حوار حول العقيدة :

اتضح من خلال المقدمة السابقة المشهد الذي يجري فيه الحوار حول العقيدة الصحيحة :

موسى وهارون - عليهما السلام .

- موسى يتكلم باسمهما راداً على فرعون .
- موسى في موقف الواثق المطمئن البعيد عن أى جانب من جوانب الخوف .

موسى يتكلم بحكمة وعلم .

- اهتمام موسى بقضية اجتماعية تتعلق ببني إسرائيل جميعاً .
- الاعتراف بالخطأ بقتل الرجل ، وتلك صراحة قوية ، وأن الذي نجاه من الغم هو الله سبحانه ، لا فرعون .

فرعون في موقف المن على موسى .

(٦١) سورة الشعراء الآية ٢٢

- يتكلم وسط ملأ من قومه .

- وينكر على موسى أنه يريد الخروج من العبودية له .

ومن لوازم هذا المشهد : ما نتصوره من هيئة الجلوس لفرعون كملك يزعم لنفسه الألوهية . من أناس حوله ، يعتقدون صحة ذلك ، وهم حاشيته ، وفي أولهم هامان .

وما نتصوره لكل من موسى وهارون ، وقد قدما على شخص بهذه الصورة في قصره .

فهل ستؤثر هذه الصورة التي تميل إلى جانب فرعون في نفسية موسى وهارون في الحوار الذي سيجرى في هذا الموقف ؟

إن القضية الأساسية التي تشغل الجميع قضية الربوبية ، ففرعون يريد للوهلة الأولى أن يطمئن على مركزه المزعوم بين الناس .

﴿ قال فرعون : وما رب العالمين ﴾ (٦٢) .

وكان يمكن لموسى أن يجيب بقوله : « الله » ولكنه اختار ما به يوضح العقيدة في كل فرصة تتاح له ، فأخذ يوضح الربوبية بالأمر الذي لا يمكن لفرعون أن يدعيه على أى حال من الأحوال .

﴿ قال : رب السموات والأرض ، وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ (٦٣) .

فهل يستطيع فرعون أن يقول مجرد قول بأنه خلق السموات والأرض ؟ كلا بالطبع ، وطالما الأمر كذلك فالذى خلق السموات والأرض هو الذى خلق ما بينهما من جماد وحياة وإنسان وحيوان ، وترتيب المقدمات والنتائج على هذا النحو من شأن العلماء الذين لديهم يقين ، غير الجهلاء من البشر .

(٦٢) سورة الشعراء الآية ٢٣

(٦٣) سورة الشعراء الآية ٢٤

إن قضية تُساق على هذا النحو منذ الوهلة الأولى قضية تنطق بصدق دعوة موسى الحققة ، وتصدم فرعون على الرغم من طغيانه ، واعتزازه بمن جوله .

وبدأ يسلك فرعون أحقر سبيل يسلكه كل طاغية حين يرى الحق في صف الآخرين ، وأن موقفه على باطل ، إنه بدأ يثير الناس ضد موسى وهارون ، ليتحركوا ضدهما ، وكأنها حركة ذاتية ، ولكنها حركة العبيد للطاغية .

﴿ قال لمن حوله : ألا تستمعون ﴾ (٦٤)

نعم إنهم يستمعون ، لكنهم مشلوهون من ذلك الموقف العجيب ، وأن لهم أن يتحركوا إلى الحق ، وقد استخف بهم فرعون طول حياتهم فأطاعوه على الرغم من هذا الاستخفاف ؟ بل اعتبروا استخفافه بهم حقاً له ، وضريبة عليهم .

ولكن موسى حاضر الجواب ؛ إنه يجيب عن السؤال المكبوت في نفوس الملائكة ، والذي لا يستطيعون أن يتفوهوا به ولكن موسى وبجواره هارون سينطق بما يعتمل في نفوس الأمة الصامتة صمت القبور .

﴿ قال : ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ (٦٥)

وبدأت حرارة الحوار ترتفع ، ولكن دون قفز ، فالمواقف تُسَلَّم إلى بعضها كما ترى .

إعلان الحقائق يتضح من كلام الرسول ، والإثارة من ذلك البالون الممتلئ بالهواء الفاسد .

وتعساً لقوم يقال لهم : الذي خلق السموات الأرض ، هو الذي خلق الإنسان فينكرون !

فمن خلقهم إذن ؟ إنهم لا يستطيعون أن يقولوا : فرعون ، ولكنهم يدعون فقط أنه إله وكفى ، لم يسألوا أنفسهم أبداً كيف كان إلهاً ؟

(٦٤) سورة الشعراء الآية ٢٥

(٦٥) سورة الشعراء الآية ٢٦

وانتفخت أوداج الطاغية وجن جنونه لما سمع ، ويا للمصيبة التي وقعت عليه ، لإعلان هذا أمام ملئه ، وتعريته أمام الجماهير .

ولكنه يريد أن يخفى مشاعره هزيمة وسقوطاً ، ويلصق بالخصم ما يعتمل في نفسه هو فتصنع الهدوء والاستخفاف : ﴿ قال : إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ (٦٦) .

موسى يناقشك يا فرعون في قضية الربوبية ، وأنى إليك بالمقدمات التي تثبتها يريد أن يحرك عقلك ، وعقول من حولك ، وعقول الأمة كلها ، فهلا رددت على تلك المقدمات وأبطلتها لتثبت أحقيتك في الألوهية . كلا . وذلك شأن الطاغية في كل وقت مهما تعددت الأشكال .

وموسى إن كان قد أخذ بأبصار القوم نحو السماء والأرض ؛ تأملاً فيهما ، فقد أخذها إلى الأزمان السحيقة أيضاً . وها هو يأخذ بالأبصار لتمتد أفقياً نحو المشرق والمغرب وما بينهما في حين أن فرعون يزجر من الغيظ ، تنطلق كلمات النبي المرسل في ثبات ثبته الله إياه .

﴿ قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ (٦٧) .

لم يقل إنكم لمجنونون كما اتهمه فرعون زوراً ، ولكن موسى مُربِّ ، ومصلح ، ورسول ، فعلى الرغم من غباثتهم يثير فيهم السعى إلى التعقل والتفكير ، فيطرح أمامهم الجوانب الإيجابية التي يجب أن تكون ، وليس قصده تهمة لمجرد الإلصاق .

وها هو فرعون يفتح للسجن أبوابه حين يعجز عن الرد المنطقي . سبحان الله ، إنها دروس تعلمنا مسيرة البشرية ومواجهة الحق للباطل ، وتُعِدُّ النفس المؤمنة لما يصير في دنيا الشقاء والظلم .

(٦٦) سورة الشعراء الآية ٢٧

(٦٧) سورة الشعراء الآية ٢٨

دور المعجزة في الدعوة :

ولكن موسى - عليه السلام - لم يأبه لمثل هذا التهديد الصريح ، ويستمر في عرض دعوته على الطاغية فرعون ، وإن كان قد بدأ مرحلة جديدة في عرض هذه الدعوة . فقد جاء دور الدلائل المادية المعجزة التي لا يمكن لذي عين أو بصيرة أن ينكرها .

قال الله تعالى : ﴿ قال : أو لو جئتكم بشيء مبين ؟ قال : فأت به إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ (٦٨) .

وبدأ الحوار يتحول ، ويدخل عنصراً جديداً ، ومهماً ، في مشهد عجيب ورهيب .

وجاءت المعجزة في حينها ، فالناس الذين ألغوا عقولهم ، وحاولوا إلغاء عقول الناس معهم ، والذين لا يرضون بتغيير باطل تردوا فيه ، ربما يُجدى معهم ما يرونه بأبصارهم حيث لم يجد التفكير ببصيرتهم .

وكانت العصا ، واليد في وقت واحد بمثابة الصاعقة على فرعون ، ومن معه من ملأ المنافيين ؛ إنه لم يقو على ترديد كلمة السجن والتهديد به ، وأسقط في يده ، بحث في جعبته عن لعبة أخرى يزيّف بها الحقائق ، فوجد الوصف بأن هذا سحر ، لكنه لم يستطع أن يخفى ما بنفسه فوصفه بالعليم . قال تعالى :

﴿ قال للملأ حوله : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ﴾ (٦٩) .

إنه يؤكد كلامه بأن هذا ساحر ، وقد بلغ من العلم بالسحر مبلغاً فكان عليمًا لا عالمًا فقط .

(٦٨) سورة الشعراء الآيات من ٣٠ إلى ٣٣

(٦٩) سورة الشعراء ٣٤ ، ٣٥

وجاءت تلك النكتة المضحكة ، نكتة الوطنية حين تطرح في غير محلها .

من ذا الذى يحرص على وطنه غير ذوى العقائد الصحيحة ؟

وأى حرمة هذه حين يستعبد الإنسان في هذا الوطن ؟

إن فرعون لم يخجل من نفسه حين قال : ﴿ من أرضكم ﴾ حتى الملائ
شاركوه في هذا : ﴿ قال الملائ من قوم فرعون : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن
يخرجكم من أرضكم ﴾ (٧٠) .

ألم يقل قبل لئن اتخذت إلهاً غيرى ؟ ، فالناس عبيد له ، والأرض له أيضاً ،
فقد قال الله على لسانه : ﴿ أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من
تحتى ﴾ (٧١) .

وعلى أى شيء فهذا التودد الذى ليس له سابقة في حياة فرعون ، وكلامه
وعمله يدل على بداية الهزيمة النفسية أمام الدلائل المادية .

انظر إليه وقد قال الله على لسانه موجهاً الخطاب إلى من حوله من الملائ
﴿ فماذا تأمرون ﴾ . متى كان للعبيد أمر ورأى ، واقتراح .

ولكنها الهزيمة ، اللطمة القوية التى جعلته يترنح ، ويغير النغمة التى أعلن
عنها في السابق ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾

والتي يجب أن يلحظها الداعية ليرتب للدعوة مراحلها ، متى يبدأ ؟
وكيف ؟ ثم يلحظ هذا التدرج ، إنه يقرأ ما على وجه الطاغية من علامات ،
ويجعل السلاح الاحتياطي في حينه ؛ لتكون فعاليته بالغة قال تعالى :

﴿ قال موسى : أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح
الساحرون ؟ قالوا : أجبنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء

(٧٠) سورة الأعراف الآية ١٠٩ ، ١١٠

(٧١) سورة الزخرف الآية ٥١

في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ﴿٧٢﴾ .
إن القرآن الكريم للمدرسة يشع منها الهدى والنور ، ولنا في قصصه العبر
والعظات والدروس البينات .

دروس وعبر :

- أول مهام الرسالة : التوحيد وعبادة الإله الواحد والإيمان بالغيب وفي أوله الآخرة يوم الجزاء والثبات على العقيدة .
- أن تختار المعجزة من نوع ما ينشغل به القوم ، ويكونون مهرة فيه ، وإلا ما تُسمَّى معجزة فكانت العصا واليد لموسى لمهارة القوم في السحر .
- وكانت فصاحة القرآن معجزة لفصاحة العرب آنذاك ، وهو معجزة باقية بالإخبار عن حقائق الكون وتكامل تشريعه .
- يدرّب الله رسله على المعجزة ، فموسى درب على إلقاء العصا وحده بصحراء الطور . ومحمد - ﷺ - درب على الوحي وحده بغار حراء .
- التدرج في الدعوة .
- من حوار إلى دلائل مادية معجزة ، وتكون العقوبة حين استنفاد الجهد واليأس من إيمان القوم .
- اللجوء إلى الله سبحانه وسؤاله العون دائماً كما سأل موسى ربه .
- وكما وقف النبي - ﷺ - في عريش بدر قائلاً « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض » (٧٣) .

(٧٣) عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : حدثني عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : لما كان يوم بدر ، نظر رسول الله - ﷺ - إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلثمائة وتسعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبي الله - ﷺ - القبلة ، ثم مد يديه ، فجعل يهتف بربه :

« اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم آتني ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام ، لا تعبد في الأرض ... » إلخ أخرجه مسلم ، المختصر رقم ١١٥٨ ج ٢ ص ٧٠ وعزاه محقق المنار المنيف إلى أحمد في المسند ص ٦٨ تعليقاً على استشهاد ابن القيم ، بقول ابن تيمية ، واستشهاده بالحديث مختصراً في حديث الخضر - عليه السلام .

- عدم التجاوز فى الدعاء ، فيطلب ما به الخير للدعوة كما دعا موسى - عليه السلام .

الفرح بإيمان القوى ، ومشاركته فى الدعوة كما طلب موسى إلى ربه شد الأزر بهارون وكما قال محمد - ﷺ - فى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه : « والذى نفسى بيده ، ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك » (٧٤) .

- من أهم مراحل الدعوة المرحلة الأولى ، ولذا ينبغى فى هذه المرحلة أن تكون باللين ، وبعرض الحجج العقلية الهادئة التى تستند إلى مقدمات مسلم بها .
- على الداعية المسلم أن يكون على علم وينة ، وأن يعلق ذلك بمشيئة الله إن سئل ، وألا يغتر بعلمه ، فقد يكون من البشر من هو أعلم منه ، وإن كان دونه منزلة . (٧٥) .

- من مظاهر العلم اليقيني بعد النظر والعمق فى المسائل وعدم الوقوف عند ظواهر الأشياء .

- من أعمال الطاغية ضد الدعوة :

المن بفعل ما يجب عليه ، وإننا لنرى هذا متكرراً وبصورة أوضح فى العصر الحديث .

التذكير بأخطاء لم يهرب منها الداعية بل اعترف بها وتاب عنها .
إثارة المنافقين حوله ضد الداعية .

(٧٤) أخرجه الشيخان عن سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه ، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٥٥٢ ص ٦٣٧ .

(٧٥) ارجع إلى موضوع : موسى ، والخضر - عليهما السلام - فى هذا الفصل .

الزعم بأنه حريص على الوطنية والقومية .

ووصف من يرد الألوهية إلى الواحد الأحد ، بالجنون ، وذلك كما قال الوليد بن المغيرة عن القرآن بأنه سحر (٧٦) .

وعلى الداعية أن يوطن نفسه لمثل تلك المزاعم الباطلة .

— إن الله يؤيد أنبياءه بالمعجزات ، فهو يؤيد أتباعهم بنصاعة حججهم ، وأنهم يرجعون إلى كتاب الله القرآن الكريم ؛ لا طلباً لمغنم دنيوى ، بل تحملاً لمغرم ؛ رغبة فى الثواب عند الله سبحانه بالإضافة إلى الرغبة فى إعلاء كلمة الله سبحانه فى الأرض .

(٧٦) أخرج الحاكم ، وصححه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - حديثاً طويلاً ، بهذا الشأن ، وفى نهايته قول الوليد عن القرآن الكريم : « هذا سحر يؤثر ، أثره (أى النبى - ﷺ - وحاشاه عن ذلك) عن غيره » فنزلت (الآيات) ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ (من سورة المدثر الآية ١١ وما بعدها) وقال السيوطى فى أسباب النزول : إسناده صحيح على شرط البخارى .

الإيمان برسالة التوحيد :

- في يوم الزينة :
- موسى ، والسحرة ، وفرعون ، وحشود الناس .
- فتنة السحرة ، وصبرهم على تعذيب الطاغية لهم .
- إيمان بنى إسرائيل .
- تفضيل بنى إسرائيل .
- مؤمن آل فرعون .
- دروس وعبر .

في يوم الزينة :

موسى ، والسحرة ، وفرعون ، وحشود الناس .

توهم فرعون وملؤه أن تحول العصا إلى حية تسعى سحر ، وأنَّ بقدرة
الماهرين في السحر أن يتغلبوا على موسى - عليه السلام .

ومجرد الظن بهذا يدل على أنه انهزم فكراً في الجولة الأولى ، ولو كان
منتصراً ما توانى - أبداً - في تنفيذ ما هدد به ، من سجن موسى - عليه
السلام - ولكنه لم يفعل ، وكأن فرصة وافته عليه أن يهتبلها ؛ قال الله تعالى على
لسانه :

﴿ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾^(١) .

وقال مخبراً عنه :

﴿ فتولى فرعون فجمع كيدَه ، ثم أتى ﴾^(٢) .

وشاركه الملاء من القوم ، وهم : خاصته وبطانته ، ومنافقوه قال تعالى على
لسانهم :

﴿ قالوا : أَرَجِه ، وأخاه ، وأبعث في المدائن حاشرين ؛ يأتوك بكل
سحار عَلِيمٍ ﴾^(٣) .

وادعى فرعون العدالة في المحاجة ؛ لأنه ظن أنه سينتصر ، لذا ترك
لموسى - عليه السلام - اختيار يوم لقائه بالسحرة ، وكان الرد دالاً على ثقة النبی
في معجزة أيده الله سبحانه بها ، ولا يتبادر إلى ذهنه أى شك فيها ، فاختار أهم
يوم في مصر للمصريين ، يوم العيد ، يوم يتزين الناس ، ويذهبون إلى العاصمة
بغية المتعة ، والتجوال ، واختار تجميع الناس للرؤية ، والمشاهدة ، واختار من

(١) سورة يونس الآية رقم ٧٩ .

(٢) سورة طه الآية رقم ٦٠ .

(٣) سورة الشعراء الآية رقم ٣٦ .

الوقت أوضحه ، وهو وقت الضحى حيث تكون الشمس فى اكتمال إنارتها . قال تعالى :

﴿ قال : أجنثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ، ولا أنت ، مكانا سوى ، قال : موعدكم يوم الزينة ، وأن يحشُر الناس ضحى ﴾ (٤) .

وفى رد موسى - عليه السلام - معنى النصر ، وتبشير به ، ولكن فرعون وقومه أعماهم الجهل ، وظلوا فى غيهم يعمهون ويتخبطون .

وعلت الفرحة بسطاء القوم المجموعين ، قال تعالى :

﴿ وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون ؟ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ (٥) ..

بل إن السحرة أنفسهم ظنوا المغنم فى ذلك ، ولهم بعض العذر ؛ فقد ضللوا من السلطة ، وفرعونها ، ولم يروا التجربة حية قبل ذلك ، وآتى التضليل للشعب أكله حتى الآن ، فقد جمع الناس فرحتهم ، وتوزيع المغنم عليهم ، والمتعة فى الرؤية . وفى هذا يقول الله تعالى :

﴿ فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟ قال : نعم . وإنكم إذن لمن المقربين ﴾ (٦) .

وكانت لفتة كريمة من موسى - عليه السلام - للسحرة ، فقد ألزمهم بالحجة ، وقدم النصح لهم قبل بدء المعركة الفاصلة فى تاريخ الدعوة ؛ لكنهم لم يستجيبوا للنصح بسبب التضليل السابق .

﴿ قال لهم موسى : ويلكم ، لا تفتروا على الله كذباً ؛ فيسحتكم

(٤) سورة طه الآيات من رقم ٥٧ الى ٥٩ .

(٥) سورة الشعراء ، الآيتان رقما ٣٩ ، ٤٠ .

(٦) سورة الشعراء ، الآيتان رقما ٤١ ، ٤٢ .

بعذاب ، وقد خاب من افترى ﴿٧﴾ .

وإن أحدثت النصيحة نوعاً من التأثير في بعضهم ، ولكنهم لم يستمروا عليه ، وعادوا لترديد نفس النغمة ، وأصروا على المواجهة ، قال تعالى مخبراً عنهم :

﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم ؛ وأسروا النجوى ، قالوا : إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم ﴾ (٨) ، ويذهبا بطريقتكم المثلى ؛ فأجمعوا كيدكم ، ثم اتوا صفّاً وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ (٩) .

فمن الذى يبدأ ؟

اختار موسى - عليه السلام - للسحرة أن يبدؤوا هم ، فيشهد القوم عياناً مافعلوا وخيلوا ، ويتمعن القوم فيه ، وفي المهارة التى تم بها سحرهم .

﴿ قالوا : يا موسى ، إما أن تلقى ، وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ (١٠) .

﴿ قال لهم موسى : ألقوا ماأنتم ملقون . فألقوا جبالهم ، وعصيهم ،

(٧) سورة طه ٦١ .

(٨) ويظهر من هذا التعبير القرآنى الكريم أن السحرة كانوا من بنى إسرائيل ، وقد كانت دعوة موسى - عليه السلام - للإيمان به أصلاً ثم لإنقاذهم من فرعون ، وإخراجهم من مصر ، وكانت الدعوة لفرعون لأن يؤمن أصلاً ، ثم الإذن باصطحاب بنى إسرائيل والخروج معه إلى موطن يعقوب - عليه السلام - وجاء فى القرآن على لسان موسى : « أن أرسل معى بنى إسرائيل » (الشعراء ، ١٧) وقال على لسان السحرة قبل إيمانهم : « يريدان أن يخرجاكم من أرضكم » ومما يؤكد هذا أيضاً قوله تعالى فى موطن آخر « فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم » (يونس ٨٣) .

(٩) سورة طه ، الآيات رقم ٦٢ إلى ٦٤ .

(١٠) سورة طه الآية رقم ٦٥ .

وقالوا : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴿١١﴾ .

قال تعالى مصوراً ما صنعوه من سحر :

﴿ فإذا جابههم ، وعصيمهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس ، واسترهبوهم ، وجاءوا بسحر عظيم ﴾ ﴿١٣﴾ .

وصدق الله تعالى ؛ فقد كان السحر عظيماً ، واضح الأثر في استرهاب الناس من ناحية ، وواضح الأثر في نفس موسى - عليه السلام - قال تعالى في ذلك :

﴿ فأوجس في نفسه خيفة موسى ﴾ ﴿١٤﴾ .

وإذا كان الخوف الحادث من الناس لا شبهة فيه . فلم وقع من موسى - عليه السلام - وقد تقدم ما يدل على ثقته بالمعجزة ، وأراد الله سبحانه ذلك ؛ ليبين - على وجه القطع واليقين - توفر شروط المعجزة ؛ لتكون معجزة حققة . وأن موسى - عليه السلام - يواجهها قوماً ماهرين في عملهم ، ثم ينتصر عليهم . ولو كان السحر تافهاً أو عادياً ، ولم يظهر أثره في الناس ، ولا في نفس موسى - عليه السلام - ما تبلغ المعجزة الدرجة المرادة لها .

وفي هذا الوقت أوحى الله تعالى إليه :

﴿ قلنا : لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ ﴿١٥﴾ .

(١١) سورة الشعراء الآيتان رقما ٤٣ ، ٤٤ .

(١٢) سورة طه ، الآية رقم ٦٦ .

(١٣) سورة الأعراف ، الآية رقم ١١٦ .

(١٤) سورة طه ، الآية رقم ٦٧ .

(١٥) سورة طه ، الآيتان رقما ٦٨ ، ٦٩ .

فقال موسى - عليه السلام - بلهجة الواثق ، وقد زال عنه خوفه :

﴿ قال موسى : ما جئتم به السحر ، إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ (١٦) .

وأتبع موسى - عليه السلام - قوله هذا إلقاء عصاه :

﴿ فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ (١٧) .

فكان الهول لكل الأطراف :

بالنسبة للناس ، وقد ظنوا أن السحرة أتوا بما لا يغلب .

وبالنسبة لفرعون ، وقد ظن أنه سيدحض موسى ، وهارون .

وبالنسبة للسحرة ، وقد ظنوا أيضاً أنه لا يمكن أن يغلبهم سحر ساحر ، خاصة وأنهم مجتمعون ، وموسى - عليه السلام - وحده ، وأنهم أمهر السحرة في الدولة على الإطلاق .

﴿ فغلبوا هنالك ، وانقلبوا صاغرين ﴾ (١٨) .

وبنظرهم المجردة من الهوى ، علموا أنه لا بد أن يكون ماواجهوه فوق السحر ، ولا بد أن يكون معجزة فوق طاقة البشر ، ولا بد بالتالي أن يكون موسى صادقاً في دعواه النبوة . وحين وصلوا إلى هذه النتيجة أعلنوا الإذعان والتسليم ، والإيمان برب العالمين .

﴿ فألقى السحرة سجداً ، قالوا : آمنا برب هارون وموسى ﴾ (١٩) .

(١٦) سورة يونس ، الآيتان رقما ٨١ ، ٨٢ .

(١٧) سورة الشعراء ، الآية رقم ٤٥ .

(١٨) سورة الأعراف ، الآية رقم ١١٩ .

(١٩) سورة طه ، الآية رقم ٧٠ .

فتة السحرة ، وصبرهم على تعذيب الطاغية لهم :

وإذا كان السحرة قد غنموا الموقف غنيمة إيمانية لا غنيمة مادية ، فقد أسقط في يد فرعون ، ولكنه وقد هاله الموقف ، وظهور حجة موسى عليه ، لازالت تشده الأرض ، والسلطان والصولجان ، وماسمعا عن مثله يتنازل بسهولة عن كل هذا ، حتى ولو كان في قرارة نفسه يعلم أنه كذاب ، وأن خصمه صادق ، قال تعالى :

﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ، فانظر كيف كان عاقبة
المفسدين ﴾ (٢٠) .

وبحث في جعبته عن تهمة جديدة يلقيها في وجه موسى - عليه السلام - والسحرة بعد أن انضموا إلى موكب الإيمان .

﴿ قال : آمتم له قبل أن آذن لكم ؛ إنه لكبيركم الذي علمكم
السحر ﴾ (٢١) .

ولم يسأل فرعون نفسه : متى كان هذا التعليم ؟ ولكنه الاستمرار في تضليل الناس إلى آخر لحظة وحين فشلت كل حجج الباطل ، وتعرى أمام الحق والناس ، إلا من لباس الهزيمة . حينئذ - بعد أن آتت الدعوة أول أكلها ، لا بد أن تفتح للسجون أبوابها . ومتى كانت السجون إلا حين هزيمة الباطل فكريا ، وكشف مخازيه أمام الناس ؟ وليت الأمر وقف عند حد السجون وكتان الحريات ، إذن لاحتمله البشر العاديون ، وأنى لهم وصنوف العذاب قد فغرت فاتها للفتك بالأجساد حيث لم يقدر على النيل من القلوب . قال الله تعالى على لسانه :

﴿ فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم في جذوع

(٢٠) سورة النمل ، الآية رقم ١٤ .

(٢١) سورة طه ، الآية رقم ٧١ .

النخل ، ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى ﴿٢٢﴾ .

وعلى المهسحة أن يختاروا أحد الأمرين :

- ١ - إما أن ينجوا من عذاب فرعون الطاغية ، بالرجوع إلى باطله .
- ٢ - وإما أن يصمدوا أمام عذاب الدنيا ؛ لينجوا من عذاب أشد في الآخرة .

وقد اختاروا الثاني . بل تحلوا فرعون وملأه ، واستعانوا على العذاب بالصبر .

﴿ قالوا : لن نؤثر على ما جاءنا من البينات ، والذي فطرنا . فاقض ما أنت قاض ؛ إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنا بربنا ؛ ليغفر لنا خطايانا ، وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى ﴾ (٢٢) .

وأعلنوا أنهم هم الفائزون ، ولجئوا إلى الله سبحانه ضارعين داعين :

﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ (٢٣) .

واتهموا الطغمة الحاكمة بالإجرام .

﴿ إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ، ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك هم الدرجات العلا ، جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى ﴾ (٢٢) .

ووسّع فرعون دائرة التنكيل بالمؤمنين ، وقام زبانية السلطة المنتفعون مادياً من تثبيت الباطل بدور بارز في هذا التنكيل ، وللأسف كانوا من بنى إسرائيل الذين يراد إنقاذهم .

(٢٢) سورة طه ، الآيات من رقم ٧١ إلى رقم ٧٦ .

(٢٣) سورة الأعراف الآية رقم ، ١٢٦ .

﴿ وقال الملأ من قوم فرعون : أتذر موسى وقومه ، ليفسدوا في الأرض ، ويدرك وآهتك ؟ قال : سنقتل أبناءهم ، ونستحيى نساءهم ، وإنا فوقهم قاهرون ، قال موسى لقومه : استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين ﴾ (٢٤) .

عن أبي عبد الله ، خباب بن الارت (٢٥) - رضى الله عنه - قال : شكونا إلى رسول الله - ﷺ - وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تبستصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال :

« قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل ، فيحفر له في الأرض ، فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار ، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه ، ما يصده ذلك عن دينه . والله ليتمن الله هذا الأمر ؛ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه . ولكنكم تستعجلون » (٢٦) .

وسواء أكان هذا النوع من التعذيب للسحرة حين آمنوا أم لغيرهم ، فإنما

(٢٤) سورة الأعراف الآيتان : ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢٥) سُبى في الجاهلية فيبيع بمكة ، فكان مولى أم أنمار الخزاعية ، وكان من السابقين الأولين ، والمستضعفين ، وعُذِبَ عذاباً شديداً لإظهار إسلامه ، رُؤى وقد اکتوى بنار العذاب ، فقال : لولا أن رسول الله - ﷺ - نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به ، وشهد بداراً والمشاهد كله ، وقد كان يجيد صناعة السيوف في الجاهلية . ولما رجع على - رضى الله عنه - من صفين مر بقبر خباب ، فقال : رحم الله خباباً ، أسلم راغباً ، وهاجر طائعاً ، وعاش مجاهداً ، وابتلى في جسمه ، ولن يضيع الله أجره . مات بالكوفة عن ثلاث وستين سنة ، عام سبعة وثلاثين . من كتاب الإصابة لابن حجر ج ١ ص ٤١٦ ، رقم ٢٢١٠ .

(٢٦) أخرجه البخارى ، وأبو داود ، والنسائي ، رياض الصالحين ، باب الصبر ، رقم ٤١ ، ص ٣٢ .

هو نموذج لتفكير الطغاة الظالمين ، ونيلهم من أجساد الفئة المؤمنة ، وصبر هذه الفئة على الرغم من عنف التعذيب وشدة .

وبجوار هذا اللون من التنكيل بالمؤمنين كان الإيذاء النفسى أيضاً .

فعن ابن مسعود (٢٧) - رضى الله عنه - قال : لما كان يوم حنين أثر رسول الله - ﷺ - فى القسمة ، فأعطى الأقرع بن حابس (٢٨) مائة من الإبل ،

(٢٧) هو عبد الله بن مسعود . قال الذهبي : هو الإمام الرباني ، أبو عبد الرحمن ، عبد الله بن أم عبد ، الهذلي ، صاحب رسول الله - ﷺ - وخادمه ، وأحد السابقين الأولين ، من كبار البدرين ، ومن نبلاء الفقهاء ، والمقرين ، أسلم قديماً ، وحفظ من فى رسول الله - ﷺ - سبعين سورة ، وقال - ﷺ - « من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل ، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد » ، وفوائده جمة عديدة ، توفى بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين ، وله نحو من ستين سنة . سبل السلام للصنعاني ج ١ ، ص ٧٩ ، هذا وقد أخرج الشيخان فى شأنه وفوائده أربعة أحاديث ، منها قوله : « والله لقد أخذت من فى رسول الله - ﷺ - بضعا وسبعين سورة ، والله ! لقد علم أصحاب النبى - ﷺ - أنى من أعلمهم بكتاب الله ، وما أنا بخيرهم » قال شقيق (راوى الحديث) فجلست فى الحلقة أسمع ما يقولون ، فما سمعت رداً يقول غير ذلك . اللؤلؤ والمرجان . كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود ، وأمه - رضى الله عنهما . رقم ١٥٩٨ ص ٦٦٤ ، وبقيّة الأحاديث بنفس الباب .

(٢٨) هو الأقرع بن حابس بن عقيل بن محمد بن سفيان التميمي المجاشعي الدارمي . قال ابن إسحاق : وفد على النبى - ﷺ - وشهد فتح مكة ، وحنيناً ، والطائف . وهو من المؤلفة قلوبهم ، وهو الذى نادى النبى - ﷺ - من وراء الحجرات : يا محمد ، فلم يجبه ، فنزل قرآن ينهى عن ذلك ، وقال له ، ولصاحبه عيينة عمر - رضى الله عنه : إنما كان النبى يتألفكما والإسلام يومئذ قليل ، وإن الله قد أعز الإسلام . اذهباً فأجهدا على جهدكما . وهو الذى رأى النبى - ﷺ - يقبل الحسن ... فأنكر ذلك من نفسه لأولاده . ومات فى خلافة عثمان بن عفان - رضى الله عنه . عن كتاب الإصابة فى تمييز الصحابة للمحافظ ابن حجر ج ١ ص ٥٨ رقم ٢٣١ .

وأعطى عيينة بن حصن (٢٩) مثل ذلك ، وأعطى ناساً من أشرف العرب ، وآثرهم يومئذ في القسمة ، فقال رجل : والله إن هذه قسمة ما عدل فيها ، وما أريد فيها وجه الله ، فقلت : والله لأخبرن رسول الله - ﷺ - فأتيته فأخبرته بما قال : فتغير وجهه حتى كان كالصُّرْف (صبغ أحمر) ثم قال :
« فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ » ثم قال : « يرحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر » (٣٠) .

وسواء أكان الإيذاء النفسى الذى واجهه موسى - عليه السلام - من الطغاة الظالمين ، أو من تعنت قومه الذين آمنوا به ، فإن تحمله لهذا النوع من الإيذاء النفسى قد حدث ، وقد صبر عليه .

إيمان بنى إسرائيل :

وأمام حالة التشكيل بالسحرة على النحو السابق ، كانت حركة الإيمان بموسى - عليه السلام - حركة سرية ، وبطيئة ؛ خوفاً من العذاب الذى يصب

(٢٩) عيينة بن حصن بن حذيفة . الفزارى ، كان من المؤلفة قلوبهم ، أسلم قبل الفتح وشهدا ، وحنيناً ، والطائف ، وكان ممن ارتد فى عهد الخليفة الأول ، ثم عاد إلى الإسلام ، كانت به جفوة ، قال فيه النبى - ﷺ - رداً على استفسار عائشة - رضى الله عنها : هذا الأحمق المطاع . يعنى فى قومه . قال لابن مسعود - رضى الله عنه : أنا ابن الأشياخ الشم . فقال له عبد الله : ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . وفى كتاب الأم للشافعى فى باب من كتاب الزكاة أن عمر - رضى الله عنه - قتله على الردة ، فلا يُذكر إذن فى الصحابة ، ويحتمل أنه أمر بقتله ، فبادر إلى الإسلام فترك فعاش إلى خلافة عثمان - رضى الله عنه . المرجع السابق ج ٢ ص ٥٤ ، ٥٥ رقم ٦١٥١ .

(٣٠) أخرجه البخارى ومسلم ، وأحمد . رياض الصالحين ، باب الصبر رقم ٤٢ ص ٣٢ ، ٣٣ وقد ورد فى ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى ﴾ (سورة الأحزاب ٦٩) وقد سبق الحديث عن ذلك .

على المؤمنين صبا . قال تعالى :

﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأه من يفترهم ، وإن فرعون لعال في الأرض ، وإنه لمن المسرفين ﴾ (٣١) .

والتعبير بقوله : ﴿ ذرية من قومه ﴾ يدل صراحة على أن من آمن كان من بنى إسرائيل ، وأن المؤمنين كانوا قلة ، ويؤكد هذا قوله تعالى في موطن آخر :

﴿ فأمنت طائفة من بنى إسرائيل ، وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ (٣٢) .

ويأتى الحديث على لسان موسى - عليه السلام - ومن آمن ، يصف هذه المرحلة الحرجة في عمر الدعوة ، مرحلة التعذيب ، والإيمان سراً ، واللقاء بموسى سراً ، وأن من استجابوا كانوا على قوة في إيمانهم (٣٣) . وفي هذا يقول الله تعالى :

(٣١) سورة يونس ، الآية رقم ٨٣ .

(٣٢) سورة الصف ، الآية رقم ١٤ .

(٣٣) وتلك المرحلة في الدعوة سنة في تاريخ الدعوات الإسلامية السابقة على أيدى الأنبياء الكرام فإبراهيم - عليه السلام - دعا أباه آزر ، وذكر الأصنام بسوء أمام خاصة الناس ، ولذا كان الإخبار عنه بقوله تعالى على لسان الوثنيين من عامة الناس : « قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » (الأنبياء ٦٠) فالآية تشير إلى أنهم عرفوا الخبر مكتوماً ، ثم أعلن بعد ذلك في مواجهة علنية (انظر قصة إبراهيم - عليه السلام) والنبى الخاتم - ﷺ - كان يدعو الناس في المرحلة الأولى سراً وتنتقل الدعوة من واحد إلى آخر بشكل فردى ، وكان من المسلمين من يصلى فى جنح الليل ، ومن يعرف منهم تعرض لأشد العذاب كآل ياسر ، وبلال ، وخباب ، رضى الله عنهم أجمعين .

ولم يكن فى هذه المرحلة إلا الصبر ، حيث لا يجوز غير ذلك ، لتجتاز الدعوة تلك المرحلة الخطرة الحرجة .

قال تعالى على لسان موسى - عليه السلام : ﴿ استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ (الأعراف ١٢٨)

﴿وقال موسى : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ، فقالوا : على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ (٣٤) .

وفي الفصول القادمة نصوص تخاطب بنى إسرائيل جميعاً ، وتشير إلى أنهم آمنوا ربما يكون إيمان الجميع - والله أعلم - في حالة الخروج من مصر ، وبعد الخروج ، وقد يكون من بين هؤلاء المتأخرين الذين لم يتغلغل الإيمان في قلوبهم ما ظهر من بنى إسرائيل من مخالفة وثنية لقواعد الإيمان كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

والخطة التى رسمت لمسيرة الدعوة فى هذه المرحلة على وجه الخصوص ، أن يصلى المؤمنون فى بيوتهم حيث الستر عن الناس ، على أمل الخروج ، والجهار بالدعوة .
قال تعالى :

﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه : أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين﴾ (٣٥) .
أى اقصدا البيوت للصلاة فيها .

ودعا موسى - عليه السلام - على المشركين بالهلاك والدمار ، قال تعالى على لسانه :

فقد توجه إلى الله سبحانه . بأن يكشف عنه الضر ، ويلهمه الصبر هو وقومه ، وبذل الأسباب للخروج من هذه المرحلة وتجاوزها ، ويؤمن من الناس من به تقوى الدعوة .
روى البخارى عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قوله : « ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر » ج ٥ ص ١٤ كما أن الهجرة إلى المدينة واضحة الدلالة على الخروج من مكان يسود فيه الظلم إلى آخر حيث تتنفس الدعوة ، وتنمو .

(٣٤) سورة يونس ، الآيات من ٨٤ : ٨٦ .

(٣٥) سورة يونس الآية رقم ٨٧ .

﴿ وقال موسى ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، قال : قد أجيبت دعوتكما ، فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ (٣٦) .

تفضيل بنى إسرائيل :

نزلت التوراة على موسى - عليه السلام - لتوضيح جانبين :
 الأول : بيان العقيدة الإيمانية الصحيحة ، وهذا الجانب تتفق فيه كل الكتب السماوية وهو عبادة الله وتقواه ، والإيمان بالغيب ...
 وهذا واضح في دعوة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - جميعاً ، كما ذكر - وقد وردت نعم أخرى ذكر الله تعالى بنى إسرائيل بها :
 في القرآن الكريم .

الجانب الثانى : بيان التشريع الذى يجب أن يطبق في التعامل بين الناس وأنفسهم من ناحية ، وبينهم وبين ربهم من ناحية أخرى في شكل العبادة لا في أصلها . وهذا الجانب هو الذى تختلف فيه الرسائل غالباً ، يتغير بتغير الظروف التى تمر بالدعوة الإسلامية من لدن آدم إلى النبي محمد - عليهما الصلاة والسلام .

وحين يكون الحديث عن موسى - عليه السلام - والتوراة ، يأتي التعبير القرآنى بأن الله سبحانه قد آتاه الكتاب أى التوراة ، مثل قوله تعالى :
 ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ﴾ (٣٧) .

(٣٦) سورة يونس الآيتان ٨٨ ، ٨٩ .

وقد دعا النبي - ﷺ - على المشركين في بعض المواقف ، فقد أخرج الشيخان أنه قال : « اللهم اشدّد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »
 اللؤلؤ والمرجان رقم ٣٩٢ وكان الدعاء على مضر قبل أن تسلم .
 (٣٧) سورة المؤمنون ، الآية رقم ٤٩ .

أى أعطينا وأنزلنا على موسى التوراة ؛ لعل بنى إسرائيل يهتدون .
 وحين يكون الحديث عن بنى إسرائيل ينسب الإيتاء لهم ؛ مثل قوله
 تعالى :

﴿ ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ، ورزقناهم من
 الطيبات ، وفضلناهم على العالمين ، وآتيناهم بينات من الأمر ﴾ (٣٨) .
 فالإيتاء هنا لبنى إسرائيل ؛ لأنهم هم الغرض والهدف ، خاصة وأن الآية
 الكريمة فى مقام تعداد النعم التى وهبها الله سبحانه إياهم .
 وبيان النعم الواردة على هذا النحو :

- ١ - إيتاء الكتاب ، وهو التوراة .
- ٢ - إيتاء الحكم ، وهو الحكمة فى القول ، والحكم لأنفسهم بعد أن
 كانوا عبيداً لفرعون .
- ٣ - إيتاء النبوة ، بمعنى أن النبى - عليه السلام - من بنى إسرائيل
 لا من غيرهم .
- ٤ - الرزق الطيب ، بعد أن كانوا فى ضيق ، فى حين أن فرعون وقومه
 انتقم الله سبحانه منهم بالضيق فى الرزق بعد أن كانوا فى سعة .
- ٥ - التفضيل على العالمين ، بمعنى تفضيلهم على الأمم فى زمانهم ، لا فى
 كل الأزمان (٣٩) .

(٣٨) سورة الجاثية ، الآيتان رقما ١٦ ، ١٧ .
 (٣٩) ولتوضيح هذا الجانب المهم نورد هنا بعض النصوص ، واستنباط ما يتيسر منها
 بعون الله تعالى :

- (١) يقول الله تعالى مخاطباً نبيه محمداً - ﷺ - ومن آمن به :
- ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ؛ تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ،
 وتؤمنون بالله ، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ﴾ (آل عمران ، ١١٠) =

(ب) ويخاطب نبيه أيضاً بقوله :

﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾
(النساء ٤١) .

أى إذا جئنا من كل أمة بنبي يشهد على أمته ، وجئنا بك يا محمد شهيداً عليهم جميعاً ، الأمم والأنبياء .

(ج) عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ :
« أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأبما رجل أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس كافة ، وأعطيت الشفاعة » أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم ٢٩٩ وعزاه صاحب مفتاح كنوز السنة أيضاً إلى أبى داود ، والترمذى ، والنسائى ، والدارمى ، ومسنند زيد بن على ، وأحمد ، ومسنند الطيالسى . ص ٢٢٥ ، ص ٤٥٢ .

(د) وعن الخليفة الراشد على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ :

« أعطيت ما لم يُعط أحد من الأنبياء » فقلنا يا رسول الله ما هو ؟ قال : « نصرت بالرعب ، وأعطيت مفاتيح الأرض (بمعنى دخول الإسلام فيها) وسُميت أحمد ، وجعل التراب لى طهوراً ، وجعلت أمتى خير الأمم » .

تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وإسناده حسن . ابن كثير عند تفسيره الآية آل عمران ١١٠ .

والتسمية بأحمد واردة بالقرآن الكريم بسورة الصف . قال تعالى على لسان عيسى - عليه السلام :

﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ﴾ (الصف ٦) .

(هـ) وعن درة - رضى الله عنها - وهى بنت أبى لهب عم النبي - ﷺ - قالت :
قام رجل لى النبي - ﷺ - وهو على المنبر - فقال : يا رسول الله ، أى الناس خير ؟ قال :
« خير الناس أقرامهم ، وأتقاهم لله ، وآمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر ، وأوصلهم للرحم » رواه أحمد فى مسنده ، والنسائى فى سننه ، والحاكم فى مستدركه ، كما نقله ابن كثير =

بالتفسير .

(و) وقال النبي - ﷺ - مخاطباً أمته :

« أنتم توفون سبعين أمة ؛ أنتم خيرها ، وأكرمها على الله عز وجل » .

ابن كثير عند تفسير قوله تعالى :

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين ﴾

وعزا الحديث إلى أحمد ، وجامع الترمذى ، وسنن ابن ماجة ، ومستدرک الحاكم من رواية حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه ، وهو حديث مشهور وقد حسنه الترمذى .

(ز) والنبي - ﷺ - هو سيد ولد آدم يوم الحشر . وعزا ذلك صاحب مفتاح كنوز السنة إلى أبى داود ، وأحمد وغيرهما . ص ٤٥١ .

وهو إمام الأنبياء وخطيبهم يوم البعث وعزا هذا إلى أحمد ص ٤٥١ .

(ح) وفي الأثر عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت

للناس ﴾ قال : خير الناس للناس تأتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم ، حتى يدخلوا فى الإسلام . رواه البخارى ج ٦ ص ٤٧ كتاب التفسير ، باب تفسير سورة آل عمران .

وفى ضوء النصوص السابقة على تنوعها تبين لنا أمور :

الأول : أن تفضيل بنى إسرائيل على العالمين فى زمانهم لا فى كل الأزمان .

الثانى : أن النبى محمداً - ﷺ - هو سيد الأنبياء وأفضلهم فى الدنيا والآخرة .

الثالث : أن أمة محمد - ﷺ - هى خير الأمم ، وأفضلها على الإطلاق .

الرابع : وأن هذا التفضيل له تكاليف وواجبات ، وليس محابة لهذه الأمة .

والرابع : وأن من هذه التكاليف :

- الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

- والإيمان بالله سبحانه وتعالى .

- هداية الكثير من الناس .

=

٦ - النجاة من آل فرعون ، قال تعالى :

﴿ وإذ نحيينكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ (٤٠) .

٧ - انفلاق البحر لهم ، قال تعالى :

﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم ، وأغرقنا آل فرعون ، وأنتم تنظرون ﴾ (٤١) .

٨ - تظليل الله سبحانه لهم بالغمام .

٩ - وإنزاله المن والسلوى عليهم ؛ قال تعالى :

﴿ وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ (٤٢) .

١٠ - تفجر الحجر لهم اثنتى عشرة عينا قال تعالى :

- الكرم ، وصلة الرحم .

- نصر نبيها بخوف الأعداء منه .

- وإعطاؤه مفاتيح الأرض .

- ورخصة التيمم .

وهذه الصفات المنصوص عليها هنا ، والصفات الأخرى الواردة في نصوص أخرى تؤكد أن الخيرية لأمة الإسلام ، أكانت من العرب أم من العجم ، أم منهما معاً ، لا كما يتشدد به الملحدون من العرب من الخيرية المرادة للأمة العربية على أى وضع كانوا مسلمين أو مشركين على أى لون هذا الشرك ، وهم يعلمون كذب أنفسهم ، وإنما يتظاهرون به بدعواهم لخداع عامة المسلمين ، ليؤمنوا فى النهاية بما هم عليه من إلحاد . انتهى والله أعلم بالصواب .

(٤٠) سورة البقرة ، الآية رقم ٤٩ .

(٤١) سورة البقرة ، الآية رقم ٥٠ .

(٤٢) سورة البقرة ، الآية رقم ٥٧ .

﴿ وإذ استسقى موسى لقومه ، فقلنا : اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، قد علم كل أناس مشربهم ، كلوا واشربوا من رزق الله ﴾ (٤٣) .

وقد اعتبر الله سبحانه أن هذه النعم تكريم للأيام التي وقعت فيها كما قال :
﴿ وذكروهم بأيام الله ﴾ (٤٤) .

وقال أيضاً :

﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ (٤٥) .

وقال تعالى مخاطباً أهل الكتاب :

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ (٤٦) .
وقال أيضاً :

﴿ يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم ﴾ (٤٧) .

والمراد بما نزلنا القرآن الكريم ، فقد قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً - ﷺ - بعد الحديث عن اليهود والنصارى والكتابين : التوراة والإنجيل :

﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ، ومهيماً عليه ﴾ (٤٨) .

مؤمن آل فرعون .

عرفنا فيما سبق عن إيمان بنى إسرائيل أن طائفة منهم آمنت ، وكفرت

-
- | | |
|-----------------------------------|------------------------------------|
| (٤٣) سورة البقرة ، الآية رقم ٦٠ . | (٤٦) سورة النساء ، الآية رقم ٦٥ . |
| (٤٤) سورة إبراهيم ، الآية رقم ٥ . | (٤٧) سورة النساء ، الآية رقم ٤٧ . |
| (٤٥) سورة الدخان ، الآية رقم ٣٢ . | (٤٨) سورة المائدة ، الآية رقم ٤٨ . |

طائفة أخرى ، ومن آمن منهم كان على خوف من فرعون وملئه ، وأن رسالة موسى - عليه السلام - كانت لإنقاذ بنى إسرائيل من طغيان فرعون ، وليس معنى ذلك حجر الدعوة على بنى إسرائيل ؛ فقد كان التكليف أصلاً بقوله تعالى : ﴿ اذهبوا إلى فرعون إنه طغى ، فقولوا له قولاً لنا ؛ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ (٤٩) .

فالدعوة في أصلها عامة لكل من سمع بها ، وخاصة ببني إسرائيل كما يفهم من قوله :

﴿ أن أرسل معي بنى إسرائيل ﴾ (٥٠) .

هذا ومن طلائع المؤمنين من قوم فرعون غير الإسرائيليين امرأة فرعون ، ضرب بها المثل في الإيمان ، ودعت ربها أن تكون من الفائزين بالجنة في الآخرة ، والنجاة في الدنيا من فرعون وأعمال فرعون ، وكذلك من كل ظالم متكبر ، وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ؛ إذ قالت : رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، ونجني من فرعون وعمله ، ونجني من القوم الظالمين ﴾ (٥١) .

ومنهم أيضاً مؤمن آل فرعون .

وجد التشكيل بمن آمن من بنى إسرائيل ، ومطاردتهم ، وذبح أبنائهم الذكور ، والتصميم على قتل صاحب الدعوة الأول موسى - عليه السلام - فرأى هذا الرجل المؤمن ، والذي كتم إيمانه أن يقف محامياً ومدافعاً عن موسى (٥٢) - عليه السلام - بشكل علني في الدفاع ، وبشكل سري في الإيمان .

(٤٩) سورة طه ، الآيتان رقما ٤٣ ، ٤٤ .

(٥٠) سورة الشعراء ، الآية رقم ١٧ .

(٥١) سورة التحريم ، الآية رقم ١١ .

(٥٢) ولقول كلمة الحق في الإسلام شأن كبير ، وخاصة إذا كانت في وجه سلطان جائر .

وتضمن دفاعه هذا حيثيات ، ودلائل على صدق موسى - عليه السلام - وكان دفاعه على هذا النحو :

- إنكم قد حكمتم على موسى بالقتل دون مبرر معقول ؛ مما يدعو إلى العجب والاستغراب ، وقد كان هو دونكم صاحب البينة والدليل ، وما يوم الزينة عنكم ببعيد ؛ شهد له أعلم الناس في صناعة السحر ، وتلك معجزة خارقة لا يتطرق إليها شك ، ثم هو يدعو إلى عقيدة واضحة . يقول :

= فعن أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال :

« أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »

رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن ، رياض الصالحين رقم ١٩٤ ص ١٠٤ باب في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . حقق هذه الطبعة ، وخرج الأحاديث : عبد العزيز رباح ، وأحمد يوسف الدقاق ، وراجعها الشيخ شعيب الأرناؤوط - دار المأمون للتراث . ومن تعليق الهامش « وفي سننه عطية العوفي وهو ضعيف . لكن الحديث قوى بحديث طارق بن شهاب الآتي »

وعن عبد الله طارق بن شهاب البجلي الأحمسي - رضى الله عنه - أن رجلاً سأل النبي - ﷺ - وقد وضع رجله في الغرز : أى الجهاد أفضل ؟ قال : « كلمة حق عند سلطان جائر » والغرز : ركاب الجمال .

رواه النسائي بإسناد صحيح ، وبالهامش : ورجاله ثقات ، وحسنه المنذرى فى الترغيب والترهيب . المرجع السابق رقم ١٩٥ .

وفى تفسير آية المائدة قال الصديق أبو بكر - رضى الله عنه : يأبها الناس ، إنكم لتقرعون هذه الآية :

﴿ يأبها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾

(المائدة آية ١٠٥)

وإني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه »

=

« ربي الله » (٥٣) وهو أيضاً على سبيل الفرض أحد شخصين :
 - كاذب في دعواه ، والكذب سيلحقه هو دوننا ، وسيجازى عليه .
 - أما إن كان صادقاً فسنحظى بما يعدنا في الآخرة من ثواب .

وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلاً ، أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ؛ إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ (٥٤) .

ومتى قيل هذا الكلام ؟

إنه قيل والموقف عصيب جداً ، وقد أجمع الملأ من ناحية ، وفرعون من ناحية أخرى على ذبح الأبناء ، واستحياء النساء ، وقتل موسى - عليه السلام .
 فمن هذا الإنسان الذي وقف في وجوههم جميعاً ينكر عليهم ما هم عازمون عليه ؟
 ومن هذا الإنسان الذي انتفض لقول كلمة الحق ليكون في موكب سادة الشهداء ؟

= رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى بإسناد صحيح ، وبالهامش . وأخرجه أحمد ، وإسناده صحيح ، وصححه ابن حبان . المرجع السابق رقم ١٩٧ .
 (٥٣) عن عروة بن الزبير - رضى الله عنهما - قال : قلت لعبد الله بن عمرو ابن العاص - رضى الله عنهما : أخبرنى بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله - ﷺ - قال : بينا رسول الله - ﷺ - يصلى بفناء الكعبة إذا أقبل عقبة بن أبى معيط ، فأخذ بمنكب رسول الله - ﷺ - ولوى ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر - رضى الله عنه - فأخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبى - ﷺ - ثم قال :

﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول : ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾

البخارى من حديث الأوزاعى الجزء ٦ ص ١٥٩ كتاب التفسير باب تفسير سورة المؤمن (غافر) ، وقال ابن كثير : انفرد به البخارى وتابعه محمد بن إسحاق عن إبراهيم عن أبيه به .
 (٥٤) سورة غافر ، الآية ٢٨ .

إنه مؤمن آل فرعون . وعلى سيرته العطرة سارت قوافل الأبطال .

وفى موقف فرعون وملئه يقول الله تعالى :

﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا ، قالوا : اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه ، واستحيوا نساءهم ، وماكيد الكافرين إلا في ضلال ، وقال فرعون : ذروني أقتل موسى ، وليدع ربه ؛ إني أخاف أن يبدل دينكم ، أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ (٥٥) .

وصعد مؤمن آل فرعون إنكاره عليهم شأن العقلاء من الدعاة في التدرج ، ففي الأول بين أن موسى - عليه السلام - ليس له أن يقتل ؛ بل علينا أن نستفيد من دعوته ، وهو هنا يبين الحال التي عليها فرعون من ملك ، وظهور في الأرض ، وتلك نعمة يجب أن يشكر عليها واهبها وخالقها . وجود النعمة مجلبة للنقمة والعذاب . قال تعالى :

﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض . فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ (٥٦) .

وأحس فرعون الجذ من الرجل ؛ فقد بدأ يوجه إليه النقد والإنكار ، وينذره بوعيد الله سبحانه . فما كان من فرعون - شأن كل ظالم حين يحس حرارة الدعوة - إلا أن رفض المبدأ في ذاته ، وهو تقديم النصيح ؛ فهو ليس محل نصيح . بل هو الذى ينصح فقط ، ويرى رأى للآخرين ، وليس بسبيل أى فرد أن يخرج من هذه الدائرة ، دائرة الاستسلام والانصياع له . ثم هو وقد ملأه الغرور يزعم أن رشاد الأمة ، وهدايتها ، هو وحده الذى يرسمها لها ، وليس من أحد غيره أن يقول ذلك . انظر إلى قوله تعالى على لسان هذا الفرعون :

﴿ قال فرعون : ما أرىكم إلا ماأرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ (٥٧) .

(٥٥) سورة غافر الآيتان ٢٥ ، ٢٦ .

(٥٦) سورة غافر الآية رقم ٢٩ .

(٥٧) سورة غافر الآية رقم ٢٩ .

كما قال سبحانه على لسانه أيضاً :

﴿ فقال : أنا ربكم الأعلى ﴾ (٥٨) .

فهل كان بوسع القوم أن يردوا عليه دعواه ؟ نعم إذا كان للحرية في الرأي وجود . ومتى كانت هذه الحرية مع الكبت والقمع ؟ ومتى كانت الحرية والطاغية يستبد ، ويستأثر بالسلطة ، ويستأثر بخيرات الأمة ؟

ولكن بوسع أصحاب الدعوات - وقد ادلهمت الخطوب ، واشتد أوار الظلم - أن يبددوا تلك الأتعة المزيقة . إن موسى - عليه السلام - قال له بلهجة الواصل المطمئن :

﴿ قال : لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾ (٥٩) .

وقال تعالى مبيناً وكاشفاً ما تنطوى عليه نفسية فرعون :

﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا ﴾ (٦٠) .

ومتى يخرج هذا اليقين إلى عالم الوجود ؟

حين تشتد الوطأة به ، ولهب الدعوة يتناولها بالعقاب ، حينئذ يستجدي العفو والنجاة .

قال تعالى :

﴿ حتى إذا أدركه الفرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين ، الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ (٦١) .

(٥٨) سورة النازعات الآية رقم ٢٤ .

(٥٩) سورة الإسراء ، الآية رقم ١٠٢ .

(٦٠) سورة النمل ، الآية رقم ١٤ .

(٦١) سورة يونس ، الآيتان رقم ٩٠ ، ٩١ .

ذاك إيمان تجارى أيها الطاغية :

- فلم يكن إلا وقت الهزيمة .

- ولم يكن صراحة بالإيمان بالله سبحانه وتعالى .

وهذا النوع من الإيمان لا ينجى صاحبه من العقاب .

واستمر مؤمن آل فرعون في دعوته ، وإنكاره على القوم ، وقد أخذ مرحلة ثالثة ، بعد إنكاره عليهم عزهم على قتل موسى - عليه السلام - وبعد إنذارهم بعقاب الله سبحانه على جحود النعمة .

واعتمدت المرحلة الثالثة هذه على النظر والتأمل في سير السابقين ، الذين أنزل الله سبحانه بهم عقابه ، وبين مؤمن آل فرعون في هذا أمرين :

- جانب الدعوة من بنى القوم ، وبذله الجهد في النصيح ، ثم إنكارهم عليه ، وكفرهم .

- جانب العقاب نتيجة هذا الإنكار والكفر .

ومؤمن آل فرعون في هذا يرسم طريقاً من طرق الدعوة ؛ حيث وجه النظر إلى أحداث الأمم ، واستخلاص العبر منها ، والعامل من استفاد وأفاد ، والجاهلون من ظلوا في غيهم يعمهون .

وفي ذلك يقول الله تعالى على لسانه :

﴿ وقال الذى آمن : يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ (٦٢) .

وتذكير مؤمن آل فرعون لقومه بمثل هذه السير ، والحال أنه لم يذكر في الآيات ما يدل على وحى أو إلهام له ، وأن الداعية حين يعرض هذه السير على

(٦٢) سورة غافر ، الآيتان رقما ٣٠ ، ٣١ .

المخاطب بهذا النحو - فإنه يذكر ما يمكن للمخاطب أن يتذكره ، فدل ذلك على :

- أن فرعون وقومه على جانب من المعرفة بمثل هذه السير .
- وأن مؤمن آل فرعون استغل معرفتهم هذه ، فاختارها للعظة والاعتبار .

- ويخطو مؤمن آل فرعون من جديد إلى المرحلة الرابعة :
- مرحلة الوعيد بما يلقونه في الآخرة بعد أن عرفوا أمرين :
- أن بأس الله سبحانه إذا جاء فلا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .
- وأن سير السابقين ، وما حدث للمنكرين على الدعوات دليل على ذلك .

قال الله تعالى :

﴿ويا قوم ، إني أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله ، فما له من هاد﴾ (٦٣) .

ويقترّب مؤمن آل فرعون أكثر فيأخذ من سير السابقين سيرة أول نبي من بنى إسرائيل قدم إلى مصر ، وهو يوسف عليه السلام - واستعرض موقف الناس من دعوته ؛ فقد كان الناس في حياته يشكّون فيما جاءهم به .

وحين مات ثابوا إلى جانب من الرشد ، وأيقنوا أنه رسول .

ولكنهم وقعوا في خطأ جديد ، وهو الحكم بأن الله سبحانه سوف لا يبعث رسولاً من بعده . وتلك الفروض لا تكلف الناس شيئاً . فحين تكون الدعوة قائمة ينكرونها ، وحين يموت الداعية الذي عانى منهم يتباكون عليه ، ولا يحرك فيهم هذا التباكي جانب العظة ، بل على العكس يحكمون على مستقبلهم بالضياح وعدم إرسال رسول جديد . وفي هذا يقول الله تعالى :

(٦٣) سورة غافر ، الآيتان ٣٢ ، ٣٣ .

﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فمازلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ، الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ، كبير مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ (٦٤) .

ومع امتداد النفس في الدعوة من مؤمن آل فرعون ، وسوق الدليل تلو الدليل ترغيباً في الحق ، وترهيباً من الكذب والظلم . فلم يكن من فرعون إلا رَدَّان :

— الرد السابق الذي تعود فرعون التخويف والتهديد به ، من حرمان الناس حريتهم في الرأي ، وأن رأيه فقط سبيل رشادهم .

— ورد جديد حين اشتدت عليه حرارة الدعوة وقوتها ...

وإن كان رده الأول يدل على جهل ، فالرد الثاني يدل على غباء ؛ إنه ظن إذا ما صعد إلى مكان عالٍ يبنى له ؛ حيث يقترب من السماء يبحث عن إله موسى ، الذي يدعو إليه ، هكذا تصور فرعون بغيائه .

﴿ وقال فرعون : يا هامان ، ابن لي صرحاً ؛ لعل أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ، وإني لأظنه كاذباً ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل ، وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾ (٦٥) .

ثم دعا مؤمن آل فرعون إلى منهج جديد واجب الاتباع والاعتقاد .

١ — أن قيادة البشرية لا يجوز أن تكون بأيدي الطغمة الظالمة ، والتي تسلطت على رقاب البشر ، وحرمت الناس مجرد الرأي .

٢ — أن قيادة البشرية تكون للمؤمن الذي يسير على منهج الله سبحانه .

٣ — أن قيادة المؤمن للبشرية رشاد للأمة أولاً ، ويمتد رشدها إلى كل الجوانب .

(٦٤) سورة غافر ، الآيتان ٣٤ ، ٣٥ .

(٦٥) سورة غافر ، الآيتان ٣٦ ، ٣٧ .

وفيما سبق يقول تعالى :

﴿وقال الذى آمن : يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد﴾ (٦٦) .

٤ - أن الدنيا مجال عمل على منهج سوى .

٥ - وأن العاقل من يراعى فى عمله الدينوى الجزاء الأخرى .

٦ - وأن العقاب بمقدار الجريمة .

٧ - وأن من شروط العمل المقبول :

١ - أن يكون صالحاً بعيداً عن الفساد والإفساد فى الأرض .

ب - أن يكون على أساس من إيمان صحيح .

٨ - أن الرجل والمرأة فى الجزاء سواء عند رب العباد .

٩ - وأن من عمل العمل الصالح بعد إيمان صحيح يدخل الجنة فى

الآخرة .

١٠ - وأن من عمل عملاً سيئاً ، أو عمل عملاً صالحاً دون إيمان

صحيح فجزأؤه جهنم .

وفى هذا يقول الله تعالى :

﴿يا قوم ، إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هى دار القرار ، من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ (٦٧) .

إثارة وجدان القوم ومشاعرهم :

أى قلب يسمع هذا النداء الرقيق ولا يتأثر به ؟

(٦٦) سورة غافر ، الآية رقم ٣٨ .

(٦٧) سورة غافر ، الآيتان رقما ٣٩ ، ٤٠ .

إن مؤمن آل فرعون ، وقد ورد على لسانه بعض الجوانب التي يجب أن ينتهجها المسلم بدأ يثير فيهم المشاعر والوجدان بأرق أسلوب وأجمله .

إنه يعرض صوراً متقابلة ومتضادة ؛ صوراً فيها الهدى والرشاد وصوراً فيها الضلال والجهل . يعرضها في صورة تعجب واستغراب ؛ فالقوم يدعونه إلى كفر يؤدي إلى النار ، وهو يدعوهم إلى النجاة منها بالإيمان .

والقوم يدعونه إلى مبدأ الكفر الذي ليس عليه أى دليل سوى الجحود ، وهو يدعوهم إلى العزيز الغفار .

وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ويا قوم ، مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار ، تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾ (٦٨) .

وفي ختام القصة نلمح جانبيين :

١ - الجانب الأول : التعقيب الذي ورد على لسان مؤمن آل فرعون ؛ وذلك بالحكم على معبودات المشركين بأنها لا تستجيب للدعاء لا في الدنيا ، ولا في الآخرة وذلك واضح بشأن الأوثان والأصنام ، قال تعالى :

﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ، وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ (٦٩) .

﴿إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ (٧٠) .

(٦٨) سورة غافر ، الآيتان ٤١ ، ٤٢ .

(٦٩) سورة الأحقاف ، الآيتان ٥ ، ٦ .

(٧٠) سورة فاطر ، الآية رقم ١٤ .

أما بشأن فرعون الذى عبدوه أيضاً من دون الله سبحانه ، فهو لا يستجيب لمطالبهم ، وإن كان يملك أن يتكلم .

وفى تعقيب مؤمن آل فرعون أيضاً أننا جميعاً سنرد إلى ربنا سبحانه ، وأن أصحاب النار هم المسرفون دون غيرهم . وأن يوم القيامة يتذكر من لم يتذكر فى الدنيا ، ولكن بعد فوات الأوان ، ويختم حديثه بتفويض أمره إلى الله سبحانه بعد أن بذل كل الأسباب ، ووسائل النصح والإرشاد . وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ لا جرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأن مردنا إلى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار ، فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾ (٧١) .

٢ - والجانب الثانى : تعقيب الله سبحانه على مؤمن آل فرعون من قومه ؛ وذلك بحفظه من مكرهم . وأن هذا المكر رُدَّ عليهم :

﴿ ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ (٧٢) .

وأن جزاء فرعون ، ومن تبعه سوء العذاب ، من نار يعرضون عليها غدوا وعشيا فى قبورهم ، ثم هم بعد ذلك يدخلون جهنم خالدين فيها أبداً . (٧٣)

(٧١) سورة غافر ، الآيتان ٤٣ ، ٤٤ .

(٧٢) سورة فاطر ، الآية ٤٣ .

(٧٣) والسياق على هذا اللفظ يفيد أن آل فرعون ، ومن على شاكلتهم من الكفر سيواجهون عذابين :

١ - عذاب القبر المستبطن من قوله تعالى :

﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشيا ﴾ .

٢ - عذاب جهنم بالآخرة بعد البعث ، والتى صرحت الآية الكريمة به فى قوله تعالى :

﴿ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ .

وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب ، النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ (٧٤) .

دروس وعبر :

- إذا ما توفرت للداعية الحجة القوية الدامغة في حوار وتحد ، كان وسط حشود الناس أبلغ أثراً ، وأعم فائدة لصالح الدعوة .

= وفي الباب أحاديث كثيرة نختار منها في هذا المقام :

عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : دَخَلْتُ عَلَيَّ عَجُوزَانِ مِنْ عَجَزِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ فَقَالَتَا لِي : إِنَّ أَهْلَ الْقُبُورِ يَعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ ، فَكَذَبْتُهُمَا ، وَلَمْ أُنْعِمْ أَنْ أَصْدَقَهُمَا ، فَخَرَجَتَا ، وَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ - ﷺ - فَقُلْتُ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ عَجُوزَيْنِ (وَذَكَرْتُ لَهُ) فَقَالَ : « صَدَقْتَا ؛ إِنَّهُنَّ يَعَذَّبُونَ عَذَاباً تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ كُلُّهَا ، فَمَا رَأَيْتَهُ بَعْدَ فِي صَلَاةٍ إِلَّا تَعُوذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ » أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ج ٨ ص ٩٧ ، ٩٨ كتاب الدعوات ، باب التعوذ من الفتن .

وكان النبي - ﷺ - يأمر بخمس : هي :

« اللهم إني أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك أن أُرَدَّ إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا (يعنى فتنة الدجال) وأعوذ بك من عذاب القبر » المصدر السابق .

وفي الباب عند البخارى حديثان آخران عن أم خالد بنت خالد ، وأنس ابن مالك - رضى الله عنهما .

والأحاديث تدل على ثبوت عذاب القبر ، وجواز تفسير الآية الكريمة على النحو الوارد بالأصل . والله أعلم .

(٧٤) سورة غافر الآيتان رقما ٤٥ ، ٤٦ .

- يستطيع الحاكم الظالم أن يضلل شعباً بأكمله بإخفاء الحقائق عنه ،
وتصوير الدعاة بأنهم مفسلون في الأرض ، ولكن حين يفتح الشعب عينيه على
الحقيقة يفتضح أمره ، ويصاب بانهيار وخذلان .
- بغية المنافقين من طاغيتهم الأجر والغنم ، وبغية الداعية لإنجاح دعوته ،
وهداية البشر إلى الطريق المستقيم ، وشتان ما بين البغيتين .
- إذا ما التقى الباطل والحق وجها لوجه دون قناع ، فلا بد أن يظهر الحق
ويزهق الباطل ، ويؤمن العديد من البشر الذين سبق خداعهم .
- لا مكان في المعركة لخائف ، ولذا كانت النصيحة ﴿ لا تخف إنك
أنت الأعلى ﴾ .
- العقلاء من البشر هم الذين يسرعون إلى الإيمان وقد تبين لهم
الصواب . شأن السحرة .
- على الداعية أن يعتقد أن من بلغ من العتو والإفساد مبلغ فرعون ،
لا ينتظر منه إيمان ، ولكن دعوته إغذار إلى الله سبحانه ، وزعزعة الأرض التي
يقف عليها ، والقاعدة البشرية التي يتقوى بها فرعون .
- إذا ما رأى الطاغية نجاح دعوة إصلاحية أصيب بجنون ، وسرعان
ما يلجأ إلى العنف والتكيل وتلفيق التهم الباطلة ، وقتل البراء ، وتعذيب
المؤمنين ، وتقطيع أجسادهم وهم أحياء .
- قوة المؤمن أقوى من التكيل والتعذيب ، وهذا مما يزيد من غيظ الطغاة
الظلمة .
- دعاء المؤمن ألا يصيبه مكروه ، وألا يتعرض لفتنة ، فإذا أرغم عليها
صبر واحتسب الأجر عند الله سبحانه .
- فُضِّلَ بنو إسرائيل على غيرهم في زمانهم ، حين تجمعت لديهم حيثيات
التفضيل .

- « أفضل ما قلته أنا والنيبون من قبلى لا إله إلا الله » (٧٥) فالعقيدة التى كانت الدعوة إليها من جميع الرسل واحدة .

ولكن التشريع يختلف باختلاف الأزمنة ، وقد ختم بتشريع الرسالة المحمدية .

- أن أمة محمد - ﷺ - أفضل الأمم إذا ما حافظت على سبب التفضيل وأن النبى - ﷺ - هو أفضل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام .

- قول كلمة الحق أمام سلطان جائر أفضل الجهاد ؛ كما لها من أثر كبير فى نفوس الناس . كما حدث من مؤمن آل فرعون .

- من يريد قول كلمة الحق عليه أن يدرس نفسية المخاطب ، وكيف يتلرج معه ؟ ويستدرجه ، والأسلوب الذى يخاطبه به .

- من يريد قول الحق عليه أن يضع نصب عينيه امتداد حياته على الحق ، فهو يريد النصر ، ولو واتاه الموت بالطريق رَحَّبَ به وكان من سادة الشهداء .

- الداعية على دراية بأحداث الأمم السابقة ، والتاريخ القديم والمعاصر ، كما يعلم أحوال البشر واجتماعاتهم ، ونفسية الناس وبأى الأشياء تتأثر ؟ كما نلمح فى حوار مؤمن آل فرعون .

- الداعية يستغل الفرصة فى حوار مع الطاغية ، ويوجه الخطاب إلى من حوله إثارة لهم بالأهمية فرمما يتقبلون عليه ، ويؤمنون بالحق .

- شغل الداعية الشاغل له دائما العقيدة الصحيحة ، يؤمن بها ، ويدعو إليها ويفرح بمن آمن بها . كما أنه فى سبيل ذلك أيضا تحطيم العقائد الباطلة من عبادة إنسان أو مبدءاً أو صنم ...

- لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ، وإن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

(٧٥) سبق هذا الحديث فى مقدمة الكتاب .

الانتقام من المفسدين في الأرض

- مقدمات .
- تجمع بنى إسرائيل ، والاتجاه صوب البحر ليلاً
- غرق فرعون وجنوده .
- إيمان الفراعنة .
- استخلاف المؤمنين .
- دروس وعبر .

مقدمات .

سبق أن عرفنا أن الله سبحانه أرسل نبيه موسى — عليه السلام — في تسع آيات إلى فرعون وقومه ، وأن آيتي العصا واليد كانتا في مقدمة عرض الدعوة ، وأن الآيات السبع الباقية كانت في موقفين :

الموقف الأول : حين تمرد فرعون وقومه على آيتي العصا واليد أصابهم الله سبحانه بآيتي السنين (الجذب في الأرض) ونقص الثمرات . فكانت الآيتان ردًا على تمردهم ، وزعمهم بأن موسى يفسد في الأرض ؛ فجاءهم العذاب من حيث اتهموا زورا وبهتانا النبي موسى — عليه السلام .

الموقف الثاني : حين إصرارهم على الكفر ، وعدم التأثر بآيتي السنين ، ونقص الثمرات ، أرسل الله سبحانه عليهم : الطوفان والجراد والقمل ، والضفادع ، والدم . وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ، فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ (١) .

وشعر فرعون وقومه باشتداد الوطأة عليهم . فتوجهوا إلى موسى — عليه السلام — زاعمين أنه إذا ما كشف ربه العذاب عنهم فسيؤمنون ، ويرسلون معه بني إسرائيل . وهذا أول موقف يظهر فيه خوف فرعون ، وأنى لخوف يفيد صاحبه إذا ما خلا من إيمان ؟ فقد قال ادع لنا ربك ولم يقل ادع لنا ربنا . وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا : يا موسى ، ادع لنا ربك بما عهد عندك ، لننكشف عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بني إسرائيل ، فلما كشفنا

(١) سورة الأعراف ، الآيتان رقمًا ١٣٢ ، ١٣٣ .

عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه ، إذا هم ينكثون ﴿٢﴾

ومن دعاء موسى — عليه السلام — عليهم بعد أن ازداد طغيانهم
ما ورد في القرآن الكريم على لسانه :

﴿ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا
العذاب الأليم . قال : قد أجيب دعوتكما ، فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين
لا يعلمون ﴿٣﴾ .

تجمع بنى إسرائيل والاتجاه صوب البحر :

نكث فرعون العهد الذى أخذه على نفسه بأن يؤمن إذا ما كشف عنهم
الرجز ، فما كان إلا المرحلة الأخيرة فى الانتقام ، بالطمس على الأموال ، وإلقاء
الرعب فى القلوب ، والإهلاك . كما ورد فى دعاء موسى — عليه السلام —
السابق .

تجمع بنو إسرائيل خلف موسى — عليه السلام — عازمين على الخروج
من مصر ؛ هربا من ظلم فرعون وقومه ، وحتى لا يصيبهم من العذاب
ما سيصيب القوم الظالمين .

وتلقى موسى — عليه السلام — الوحي من الله سبحانه بأن تتحرك
مسيرة بنى إسرائيل بقيادته ليلاً .

﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى ﴿٤﴾ .

﴿فأسر بعبادى ليلاً إنكم متبعون ﴿٥﴾ .

وبدأ التحرك فى جنح الظلام ، وعلم فرعون وقومه بشأن هذا التحرك ،

(٢) سورة الأعراف ، الآيتان ١٣٤ ، ١٣٥ . (٤) سورة طه الآية رقم ٧٧ .
(٣) سورة يونس الآيتان ٨٨ ، ٨٩ . (٥) سورة الدخان الآية رقم ٢٣ .

ولم يكن بوسعهم إلا أن يتبعوهم ليدركوهم ، ولخطورة هذا الإدراك تولت العناية الإلهية قيادة المسيرة بواسطة النبي موسى — عليه السلام .

ولم يكن اتجاه موسى — عليه السلام — إلى البحر ؛ انتحارا حاشاه عن ذلك ، ولكن الوحي قد رسم له الخطة .
ولنتأمل فرعون في هذه الحالة .

إنه يسير خلف موسى — عليه السلام — وبنى إسرائيل ، ويعتقد أنه سيدركهم ويحاصرهم . البحر من أمامهم ، وفرعون وجنوده من خلفهم . فأتى لهم من فرار ، وفرعون وجنوده أقوى عدداً وعدة ؟ ! .

وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ وجاوزنا بنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدواً ﴾ (٦) .

وبزغت الشمس من مشرقها ، وأضاءت ساحة المعركة ، فإذا بجمعين . يرى كل منهما الآخر . بنو إسرائيل قرب الشاطئ ، وفرعون وجنوده خلفهم من جهة الغرب . في هذه اللحظة ظن بنو إسرائيل السوء بأنفسهم ، وتصوروا أنهم مدركون لا محالة ، ولكن النبي موسى — عليه السلام — على ثقة بنصر الله وتأييده وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ فأتبعوهم مشرقين ، فلما تراءى الجمعان ، قال أصحاب موسى : إنا لمدركون . قال : كلا ؛ إن معى ربي سيهدين ﴾ (٧) .

(٦) سورة يونس الآية رقم ٩٠ .

(٧) سورة الشعراء الآيات من رقم ٦٠ إلى رقم ٦٢ .

وكان التعبير على لسان موسى — عليه السلام — بقوله تعالى : ﴿ إن معى ربي ﴾ بتقديم المعية ؛ لأن بنى إسرائيل أصيبوا بهلع ، وذعر ، حين اقتراب فرعون ، وجنوده منهم ، وتصوروا أنهم مدركون لا محالة ، فتقديم المعية إشعار سريع بالمدد ، والقوة اللذين يريد هما بنو إسرائيل ، فهم في حال شك من أنفسهم . أما التعبير القرآني الذى ورد على لسان =

غرق فرعون وجنوده :

وأصبح المشهد على هذا النحو :

بنو إسرائيل ، وقد حملوا أمتعتهم التي خرجوا بها قرب الماء . خطاهم متجهة إلى الشرق ، وعيونهم تنظر إلى الخلف جهة الغرب ، حيث يتبعهم فرعون وجنوده ، وعلى وجوه بني إسرائيل علامات الذعر ؛ توقعاً لخطر بهم سينزل . ويوجهون كلامهم إلى النبي موسى — عليه السلام — قائلين له في اضطراب : ﴿ إنا للمدركون ﴾ ويرد عليهم مطمئناً إياهم ، وبلهجة الواثق من مدد الله القوى المتين ، ونافياً لما يتصورونه من إدراك فرعون وجنوده لهم قائلاً : ﴿ إن معي ربي سيهدين ﴾ .

ومن يرى موقفاً على هذه الحال وهو متوسط الإيمان يصيبه ما أصاب بني إسرائيل من خوف .

ولكن الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — والأخيار الصالحين المتقين يعتقدون بأن الله سبحانه سيجعل لهم مخرجاً ، ولا يتخلى عنهم أبداً ، وهو وإن وضع عباده في مثل هذا الموقف فهو يختبرهم ، ويمحص قلوبهم ، ويميز الخبيث من الطيب ، والكاذب من الصادق .

= النبي محمد ﷺ — وهو وصاحبه أبو بكر في الغار ﴿ لا تخزن إن الله معنا ﴾ حيث قدم لفظ الجلالة على المعية ؛ لأن المخاطب وهو الصديق لم يكن في شك مثل بني إسرائيل ، وكان خوفه على النبي ﷺ — فناسب تقديم لفظ الجلالة حيث الأنس به في تلك الوحشة ، وناسب تقديم المعية هناك حيث الإشعار بالقوة الغالبة التي لا تقهر أبداً من أى قوة أخرى وقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي بكر — رضى الله عنه — قال : قلت للنبي ﷺ — وأنا في الغار : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا . فقال : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » (اللؤلؤ والمرجان ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي بكر الصديق — رضى الله عنه . ص ٦٣١ رقم ١٥٤٠) فتأمل الفرق في التعبيرين لاختلاف المخاطبين في الموقفين والله أعلم بالصواب .

ونزل الوحي الكريم على جناح السرعة ، يحمله جبريل الأمين — عليه السلام .

﴿ فَأَوْحِينَا إِلَى مُوسَى . أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ ﴾ (٨) .

أكان يظن بنو إسرائيل أن هذا سيم ؟ إنهم ما كانوا يتصورون ذلك أبداً ، ولا قريباً منه ، ولعلهم يعتبرون ويتعظون .

إن العصا التي انقلبت ثعباناً بقدرة الله سبحانه معجزة وآية لفرعون ومن كان معه ، هي الآن تمثل إشارة لحدث هائل . أى علاقة بين عصا وثعبان ؟ وأى علاقة بين عصا وبحر ؟ لا علاقة إلا أن كلا منها من خلق الله تعالى . والله سبحانه يجرى الأحداث مع الأسباب لا بالأسباب ، وإلا فالسببية المعتادة هنا معلومة ، وما كانت العصا إلا إشارة البدء لمعجزة جديدة في عالم بنى إسرائيل ، وعالم الرسائل .

وانفلق البحر فكان كل فرق كالطود الهائل العظيم . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى إن الطريق بين هذه الأطواد غير مبلل بالماء ؛ فلا طين تسوخ فيه الأقدام فتتعطل المسيرة وتبطل ولا حجارة تصد وجوه القوم ، وتدمى أقدامهم ، ولا خوف من انطباق الأطواد ليكون البحر بصفحة مستوية . فمن خلق الأطواد هو الذى سيبقيها حتى يتحقق الغرض منها وهو النجاة . وتأمل هذا كله في هذا التعبير القرآنى ، قال تعالى :

﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً ، لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى ﴾ (٩) .

ولنتصور أيضاً مجموع الأحداث وهم في طريق معبد كهذا في خليج السويس بالبحر الأحمر ؛ فعبور البحر الأحمر ليس بالطريق إلى أرض فلسطين ،

(٨) سورة الشعراء ، الآية رقم ٦٣ .

(٩) سورة طه ، الآية رقم ٧٧ .

وإنما عبور خليج السويس هو الطريق إلى سيناء ، والطور ، ثم الاتجاه إلى الشمال الشرقى إلى فلسطين . وليس طريق القوافل التى كانت تقدم وتروح بين مصر وبلاد الشام ، فما سبق من أحداث فى قصة يوسف - عليه السلام - علمنا أن الإبل هى التى كانت تحمل الأمتعة والحبوب ولم يكن فى مسيرة هذه القوافل سفن ، وربما سلك موسى - عليه السلام - وقومه هذا الطريق بوحي من الله سبحانه ، أو باجتهاد منه تضليلاً لفرعون وجنوده (١٠) ، وكان الوحي عند الشاطئ .

وإن جاز لنا أن نتصور شيئاً فى هذا الموقف فنقول :

- أضيق نقطة فى خليج السويس عرضها ١٥ كم غير قمة الرأس .
- وإذا ما تصورنا هذه المسافة يمكننا أن نستنبط .
- أن هذه المسافة من السهل على أصحاب موسى - عليه السلام - أن يتجاوزوها فى ساعة من الزمن .
- وأن هذا الزمن القصير سهل على النفس الهاربة أن تتحمله دون معاناة .

— وأن الشاطئ الآخر حيث سيناء يرى بالعين المجردة ، فتكون الرؤية حافزاً على السرعة فى السير .

هذا من ناحية قوم موسى - عليه السلام .

وأما من ناحية فرعون وجنوده .

- فإن هذه المسافة (١٥ كم) يمكنها أن تستوعب جيشاً كاملاً بين الشاطئين ، ولا يتبقى جزء منه لم ينزل إلى الطريق المضروب فى البحر .

(١٠) وكما حدث من النبى — ﷺ — حين اتجه فى الهجرة إلى جنوب مكة والطريق المعتاد إلى المدينة نحو الشمال ؛ تضليلاً لقريش الذين سيلاحقونه .

— كما أن الوقت الذى يستغرق النزول من جميع أفراد الجيش ، يتم قبل خروج مقدمة هذا الجيش .

والآيات الكريمة يفهم منها غرق الجيش بأكمله مع فرعون .

وتأمل فى ذلك قوله تعالى :

﴿ وأزلفنا ثم الآخرين ، وأنحينا موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا الآخرين ﴾ (١١) .

أى قربنا إلى البحر فرعون وجنوده .

ولأن الغرض من هذه الأحداث نجاة المؤمنين من الظالمين كان تأكيد نجاتهم جميعاً ﴿ وأنحينا موسى ومن معه أجمعين ﴾ وبالمقابل كان إغراق الآخرين .

وقيمة التأكيد فى الأول دون الثانى .

أن نجاة الكل تتحقق بنجاة آخر جندى فى مؤخرة قوم موسى — عليه السلام — ولا تكتمل النجاة إلا بعدم خروج أى واحد من جنود فرعون ، لما فى ذلك من الخطورة على أحد بنى إسرائيل ، وحيث لا خطورة من بقاء جندى من جنود فرعون على الشاطئ الغربى لم يتمكن بعد من النزول — وإن كان الواقع أنهم نزلوا جميعاً — فلم يلزم التأكيد مع الإغراق ، كما لزم التأكيد مع الإنجاء ، والله أعلم بالصواب .

وفى هذا المقام يمكننا أن نستببط هذا المشهد أيضاً .

— قوم موسى — عليه السلام — على الشاطئ الشرقى فى سيناء ، ينظرون إلى من خلفهم .

— قوم فرعون بالطريق اليبس ، وقد استوعبهم .

ويتغير المشهد إلى :

(١١) سورة الشعراء ، الآيات من رقم ٦٤ ، إلى رقم ٦٦ .

— إطباق الأطواد على فرعون وجنوده جميعاً ، وفي ذلك من الهول ما فيه .

— وفي ذلك من الفرج ما فيه لبنى إسرائيل ، وموسى — عليه السلام .
يقول الله تعالى :

﴿ فَأَتَعْتَهُمُ فِرْعَوْنَ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (١٢) .
ويقول أيضاً :

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ . فَانْظُرْ ، كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ؟ ﴾ (١٣) .
ويقول :

﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ، فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ؛ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بآيَاتِنَا ، وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (١٤) .
ويقول :

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (١٥) .
والتعبير باليم في الآيات يفسر بما ورد في الآيات الست الأخرى بالبحر (١٦) .

(١٢) سورة طه ، الآية رقم ٧٨ .

(١٣) سورة القصص ، الآية رقم ٤٠ .

(١٤) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٣٦ .

(١٥) سورة الذاريات ، الآية رقم ٤٠ .

(١٦) والآيات الست الأخرى هي :

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ (البقرة ٥٠) .
﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ (الأعراف ١٣٨ بعد آية اليم بنفس السورة) .

ونظر موسى - عليه السلام - بعد أن صعد إلى الشاطئ المبارك - إلى فرعون وهو يسير بطريق الأطواد ، وسرعان ما نزل الوحي الكريم من السماء ﴿واترك البحر رهواً ؛ إنهم جند مغرقون﴾ (١٧) .

أى اتركه على هيئته ساكناً ، وما أن توسط جند فرعون البحر حتى كان إطباق الأطواد عليهم ، وانتهت صفحة في تاريخ الظلم والظالمين ؛ لتكون عبرة وعظة لكل الأجيال اللاحقة إلى يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها ، قال تعالى معقبا على إغراقه فرعون وجنوده :

﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك هو العزيز الرحيم﴾ (١٨) .

فالأحداث السابقة والتي وردت في أوثق المصادر على الإطلاق سيقت آية ، ودليلاً ، وعبرة لأولى العقول المتفتحة ، والألباب المستنيرة .

وكان هذا اليوم يوم العاشر من المحرم كما ورد في السنة النبوية .

وكان يوم النجاة من فرعون يوماً عظيماً ، عده بنو إسرائيل عيداً من أعيادهم ، وحدثاً مهما ظلت بصماته واضحة في بنى إسرائيل حتى بعثة النبي

﴿وجاوزنا بنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده﴾ (يونس ٩٠) .

﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً﴾ (طه ٧٧) .

﴿فأوحينا إلى موسى ، أن اضرب بعصاك البحر﴾ (الشعراء ٦٣) .

﴿واترك البحر رهواً ؛ إنهم جند مغرقون﴾ (الدخان ٢٤) .

فاليم يُطلق على النهر العذب ، وعلى البحر الملح ، ويخصص بما ورد في هذه الآيات .

أما ماورد بشأن إلقاء موسى - عليه السلام - وهو رضيع في اليم مرتين في سورة طه الآية رقم ٣٩ ، وثالثة في سورة القصص الآية رقم ٧ ، ولم يرد في القرآن الكريم ما يفسر اليم بالبحر بشأن إلقائه رضيعاً فناسب أن يكون المراد نهر النيل حيث تجمع سكان مصر ، وحيث كانت المنازل والقصور ، ومنها قصر فرعون آنذاك . والله أعلم .

(١٧) سورة الدخان ، الآية رقم ٢٤ .

(١٨) سورة الشعراء ، الآيتان رقم ٦٧ ، ٦٨ .

محمد - ﷺ - صامه موسى - عليه السلام - شكراً لله سبحانه ، وصامه بنو إسرائيل .

فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قلم النبي - ﷺ - المدينة ، فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء . فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا يوم صالح ، نحي الله بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى ، قال : « فأنا أحق بموسى منكم » فصامه ، وأمر بصيامه .

وعن أنى موسى - رضى الله عنه - قال : كان يوم عاشوراء تعده اليهود عيداً . قال النبي - ﷺ : « فصوموه أنتم » (١٩) .

وقد صامه العرب فى الجاهلية أيضاً مما يدل على قوة هذا الحدث . وتأثر الأجيال اللاحقة به على اختلاف هذه الأجيال وتباينها .

فعن عائشة - رضى الله عنها - أن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء فى الجاهلية ، ثم أمر رسول الله - ﷺ - بصيامه حتى فرض رمضان ، وقال رسول الله - ﷺ :

« من شاء فليصمه ، ومن شاء أفطر » .

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : كان عاشوراء يصومه أهل الجاهلية ، فلما نزل رمضان ، قال :

« من شاء صامه ، ومن شاء لم يصمه » .

وعن الربيع بنت معوذ - رضى الله عنها - قالت : أرسل النبي - ﷺ - غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار .

(١٩) الحديثان أخرجهما الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الصيام ، باب صيام يوم عاشوراء رقم ٦٩٢ ، ورقم ٦٩٣ ، ص ٢٥١ ، ٢٥٢ . وصحيح البخارى ج ٤ ص ١٨٦ ، ١٩٣ .

« من أصبح مفطراً فليتم بقية يومه ، ومن أصبح صائماً فليصم »
 قالت : فكنا نصومه بعد ، ونصوم صبياننا ، ونجعل لهم اللعبة من العهن ، فإذا
 بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك ، حتى يكون عند الإفطار (٢٠) .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما صام رسول الله - ﷺ -
 يوم عاشوراء ، وأمر بصيامه ، قالوا : يا رسول الله ، إنه يوم تعظمه اليهود
 والنصارى ، فقال : « إذا كان عام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع (أى
 معه) » قال : (أى ابن عباس) فلم يأت العام المقبل حتى توفى رسول الله
 - ﷺ (٢١) .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال :
 « صوموا التاسع والعاشر ، وخالفوا اليهود » (٢٢) .

وفى ضوء الأحاديث السابقة مجمعة يتبين لنا :

- ١ - أن نجاة موسى - عليه السلام - وبنى إسرائيل من الغرق ومن
 فرعون كان بالعاشر من المحرم .
- ٢ - وأن موسى - عليه السلام - وبنى إسرائيل صاموه شكراً لله
 سبحانه على نجاتهم .
- ٣ - وأنهم قد اعتبروا هذا اليوم عيداً لهم يفرحون فيه ، ويهتفون أنفسهم
 بنجاتهم .
- ٤ - وأن تعظيمهم لهذا اليوم ظل فترة طويلة فى حياة بنى إسرائيل ،

(٢٠) الأحاديث الثلاثة أخرجها الشيخان . المصدر السابق أرقام ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٦ .
 (٢١) أخرجه مسلم . المختصر ج ١ ص ١٦٣ ، ١٦٤ ، وعزى أيضاً إلى أبى داود فى : نيل
 الأوطار ج ٤ ص ٢٧٣ .
 (٢٢) عزاه الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى إلى البيهقى فى سننه (٢٨٧/٤) وقال : سنه
 صحيح . هامش مختصر صحيح مسلم ج ١ ص ١٦٣ .

- حتى مبعث النبي - ﷺ .
- ٥ - وأن قريشاً تأثرت بهذا الحدث أيضاً فصامته ، سواء عرفت السبب أم لم تعرف .
- ٦ - وأن الأوس والخزرج أيضاً صاموه .
- ٧ - كما أن النصارى صاموا هذا اليوم تعظيماً له وتكريماً لبني إسرائيل .
- ٨ - وأن الإجماع على ذلك من قريش ، والأوس ، والخزرج ، واليهود ، والنصارى دل على صدق أهل الكتاب في دعواهم أنه يوم النجاة من الغرق .
- ٩ - وأن العلاقة بين الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - من أقوى العلاقات ؛ لأنهم جميعاً يدعون إلى توحيد الله سبحانه ، وعبادته . وأنهم أولى بأنفسهم من غيرهم .
- ١٠ - وأن صيام يوم شكراً لله سبحانه على نعمة ما مشروع ، ما لم ينه عن صوم هذا اليوم بعينه .. .
- ١١ - وأن حرص الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - على صيامه كان قوياً بعد علمهم بسبب المشروعية ، وصيام النبي - ﷺ - له .
- ١٢ - وأن تعويدهم أبناءهم على الصيام ، وتدريبهم عليه يدل على شدة تمسكهم بالدين من ناحية ، وتربية الجيل الجديد في الدعوة من ناحية أخرى .
- ١٣ - وأن الشخصية الإسلامية متميزة ، وغير ذائبة في غيرها ، مع الاحتفاظ بالإيمان بالرسول جميعاً .
- ١٤ - وأن الصحابة فهموا هذا الأصل وهو التمييز عن اليهود والنصارى ، ولذا قالوا : يا رسول الله ، إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى ؛ يعني : فكيف نصوم هذا اليوم ، وفي ظاهره مخالفة لهذا الأصل ؟ .
- ١٥ - وأن النبي - ﷺ - وقد روى أصحابه تلك التربية القويمة استجاب لما يفهم من كلامهم . فقال : ما يدل على إضافة اليوم التاسع مع العاشر

ليتحقق أمران :

(١) صيام عاشوراء من ناحية .

(ب) مخالفة اليهود النصارى من ناحية أخرى بإضافة التاسع ، وهم قد اكتفوا بالعاشر .

١٦ - وأن صيام عاشوراء وتاسوعاء سنة متبعة إلى قيام الساعة من قام بها فله الأجر العظيم عند الله سبحانه وتعالى .
كما أن في الباب ما يدل على إضافة اليوم الحادى عشر أيضاً ، والله أعلم بالصواب .

إيمان الفراعنة :

إن صح أن كان للفراعنة ، والطغمة المستبدة بشئون البشر ظلماً وعدواناً إيماناً . فهو ذاك الإيمان التجارى الذى تظهر فيه المفاوضة على الثمن المادى منذ اللحظة الأولى ، وحتى ولو تحقق هذا الثمن فما أسرع تلك النماذج العفنة فى الرجوع إلى سيرتها الأولى ، ناكثة كل العهود التى قطعتها على أنفسها ، ويسوق القرآن الكريم ذلك النوع من الإيمان ليقف المسلم على أحوال البشر ، وطباعهم المتباينة ؛ فيتصرف بحكمة وحذر ، على أساس هذا الرصيد الضخم ، من تجارب السابقين فى القرآن الكريم ، وحتى لا يلدغ أو يخدع بهؤلاء الناس .

إن تاريخهم الحافل بكل عار ليعلم على البشر نوعية إيمانهم .

إنهم ذبحوا الغلمان ذبح الدجاج بين جدران البيوت ، وفى الشوارع ، وفى أحضان الأمهات ، وعلى مرأى ومسمع من الناس بغية تطويع المسحوقين تحت سلطانهم .

إنهم قطعوا الأجساد إرباً إرباً ، وقطعوا الأطراف والبشر أحياء .

إنهم صلبوا المؤمنين على جذوع النخل ، وتفننوا فى كل صنوف التشكيل والتعذيب ليرجع هؤلاء المؤمنون إلى دينهم الباطل . وما هم بفاعلين :

إنهم قد امتلأوا حقداً وبغضاً في قلوبهم ، ومن سماتهم المميزة في المواثيق نقضها ونكثها .

فقد سبق لفرعون موقف يعتبر مؤشراً لما سيكون منه لو كانت نجاته من الغرق ، وذلك حين أرسل الله سبحانه عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم صرخوا بجلأ أفواههم مستغيثين بموسى — عليه السلام — أن يدعو ربه سبحانه ؛ ليكشف عنهم العذاب ، وحين كشف هذا العذاب كانوا إلى سيرتهم الملطخة بالعار أسرع .

ودلت التجربة معهم على أنهم ليسوا على التزام بالعهود لا يرعون لها حقاً ، ولا يقيمون لها وزناً ، ورجعوا إلى التشكيل من جديد بالمؤمنين دون هوادة ورحمة ، فكان الانتقام بالإغراق ، وأشرف الطاغية فرعون على الغرق ، فأعلن إيمانه المزيف من جديد دون حياء ، ودل على نوعية هذا الإيمان قوله : آمنت بالذى آمنت به بنو إسرائيل ، ولم يقل صراحة آمنت بالله الواحد لا شريك له فى ألوهيته ، قال الله تعالى فى هذا الشأن :

﴿ وجاوزنا بينى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا ، حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل . وأنا من المسلمين ﴾ (٢٣) .

وما استحق فرعون إلا وأن يتم الإهلاك له ولجنوده أجمعين ، وجمعت حيثيات الحكم بالإعدام إغراقاً فى أمرين :

(أ) نكث العهد قبل ذلك .

(ب) الإفساد فى الأرض .

قال تعالى :

﴿ الآن وقد عصيت قبل ، وكنت من المفسدين ، فاليوم نجيك بدنك ﴾

(٢٣) سورة يونس الآية رقم ٩٠ .

لتكون لمن خلفك آية ، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴿٢٤﴾ .

وصدق الله سبحانه فعلى الرغم من رؤية الناس جثته وقد أُلقيت على الشاطئ ، وعلى الرغم من رؤيتها في المتاحف الفرعونية محنطة حتى هذا الأيام ، فقد غفل كثير من الناس عن العبرة والعظة من تلك القصة الدامية ، أما المؤمنون فيأخذون منها العبر والعظات .

استخلاف المؤمنين :

وتحقق الرجاء الذى طمأن به موسى — عليه السلام — قومه حين أصابهم هلع من الإيذاء المتلاحق من فرعون ، فقد قال الله سبحانه على لسان قومه ولسانه :

﴿ قالوا : أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئنا . قال : عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر . كيف تعملون ؟ ﴾ (٢٥) .

وتأمل المناخ الذى أعلن فيه هذا الرجاء ، إنه المناخ الذى زكمت فيه الأنوف بنتن فرعون ، وظن الناس أن السحق للمؤمنين — لا محالة — واقع ، وأن فرعون لا يبقى ولا يلز . بل الرجاء ورد أيضاً قبل ولادة النبی موسى — عليه السلام — حين استحكمت للشر حلقاته ، واستبد بالبشر زبانيته ، وملأ الأرض فسادة وإفساده ، ولا بصيص من نور إلا من نور رب الأرباب خالق الأكوان ، وقد ساق الله سبحانه هذا الموقف هدية للنبي الحبيب محمد ﷺ — فى مفتتح سورة القصص . قال تعالى :

﴿ طَسَمَ . تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى ، وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ؛ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً ،

(٢٤) سورة يونس الآيتان ٩١ ، ٩٢ . (٢٥) سورة الأعراف الآية رقم ١٢٩ .

يستضعف طائفة منهم ؛ يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم إنه كان من
المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة ،
ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم
ما كانوا يحذرون ، وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴿ ٢٦ ﴾ .

وتأمل السياق السابق في الآيات . إن الرجاء في الاستخلاف بعد عرض
مخازي فرعون بإيجاز . كان قبل ولادة موسى — عليه السلام — وإرضاعه .
فأى رحمة بالبشرية تبلغ هذا الحد ؟ .

إنها رحمة الله سبحانه بعباده المستضعفين في الأرض ، إنها استخلاف لمن
ملك مقومات الاستخلاف . وبالتالي سينزع منهم تلك الخلافة إذا ما تخلوا عن
الأمانة التي حملوها .

(٢٦) سورة القصص ، الآيات : ١ - ٧ .

دروس وعبر :

— إن الله سبحانه وتعالى لا يعذب قوماً إلا بعد أن يرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين يحملون من الأدلة على صدقهم ، وصدق دعوتهم فقد قال : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ (٢٧) .

نكث اليهود من صفات الظلمة الطغاة ، فعلى المؤمن الحذر منهم حين يكونون في مأزق ، ويرفعون الراية البيضاء مستسلمين ، وما نكث فرعون باليهود ببعيد .

— أسلوب الهرب من الظلم يجب أن يحاط بالسرية ، والكتمان ، ويختار له من الوقت أخفاه وأستره ، وتعدّ المؤن اللازمة للطريق .

— حين تدهم وتشتد الكربات ، وقد استنفد المؤمنون كل الوسائل الممكنة تنزل العناية الإلهية لتقود المعركة ويتم النصر كما حدث في البحر .

إن الله سبحانه الخالق للبحر والكون كله هو القادر على تسخير الكون لخدمة الإنسان ، فإن كان قد جعل للماء خاصية معينة هو الذي يستطيع أن يمسك بهذه الخاصية متى شاء ؛ إنقاذاً لعباده المؤمنين .

إن الله سبحانه نقل ميدان المعركة من أرض مصر إلى خليج السويس ، لحكمة ظهرت في آخر الأحداث ، وهي إغراق فرعون وجنده جميعاً ، وقد استحقوا ذلك ، وما كانوا يظنون ذلك أبداً أنه واقع بهم .

— قد يتصور المرء في أمر ما ضرراً واقعاً لا محالة ، وفيه من الفرج ما فيه ، فعلى المؤمن الوثوق بالله سبحانه ونصره لعباده ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ (٢٨) .

— إن للفراغة الطغاة إيماناً من نوع خاص ليس له من وزن إلا الدجل

(٢٧) سورة الإسراء ، الآية رقم ١٥ . (٢٨) سورة الطلاق الآيتان ٢ ، ٣ .

والكذب على المؤمنين حتى تنفرج أزمته فقط .

— إن هذا الإيمان المزيف إذا ما تأمل المؤمن الصورة التي كان بها ، علم
الزيف بها ، والكذب الذي يختفى وراء هذا النوع من الإيمان .

— إن العقوبة للمؤمنين مهما تأزمت الخطوب ، واشتدت الظلمة .
فعلهم أن يتابعوا المسيرة ، ولا يئسوا من روح الله سبحانه وتعالى .

— إن الله سبحانه أرحم بعباده المؤمنين من الأم على وليدها ، وأفرح
بتوبة عبده المؤمن من ذنوب اقترفها ، وأراد الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى .
الرحمن الرحيم .

بنو إسرائيل في سيناء

- في مواجهة جلدب الصحراء .
- إنقاذ جديد :
- ا - بالغمام يظلمهم .
- ب - والمنّ طعام ، وحلوى .
- ج - والسلوى لحم طير طيب .
- د - والماء العذب السائغ للشاريين .
- زهدهم في المنّ والسلوى ، ورغبتهم في البصل ، والثوم .
- حنين بنى إسرائيل إلى الوثنية .

في مواجهة جذب الصحراء .

قطع بنو إسرائيل الطريق حتى وصلوا إلى سيناء ما يقرب من مائة وخمسين كيلو متراً ، مشياً على الأقدام ، وقد أَعْثُوا السير ؛ حتى لا يدركهم فرعون ، وجنوده ، وإن كان من مؤن محمولة ، فهي مؤن الهاربين الذين يأخذون ما خف حمله ؛ ليكون المسير دون معاناة مهلكة .

فأنى لمؤن بنى إسرائيل أن تبلغ من البطون مبلغها ؟! وأنى للبطن الجائعة أن تسكت عن عوائها ؟ فإن جاز لها أن تسكت وقت الهروب فهل لها ذلك بعد أن أغرق الله سبحانه فرعون ، وجنوده ، وأصبح بنو إسرائيل وحدهم في تلك الصحراء الشاسعة الجذباء ؟

إن فترة استرخاء للقوم ستمّر بهم ، ولا يلبثون إلا ويحرقهم ألم الجوع والعطش . ولا يسدّ هنا الجوع تراب الصحراء أو حجارتها ، ولا يطفئ لهيب الظمأ الماء الأجاج .

تلك هي الحال التي واجهها بنو إسرائيل حين مسّت أقدامهم الدامية أرض سيناء . فهل كان لإنقاذهم بلحم الحشرات السارية بين الأحجار ؟ أو بقية جيفة تركها السباع ؟ أو شوك النباتات الرملية الجافة ؟ لو كان هذا لعدّ من النعم التي تساق إلى من بهم مثل هذه الحال من الجوع والعطش .

وكيف بهم أيضاً - على فرض أن أكلوا الجيفة والشوك والحشرات - وهذا المناخ الصحراوي ؟ إن كان شتاءً فالبرد القارس ، والقارص الذى ينفذ إلى العظام ولا دفء يستدفأ به ، ولا ثياب إلا ما يلبسه مزارعو أرض النيل المعتدلة المناخ ولم يفسح لهم المجال أن يحملوا من أمتعة لمثل هذا الوضع ، فهم أصلاً لم يكونوا يأملون أن ينجوا من قبضة فرعون وجنوده .

وإن كان صيف فتلك الشمس التي تلفح الوجوه ، وتلهب الأرض تحت الأجساد العارية ، والأقدام الدامية . ضوء شديد وهاج يخطف الأبصار إن الذى يجرب مثل تلك الحال يتأكد لديه أن أقدامه السليمة لا تقوى على ملاسة الرمال الساخنة الملتهبة إذا ما توسطت الشمس كبد السماء . ويفيدنا سياق القصة أن

الوقت كان صيفاً وهو أشد ضراوة وأفتك بالأجساد . فهو مع فتكه بالإنسان يؤثر فيما يمكن أن تكون به حياة من نبات وماء ، أو حتى نبات به ماء ، أو حشرات لا تقوى على الزحف على أرض كهذه .

فهل هذه الحقبة هي الحلقة الأخيرة من حياة بنى إسرائيل ، كما كانت منذ قليل الحلقة الأخيرة من حياة فرعون وجنوده ؟!

إنقاذ جديد .

تلك هي المشكلة التي واجهها بنو إسرائيل ، ورأوها بأم أعينهم .
فماذا كان من أمرهم مع السماء ؟

ها هي الشمس المحرقة تختفى وراء غمام . ومتى كان بالصيف غمام ؟ ولكن الله سبحانه عليم بأحوال عباده المؤمنين حين تشتد بهم الأزمات يجعل لهم مخرجاً منها بإذنه تعالى . إنه غمام عظيم ، وليست غمامة تمر وينتهي أمرها ، ولكن الغمام جاء ليؤدي دوراً ، والذي أصدر إليه الأوامر هو الخالق القادر ، الذي يجرى الأحداث على نمط أرادته هو وحده ، وعلى الغمام المجتهد لأداء المهمة أن يؤدي دوره كاملاً . وهذا الدور هو تحقيق الراحة الجسمية باعتدال الجو ، وكسر حدة الحرارة والجفاف ، وعليه أن يلازمهم ويتحرك بحركتهم ، ويسكن مع سكونهم ، وكأنه ملتصق بهم مربوط بخيط طرفه الآخر بأيدي القوم .

أى نعمة هذه وقد بلغت من رعاية السماء الإلهية للفة المؤمنة ؟ إنها في سجل الفضل الإلهي عليهم ، والتي يجب أن تذكر ، ويشكر الكريم سبحانه عليها وعلى نعمه التي لا تحصى .

وكيف بك أيتها البطون الخاوية ، وقد رأيت بشريات الخير قد ابتسمت على الجلود والبشرة ؟

لابد أن ازداد شوقك إلى الحنان المتان البصير بالعباد ، فلعل لقمة تهبط من الغمام ، أو قطرات تسقط فتلتقطها الأفواه قبل أن تصل الأرض .

أيظن ظان أن قوماً في مثل تلك الحال أن تستمر بهم حياة ؟

ولكن السماء أسدّت إليهم أشهى طعام ، وأزكاه ، وأشفاه .
طعام إذا اختلط بالأرض لا يتلوث إنه المنّ . سبحانك ربي فأنت أرحم
الراحمين بعبادك المؤمنين !! .

إن ما يطلق عليه المنّ المصنوع بيد البشر هو ذلك الطعام المكون من اللبن
الجاف والعسل ، أو السكر مع مقدار من الدقيق . يميل إلى الصلابة وليس
بصلب ، يحتاج إلى مضغ زائد فتكون فرصة إدرار الغدد اللعابية الهاضمة . هذا
من صنع الإنسان ، فكيف به إذا ما كان من صنع اليد القادرة الرازقة ، يد الله
سبحانه وتعالى ؟ إنه قد نزل من السماء ليكون على غصن جاف ، أو على صخرة
مشرفة ، أو على سطح أملس ، أو بأيدي القوم مباشرة ، أو خارج من الأرض .
يا لها من فرحة تغمر القلوب قبل البطون ، فالقلب إذا ما آمن أكل باسم الله ،
وانتهى بحمد الله وشكره ، أما إذا استبدت البطن بالقيادة فلا ذكر ، ولا حمد ،
ولا شكر والعياذ بالله .

ولسنا بحاجة إلى أن نقول : إنهم أدّخروا ما يكفهم يوماً أو أياماً ، فالذى
أهبط عليهم المنّ لحظة هو نفسه الذى سينزله لحظات بمقدار يُذهب ألم الجوع ،
ويبعد الخطر ، ويعطى الجسم القدرة على السير والحركة ؛ ليقوى على بلوغ الهدف
المقصود ، والوصول إلى المصر ، بعد أن خرجوا من مصر .

ولسنا أيضاً بحاجة إلى أن نحدد المقصود من المنّ ، فهو على وجه القطع
أفضل من ذلك الطعام المعروف بيننا بالمنّ ؛ ليناسب ما عطف عليه من طعام آخر
هو السلوى .

وربما يكون المقصود أنه كل ما امتن الله سبحانه به على بنى إسرائيل ؛ من
طعام ، وشراب ، وغير ذلك مما ليس لهم فيه كد ، ولا تعب ، فالله سبحانه يمنّ
على عباده مناً ، وينعم عليهم إنعاماً ، وينزل عليهم المنّ على أى هيئة كان . أكان
نازلاً من السماء ؛ كما يدل ظاهر الآية ، أم كان خارجاً من الأرض ، بالإضافة إلى
ما نزل من السماء ، وما علق على الشجر ، وما وقع على الصخر كما يفهم من
مضمون الآية .

وقد روى عن سعيد بن زيد^(١) - رضى الله عنه - قال : قال
النبي - ﷺ - :

« الكمأة^(٢) من المن ، وماؤها شفاء للعين »^(٣) .

فإذا كانت الكمأة وهى معروفة لأهل البادية ، ومن يملون بالصحراء شهية
المأكّل إذا ما طبخت ، بل أبعد من ذلك ، فمائها شفاء للعين كما يؤكده الحديث
الشريف الذى ورد من طرق مختلفة بأسانيد صحيحة ، والذى رواه عدة من
رجال الحديث . فما بال المن الذى تعتبر الكمأة جزءاً منه ؟ لابد أن يكون أشهى
وأطيب ، ولا عجب من ذلك ؛ فهو من صنع الإله القوى القادر !

وتتربى الأرزاق على بنى إسرائيل ؛ ففى ظل هذا الغمام الذى تقيئوه ،
سبحت طيور بالقضاء ، ولم تكن بالطيور الجارحة التى تحلق مرتفعة صعبة التناول
والاصطياد ؛ إنها طيور صغيرة جمعت بين اللحم المكنتز ، وسهولة الوصول إليها ؛
فهى تطير منخفضة ، إنها السلوى الذى يشبه السمانى المعروف .

(١) سعيد بن زيد بن عمرو ، العدوى ، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأمه فاطمة
الخزاعية ، كانت من السابقين إلى الإسلام ، أسلم قبل دخول الرسول - ﷺ - دار
الأرقم ، وهاجر ، وشهد أحداً والمشاهد بعدها ، ولم يكن بالمدينة زمن بدر ، فلذلك لم
يشهدها ، وكان إسلام عمر - رضى الله عنه - عنده فى بيته ، لأنه كان زوج أخته فاطمة ،
وشهد اليرموك ، وفتح دمشق ، توفى بالعقيق ، فحمل إلى المدينة سنة خمسين ، وعاش
بضعاً وسبعين وصلى عليه المغيرة بن شعبة . الإصابة ج ٢ ص ٤٦ رقم ٣٢٦١ .

(٢) الكمأة : فطر أرضى يُجنى ويؤكل مطبوخاً ، ويختلف حجمه بحسب الأنواع ،
وعده صاحب القاموس من النبات ، وهو جمع مفردة كمء ، أو مفرد ، واسم جمع . والمن فى
القاموس : كل طل ينزل من السماء على شجر أو حجر ، ويحلو وينعقد غسلاً ، ويحذف
جفاف الصمغ ، وهو حلو يؤكل ، وهو نافع للسعال الرطب والصدر والرئة .

(٣) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الأشربة ، باب فضل الكمأة ومداواة
العين بها . رقم ١٣٢٨ ص ٥٣٣ ، وعزاه ابن كثير أيضاً إلى الإمام أحمد ، وقال : وأخرجه
الجماعة إلا أبا داود من طرق ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

وتوجه النبي الكريم موسى - عليه السلام - إلى الله سبحانه طالباً السقيا لقومه ؛ فأمره الله سبحانه أن يضرب بعصاه حجراً ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً .

وارتبطت العصا بالكثير من المعجزات ؛ فهي التي انقلبت ثعباناً عظيماً ، وهي التي ضرب بها البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وها هي الآن يضرب بها الحجر فيتفجر منه الماء . وإذا كان المنُّ قد نزل متفرقاً على القوم ، وكذلك السلوى فكيف بالماء وهو يخرج من مكان واحد ؟ ولكن هذا الماء تحول إلى عيون بعدد مجموعات القوم . وهي اثنتا عشرة مجموعة ، كل مجموعة - والله أعلم - يمتد نسبها إلى أحد أبناء يعقوب - عليه السلام - الاثني عشر ، فالاتفاق في العدد يشير إلى هذا ، وإن كنا لا نجزمُ بغيب مجهولٍ عنا .

وامتدت كل عين إلى مجموعتها ، وعلم كل أناس مشربهم ، وفي ذلك يقول الله تعالى مخاطباً بنى إسرائيل :

﴿ وظللنا عليكم الغمام ، وأنزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ (٤) .
ويقول أيضاً :

﴿ وإذا استسقى موسى لقومه ، فقلنا اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، قد علم كل أناس مشربهم ، كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ (٥) .

وفي تحديد عين لكل مجموعة من المجموعات الاثنتي عشرة يقول الله تعالى :

﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ، وأوحينا إلى موسى إذ استسقاها قومه : أن اضرب بعصاك الحجر ، فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً ، قد علم

(٤) سورة البقرة ، الآية رقم ٥٧ .

(٥) سورة البقرة ، الآية رقم ٦٠ .

كل أناس مشربهم ، وظللنا عليهم الغمام ، وأنزلنا عليهم المن والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿٦﴾ .

وتحدثنا الآيات الكريمة أن مكان نزول المن والسلوى ، وتفجير الماء من الحجر ، وتظليل الغمام لبنى إسرائيل كان بجانب الطور الأيمن من سيناء ، وهو الجزء الجنوبي من الجزيرة بين خليجي البحر الأحمر ، قال الله تعالى :

﴿ يا بني إسرائيل ، قد أنحيناكم من عدوكم ، وواعدناكم جانب الطور الأيمن ، ونزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ، ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ، ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ، وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ (٧) .

ونرى في الآيات التي ذكر فيها لفظ الحجر ، أنه ذكر بالتعريف لا التنكير ، مما يقوى رأى من قال : إنه حجر خاص عين موسى - عليه السلام - من قبل الله عز وجل ، وليس أى حجر ، وإلا لكان التعبير في الآيات ، أو في آية منها على الأقل ، اضرب بعصاك حجراً . والله أعلم بالمراد .

هذا وقد تكرر في أكثر من آية التعبير عن مجموعاتهم الاثنتى عشرة كما سبق ، وحين كان اختيار النقباء منهم كانوا اثنى عشر نقيباً ، وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل ، وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً ، وقال الله : إني معكم ، لئن أقمتם الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلي ، وعزرتموهم ، وأقرضتم الله قرضاً حسناً ، لأكفرن عنكم سيئاتكم ، ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، فمن كفر بعد ذلك فقد ضل سواء السبيل ﴾ (٨) .

ونرى أيضاً من خلال ختام الآيات الكريمة السابقة :

(٦) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٦٠ .

(٧) سورة طه الآيات من رقم ٨٠ إلى رقم ٨٢ .

(٨) سورة المائدة ، الآية رقم ١٢ .

﴿ ولا تغثوا في الأرض مفسدين ﴾
 ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾
 ﴿ ولا تطغوا فيه ؛ فيحل عليكم غضبي ، ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ .

- ﴿ فمن كفر بعد ذلك فقد ضل سواء السبيل ﴾ .
- ١ - أن أسلوب التعامل مع النعم يكون بالاعتقاد في تناولها ، والاستفادة منها . وعدم الطغيان والتجاوز عن الحد .
 - ٢ - الاعتقاد بأن مصدر هذه النعم هو الله سبحانه وتعالى .
 - ٣ - وأن الواجب على المؤمن شكره عليها ، لاجل جودها .
 - ٤ - وأن الجحود مجلبة لغضب الله سبحانه ، والحرمان من هذه النعم .
 - ٥ - الاعتقاد بأن الله سبحانه لم يتفضل عليهم لذاتهم ، وإنما لما اتصفوا به من صفات إيمانية طيبة .
 - ٦ - والاعتقاد بأن النعم اختبار وابتلاء للإنسان ، كالحرمان منها .
 - ٧ - كما تشير آية الأعراف إلى أن ظلما وقع من بنى إسرائيل على أنفسهم في تناول هذه النعم بأسلوب لا يرضاه وأهملها ورازقها .
- وأن الله سبحانه لم يغلق عليهم باب التوبة ، والرجوع ؛ كما يشير قوله تعالى :

﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن ، وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾
 فالله سبحانه يجعل المخرج للمؤمنين من الشدائد والحن ، ويرزقهم من حيث لا يحتسب ، ويحب من عباده اللجوء إليه ، والشكر على نعمه ، ويبغض منهم الجحود . قال الله تعالى :

﴿حَمَّ ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب ، وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول ، لا إله إلا هو إليه المصير﴾ (٩) .
 زهد بنى إسرائيل في المن والسلوى ، ورغبتهم في البصل ، والثوم ، وغيرهما :
 يقول الله تعالى في هذا الشأن :

﴿واذ قلتم : يا موسى ، لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها ، وفومها ، وعدسها ، وبصلها ، قال : أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير(١٠) ؟ اهبطوا مصراً ؛ فإن

(٩) سورة غافر ، الآيات الثلاث الأولى .
 (١٠) الباء تدخل في مثل هذا التعبير على المتروك لغة ، ولا يستقيم المعنى بغير ذلك أبداً ، وهذا من مسلمات اللغة عكس الشائع على ألسنة عوام المثقفين ، ومثل هذا التعبير وردت آيات في مواطن أخرى :

قال تعالى : ﴿لا يحل لك النساء من بعد ، ولا أن تبدل بهن من أزواج ، ولو أعجبك حسنهن﴾ (الأحزاب ٥٢) .

وقال : ﴿وبدلناهم جنتين ذواق أكل خبط ، وأثل ، وشيء من سدر قليل﴾ (سبأ ١٦) وقد يحذف المتروك ببيانه ، ويبقى البديل مثل قوله تعالى :
 ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾ (النساء ٥٦) .

إلا إذا قدرت «إلى» مع المخنوف فيكون المذكور دون الباء هو المتروك مثل قوله تعالى : ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ (الفتح ١٥) .

هذا وقد ورد الإنكار على القوم ، والتعجب من طلبهم في صورة الاستفهام .

ثم إن تنوين كلمة «مصراً» يدل على أن المراد غير مصر العلم ، التى خرجوا منها ؛ هروبا من فرعون ؛ فمصر العلم ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث وذلك عند الجمهور ؛ لأنه ثلاثى ساكن الوسط ، وقد وردت مصر العلم ممنوعة من الصرف في قوله تعالى على لسان فرعون : ﴿أليس لى ملك مصر﴾ ومن هذا يتبين : أن قوله : اهبطوا مصراً أى ، أى مدينة =

لكم ما سألتكم ﴿١١﴾ .

إذا ما كان المرء السيئ على نعمة مسداة إليه من رب النعم سبحانه ، تمنى دوامها عليه ، وبذل في سبيل إدامتها واستمرارها تسخيرها في طاعة الله سبحانه ، وشكره عليها ، وعدم التجاوز في استعمالها ، والاعتداء في تناولها ؛ فالنعم مناط اختبار ، كما أن المصائب كذلك ، ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ أما أن يتمنى الإنسان زوالها أو تغييرها إلى مادونها فذاك منكر غير مشروع ، ولا يكون هذا إلا بتليس إبليس ، وتزيينه الأدنى أفضل من الأعلى ، والأكثر خيراً وبركة . وهذا ما حدث من بنى إسرائيل حين قطعوا في هذه المسألة قائلين : ﴿ لن نصبر على طعام واحد ﴾ ولجئوا في طلبهم إلى أن حملوا موسى - عليه السلام - بدءاً مهمة تغيير الطعام بالدعاء ، ومع اعتقادهم بأن الله سبحانه هو رازقهم فلم يضيفوا كلمة « رب » إلههم جميعاً قائلين « ربنا » بل قالوا : ﴿ ادع لنا ربك ﴾

ومطلوبهم يتضمن هذه المأكولات كما رتبها الآية الكريمة :

١ - البقل .

٢ - القثاء : هو الخيار ، واحدته قثاءة (مختار الصحاح) .

٣ - الفوم : من معانيه الثوم ، وهو المختار لموافقته قراءة ابن مسعود - رضى الله عنه .

٤ - العدس .

٥ - البصل .

ومن هذه الأطعمة ما يؤكل مطبوخاً كالبقل والعدس .

ومنها ما يؤكل دون طبخ كالخيار .

= أو قرية كبيرة ، والقول الثانى « مصر » فيه معينة ومحددة .

(١١) سورة البقرة ، الآية رقم ٦١ .

ومنها ما يضاف إلى المطبوخ وغيره كالبصل ، والثوم .
وأيا كان هذا التنوع في الطعام البديل . فقد رَدَّ موسى - عليه
السلام - عليهم ، وهو أعلم منهم ، فقال لهم : ﴿ أتعبدون الذى هو أدنى
بالذى هو خير ؟! ﴾

حنين بنى إسرائيل إلى الوثنية :

في غمرة هذه النعم التى أحاطت ببنى إسرائيل من كل ناحية مروا بالطريق
على بَنُو بصحراء سيناء . اتخذ هؤلاء البدو لأنفسهم صنما يعبدونه من دون الله
سبحانه ، أقاموا حوله ، وعكفوا على عبادته .

ربما هال هؤلاء البدو - الذين عبدوا صنما من دون الله - مارأوه من نعم
سابقة على هؤلاء المسافرين ، وقد أكلوا المن والسلوى ، وشربوا من ينبوع دائم
معههم ، ثم تلك المظلة الواقية من حرارة الشمس ، ثم نظروا إلى أنفسهم وما هم
فيه من قحط ، وجذب ، يبحثون عن الرزق بين أنياب الضواري ، وينقبون
الأرض ؛ استدراراً لقاعها من الماء ، ويأوون إلى الصخور والجبال ؛ عليهم يجنون
من ظل يكسر حدة الحر ؛ لعلهم حَسَّنُوا المسافرين على ما لديهم من نعم . وربما
أيضاً حسدوهم على ما رأوا من أثر هذه النعم من سلوك عفيف ، ولجوء إلى خالق
الأرض والسماء .

ولعل المتأمل في قوم على هذه الحال أنهم بحاجة إلى إنقاذ من شركهم على
يد داعية مؤمن يبصرهم الصراط المستقيم .

ولكن بنى إسرائيل على حال أرضى وأحسن ؛ فقائدهم في المسيرة نبي من
أولى العزم من الرسل موسى - عليه السلام - على يديه كان إنقاذهم من فرعون
وجنوده ، وماتلا ذلك من نعم أخرى .

فأنى لبنى إسرائيل أن يشركوا مع الله آلهة أخرى ، ولم يتقدم عليهم العهد
بالنعم ؟ وأنى لهم أن يشركوا ونيهم بين أيديهم ؟

وحدث ما تنخلع له القلوب من بنى إسرائيل في هذه الحال .

إنهم تمنوا أن يكون لهم صنم كما أن هؤلاء البدو صنماً . وأرادوا أن يعطوا هذا الصنم صفة الشرعية والقدسية ، بأن يكون بإقرار النبي موسى - عليه السلام - حاشاه عن ذلك يقول الله تعالى :

﴿ فَأْتُوا عَلَى قَوْمٍ يَعْكفُونَ عَلَى أَصْنَامِهِمْ ، قَالُوا : يَا مُوسَى ، اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ (١٢) .

إن الأصل الأول الذى تقوم عليه رسالات الأنبياء هو توحيد الله سبحانه وتعالى ، بدون هذا الأصل يفسد أى عمل ، فكيف يقوم فضلهم الله سبحانه على أهل زمانهم يطلبون إلى نبيهم إقرار الشرك والعياذ بالله ، قال تعالى على لسان موسى - عليه السلام - راداً على قومه ومنكراً طلبهم :

﴿ قَالَ : إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ، إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُمْ فِيهِ ، وَيَاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، قَالَ : أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (١٣) .

حكم عليهم بالجهل ، وحكم على مشركى البدو ، ببطلان عملهم وفساده ، وأثار فيهم نعمة التفضيل ، والتي لا يناسبها مثل هذا الطلب ، بل يناقضها ، ويتنافى معها .

هذا وقد ورد على لسان حديثى العهد بالجاهلية فى غزوة حنين مثل هذا ، فاستشهد النبي - ﷺ - بموقف بنى إسرائيل هذا .

عن أبى واقد الليثى (١٤) ، قال : خرجنا مع رسول الله - ﷺ - إلى

(١٢) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٣٨ .

(١٣) سورة الأعراف ، الآيات من رقم ١٣٨ إلى رقم ١٤٠ .

(١٤) قيل : إن اسمه ، الحارث بن مالك ، وقيل : الحارث بن عوف ، والاختلاف قد وقع فى اسمه ، لاشتهاره بكنيته ، واختلف فى زمن إسلامه ، ويرجح أنه قديم فى إسلامه وما اعتبره بعض العلماء من قوله : بحداثة العهد بالكفر شهادة بتأخر إسلامه يمكن أن يوجه إلى الطلقاء فى الجيش الذى هو فيه ، وليس منهم ، والصحيح أنه شهد بندراً وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، ونقل البخارى أنه مات فى خلافة معاوية - رضى الله عنه . =

حنين ، ونحن حديثو العهد بالجاهلية ، قال : فسرنا معه إلى حنين ، قال : وكان كفار قريش ومن سواهم من العرب لهم شجرة عظيمة خضراء ، يقال لها : ذات أنواط . يأتونها كل سنة ، فيعلقون أسلحتهم عليها ، ويذبحون عندها ، ويعكفون عليها يوماً ، قال : فرأينا ، ونحن نسير مع رسول الله - ﷺ - سِدْرَةَ خضراء عظيمة . قال : فتنادينا من جنبات الطريق : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط . قال رسول الله - ﷺ - :

« الله أكبر ، قلتم والذي نفس محمد بيده : كما قال قوم موسى لموسى : « اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوماً تجهلون » إنها السُّنَنُ ، لتركبن سنن من كان قبلكم » (١٥) .

وفي ضوء ما تقدم من حديث ذات أنواط ، وما سبقه من طلب بنى إسرائيل ورد كل من النبيين - عليهما الصلاة والسلام - على قوم كل منهما أرى الآتي :

١ - أن بنى إسرائيل رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم ، وإطلاق لفظ الأصنام يدل للوهلة الأولى على عبادتها .

وأن حديثي العهد بالإسلام في حنين رأوا شجرة كانت تعلق عليها السيوف ، ويقام عندها يوم ، ولم تذكر في أى كتاب أنها صنم ومشهور ، وإلا لأرسل إليها من يهدمها بعد الفتح كغيرها .

= وأرسل إلى هدم مناة سعد بن زيد الأشهلي (الواقدي وابن سعد) . وقال غيرهما : بعث إليها أبا سفيان ، وقيل عليا - رضى الله عنهما . وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دأن بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد .

وأرسل إلى هدم ذى الخلصة جرير بن عبدالله البجلي ، وكانت لدوس وخثعم وبجيلة ، ويقال لها الكعبة اليمانية ابن إسحاق .

وقد عُدَّ ابن هشام أسماء الأصنام المشهورة حوالى عشرين صنماً ليس منها ذات أنواط فدل على أن شأنها كان دون شأن الأصنام التى عدها وفى هذا من الدلالة مافيه .

(١٥) أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، وفى الباب عن أبى سعيد وأبى هريرة - رضى الله عنهم . سنن الترمذى ج ٦ ص ٧٣٤٣ باب ما جاء ، لتركبن سنن من كان قبلكم رقم ٢١٨١ كتاب الفتن ، الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م مطابع الفجر الحديثة . حمص . هذا والنص المذكور اختاره ابن كثير فى التفسير ، وللبداية والنهاية وعزاه أيضاً إلى النسائى ، وغيره .

ولما يترتب على هذا الحديث من أمور أحب أن أضع بين يدى القارئ الكريم هذه التوضيحات :

- قال ابن القيم فى : إغاثة اللهفان ج ٢ ص ٢٩٥ : ثبت عن النبى - ﷺ - ثم ذكر الحديث .

- ذكر ابن كثير عند تفسيره الآيات روايتين : الأولى لابن جرير ، والثانية لأحمد ، مع اختصار بعض الألفاظ .

- ورواه ابن إسحاق ، القسم الثانى ص ٤٤٢ .

- ذكره الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى كتابه مختصر سيرة الرسول - ﷺ - تقديم وتصحيح ومراجعة محمد حامد الفقى . وأضاف إلى الترمذى ابن أبى حاتم ، وابن إسحاق . ص ٣١٠ . وورد فى التعليق على هذا الحديث :

فأنكر - ﷺ - عليهم مجرد مشابهتهم للمشركين فى ذلك . فكيف بما هو أعظم من ذلك من الشرك بعينه ، فإذا كان العكوف على هذه الشجرة لتعليق الأسلحة ، والعكوف حولها اتخاذ إله مع الله ، مع أنهم لا يسألونها ولا يعبدونها ، فما الظن بالعكوف حول القبر ، والدعاء به ، والدعاء عنده ؟ فأى نسبة للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر والدعاء عنده لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون ؟!

- وموجز ما ذكره ابن إسحاق فى أمر الأصنام وما ذكره غيره :

أرسل رسول الله - ﷺ - بعد فتح مكة ، وقبل غزوة حنين ، من هدم الأصنام ، وكسرها .

فأرسل خالد بن الوليد - رضى الله عنه - إلى العزى . وكانت بموضع يسمى نخلة ، فهدمها ، وهى بيت تعظمه قريش وكنانة ومضر ، وسدنتها من بنى شيبان .

وأضاف صاحب كنوز السنة أن رواية هدم العزى ذكرت فى طبقات ابن سعد ، ومغازى الواقدى ، وأضاف ابن كثير رواية للنسائى .

٢ - وأن بنى إسرائيل طلبوا صراحة إلى نبيهم موسى - عليه السلام - اتخاذ إله لهم من الأصنام ، مثل الصنم الذى رآوه .

وأن من طلب من المسلمين فى حنين كان طلبهم مجرد اتخاذ شجرة بنفس الصورة التى كانت عليها ذات أنواط .

٣ - وأن بنى إسرائيل عايشوا الدعوة فترة طويلة ، مع نبيهم موسى - عليه السلام - وأن من طلب من المسلمين كانوا من حديثى العهد بالإسلام ؛ كما قال أبو واقد الليثى . أى من أسلموا فى الفتح منذ أيام .

٤ - وأن بنى إسرائيل تنزلت عليهم فى فترة معايشتهم للدعوة نعم كثيرة : كالمن والسلوى ، وتفجر الماء ، وقبلها انفلاق البحر ونجاتهم من فرعون ، ورؤيتهم معجزات النبى موسى - عليه السلام - كالعصا واليد وغيرهما .

- وأن من طلب من المسلمين كان فى أول احتكاكهم بالدعوة ، وتلك غزوتهم الأولى فيها .

٥ - وأن النبى موسى - عليه السلام - رد على قومه بنى إسرائيل :

﴿ قال : إنكم قوم تجهلون ؛ إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ، قال : أغير الله أبغىكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ﴾ (الأعراف ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠) .

وأن النبى محمداً - ﷺ - ألحق طلب حديثى العهد فى حنين بالموقف ؛ إنكاراً لأى شبهة شركية ، وتأكيداً لمبدأ التوحيد .

٦ - ونخلص مما تقدم : أن طلب بنى إسرائيل يدل على جرم كبير ارتكبه ، وينذر بمستقبل شعب حنّ إلى الوثنية صراحة ، ونبيهم بين ظهرانهم . فكان الفرق بين الموقفين واضحاً ، والله أعلم بالصواب .

دروس وعبر :

- إن طريق الجنة محفوف بالمكاره ؛ فقد واجه بنو إسرائيل حين استقبلوا سيناء ألم الجوع ، والعطش ، ولفح الشمس .
- إن صبر المؤمن على ما يصيبه من محن ، سبيل إلى إدرار نعم الله سبحانه ، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً .
- إن الله سبحانه يجازى الصابرين من عباده بالخير الكبير ، فقد أنزل على بنى إسرائيل المن والسلوى وفجر لهم الماء ، وظللهم بالغمام .
- إن الله سبحانه حين يأمر عباده بأكل الطيبات من الرزق ينهاهم عن مجاوزة الحد في تناول هذه الطيبات سواء أكانت المجاوزة بالزيادة وعدم الاقتصاد فيها ، أو في توجيهها غير وجهتها المشروعة .
- إن الإسرف في تناول الطعام حتى ولو كان الطعام حلالاً في ذاته مجلبة لغضب الله سبحانه بسبب هذا الإسراف .
- وهذا الإسراف يعتبر من السفاهة في العقل التى تفقد المرء أهليته للتصرف فى المال .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم ﴾ (النساء ٥) .

- كما أن المصائب امتحان وابتلاء للإنسان فكذلك النعم ؛ أي شكر ، أم يكفر ؟

والمؤمن فائز فى الحالين كما فى الحديث : عن أبى يحيى صهيب بن سنان (١٦) - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

(١٦) صهيب بن سنان بن مالك ، وهو الرومى ، قيل له ذلك ؛ لأن الروم سبوه صغيراً ، ثم اشتراه رجل من كلب فباعه بمكة ، فاشتراه عبد الله بن جدعان ، فأعتقه وكنيته أبو يحيى . كان من المستضعفين المعذبين ، ويقال : إنه لما هاجر تبعه نفر من المشركين ، فقال لهم : يا معشر قريش ، إني من أركامكم ، ولا تصلون إلى حتى أركمكم

« عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » (١٧) .

- إن أخطر ما يهدد عقيدة المؤمن الشرك بالله سبحانه ، فعليه أن يحذر خفيه ؛ حتى لا يقع في ظاهره .

- إن الداعية المسلم عليه أن يحارب الوثنية منذ أن تطل برأسها في المجتمع المسلم ، ولا يتركها تتغلغل فيه ، وتهدم عقيدته .

بكل سهم معي ، ثم أضربكم بسيفي ، فإن كنتم تريدون مالي دللتكم عليه ، فرضوا . فقال النبي - ﷺ - في هذا الشأن : « ربح البيع » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله ﴾ (البقرة ٢٠٧) ومات سنة ثمان وثلاثين ابن سبعين سنة . الإصابة ج ٢ ص ١٩٥ رقم ٤١٠٤ .

(١٧) أخرجه مسلم . رياض الصالحين ، باب الصبر ، رقم ٢٧ ص ٢٥ ، ٢٦ .

موسى - عليه السلام - كلم الله سبحانه

— كلام الله سبحانه لموسى — عليه السلام — وطلب الرؤية.

— إيتاء كلم الله سبحانه الكتاب .

— تشريعات التوراة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم والسنة الشريفة .

— عبادة بنى إسرائيل للعجل فى غيبة موسى — عليه السلام .

أ — خطة السامرى .

ب — مساعدة بنى إسرائيل له .

ج — دور هارون — عليه السلام .

د — عودة موسى — عليه السلام — بعد إخبار الله سبحانه إياه .

هـ — تحقيقه مع الأطراف الثلاثة .

١ — بنى إسرائيل .

٢ — هارون — عليه السلام .

٣ — السامرى .

— دروس وعبر .

كلام الله سبحانه لموسى — عليه السلام ، وطلب الرؤية :

يخبر الله سبحانه أنه واعد نبيه موسى — عليه السلام — بأن يتهياً ، ويعد نفسه لتلقى الوحي بالتوراة . وهذا الإعداد سنة في سير الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — (١) فالنبي موسى — عليه السلام — قد علم سلفاً أن فترة الإعداد ثلاثون ليلة أصلاً ، وإتمامها يكون بإضافة عشر لتصير أربعين ليلة (٢) .

(١) كان خاتم الأنبياء محمد — ﷺ — يتحنث في غار حراء الليالي ذوات العدد ، حتى جاءه الوحي الكريم مبتدئاً بقوله : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، ﴾ (أوائل سورة العلق) .

وعن أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — قال : أول ما بدئ به رسول الله — ﷺ — من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه — وهو العبد — الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ؛ حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ؛ فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : « ما أنا بقارئ » قال : « فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ... ﴾ أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان .

كتاب الإيمان باب بدء الوحي رقم ٩٩ ص ٣٢ ، وفي صحيح البخارى ج ١ ص ٣ .

(٢) وقد رأى بعض التابعين أن الإتمام بعشر ؛ لتصير الليالي أربعين ، وما نزل على النبي الخاتم محمد — ﷺ — في حجة الوداع : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (المائدة ٣) فالتعبير بأتممت وأتممتها ، وأن نزول الآية كان بعد عشر ذى الحجة ، أن الليالي الأربعين التى قضاه موسى — عليه السلام — هى شهر ذى القعدة وعشر ذى الحجة . وربما يشير حديث الشيخين عن =

يقول الله تعالى :

﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ، وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة . وقال موسى لأخيه هارون : اخلفني^(٣) في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾^(٤)

فلما تم الميقات ، عزم موسى — عليه السلام — على الذهاب إلى الطور ، وفي ذلك يقول تعالى :
﴿يا بني إسرائيل ، قد أنجيناكم من عدوكم ، وواعدناكم جانب الطور الأيمن﴾^(٥) .

والمواعدة لبني إسرائيل كانت في شخص موسى — عليه

= عمر — رضى الله عنه — إلى هذا . حين قال :

إن رجلاً من اليهود قال له : يا أمير المؤمنين ، آية في كتابكم تقرعونها لو علينا معشر . اليهود نزلت لا نتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال : أى آية ؟ قال : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ قال عمر : قد عرفنا ذلك اليوم ، والمكان الذى نزلت فيه على النبي — ﷺ — وهو قائم بعرفة يوم الجمعة . اللؤلؤ والمرجان رقم ١٥٩٥ ص ٨٣٩ ، ٨٤٠ كتاب التفسير .

= والرجل هو كعب الأحبار قبل أن يسلم ، ويفهم من ردّ الفاروق أنها نزلت أصلاً في يوم عزيز على المسلمين ، يوم عرفة ، خير يوم طلعت فيه الشمس ، ويوم جمعة أيضاً .
(٣) ورد في حديث سابق أن النبي — ﷺ — قال لعلى — رضى الله عنه — أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ، غير أنه لا نبي بعدي ، وذلك بعد أن استخلفه على المدينة حين الذهاب إلى تبوك ، وقول على : أتخلفني على النساء والأطفال .
ارجع إلى الحديث والتعليق عليه ص ٣٧٧ .

- (فصل ، موسى ، وهارون — عليهما السلام — من هذا الكتاب . موضوع : سؤال موسى — عليه السلام — ربه سبحانه .) .
(٤) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٤٢ .
(٥) سورة طه الآية رقم ٨٠ .

السلام — كما نصَّت الآية هنا ، تكرر مثل هذا في مواقف أخرى ، وحين تم الميقات استخلف موسى — عليه السلام — على بنى إسرائيل أخاه هارون — عليه السلام — وكانت وصية هذا الاستخلاف بمتابعة الإصلاح ، والحذر من المفسدين الضالين ، من أمثال من حَنُّوا إلى الوثنية ، وطلبوا إلى موسى — عليه السلام — أن يجعل لهم إلهاً كما لغيرهم آلهة .

ونرى من خلال الآيات السابقة :

أن الإعداد النفسى يكون بالخلوة ؛ حيث تصفو النفس وتسمو .

وأن الليل تم الخلوة فيه أكثر من النهار ، ولذا كان العُدُّ بالليالى .

وأن النبى موسى — عليه السلام — اختار الله سبحانه له منهج الاكتمال والإتمام ؛ فهو مع شيخ مدين أتم عشر حجج ، والأصل ثمانٍ ، وهو هنا أتم أربعين ، والأصل ثلاثون .

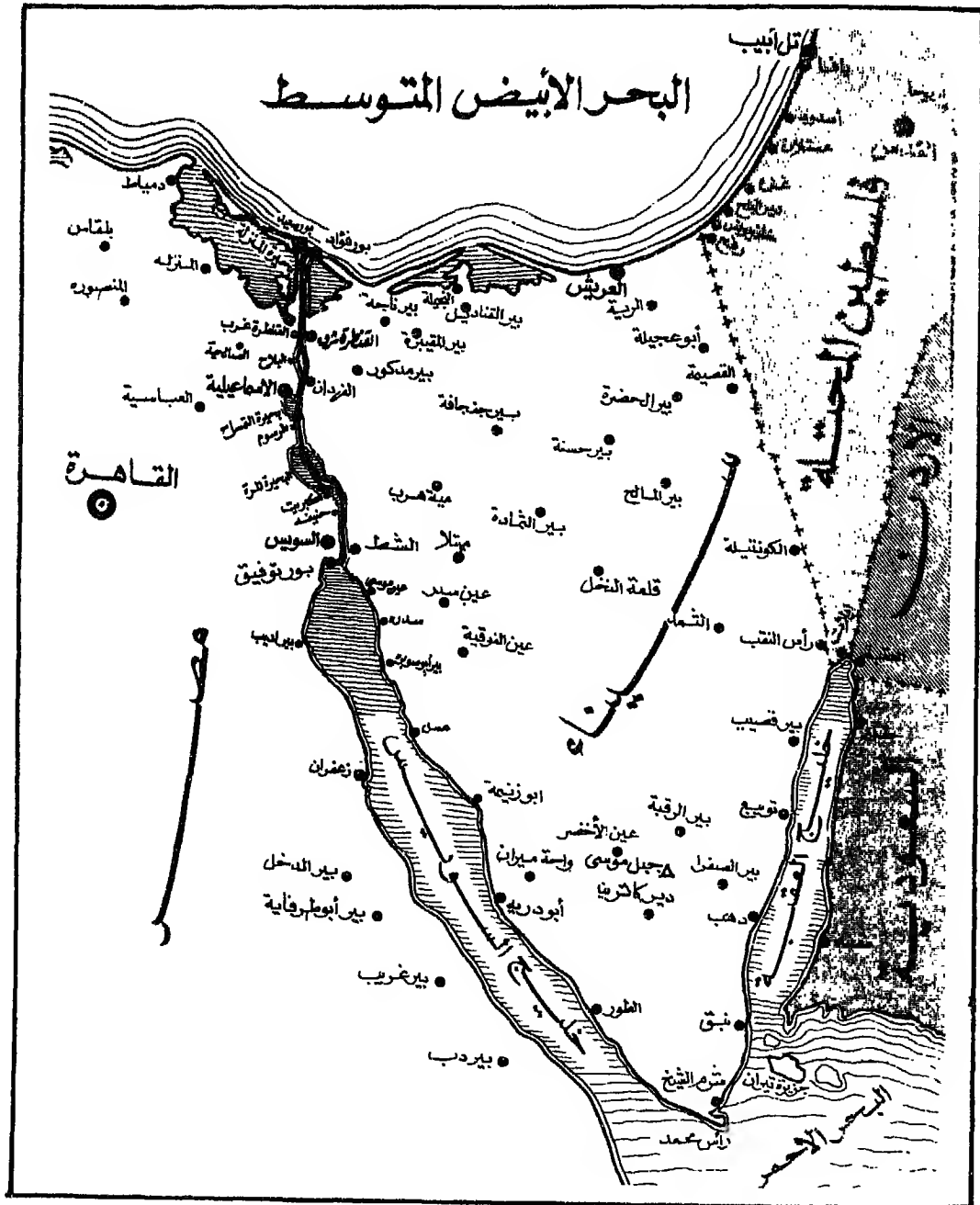
وأن القائد إذا ما كان له من سفر ، أو اعتزال فى إجازة مثلاً ، يجب عليه أن يخلف من ينوب عنه مع إسداء النصيح له .

وأن الإنابة تكون للأكفء الصالحين أمثال هارون — عليه السلام .

وبعد أن تمت المواعدة جاء موسى — عليه السلام — إلى الميقات ، وهو جانب الطور الأيمن كما دلت آية سابقة . وتمت فى الميقات جملة أمور :

١ — فقد كلمه الله سبحانه وتعالى ؛ ولذا يسمى كلم الله ﴿ وكلمه ربه ﴾ .

٢ — طلب موسى — عليه السلام — إلى ربه النظر إليه ﴿ رب أرنى أنظر إليك ﴾ .



٣ — نفى الله سبحانه أن يراه موسى — عليه السلام — وهذا في الدنيا . ﴿ لن تراني ﴾ (٦) .

(٦) أما في الآخرة ؛ فالأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — والصالحون المؤمنون بالله سبحانه ، وبرسله ، وكتبه ، واليوم الآخر ، يرون ربهم سبحانه كما يرى المرء القمر ليلة البدر .

قال الله تعالى :

﴿ وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ﴾ (القيامة ٢٢ ، ٢٣) .

أما الكفار فيمنعون من هذه الرؤية ، قال تعالى :

﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ (المطففين ١٥) .

وفي الحديث الذى أخرجه الشيخان عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن الناس

قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال :

« هل تمارون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ » قالوا : لا يارسول الله قال :

« فهل تمارون فى الشمس ليس دونها سحاب ؟ » قالوا : لا يارسول الله ، قال :

« فإنكم ترونه كذلك ... » اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق

الرؤية رقم ١١٤ ص ٤٢ .

وقد ورد حديث آخر رقم ١١٥ نفس المصدر فى نفس المعنى عن أبى سعيد

الخدري — رضى الله عنه .

أما الرؤية فى الدنيا للنبي محمد — ﷺ — فقد أخرج الشيخان عن أم المؤمنين

عائشة — رضى الله عنها — قالت : من زعم أن محمداً — ﷺ — رأى ربه فقد

أعظم ، ولكن قد رأى جبريل — عليه السلام — فى صورته ، وخلقه ساداً ما بين الأفق ،

رقم ١١٢ نفس المصدر .

وعن مسروق قال : قلت لعائشة — رضى الله عنها : يا أمتاه ، هل رأى

محمد — ﷺ — ربه ؟

فقلت : لقد قفَّ شعري (أى قام) مما قلت :

= أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب ؟ ثم قرأت :

٤. — علق الله سبحانه رؤيته على استقرار الجبل ، ولم يجعل نفى الرؤية أبدياً . قال تعالى ﴿ ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترواني ﴾ (٧) .

= ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ (الأنعام ١٠٣) .

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ﴾ (الشورى ٥١) .

ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ، ثم قرأت :

﴿ وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ﴾ (لقمان ٣٤) .

ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ، ثم قرأت :

﴿ يأتيها الرسول ، بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ﴾ (المائدة ٦٧) .

ولكنه رأى جبريل — عليه السلام — في صورته مرتين « المصدر السابق رقم ١١١ » .

ونخلص من هذا :

— بأن الإدراك بمعنى الإحاطة منفي دنيا وآخرة ، كما تدل عليه آية الأنعام .

— وبأن الرؤية منفية في الدنيا دون الآخرة لما يفهم من الآيات والأحاديث .

— وبأن الرؤية تكون في الآخرة للأنبياء والصالحين ، كما تدل عليه آية القيامة ، والأحاديث .

— وبأن الرؤية لا تكون للكفار في كل حال . دنيا وآخرة ، كما تدل عليه آية المطففين وغيرها . والله أعلم .

(٧) سورة الأعراف الآية رقم ١٤٣ .

٥ — تحلى الله سبحانه للجبل فجعله دكا ؛ لما تأثر به من عظم التجلى لله سبحانه .

٦ — صعد موسى — عليه السلام — من دك الجبل الذى هو من تحلى الله سبحانه . فالصعد أثر لأثر . قال تعالى :

﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً ﴾ (٨) .

٧ — حين أفاق كلهم الله سبحانه من الصعد استخلص ثلاثة أمور :

آ — تنزيه الله سبحانه عن المثلية والمشابهة للبشر .

ب — الرجوع إلى الله سبحانه ، وأن طلبه الرؤية كان فى غير محله .

ج — الإيمان بالله سبحانه عن إذعان كامل ، وتقبل التكليف التى تناط بالإنسان . وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ فلما أفاق قال : سبحانك ، تبت إليك ، وأنا أول المؤمنين ﴾ (٩) .

هذا وقد أخبر النبى محمد ﷺ — أصحابه عن تكريم موسى — عليه السلام — يوم القيامة ، فقد أخرج الشيخان عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن النبى ﷺ — قال فى حديث اليهودى والمسلم :

« لا تخبرونى على موسى ؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأصعق معهم ، فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري ، أكان فيمن صعق فأفاق قبلى ، أو كان ممن استثنى الله ؟ » (١٠) .

(٨) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٤٣ .

(٩) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٤٣ .

(١٠) اللؤلؤ والمرجان كتاب الفضائل ، رقم ١٥٣٤ ص ٢٢٦ ، وفى الباب عن

أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — رقم ١٥٣٥ نفس المصدر .

إيتاء كلیم الله سبحانه الكتاب :

بعد أن أفاق النبی موسى — علیه السلام — من الصعق خاطبه الله سبحانه بقوله :

﴿ قال يا موسى ، إني اصطفيتك على الناس برسالاتي ، وبكلامي ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له في الألواح من كل شيء ، موعظةً وتفصيلاً لكل شيء ، فخذها بقوة ، وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ؛ سأريكم دار الفاسقين ﴾ (١١) .

والخطاب يتضمن تكريماً وتكليفاً .

فالتكريم بما أعطاه الله سبحانه من رسالة ، والتكليف أن يأخذ ما أعطاه الله سبحانه بقوة ، وأن يبلغ قومه بذلك ، وأن يلزم الشاكرين لله على نعمه السابقة ، ويتجنب الفاسقين . وذكر التكليف عقب التكريم يدل على تلازمهما ، فإذا لم يتم المرء بما عليه من واجبات فقد ألغى اسمه من سجل المكرمين ، والعكس هو الواجب والمطلوب .

وعبر الله سبحانه عما آتاه لنبيه بالكتاب في أكثر من موقف . قال تعالى :

﴿ ثم آتينا موسى الكتاب على الذي أحسن ، وتفصيلاً لكل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ (١٢) .

وقال :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ، لعلهم يهتدون ﴾ (١٣) .

(١١) سورة الأعراف ، الآيتان رقم ١٤٤ ، ١٤٥ .

(١٢) سورة الأنعام ، الآية رقم ١٥٤ .

(١٣) سورة المؤمنون ، الآية رقم ٤٩ .

وأضاف هذا الكتاب إلى بنى إسرائيل عامة ؛ لأنه تنزل بشأنهم قال تعالى :
﴿ ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ، ورزقناهم من
الطيبات ، وفضلناهم على العالمين ﴾ (١٤) .

كما أخبر سبحانه عن هذا الكتاب بأنه التوراة في قوله تعالى :
﴿ وكيف يحكمونك ، وعندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم يتولون من بعد ذلك
وما أولئك بالمؤمنين ، إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ... ﴾ (١٥) .

وفيه من الآيات السابقة :

١ — أن الله سبحانه أنزل على نبيه موسى — عليه السلام — كتاباً هو
التوراة .

٢ — وأن هذا الكتاب نزل جملة في ألواح مكتوبة ، وليس منجماً
حسب الحوادث كالقرآن الكريم .

٣ — وأن هذا الكتاب فيه الموعظة التي ترقق القلوب ، وتجعلها خاشعة
لله سبحانه .

٤ — وأنه فيه الهدى والنور ، والرحمة لبنى إسرائيل .

٥ — وأنه فيه التشريع الذى يوضح لهم الحلال من الحرام . ليأخذوا
بالحلال ، وينتھوا عن الحرام .

**تشريعات التوراة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، والسنة
الشريفة :**

١ — الحكم بالتشريع الذى أنزله الله سبحانه دليل الإيمان الصحيح ،
وعدم الحكم بها دليل انتفاء الإيمان ، ودليل الكفر والظلم .

(١٤) سورة الجاثية ، الآية رقم ١٦ .

(١٥) سورة المائدة ، الآيتان رقم ٤٣ ، ٤٤ .

٢ — أن الخشية تكون لله سبحانه ، ولا يليق بالمسلم أن يذل نفسه للبشر ، وفي ضوء ذلك تقام الصلاة ، وتعطى الزكاة لمستحقها . قال تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ﴾ (١٦) .

٣ — عدم التنازل عن شرع الله سبحانه لقاء عرض دنيوى زائل .

٤ — ومن التشريعات الجنائية :

النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن والسن بالسن ، والجروح قصاص .

٥ — للمعتدى عليه الحق فى التمسك بتوقيع القصاص من الحاكم على المعتدى ، كما أن له العفو عنه .

وفى هذا يقول الله تعالى :

﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم يتولون من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ، إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والأحبار ، بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس ، واخشون ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص . فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ (١٧) .

(١٦) سورة البقرة ، الآية رقم ٨٣ .

(١٧) سورة المائدة ، الآيات من رقم ٤٣ إلى رقم ٤٥ .

٦ — ما له ظفر حرام أكله .

٧ — لحم البقر والغنم حلال أكله . ومن الشحوم ما هو حلال مثل :
ماحملة الظهر ، أو حملته الأمعاء ، أو ما اختلط بعظم . وماعدا ذلك من الشحوم
فحرام .

قال الله تعالى :

﴿ وعلى الذين هادوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظَفَرٍ ، ومن البقر والغنم حره
عليهم شحومهما ، إلا ما حملت ظهورهما ، أو الحوايا ، أو ما اختلط بعظم
ذلك جزيناهم ببغيهم ، وإنا لصادقون ﴾ (١٨) .

وعن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : بلغ عمر ، أن فلاناً
خمرأ ، فقال : قاتل الله فلاناً ؛ ألم يعلم أن رسول الله — ﷺ — قال :

« قاتل الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجمعوها فباعوها » (١٩) .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال

« قاتل الله يهود ؛ حرمت عليهم الشحوم فباعوها ، وأكلوا
أثمانيها » (٢٠) .

٨ — رجم الزانى المحصن .

عن عبدالله بن عمر — رضى الله عنهما — أن اليهود جاءوا إلى رسول
الله — ﷺ — فذكروا له أن رجلاً وامرأة زنيا . فقال لهم رسول
الله — ﷺ :

(١٨) سورة الأنعام ، الآية رقم ١٤٦ .

(١٩) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب المساقاة رقم ١١٩ ص ٢٨٦ .
جملوها : أذاًبوها واستخرجوا دهنها .

(٢٠) أخرجه الشيخان المصدر السابق رقم ١٠٢٠ ص ٣٨٦ ، صحيح البخارى ج

٤ ص ٢٠٧ .

« ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟ »

فقالوا : نفضحهم ، ويجلدون ، فقال عبدالله بن سلام : كذبتم ، إن فيها الرجم . فأتوا بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها ، وما بعدها . فقال له عبدالله بن سلام : ارفع يدك ، فرفع يده ، فإذا فيها آية الرجم . فقالوا : صدق يا محمد . فيها آية الرجم . فأمر بهما رسول الله ﷺ — فرجما . قال عبدالله بن عمر : فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة (أى يكب نفسه عليها) (٢١) .

٩ — إقامة الحد على السارق .

وقد كان في شريعة يعقوب — عليه السلام — بأن يأخذ صاحب المال . السارق رقيقاً أو خادماً يخدمه . أما في شريعة التوراة فقطع اليد كما يفهم من الحديث التالي .

عن عائشة — رضى الله عنها — (في حديث المخزومية) أن رسول الله ﷺ — قال :

« أما بعد ، فإنما أهلك الذين من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » (٢٢) .

١٠ — حرمة قتل الآخرين ، وإخراجهم من ديارهم .

١١ — حرمة فداء الأسارى .

قال تعالى :

(٢١) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الحدود ، باب رجم اليهود ، رقم ١١٠٤ ص ٤٢٢ ، ومختصر مسلم رقم ١٠٤٠ .

(٢٢) المصدر السابق ، ونفس الكتاب . رقم ١١٠٠ ص ٤٢١ ، ومختصر مسلم رقم ١٠٤٦ .

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم ﴾ (٢٣) .

١٢ — حرمة وصل الشعر بشعر آخر (الشعر المستعار) .

عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف ، أنه سمع معاوية بن أبي سفيان — رضى الله عنهم — عام حَجَّ ، وهو على المنبر ، وتناول قُصَّةً من شعر كانت في يد حَرْسِيٍّ يقول : يا أهل المدينة ، أين علماؤكم ؟ سمعت رسول الله ﷺ — ينهى عن مثل هذه ، ويقول :

« إنما هلك بنو إسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم » (٢٤) .

١٣ — تحريم العمل يوم السبت :

وقد ذكر في القرآن الكريم أنهم حين فسقوا عن أمر الله سبحانه تحايّلوا على هذا التشريع ، وذلك حين نصبوا شبك الصيد مساء الجمعة لتلتقط ما يظهر من أسماك يوم السبت ، ثم تسحب هذه الشباك صباح الأحد . قال تعالى :

﴿ وأسألمهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ؛ إذ يعدّون في السبت ، إذ تأتّبهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ، ويوم لا يسبّتون لا تأتّبهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ (٢٥) .

(٢٣) سورة البقرة ، الآيتان رقما ٨٤ ، ٨٥ .

(٢٤) أخرجه مسلم . المختصر رقم ١٣٨٥ ج ٢ ص ١٢٧ ، والقصة بضم القاف : شعر مقدم الرأس المقبل على الجبهة . والحرسى : هو غلام الأمير .

(٢٥) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٦٣ .

وما كان اختفاء الحيتان في غير أيام السبت إلا بسبب الفسق ، والخروج عن طاعة الله سبحانه ، وأن هذا التحايل على التشريع ما هو إلا مخالفة لأوامر الله سبحانه ، وامتداداً للفسق الذي كان سبباً في اختفاء الحيتان .

والبحر هنا هو الجزء المواجه لهم في مسيرتهم ، وهو الجزء القريب من الطور ، مكان تكليم الله سبحانه لنبيه موسى — عليه السلام — فقد قال تعالى على لسانه :

﴿ قال : هم أولاء على أثري ﴾ (٢٦) .

أى إنهم سيلحقون بى ؛ حتى يصلوا إلى الطور المكان الذى شرف بالتكليم . وهو المكان أيضاً القريب من أرض مدين التى مر بها قبل ذلك حين ساعد الفتاتين ، وظل أجيراً عند شيخ مدين عشر حجج .

وقد روى بشأن تحايل اليهود أن رسول الله — ﷺ — قال :

« لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل » (٢٧) .

وهذا التحايل كان سبباً في لعن من قاموا من بنى إسرائيل ، ومن يقوم به أيضاً من المسلمين . قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أوتوا الكتاب ، آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم . من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب

(٢٦) سورة طه ، الآية رقم ٨٤ .

(٢٧) من رواية أبى هريرة — رضى الله عنه — قال ابن كثير : رواه الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة بإسناد جيد ، فإن أحمد بن محمد بن مسلم الذى حدث أباً عبد الله الفقيه ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه ، وباقي رجاله مشهورون ثقات ، ويصحح الترمذى بمثل هذا الإسناد كثيراً (تفسير آية الأعراف) ، و (آيتى البقرة : ٦٥ ، ٦٦) .

السبت ، وكان أمر الله مفعولاً ﴿٢٨﴾ .

١٤ — ومن التشريعات أيضاً التي أخذها الله سبحانه عليهم ماورد في قوله تعالى بشأن صلة الوالدين وذوى القرى والعطف على اليتامى والمساكين .

﴿ وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله ، وبالوالدين إحساناً ، وذى القرى واليتامى والمساكين ﴾ ﴿٢٩﴾ .

عبادة بنى إسرائيل العجل :

حين طلب بنو إسرائيل إلى نبيهم أن يجعل لهم إلها كما للقوم الذين مروا عليهم آلهة ، ردّ عليهم ، ووبخهم ، وعاتبهم ، فرجعوا عما طلبوه ، ولكنهم خنّوا إلى الشرك من جديد ، وواتهم فرصة من غياب نبيهم موسى — عليه السلام — فعبدوا عجلاً صنعوه بأيديهم .

وتفصيل القصة على هذا النحو :

اتجه موسى — عليه السلام — إلى حيث واعدته ربه سبحانه ، وكان من شأن المواعدة ، والتكليم ، والصعق ، والإفاقة ، وإلقاء ألواح التوراة إلى النبي الكليم .

وقد استخلف النبي موسى . أخاه هارون — عليهما السلام — ؛ ليقوم بشئون القوم حين غيابه ؛ حيث لا تترك الجماعة دون قائد عام يرعى شئونها ، ويفصل فى القضايا ، وذلك من فقه الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — وعلى منوالهم يسير أولو الأمر لهذه الأمة فى استخلاف نائب ينوب عن الحاكم ، أو أى مسئول وقت غيابه ، ويختار للنبيابة أصلح القوم لهذه المهمة ، وكان هنا هارون — عليه السلام .

والتقى فى قصة العجل منذ البداية أمران :

(٢٨) سورة النساء ، الآية رقم ٤٧ .

(٢٩) سورة البقرة ، الآية رقم ٨٣ .

١ — محاولات الإضلال التي قام بها السامري ، واستطاع أن يُضلَّ شعباً بأكمله ، مما يدل على حبه سبل الإضلال ، بحيث صدقها الشعب الإسرائيلي في الطور .

٢ — الأمر الثاني ، هو التهيؤ النفسى من بنى إسرائيل لمثل هذا الصنيع ، وقد سبق أن طلبوا هم ابتداءً إلى موسى — عليه السلام — وهو بين ظهرانيهم أن يجعل لهم إلهاً ، كما لغيرهم آلهة .

ويدل ذلك على :

— أن عمليات الإضلال لأى شعب لا تجدى فيه ، ولا تؤتى ثمارها السيئة إلا حدثت خلخلة إيمانية وضعف التمسك بالقضايا المصرية للأمة المسلمة .
— وأن عمليات الإضلال تسبقها زمناً تلك الخلخلة ، والاهتزاز الفكرى ، وقصر النظر ، وعدم تناول الأحداث بشكل موضوعى .
— وأن المسئول الصالح يجب أن يهتم بشئون الأمة كلها ، ولا يغفل جانباً منها .

١ — خطة السامري : ب — ومساعدة القوم له :

رأى السامري — وهو أحد بنى إسرائيل — الكثير من الحلى وأغلب الظن أنه من الذهب ، وليس فى القرآن الكريم ما يمنع ذلك ، فبقى على المعروف المألوف فى هذا .

هذه الحلى من حيث الواقع المشاهد ملك لبنى إسرائيل ، وهذا يفهم من إضافتها إليهم فى قوله تعالى : ﴿ من حلّهم ﴾ .

وهى من حيث الأصل كانت لغيرهم ، وأنهم قد أخذوها دون وجه حق ، كما تشير الآية الكريمة : ﴿ حملنا أوزاراً من زينة القوم ﴾ .

وبناء الفعل للمجهول « حملنا » يدل على أن هذه الأموال حملها لهم غيرهم ، أى أعطوها إياهم ، أى أعطى القبط بمصر أموالهم لبنى إسرائيل على

سبيل الأمانة ، أو أن بنى إسرائيل جمعوها بصورة من صور الدهاء والخديعة ، وكل من الأمرين محتمل ، ولكل ما يقويه .

فيقوى الاحتمال الأول ظاهر بناء الفعل للمجهول ، وأنهم لم يستطيعوا رد هذه الأمانات إلى أهلها ؛ خشية انكشاف أمرهم ، واقتضاح سرهم ، حين أمرهم موسى — عليه السلام — بالخروج من مصر معه ليلاً . والاتجاه صوب البحر الأحمر .

ويقوى الاحتمال الثاني أن الأحداث التي سبقت عملية الخروج من مصر ، لا تساعد أن يعطى القبط حلهم لبنى إسرائيل أمانة ، وأن بنى إسرائيل كانوا دون غيرهم منزلة ، ومجال الشك وارد بين القومين .

سواء كان هذا أو ذاك فلنا أن نفهم : أن الحلى صورت على أنها وزر ، ونتيجة لوزر ، كما تدل العبارة ، وأن خروج بنى إسرائيل بحلى غيرهم على أى وجه من الوجوه غير المشروعة لم يكن على علم موسى — عليه السلام — فالنبي لا يقر شيئاً غير مشروع .

ثم إن السامرى رأى أن يجمع هذه الحلى من أيديهم ، وقد بذلوا لها طائعين ؛ لأنها تحقق ما تهفو إليه نفوسهم من وثنية . وصنع السامرى من الحلى تمثالاً على صورة عجل ، بعد عمليات الإذابة والصهر ، والصب ، والتشكيل ، وساعده القوم فى ذلك .

ولأن السامرى صاحب الفكرة كان الفاعل فى قوله تعالى :

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلاً جَسَداً لَهُ خَوَار ﴾ (٣٠) .

ولأن القوم ساعدوه كانوا فاعلين فى قوله تعالى :

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حَلِيمٍ عَجَلاً جَسَداً لَهُ خَوَار ﴾ (٣١) .

(٣٠) سورة طه ، الآية رقم ٨٨ .

(٣١) سورة الأعراف الآية رقم ١٤٨ .

وبلغت مهارة السامرى أن تحايل فى صناعة هذا العجل حتى كان له صوت من مرور الريح فى أحشائه ، وليس هذا بغريب على قوم كان منهم من سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، وجاعوا بسحر عظيم ، وفرح الجميع بعجل مائل أمامهم ، زعموه إلها من دون الله سبحانه . قال تعالى :

﴿ وقالوا : هذا إلهكم ، وإله موسى فنسى ﴾ (٣٢) .

وأقام بنو إسرائيل على عبادة العجل طوال فترة تغيب موسى — عليه السلام — فى الميقات .

ج — دور هارون — عليه السلام :

قال الله تعالى على لسانه :

﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل : يا قوم ، إنما فستم به ، وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمرى ، قالوا : لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾ (٣٣) .

ويفهم من النص الكريم :

١ — أن هارون — عليه السلام — لم يتوان فى إنكار المنكر : فقد واجه المشكلة منذ التفكير فيها على يد السامرى .

٢ — وأنه أنكر أمرين :

آ — اتباع السامرى ؛ فهو يسير بهم إلى الضلال .

ب — عبادة العجل .

٣ — وأنه قد رسم الطريق الصحيح بديلاً للسلوك الخاطئ مبيناً أمرين :

(٣٢) سورة طه ، الآية ٨٨ .

(٣٣) سورة طه ، الآيتان ٩٠ ، ٩١ .

آ — اتباع خليفة موسى — عليه السلام — وهو هارون نفسه .
 ب — أن العقيدة الصحيحة تكون بالتوحيد لله سبحانه الخالق الذي
 رزقهم بالمن ، والسلوى ، وفجر لهم الحجر اثنتى عشرة عيناً ، وهو رحيم بهم .
 ٤ — وأن بنى إسرائيل لم تنفع فيهم الموعظة على حكمتها ، وجلالها ،
 وأصروا على عبادة العجل إلهاً من دون الله سبحانه .

د — عودة النبي موسى — عليه السلام :

أخبره الله سبحانه بأن فتنة قد حدثت لبني إسرائيل في غيبته ، وأن
 زعيمهم في هذه الفتنة السامرى ، وليس هارون . قال تعالى :

﴿ قال : فإننا قد فتنا قومك من بعدك ، وأضلهم السامرى ﴾ (٣٤) .

ورجع موسى — عليه السلام — لينظر ما حل بالقوم ، وقد تملكه
 الغضب ، والأسف لما صنعوا (٣٥) ، ولم يفقده الغضب توازنه ، فقد وقف موقف
 القاضى ، والمحاسب لكل من القوم ، وهارون — عليه السلام — والسامرى .

(٣٤) سورة طه ، الآية رقم ٨٥ .

(٣٥) عن عائشة — رضى الله عنها — أنها قالت : ما خير رسول
 الله ﷺ — بين أمرين إلا اختار أيسرهما . ما لم يكن إثماً . فإن كان إثماً كان أبعد
 الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله ، فينتقم الله
 بها . أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان رقم ١٥٠٢ ، ومختصر مسلم رقم ١٥٤٦ .

وعن عبدالله بن عمرو — رضى الله عنهما — قال : هجرت إلى رسول
 الله ﷺ — يوماً ، قال : فسمع أصوات رجلين يختلفان في آية ، فخرج علينا رسول
 الله ﷺ — يعرف في وجهه الغضب . فقال : « إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم
 في الكتاب » مسلم . المختصر رقم ٢١٢١ .

معنى ذلك أن الغضب إذا كان ممنوعاً منه بشكل عام ، ولكنه واجب إذا ما انتهكت
 حدود الله وحرماته ، كما حدث من كلم الله سبحانه .

هـ — تحقيقه مع الأطراف الثلاثة :

١ — مع بنى إسرائيل :

توجه النبی موسى — عليه السلام — بهذه الأسئلة ، بعد أن عاد إليهم ، ورآهم كما أخبره الله سبحانه عنهم :

﴿ يا قوم ، ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ؟ أفطال عليكم العهد ؟ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ؟ فأخلفت موعدى ﴾ (٣٦) .

فموسى — عليه السلام — على الرغم من غضبه ، وأسفه ، وإلقائه الألواح ، وانزعاجه الشديد من عبادة العجل ، والشرك بالله سبحانه ، على الرغم من ذلك كان رقيقاً مع من يحقق معهم ؛ فهو يناديهم بأحب نداء لديهم « يا قوم » باليم المكسورة التى تدل على ياء المتكلم المحذوفة ، أى يا قومى : فلزال الارتباط بهم قائماً ، ولم يحدث بعد أن تبرأ منهم ، ولم يئأس من هدايتهم طالما هو بين ظهرانيهم . ومع النداء الرقيق يكون الانتباه من المخاطبين ، والتهيو لما يعرض عليهم من أمور .

ولم يسرع موسى — عليه السلام — بالإنكار عليهم فعلتهم ، ولكنه قرر أولاً حقيقة فى صورة مقدّمة مسلّم بها . ولا تبنى النتائج إلا على المسلّمات من المتكلم والمخاطب .

وتأمل هذا الإيقاع من الاستفهام التوبيخى فى قوله « ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ؟؟ » أى لم فعلتم ذلك ؟

وجاء العتاب فى صورة استفهامين بدلا من الإنكار والتوبيخ . واعتمد فى هذا على أمرين آ — عدم طول العهد . ب — عدم الرغبة فى إحلال غضب الله سبحانه .

إن واقع الحال أن العهد لم يطل ، وأن غياب موسى — عليه السلام — عنهم كان مجرد أن كلمه ربه سبحانه ، وأعطاه التوراة . وفي ذلك إشارة إلى ما سيحدث من القوم حين يطول العهد بهم ، فقد حدث فعلاً أن حرّفوا وبذّلوا ؛ كما سجل القرآن الكريم في مواقف أخرى .

وجاء الاستفهام الإنكارى الثانى من جهة أخرى مخالفة للجهة السابقة ؛ فالجهة السابقة وهى طول العهد ، أو قصره ، تكون من خارج الإنسان ، أما الجهة الجديدة الثانية فمن داخل النفس البشرية ، حين ترغب فى الشيء أو ترغب عنه . ونوع موسى — عليه السلام — بذكر الجهتين ليلغى أى مبرر لوقوع الشرك منهم . فهل ترضى النفس البشرية السوية أن يحل بها غضب ؟ وأن يكون هذا الغضب ممن أحبهم ، وفضلهم على العالمين .

ويأتى الحكم الذى أدين به بنو إسرائيل من نبيهم موسى — عليه السلام — وهو تخلف الموعد . وهذا ما تضمنته آية أخرى ، قال تعالى :

﴿ بئسما خلفتموني من بعدى . أعجلتم أمر ربكم ﴾ (٣٧) .

فماذا قال بنو إسرائيل فى الدفاع عن أنفسهم ؟ قال الله تعالى على لسانهم :

﴿ قالوا : ما أخلفنا موعدك بملكنا ، ولكننا أوزاراً من زينة القوم ، فقدفناها ، فكذلك ألقى السامرى ﴾ (٣٨) .

إنهم على الفور نفوا التهمة عن أنفسهم ، وادّعوا البراءة . فما حيثيات التبرئة التى ادعوها ؟ .

١ — أنهم مغلوبون على أمرهم فى خلف الموعد فى زعمهم ؛ فهم يقرون ضمناً أن فى العمل خلفاً للموعد ولكنهم غلبوا على أمرهم من جهة خارجة عنهم .

٢ — أن الحلّى التى صنع العجل منها . حقيقة كانت معنا ، ولكننا أردنا

(٣٧) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٥٠ .

(٣٨) سورة طه ، الآية رقم ٨٧ .

التخلص منها ؛ لأنها لم تكن في الأصل ملكا لنا . فقدفناها .
 ٣ — وأن هذا العمل يتحمل وزره في الدرجة الأولى من أضلنا ، وقادنا
 به إلى الشرك ، وهو السامرى .

وبالنظر إلى دفاعهم عن أنفسهم ، نرى :

١ — أن القوم أرادوا التخلص من وزر صغير بارتكاب جرم كبير ؛
 وتلك فتنة شيطانية يلقيها الشيطان في قلوب الغافلين ؛ فهم أرادوا أن يتخلصوا من
 أوزار الحلى بالمساعدة فى صناعة العجل ، ثم عبادته ، والفرح بذلك .

٢ — أن وضوح الحق يرفض الغفلة عنه ، والاعتذار بعدم معرفته .

٣ — أن المرء المسلم لا يوسع دائرة الإجبار ، والاضطرار لتشمل كل
 الحالات ، وعليه أن يزن الضرورة ويقدرها بقدرها قال تعالى :

﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ ﴾ (٣٩) .

وقال أيضاً :

﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ ، وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ ﴾ (٤٠) .

فشرط الضرورة عدم تجاوزها ، والتوقف عند الحد الذى يدفع الضرر
 فقط ، ويكون بالنسبة لبنى إسرائيل بالتخلص من الأوزار بالتنازل عن الحلى مثلاً ،
 وعدم إسهامهم فى صناعة العجل .

ولم يقبل دفاعهم عن أنفسهم — ولذا خاطبهم الله سبحانه بقوله :

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ؟ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًا ،

(٣٩) سورة المائدة ، الآية رقم ٣ .

(٤٠) سورة البقرة ، الآية رقم ١٧٣ .

ولا نفعا ؟ ﴿٤١﴾ .

وقوله أيضاً :

﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ، ولا يهديهم سبيلا اتخذوه ، وكانوا ظالمين ﴾ ﴿٤٢﴾ .

ويتضمن خطاب الله سبحانه لهم :

١ — أن هذا العجل الذى عبده من دون الله سبحانه لا يكلمهم ، ولا يرد على سؤلهم .

٢ — وأنه لا يملك لهم ضرا ولا نفعا ، ولا يهديهم سبيلا اتخذوه .

٣ — وأنهم بشرتهم كانوا ظالمين لأنفسهم .

٤ — وأنه كان من الواجب عليهم أن يتأملوا ، ويروا رؤيا بصر ، وبصيرة .

أما مايفهم من خطاب الله سبحانه لهم :

١ — أن الجريمة التى يرتكبها المرء فى حق نفسه أن يجرمها من التأمل ، والنظر ، والتفكير السديد ، وتقليب الآراء ، وأن يسير وراء كل ناعق ؛ مجرد أنه أوتى جانبا من الدهاء ، والمكر ، والخبث .

٢ — وأن الله سبحانه هو المستحق للعبادة ، وهو الذى وهب النعم التى لا تعد ، ولا تحصى ، ولا يليق بالمرء فى زحمة الإضلال أن ينسى واهب النعم وهو الله سبحانه .

٣ — وأن الله سبحانه يجازى على العمل فى ذاته ؛ إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، دون نظر إلى جنس أو لون ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

(٤١) سورة طه ، الآية رقم ٨٩ .

(٤٢) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٤٨ .

٢ — التحقيق مع هارون — عليه السلام :

على الرغم من أن هارون — عليه السلام — لم يشارك القوم في جريمتهم ، بل اعترض عليهم ، وحاول ثنيهم عنها ، والتوجه إلى الله سبحانه ، فكان خطاب موسى — عليه السلام — له شديداً ؛ للمسئولية التي حملها من أخيه ، مسئولية القيادة في غيبته .

ولنتأمل تلك الصورة :

موسى وقد رأى هارون — عليه السلام — يلقي ما بيده من ألواح التوراة ؛ لتأخذ هذه اليد رأس هارون ، وتقبض على لحيته ، وتجره بها .

فخطأ التقصير من القائد ، ولو كان يسيراً يفوق بمراحل ما يرتكبه الشعب مما هو أكبر منه ، ويدل على ذلك أيضاً الواقع المشاهد . قال الله تعالى على لسان موسى :

﴿ قال : يا هارون ، ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تنبئن ؟ أف عصيت أمي ؟ ﴾ (٤٣) .

ويتضح من الخطاب أنه لم يشارك القوم خطأهم وضلالهم ، ولكن كان يجب عليه أن يمنع هذا الإضلال بقوة أكبر ، فترك الشر دون محاولة قوية يعتبر عصياناً لموسى — عليه السلام .

وقال الله تعالى على لسان هارون — عليه السلام :

﴿ قال : ابن أم ، إن القوم استضعفوني ، وكادوا يقتلونني ، فلا تشمت بي الأعداء ، ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ (٤٤) .

(٤٣) سورة طه ، الآيتان رقما ٩٢ ، ٩٣ .

(٤٤) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٥٠ .

وقال أيضاً :

﴿ قال : يا بن أم ، لا تأخذ بلحيتي ، ولا برأسي ؛ إني خشيت أن تقول : فرقت بين بنى إسرائيل ، ولم ترقب قولي ﴾ (٤٥) .

— فهو يعلن أن القوم اجتمعوا عليه ، واستضعفوه ، ويوضح هذا ما رَدُّوا به عليه قبل ذلك : ﴿ لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾ ، فموقفهم موقف قوة ، لا موقف بينة ، وصرحوا بذلك في وجهه ، وصمموا على ما هم قائمون عليه .

— وأن هذا الاستضعاف منهم اقترب من التخلص منى بالقتل لو أنا استمررت على الإنكار ﴿ وكادوا يقتلونني ﴾ .

— وأنه لو اشتد في الإنكار عليهم ، وصار قتل منهم لى ، فسوف لا تغير شهادتى من الموقف شيئاً .

— وأن هارون — عليه السلام — وضع نصب عينيه وحدة الأمة والشعب ، وأن هذه الوحدة إذا ما انتشر عقدها فسيضيع كل شيء ، وفى ذلك من الاهتمام بالوحدة مافيه .

— وأن الضلال الذى وقعوا فيه ، اعتبره هارون — عليه السلام — ضللاً مؤقتاً سينتهى بحضور موسى — عليه السلام — ولولا هذا الاعتبار ، ما جاز الاعتذار على أى حال ، قال تعالى :

﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر مآدون ذلك لمن يشاء ﴾ (٤٦) .

وقال أيضاً :

﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ (٤٧) .

(٤٧) سورة لقمان ، الآية رقم ١٣ .

(٤٥) سورة طه ، الآية رقم ٩٤ .

(٤٦) سورة النساء ، الآية رقم ٤٨ .

— وقبل موسى — عليه السلام — ماعرضه هارون — عليه السلام — بشأن الموقف ، ودوره فيه ، ودعا الله سبحانه له ولأخيه بالمغفرة .
قال تعالى على لسانه :

﴿ قال : رب اغفر لى ولأخى ، وأدخلنا فى رحمتك ، وأنت أرحم الراحمين ﴾ (٤٨) .

٣ — التحقيق مع السامرى :

وتوجهت أصابع الاتهام من الجهتين السابقتين إلى السامرى تعلن ثبوت التهمة عليه .

قال الله تعالى فى شأن المسألة التى تمت بين موسى — عليه السلام — والسامرى :

﴿ قال : فما خطبك يا سامرى ؟ قال : بصرت بما لم يصبوا به ، فقبضت قبضة من أثر الرسول ، فنبذتها ، وكذلك سولت لى نفسى ، قال : فاذهب ؛ فإن لك فى الحياة أن تقول : لا مساس ، وإن لك موعداً لن تخلفه ، وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا ، لنحرقنه ، ثم لننسفنه فى اليم نسفاً ، إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو ، وسع كل شئ علماً ﴾ (٤٩) .

وبدأ التحقيق بالسؤال عن القصة . كيف حيكت أطرافها ؟ « فما خطبك يا سامرى » ؟ .

والتعبير بالخطب يشير من أول وهلة إلى ثبوت الجريمة على المتهم ، وتقديم الاستفهام على النداء يدعم ذلك ، ويقويه .

وفى ضوء التعبير على لسان السامرى نرى :

— أن السامرى تفوق على بقية القوم فى التفكير ، ولكنه استغل هذه

(٤٨) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٥١ .

(٤٩) سورة طه ، الآيات من رقم ٩٥ إلى رقم ٩٨ .

القوة الفكرية فيما يفسد ، لا فيما يصلح ، وذلك شأن الكثير من مفسدى الأرض ، وعلى رأسهم إبليس لعنه الله .

— أن اختيار « بَصُرْتُ » دون أبصرت ، يدل على أن الأمر المتحدث عنه ، اعتمد على البصيرة وهى العقل ، والتفكير ، لا على مجرد الإبصار ، فقيمة البصر ، والسمع تتجلى مع الفؤاد ، ولذا قال تعالى :

﴿ إِن السَّمْعَ ، والبَصَرَ ، والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ (٥٠) .

— وأن ما يدعم قوة السامرى الفكرية ، أنه استغل المشاهد المرئى بفكره ، فقد قبض قبضة من أثر الرسول جبريل — عليه السلام — فنبذها فى موضعها بعد أن صنع من العجل شيئاً .

— وأن القدرة الذاتية التى مكنته من أثر الرسول ، كانت اختباراً له ولبنى إسرائيل معه .

ماذا يصنع ؟ وماذا يصنعون معه ؟ ويشير إلى هذا الاختبار ما سبق من قوله تعالى مخاطباً موسى — عليه السلام :

﴿ قال : فإننا قد فتنا قومك من بعدك ، وأضلهم السامرى ﴾ (٥١) .

— وأن السامرى حيث لم يجد مناصاً ، ومهرباً من التهمة الموجهة إليه اعترف بذلك صراحة ، « وكذلك سولت لى نفسى » وتستعمل « سَوَّلَ » حين يكون الإغواء والإضلال ، وفى ذلك ما قال تعالى عن الشيطان :

﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ، الشيطان سَوَّلَ لهم ، وأملى لهم ﴾ (٥٢) .

(٥٠) سورة الإسراء ، الآية رقم ٣٦ .

(٥١) سورة طه ، الآية رقم ٨٥ .

(٥٢) سورة محمد (ص) ، الآية رقم ٢٥ .

وما قاله أيضاً على لسان يعقوب — عليه السلام — مخاطباً أبناءه بعد مؤامرتهم :

﴿ قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون ﴾ (٥٣) .

ومع ثبوت التهمة كان الحكم ، قال تعالى :

﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا ، وكذلك نجزي المفترين ﴾ (٥٤) .

وقد سبق على لسان موسى — عليه السلام — ما يدل على فداحة الخطب ، وتحريق العجل ونسفه .

وتتضمن الآيات :

— أن الشرك بالله سبحانه ، ومن مظاهره عبادة العجل يورث غضب الله تعالى ، ويورث الذلة في الحياة الدنيا .

— وأن عقوبة المستول على قدر مسئوليته ؛ لأنه بجرمه يؤثر فيمن يليه ، فيتحمل وزره ، ووزر من عمل به إلى يوم القيامة .

— وأن الحاكم المسلم إذا ما وجد مظهراً من مظاهر الشرك عليه أن يزيله إزالة بالغة الأثر بالتحريق مثلاً كما صنع موسى — عليه السلام (٥٥) .

(٥٣) سورة يوسف (ص) ، الآية رقم ١٨ .

(٥٤) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٥٢ .

(٥٥) وكما صنع النبي محمد — ﷺ — حين الفتح ، وبعده .

عن عبدالله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : دخل النبي — ﷺ — مكة ، وحول الكعبة ثلثائه وستون نُصباً ، فجعل يطعنها بعود في يده ، وجعل يقول : « جاء الحق ، وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » أخرج الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الجهاد ، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة رقم ١١٦٦ ص ٤٥٩ .

وبعد أن أزال مظهر الشرك زال الغضب بزوال أسبابه ، وتناول التوراة
فبصحبة التوراة سيجد الهدى والرحمة للمؤمنين . قال تعالى :

﴿ ولما سكنت عن موسى الغضب أخذ الألواح ، وفي نسختها هدى
ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ (٥٦) .

(٥٦) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٥٤ .

دروس وعبر :

— من يتحمل عبء الدعوة إلى الله سبحانه عليه أن يعد نفسه الإعداد اللائق لهذه المهمة ؛ بغية إنجاح العمل . وذلك بالعبادة ، والفهم ، والإخلاص لله سبحانه . وعلى هذا الدرب كانت المواعدة أربعين ليلة قبل إنزال الوحي من السماء ، وكان أيضاً التحنث في غار حراء الليالي ذوات العدد .

— الله سبحانه أعَدَّ رسله — عليهم الصلاة والسلام — بأفضل الأعمال ؛ فموسى — عليه السلام — أقام مع شيخ مدين عشراً بدل ثمان ، وأتم المواعدة أربعين بدل ثلاثين ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

— أن المسئول إذا ما اضطر لسفر ، فعليه تنظيمياً أن ينبغ عنه في غيابه من يقوم بشئون الأمة .

— رؤية الله سبحانه لا تتحقق في الدنيا ، كما أنها لا تكون في الآخرة إلا للمؤمنين فقط .

— أن الرسل جميعاً أسرة واحدة يدعون إلى عقيدة واحدة ، ولا يصح التفضيل بينهم على أساس من عصبية مع إقرار أن النبي الخاتم — صلى الله عليه وسلم — أفضل الأنبياء جميعاً ، وأن أمته أفضل الأمم .

— كتب الله سبحانه هداية ؛ ونور ، للبشرية ، فالتوراة هدى ونور ، والقرآن يهدي للتي هي أقوم ، وتتفق الكتب جميعها في إقرار عقيدة التوحيد ، وإن اختلفت في الجانب التشريعي الذي يختلف باختلاف الأقوام وظروفهم .

— أن ضلال الأمم من عدة عوامل :

آ — مسئولية خبيثة لثيمة تتصف بالدهاء مثل السامري .

ب — استعداد الشعب نفسياً للإضلال ، بسبب خلخلة إيمانية .

ج — أن الخلخلة الإيمانية تنذر بتحول خطير في مسيرة الأمم إلى الفساد والإفساد .

د — ضعف المسئول — على الرغم من صلاحه في ذاته — أمام العوامل السابقة لا تقدر على التصدي دون مساندة .

— من تاريخ بنى إسرائيل حملهم حلى الأقباط بمصر ، وخروجهم بها دون إرجاعها إلى أصحابها ، وأن هذه الحلى اتخذت لمخالفة أخرى ، وهى صناعة العجل وعبادته .

— على الداعية أن يواصل الدعوة ، حتى ولو تجمعت القوى ضده ، كما صنع هارون — عليه السلام .

— إذا ما غضب المسلم فلا انتقاما لنفسه ، ولكن متى انتهكت حرمة من حرمت الله سبحانه ، شريطة ألا يفقد توازنه ورشده .

— الأحداث التى تمر بالأمة لابد أن يحقق بشأنها لتبيين جوانب الأخطاء فيها ، وعلى من تقع المسئولية ؟ ليأخذ المجرم جزاءه ؛ شريطة أن يأخذ التحقيق العدالة منهجاً ، ولا يقر الاتهام إلا بالأدلة والبراهين .

— أن التحقيق ليس غرضه الأساسى توقيع العقوبة ، ولكن الهدف الأكبر إصلاح العوج ، ودعم السلوك السوى المستقيم .

— على المرء أن يفكر فى مظاهر الشرك ؛ ظاهرها ، وخفيها ، ويناقشها عقليا ، فالحكم على الشيء فرع عن تصوره .

— محاكمة المسئول أيا كان مركزه الأدبى فقد حقق موسى مع هارون عليهما السلام .

— الحرص على وحدة الأمة من منهج الأنبياء والصالحين ، ومن أهم الأهداف التى تسعى إليها الأمة..

﴿إني خشيت أن تقول : فرقت بين بنى إسرائيل﴾ .

— اللجوء إلى الله سبحانه حين يلم بالمسلم ذنب أو تقصير ؛ طلباً للعفو والمغفرة .

— كشف ألعيب المتآمرين على مصالح الأمة ، وتعريضهم أمام الجمهور ،
في محاكمة علنية عادلة .

— تقليم أظفار الفساد ، وإغلاق الروافد التي تدعمه من واجبات المسلم
المسئول إذا ما كان بإمكانه ذلك .

مواقف لبنى إسرائيل في سيناء

- طلبهم رؤية الله سبحانه .
- نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة .
- أهل القرية ، وطوائفها الثلاث .
- آ — الطائفة الأولى : التي اعتدت في السبت فمسخت .
- ب — الطائفة الثانية : من أنكرت على الأولى فنجت .
- ج — الطائفة الثالثة : من سكنت ولم تشارك الأولى ولا الثانية .
- د — وفي التاريخ طائفة أخرى .
- قصة ذبح البقرة :
- موضوعها ، عناصرها ، سير الأحداث فيها .
- دعوة بنى إسرائيل إلى دخول الأرض المقدسة ، ومراحلها .
- آ — مرحلة التهيئة ، والتذكير بالنعم .
- ب — مرحلة الدعوة إلى التحرك والفتح .
- ج — رفض الدعوة ، والاعتذار بأسباب واهية .
- د — دور الناصحين .

- هـ — إصرار وتأکید على القعود .
- و — ما على الرسول إلا البلاغ .
- ز — ختام الموقف ، واستحقاق العقوبة .
- متى كان دخول الأرض المقدسة ؟ وكيف ؟
- دروس ، وعبر .

طلبهم رؤية الله سبحانه :

طلب النبي موسى — عليه السلام — أن يرى ربه سبحانه فكان الصعق له ، ولما أفاق ذكر الله تعالى قائلاً : ﴿ سبحانك تبت إليك ، وأنا أول المؤمنين ﴾^(١) ثم رجع إلى قومه بعد أن أخبره الله تعالى بما صنعوا من عبادة العجل ، وكان التحقيق معهم جميعاً ، وتبصيرهم بالصواب الواجب اتباعه ، والضلال اللازم اجتنابه والبعد عنه .

واختار موسى — عليه السلام — للميقات نقباء عن القوم ، ومن المألوف أن يكون المختار من أمثل الناس وأفضلهم . فجمع من أخيار القوم سبعين رجلاً ؛ ليخصهم بتوجيهه ، وليكونوا نماذج رائدة لبنى إسرائيل جميعاً ، وخلصتهم . وعليهم قيادة المسيرة إلى بر الأمان^(٢) قال الله تعالى في هذا الشأن : ﴿ واختار موسى قومه ، سبعين رجلاً لميقاتنا ﴾^(٣) .

ووصل الرجال السبعون مع نبيهم — عليه السلام — إلى الميقات ، وتشير الآيات إلى أن القوم المختارين رأوا ما اختص به موسى — عليه

(١) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٤٣ .

(٢) وتلك سنة من سنن الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — حين يكون العدد كثيراً . فقد طلب النبي — ﷺ — إلى الأنصار في بيعة العقبة الثانية نقباء عنهم ؛ يتكلمون باسمهم ، فاختاروا اثني عشر نقيباً ، تمت المبايعة بوساطتهم ، فعن أبي الوليد ، عبادة ابن الصامت — رضى الله عنه — قال : بايعنا رسول الله — ﷺ — على السمع ، والطاعة ، في العسر ، واليسر ، والمنشط ، والمكره ، وعلى أثرة علينا ، وعلى ألا ننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله تعالى فيه برهان ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم ، أخرجه البخارى ، ومسلم ، والنسائى وابن ماجة وكان عبادة أحد النقباء المختارين .

(رياض الصالحين ، باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، رقم ١٨٦ ص ١٠١) .

(٣) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٥٥ .

السلام — دونهم ، من كلام الله سبحانه له ، ووحيه إليه ، ليكون لما طلبوا أدنى مبرر . والله أعلم .

ورأى القوم أن تلك فرصة لطلبهم رؤية الله سبحانه ؛ خاصة وأنهم قد اختبروا من مجموع القوم ، لخصوصية فيهم دون غيرهم . ووقع بنو إسرائيل في مخالفتين جديدتين :

١ — طلبهم رؤية الله سبحانه — وربما يكونون على علم بما صار لصعق موسى — عليه السلام — وسببه .

٢ — تعليقهم الإيمان على هذه الرؤية . قال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْتُ : يَا مُوسَى ، لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ (٤) .

وتعليق الإيمان بموسى — عليه السلام — على الرؤية جهرية يبين لنا :

آ — هذا النوع الجديد من الإيمان ، وهو النوع التجارى الذى تعلن فيه تلك المزايدات الحرام .

ب — تناسى نعم الله سبحانه ، والتى غمرت بنى إسرائيل جميعاً ، منذ أن أرسل إليهم نبيهم — عليه السلام .

ج — العنت فى طلب الرؤية ، فعلى الرغم من أنهم يطلبون غير الممكن ، فقد بالغوا ، واشتروا أن تكون الرؤية جهرية .

د — إصرارهم على هذا الطلب ؛ فقد بدعوا يحددون أنظارهم ؛ انتظاراً لرؤية الله سبحانه كما تدل بقية الآية الكريمة السابقة .

هـ — إلغاء عقولهم حين طلبوا هذا الطلب ؛ فكانوا بذلك سفهاء وأغبياء .

وفعل القوم ما استحقوا عليه جزاء الإهلاك ، قال تعالى :

(٤) سورة البقرة ، الآية رقم ٥٥ .

﴿ فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ (٤) .

وقال أيضاً :

﴿ أَخَذْتِهِمُ الرِّجْفَةَ ﴾ (٥) .

إنها صاعقة ورجفة أهلكتهم وأماتهم .

وتوجه موسى - عليه السلام - إلى ربه بالدعاء ، والتضرع ، قال تعالى على لسانه :

﴿ قَالَ : رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِيَّائِي أَهْلَكْتَنِي بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا ، إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ، تَضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ ، وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِينَا ، فَاعْفُرْ لَنَا ، وَارْحَمْنَا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ، وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هَدَيْنَاكَ إِلَيْكَ ﴾ (٦) .

وقوله ﴿ بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ يراد به القوم الذين طلبوا الرؤية جهرة ، والذين وافقوا أيضاً على هذا الطلب ، والذين سكتوا أيضاً دون إنكار هذا المنكر ، فقد وقعوا جميعاً في دائرة المخالفة التي تستحق العقاب الذي عوقبوا به (٧) ، وخرج من دائرة المخالفة موسى - عليه السلام .

(٥) سورة الأعراف ، الآيتان : ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٦) سورة الأعراف الآيتان ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٧) عن أم المؤمنين ، أم الحكم ، زينب بنت جحش - رضى الله عنها - أن النبي - ﷺ - دخل عليها فزعاً يقول :

« لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مَن شَرَّ قَدْ اقْتَرَبَ ، فَتَحَ الْيَوْمَ مَن رَزَمَ يَأْجُوجَ ، وَمَأْجُوجَ مِثْلَ هَذِهِ » (وحلق بأصبعيه ؛ الإبهام والتي تليها) ، فقلت : يا رسول الله ، أهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم ، إذا كثر الخبث » .

والخبث : الفسق والفجور ، وفي الحديث أن الخبث إذا كثر فقد يحصل الهلاك العام ، ففيه بيان شؤم المعصية ، والتحريض على إنكارها ، لأن الساكت عن الحق شيطان أخرس . =

- وفى لجوء موسى - عليه السلام - إلى ربه سبحانه - نرى :
- تفويض الأمر إلى الله سبحانه ؛ يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء .
 - أن الفتن ما هي إلا اختبار ، وابتلاء للناس ، وعلى المؤمنين أن يجتازوها بنجاح .
 - أن العبد إذا ما أذنب عليه أن يسرع بالتوبة من ذنبه ، ويعود إلى الله سبحانه .
 - تمجيد الله سبحانه في الدعاء تذلاً ، وتضرعاً .
 - طلب الخير جائز شرعاً ، إذا ما كان مساعداً على طاعة الله سبحانه .
 - أن أكبر شيء يسجل في صحيفة العبد يوم القيامة الرجوع إلى الله ، والتوبة من الذنوب ؛ فهدنا إليك : أى رجعنا إليك ، ومضارعها : يهود ، أى يرجع ، ولذا سمي بنو إسرائيل يهود ، وتدخل الألف ، واللام عليها فيقال : اليهود ، كما في يزيد ، واليزيد .
 - ورد الله سبحانه على نبيه موسى - عليه السلام - بقوله :
 - ﴿ قال : عذابي أصيب به من أشاء ، ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذي هم بآياتنا يؤمنون ﴾ (٨) .
 - ومن خصوصيات هذه الآية :
 - أن رحمة الله سبحانه بمعناها العام ، وسعت كل شيء في الكون ، جماده ، وكائناته الحية .

= أخرج الحديث البخارى ، ومسلم ، وأحمد . رياض الصالحين ، باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . رقم ١٨٩ ص ١٠٢ .

(٨) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٥٦ .

- وبمعناها الخاص وهو النجاة من العذاب ، فهي لمن تحققت فيهم هذه الشروط :

- آ - الذين يتقون الله سبحانه ، ويخافون عذابه .
- ب - والذين يؤمنون بآيات الله سبحانه .
- ج - والذين يترجمون هذا الإيمان إلى مساعدة الناس في ظل تشريع الزكاة .
- د - والذين يتبعون النبي الخاتم محمد بن عبدالله - ﷺ - وفي ذلك يقول تعالى :

﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ، والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم ، والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به ، وعزروه ، ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه . أولئك هم المفلحون ﴾ (٩) .

نتق الجبل فوقهم :

إن رحمة الله سبحانه كتبت للمتقين المؤدين للزكاة المفروضة عليهم ، والذين آمنوا بالآيات الكريمة . إن بنى إسرائيل هنا متلكون فاترو الإيمان بالتوراة ، وتعاليمها ، فالإيمان الصحيح تلزمه السرعة في التلبية والامثال لأمر الله سبحانه ؛ إنهم قد تناولوا التوراة بلين وفتور ، فكان أن توعدهم الله سبحانه إن ظلوا على هذا الفتور ، وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ وإذا أخذنا ميثاقكم ، ورفعنا فوقكم الطور ، خلدوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ، ثم توليتم من بعد ذلك ، فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾ (١٠) .

(٩) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٥٧ . (١٠) سورة البقرة ، الآيتان ٦٣ ، ٦٤

وقال أيضاً :

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ، ورفعنا فوقكم الطور ، خذوا ما آتيناكم بقوة ، واسمعوا ، قالوا : سمعنا وعصينا ، وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم . قل : بشما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ (١١) .

وقال أيضاً :

﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم ، خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ، وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألسن بربكم ؟ قالوا : بلى . شهدنا أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ (١٢) .

وتدل الآيات الكريمة على جملة أنماط من سلوك بنى إسرائيل ، وهم بجوار جبل الطور في جنوب سيناء مثل :

- أن الله سبحانه أخذ عليهم الميثاق والعهد في عدم العودة إلى الكفر ونقض العهد والمخالفة لأمر الله سبحانه ؛ سواء أكان هذا الميثاق حين أخذ الله سبحانه من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم كما تدل الآية الأخيرة ، أو كان هذا الميثاق بعد نجاتهم من هلاك نازل بهم ، ولكنهم تابوا ونصحو ، وعوهدوا ألا يعودوا إلى مخالفة أخرى ، كما تدل الأحداث السابقة . سواء كان هذا ، أو ذاك ، فخلف العهد ليس من سمات المؤمنين إيماناً حقاً .

- أنهم تناولوا التوراة بفتور وضعف ، وحسبوا أن ذلك منج لهم من عذاب الله سبحانه .

- وأنهم ما تغير حالهم إلا حين رأوا الجبل قد رفع فوقهم ، وبصدد أن ينزل عليهم إن لم يستجيبوا لأمر الله سبحانه ، وذلك :

(١١) سورة البقرة ، الآية رقم ٩٣ .

(١٢) سورة الأعراف ، الآيتان ١٧١ ، ١٧٢ .

- بأن يأخذوا الكتاب بقوة ، وجد ، دون ضعف وفتور .
- وأن يتدارسوا تشريعاته لتكون منهج الحكم في حياتهم .

أهل القرية ، وطوائفها الثلاث :

انقسم الناس في هذه القرية إلى طوائف ثلاث :

- من اعتدوا في السبت .
- من أنكروا على المعتدين .
- من سكتوا ولم ينكروا ، ولم يشتركوا في الاعتداء .

آ - الطائفة الأولى :

يقول الله تعالى في شأن هذه الطائفة :

﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ، فقلنا لهم : كونوا قردة خاسئين ، فجعلناها نكالا لما بين يديها ، وما خلفها ، وموعظة للمتقين ﴾ (١٣) .

وقال أيضاً :

﴿ قل : هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ؟ من لعنه الله ، وغضب عليه ، وجعل منهم القردة ، والخنازير ، وعبدالطاغوت ، أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل ﴾ (١٤) .

وقال :

﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر ؛ إذ يعدون في السبت ؛ إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ، ويوم لا يسبثون لاتأتيتهم ،

(١٣) سورة البقرة الآيتان ٦٥ ، ٦٦

(١٤) سورة المائدة الآية ٦٠ .

كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴿١٥﴾ .

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : سئل رسول الله - ﷺ - عن القردة والخنازير : أهى ممّا مسخ الله ؟ فقال :

﴿ إن الله لم يهلك قوماً - أو قال : لم يمسح قوماً - فيجعل لهم نسلًا ، ولا عقبًا ، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك ﴾ (١٦) .

أى : لقد علمت يا معشر اليهود ، ما حل من البأس ، والشدة بأهل القرية التى كانت حاضرة البحر الأحمر ، وقد عصى أهلها أمر الله سبحانه ، وخالفوا عهد ، وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم يوم السبت ، والقيام بأمره ، إذ كان مشروعاً لهم هذا التعظيم ، فتحاولوا على اصطلياد الحيتان فى يوم السبت ، ومقتضى التعظيم ينهى عن ذلك ، وهذا التحايل كان نتيجة اختبار ، وابتلاء من الله سبحانه لهم ، إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ؛ أى ظاهرة واضحة لهم ، طافية على سطح الماء ، سهلة التناول ، وبالتالى سهلة الصيد لو كان صيد ، ويوم لا يستتون لا تأتيتهم ؛ أى إذا كان يوم الأحد لزمّت أسفل البحر فلا يرى منها شيء حتى يكون يوم السبت .

وربما يكون تحايلهم بنصب الشباك مساء الجمعة ، وتربط بالشاطئ مثلاً ؛ لتقع فيها الحيتان يوم السبت ، وتجبرّ يوم الأحد ، وربما تفتح فتحة صغيرة

(١٥) سورة الأعراف الآية ١٦٣ .

(١٦) رواه مسلم من طريقين ، سفيان الثورى ، ومسعر ، كلاهما عن مغيرة ابن عبد الله اليشكرى ، عن المعرور بن سويد ، عن ابن مسعود ، ورواه أحمد ، وأبو داود الطيالسى من حديث داود بن أبى الفرات ، عن محمد بن زيد ، عن أبى الأعين المعبدى عن أبى الأحوص ، عن ابن مسعود بلفظ : « لا ، إن الله لم يلعن قوماً قط فيمسحهم ، فكان لهم نسل ، ولكن هذا خلق كان ، فلما غضب الله على اليهود فمسحهم جعلهم مثلهم » ابن كثير فى تفسير آية المائدة ٦٠ ولم أعثر على رواية مسلم فى المختصر ، ولعلها فى الأصل ، والله أعلم .

للنهر تصل إلى حفرة صغيرة ، فإذا كان يوم السبت فتح أهل القرية هذه الفتحة لتدخل الحيتان ، ولا يستطيع الحوت أن يخرج منها لقلة مائها ، فإذا كان يوم الأحد جاء الصائد فأخذه وسواء أكان هذا ، أو ذاك ، أو غيرهما ، فهناك تحايل على أى حال بأى وجه من الوجوه .

وهذا التحايل لا يخرج القوم من المؤاخذه ؛ فالله سبحانه يجازى على النوايا التى جرت إلى العمل على أى وجه كان ، وكانت عقوبة هؤلاء القوم أن مسخوا قردة منحطة .

وتضيف الآية الثانية أن المسخ كان إلى خنازير أيضاً نتيجة لعن الله سبحانه لهم ، وغضبه عليهم بسبب هذا اللؤم ، والتحايل على شرع الله سبحانه .

ويدل الحديث الشريف على أن المسخ إلى قردة وخنازير لم يحولهم إلى حيوانات بنوعها المألوف الذى ينسل ، ويتوالد ، بل ظلت على هذا الشكل حتى فئيت وبادت .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال :

« فقدت أمة من بنى إسرائيل لا يُدرى ما فعلت ، وإنى لا أراها إلا الفأر ؛ إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشرب ، وإذا وضع لها ألبان الشاء شربت » .

فحدثت كعباً فقال : أنت سمعت النبى - ﷺ - يقول ؟ قلت : نعم . قال لى مراراً (١٧)

والدليل على المسخ فى الحديث . إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشرب ؛ لأن لحوم الإبل ، وألبانها حُرمت على بنى إسرائيل ، وإذا وضع لها ألبان الشاء شربت ؛ لأنها حلال لهم كلحمها وهو دليل على المسخ .

ومخالفة هذا الحديث للحديث السابق من توالد المسوخ وتناسله يرى

(١٧) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الزهد والرقائق ، باب الفأر وأنه مسخ رقم ١٨٨٦ ص ٨٣٥ .

الجمهور في التوفيق بينهما بأن عدم التوالد والتناسل كان لمسوخى أهل القرية ،
وأن الفأر المتوالد كان لمن مسخ من غير أهل القرية والله أعلم .

ويسجل القرآن الكريم عليهم اللعن إلى الأبد حيث قال تعالى :

﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود ، وعيسى
ابن مريم ؛ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ (١٨) .

ومما ورد بشأن المسخ أيضاً - على وجه الاحتمال ، وليس على سبيل
اليقين .

عن أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه - أن أعرابياً أتى رسول
الله ﷺ - فقال : إني في غائطٍ مُضَيِّعٍ (مكان يكثر فيه الضُّبُّ) وإنه عامة
طعام أهلي ، قال : فلم يجبه ، فقلنا : عاوده فعاوده ، فلم يجبه ثلاثاً ، ثم ناداه
رسول الله ﷺ - في الثالثة فقال :

« يا أعرابي ، إن الله لعن - أو غضب على سبط بنى إسرائيل فمسخهم
دواباً يدبون في الأرض فلا أدري ، لعل هذا منها ، فلست آكلها ، ولا أنهى
عنها » (١٩) .

(١٨) سورة المائدة ، الآية رقم ٧٨ .

(١٩) أخرجه مسلم ، كتاب الأطعمة ، باب في أكل الضب ، مختصر مسلم ج ٢
ص ١١٥ رقم ١٣٢٤ ، وقلنا : على وجه الاحتمال في التقديم للحديث لما وجد في نصه
« فلا أدري . لعل هذا منها ولا أنهى عنها » ولما أخرجه مسلم أيضاً في نفس الباب رقم
١٣٢٣ من نفس المصنوع .

عن عبدالله بن عباس ، أن خالد بن الوليد - رضى الله عنهم - الذي يقال له : سيف
الله أخيره : أنه دخل مع رسول الله ﷺ - على ميمونة ، زوج النبي ﷺ - وهي
خالته ، وخالة ابن عباس ، فوجد عندها ضبا محنوداً (سمينا) ، قدمت به أختها حفيدة بنت
الحارث من نجد ، فقدمت الضب لرسول الله ﷺ - وكان قلما يقدم إليه بطعام حتى
يُحَدَّث به ويُسَمَّى له ، فأهوى رسول الله ﷺ - يده إلى الضب ، فقالت امرأة من
النسوة الحضور : أخْبِرْن رسول الله ﷺ - بما قدمتن له ، قلن : هو الضب يا رسول
الله ﷺ =

ومما ورد بشأن الإصابة برجس الطاعون .

عن عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه ، أنه سمعه يسأل أسامة ابن زيد (٢٠) - رضى الله عنهم - ماذا سمعت من رسول الله - ﷺ في الطاعون ؟ فقال أسامة : قال رسول الله - ﷺ - :

« الطاعون رجس أرسل على طائفة من بنى إسرائيل ، أو على من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » (٢١) .

وفيه من الحديثين السابقين : أن من بين العقوبات التي تعرض لها بنو إسرائيل رجس الطاعون ، وليس بالحديث ما يدل على أن العقوبة هذه كانت لأهل القرية ، فبقيت مطلقة ، كما يفهم احتمال المسخ إلى الفأر ، وليس بالحديث مايؤكد ذلك ، وفي ضوء كل ما سبق يتبين لنا أن التحايل على شرع الله سبحانه حرام يجازى عليه صاحبه (٢٢) .

= الله ، فرفع رسول الله - ﷺ - يده فقال خالد بن الوليد : أحرام الضب يا رسول الله ؟ قال : « لا ، ولكنه لم يكن بأرض قومي ، فأجدني أعافه » قال خالد : فاجترته ، فأكلته ، ورسول الله - ﷺ - ينظر ، فلم ينهني ، أخرجه مسلم ، كتاب الأطعمة ، باب في أكل الضب ج ٢ ص ١١٤ ، ١١٥ رقم ١٣٢٤ .

(٢٠) هو أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل ، حب رسول الله - ﷺ - ابن حبه ، يُكنى أبا محمد ، وأمه أم أيمن ، بركة الحبشية ، حاضنة النبي - ﷺ - ولد في الإسلام ، ومات النبي - ﷺ - وله عشرون سنة تقريباً ، وكان قد أمره على جيش عظيم ، فمات قبل أن يتوجه ، فأنفذه الصديق ، وفضله الفاروق في العطاء على ولده عبد الله ، واعتزل الفتن بعد مقتل عثمان ، إلى أن مات في أواخر خلافة معاوية ، سكن المزة بدمشق ، ثم وادى القرى ، ثم مات بالمدينة سنة أربع وخمسين ، روى عنه بعض الصحابة كأبي هريرة ، وابن عباس - رضى الله عنهم أجمعين - . الإصابة لابن حجر ج ١ ص ٣٠ رقم ٨٩ .

(٢١) أخرجه البخارى ، كتاب الأنبياء ح ٤ ص ٢١٣ (المتن) .

= (٢٢) وقد فكر بعض الصحابة في نوع من التحايل على الشرع ، ولكن

ب - الطائفة الثانية . التى أنكرت على المعتدين :

قامت هذه الطائفة بعمل إيجابى فى إنكار المنكر على هؤلاء الذين اعتدوا فى السبت ، وتحايّلوا على شرع الله سبحانه ، وقد ورد بيان موقفهم فى معرض الحوار بينهم ، وبين من سكّتوا ولم يشاركو المعتدين فى اعتدائهم ، ولا منكرو المنكر فى إنكارهم على المعتدين ، قال تعالى :

﴿ وإذ قالت أمة منهم : لم تعظون قوماً الله مهلكهم ، أو معذبهم عذاباً شديداً ؟ قالوا : معذرة إلى ربكم ، ولعلمهم يتقون . فلما نسوا ما ذكروا به

= النبى - ﷺ - قطع فى المسألة ، ورد على الفور . فعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : سئل نبى الله - ﷺ - عن الرجل يطلق امرأته ثلاثاً ، ويتزوجها آخر ، فيغلق الباب ، ويرخى الستر ، ثم يطلقها قبل أن يدخل بها . هل تحل للأول ؟ قال : « لا ، حتى يذوق العسيلة » أى ، لا تحل إلا إذا حدث جماع ، رواه أحمد والنسائى من رواية سفيان الثورى (نيل الأوطار للشوكانى ج ٦ ، ص ٢٨٥ كتاب الرجعة والإباحة للزوج الأول) .

وقد حذر النبى - ﷺ - أتباعه من اتباع طريقة اليهود ، والنصارى ، وتحايّلهم على شرع الله سبحانه وأخبر أن من هلك الأُمم اتباع السابقين فى شرهم ، وضلالهم . فعن أنس سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال :

« لتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى ولو دخلوا جحر ضب تبعتموهم » قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » (أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب العلم ، باب اتباع سنن اليهود والنصارى ، رقم ١٧٠٨ ص ٧٢٤) .

وعن أنس هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال :

« لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ؛ فتستحلوا محارم الله بأذى الحيل » .

قال ابن كثير : إسناد الحديث جيد ، فالذى حدث به عن أنس هريرة هو أحمد ابن محمد بن مسلم ، وثقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادى ، وباقي رجاله مشهورون على شرط الصحيح ، (تفسير آيتى البقرة : ٦٥ ، ٦٦) ، وآية الأعراف ١٦٣ .

أنحنينا الذين ينهون عن السوء ، وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا
يفسقون ﴿ (٢٣) .

وفي مواقف أخرى ذكرت آيات قرآنية ملاح هذه الطائفة الناجية بشكل
عام غير مقيدة بحادثة الاعتداء في السبت وأهل القرية ، قال الله تعالى :

﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق ، وبه يعدلون ﴾ (٢٤) .

وقال أيضاً في مجال تعداد طوائفهم بشكل عام :

﴿ ليسوا سواء ؛ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل ،
وهم يسجدون ، يؤمنون بالله ، واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون
عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات ، وأولئك من الصالحين ، وما يفعلوا من
خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين ﴾ (٢٥) .

ولهذه الطائفة التي أنكرت على المعتدين ملاح في ضوء الآية الأولى .

١ - أن أهلها لم يلتفتوا إلى المشيطين للهمم والعزائم ، بحجة عدم الفائدة .

٢ - وأنهم فهموا أن الإنكار للمنكر اختبار في ذاته ؛ فلزم القيام به
أيا كانت الأحوال « معذرة إلى ربكم » .

٣ - لم يتسرب اليأس إلى قلوبهم ، فرمى تأتى الهداية من حيث لا يدرون
« لعلهم يتقون » ، فالمؤمن يهفو دائماً إلى هداية الآخرين على يديه ؛ لأن يهدي
الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها .

٤ - أنهم طائفة متميزة عن غيرهم سلوكاً وتفكيراً ؛ فيما بينهم يكونون
وحدة متماسكة تتمتع بالمناعة الذاتية ، ولا يلوبون في غيرهم ، وحين يحتكون
بغيرهم ، إنما يهدف التعرف على المدعو من ناحية ، وبذل الجهد لهدايته من ناحية
أخرى .

(٢٣) سورة الأعراف الآية رقم ١٦٤ ، ١٦٥ . (٢٤) سورة الأعراف الآية رقم ١٥٩ .

(٢٥) سورة آل عمران الآيات من رقم ١١٣ إلى رقم ١١٥ .

وتكتمل الصورة المضيئة للفتة المؤمنة في آية الأعراف الثانية ، وآيات آل عمران .

٥ - أنهم ييغون الحق منهجاً في الحياة ، يقيسون الناس به ، فالرجال يُعرفون بالحق ، ولا يعرف الحق بالرجال .

٦ - الارتباط على أساس من الإيمان ، فيجب على كل منهم أيا كان ، وأين أقام ؟ ومتى عاش ؟ أن يحب إخوانه السائرين على منهج الحق ، المتعلقين بكتاب الله سبحانه ؛ لا يحرفونه ، ولا يبدلونه .

٧ - يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويتنافسون في وجوه الخير . وقد قال الله سبحانه في شأن هذه الطائفة :

﴿ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون ، يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، والمقيمون الصلاة ، والمؤتون الزكاة ، والمؤمنون بالله واليوم الآخر ، أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً ﴾ (٢٦) .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال :

﴿ إنه كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون ، وإنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب ﴾ (٢٧) .

ج - الطائفة الثالثة :

وقفت هذه الطائفة في وسط الطريق ، فهي لم تشارك الطائفة الأولى اعتداءها في السبت ، كما أن يأسها من المعتدين سيطر على نفوس أصحابها ؛ فلم يشاركوا الطائفة الأولى أيضاً في إنكارها المنكر ، ولم تكتف بهذا الموقف السلبي من الطائفتين ، بل حاولت تشييط همم الطائفة الثانية التي قامت بالدعوة إلى الحق ، وإنكار المنكر ، وحجبتهم أنهم هالكون لا محالة ، وتعجبوا من أمر المنكرين

(٢٦) سورة النساء ، آية رقم ١٦٢ .

(٢٧) أخرجه البخارى ، كتاب الأنبياء ج ٤ ص ٢١١ .

للمنكر ، واستغفروا حالهم ، قال الله تعالى على لسانهم :

﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ، أو معذبهم عذاباً شديداً ﴾

فهم وقد وقعوا في مساءة التنبيط لهمم الداعين إلى الله سبحانه ، لازالت بقية من إيمان لديهم ، فلازال اعتقادهم بأن الله سبحانه يعاقب من يخالف أمره ، ويتحايل على الاعتداء في السبت ، وعلى هذا جاز لنا أن نرجح أنهم ناجون مع الطائفة الثانية ، وإن لم يحظوا بمنزلتهم ، وهذا رأى جمهرة العلماء ، وقد رأى البعض أنهم هالكون مع المعتدين ؛ حيث لم يشاركوا الطائفة الثانية ، وإن كان لهم نوع من الإيمان ، فقد كان للطائفة الأولى نوع من الإيمان أيضاً ، ولكنه لم يترجم إلى امتثال وعمل ، (٢٨) والله أعلم بالصواب .

د - وطائفة أخرى رابعة في تاريخ بنى إسرائيل :

كما أن طائفة رابعة نشأت في بنى إسرائيل ، من حيث موقفها من المنكر ، وإن لم ترتبط بأهل القرية في تاريخها .

عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ :

(٢٨) وفي هذا روى عن أبى بكر الصديق - أنه قال :

يأبى الناس ، إنكم لتقرعون هذه الآية ﴿ يأبى الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ (المائدة : ١٠٥) ، وإنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول :

﴿ إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا عليه أو شك أن يعصمهم الله بعقاب منه ﴾ . (رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى بأسانيد صحيحة ، وأحمد وابن ماجه وإسناده صحيح ، وصححه ابن حبان - رياض الصالحين ، وهامشه - رقم ١٩٧ ، باب فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ص ١٠٦) .

والأخذ على اليد : أى المنع من الظلم ، باليد أو باللسان ، أو بالقلب ، يعصمهم الله بعقاب منه : أى يقع على الظالم لظلمه ، وعلى غيره لإقراره عليه ، وقد قدر على منعه ولم يفعل .

« إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقي الرجل ، فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع ؛ فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله ، وشريبه ، وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله ملوب بعضهم ببعض » ثم قال :

﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ؛ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ، ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم ، أن سخط الله عليهم ، وفي العذاب هم خالدون ، ولو كانوا يؤمنون بالله ، والنبى ، وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ، ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴾ (٢٩) .

ثم قال :

« كلا ، والله ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصراً ، أو ليضربن الله بقلوب بعضهم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم » (٣٠) .

وتتميز هذه الطائفة عن الطوائف الثلاث السابقة .

— فهى لم تشارك الطائفة الأولى المعتدية بالتناول المباشر للاعتداء ،

(٢٩) سورة المائدة ، الآيات من رقم ٧٨ إلى رقم ٨١ .

(٣٠) رواه أبو داود ، والترمذى ، وقال : حديث حسن . وقال المحققون بالهامش :

وأخرجه أحمد وفى سنده انقطاع ، لكن فى الباب عن أى موسى — رضى الله عنه — عند الطبرانى ، قال البيهقى : فى مجمع الزوائد : ورجاله رجال الصحيح ، واللفظ لفظ أى داود .

ولفظ الترمذى ، قال رسول الله — ﷺ — :

« لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى ، نهتهم علماءهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم فى

مجالسهم ، وواكلوهم ، وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان

داود ، وعيسى بن مريم ؛ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » فجلس رسول =

والتجاوز ، بل قامت بصورة - عرجاء - من صور الإنكار

- وهى لم تشارك الطائفة الثانية الناجية فى الثبات على دعوة الحق ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بل ترددت بين الإنكار ، والتعايش مع المنكر عليهم فى اليوم التالى .

- ولم تشارك الطائفة الثالثة فى اليأس من عودة المنكر عليهم إلى الحق ، والاعتقاد بأن الله سبحانه سيهلك المعتدين العاصين .

ولنا من موقفهم عبرة وعظة :

١ - أن القعود عن محاربة الفساد فى الأمة ، يبدأ بالإنكار البارد المريض ، الذى فقد حرارة الرغبة فى التغيير .

٢ - أن الإنكار المريض يفسر الازدواجية فى السلوك ؛ فالمنكر يقول بلسانه ما يخالف سلوكه ، ينكر على القوم فعلهم باللسان ، ويشاركهم أفراحهم وأتراحهم ، وأكلهم وشربهم ، ومجالسهم ، دون أثر للإنكار السابق فى تلك المشاركة .

٣ - أن المنكر عليهم وقد أحسوا برودة الشعور بمضمون النصيحة فى تلك الطائفة ، ظنوا أن الأمر ليس بالخطورة كما تفوه الناصحون .

٤ - أن الإنكار على هذا النحو لا ينجى صاحبه من العقوبة ، واللعن من الله سبحانه ؛ فهو فى الحقيقة معصية له .

٥ - أن دعاة الحق يجابهون فى دعوتهم جملة أصناف :

أ - من يياشر المنكر ويجاهر به .

الله - ﷺ - وكان متكئاً ، وقال : « لا ، والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً » .

رياض الصالحين ، باب فى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، رقم ١٩٦ ، مع هامش الحديث .

وتأطروهم : أى تدفعوهم . ولتقصرنه : أى لتقيمنه على الحق دون الباطل .

ب - من ينكر بمجرد اللسان ، دون عزلة شعورية واقعية عن العصاة الظالمين .

ج - من فترت حماسهم في الدعوة إلى الله سبحانه ، ووقفوا موقف المثبطين لهم .

د - من يعتقد شرعية المنكر ، ويزعم صلاحه ، ولكنه يظهر بمظهر المنكر له ؛ خداعاً ولؤماً ونفاقاً .

هـ - من اتخذ أولياء من اليهود والنصارى الملحدين ، وفضلهم على إخوانه من المسلمين .

٦ - أن الهلاك للأمم يكون بسبب انحراف الناس عن الطريق المستقيم ، طريق الله سبحانه وتعالى .

قصة ذبح البقرة :

موضوع القصة :

موضوع هذه القصة هو البحث عن القاتل ، وقد جاء متأخراً في القصة ؛ لأن المقام مقام تذكير لبني إسرائيل بما فعلوه مع موسى - عليه السلام - فتقدم ما سبقت القصة له ، ثم ختمت بالأصل ، وهو ظهور القاتل ، والتعرف عليه ؛ بواسطة معجزة تمت على يد النبي - عليه السلام - قال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْساً فَاذَارُكُمْ فِيهَا ، وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . فقلنا : اضربوه ببعضها ، كذلك يحيى الله الموتى ، ويرىكم آياته ؛ لعلمكم تعقلون ﴾ (٣١) .

عناصر القصة :

١ - موسى - عليه السلام .

٢ - بنو إسرائيل .

(٣١) سورة البقرة ، ٧٢ ، ٧٣ .

٣ - البقرة ميدان الحوار ، ووسيلة المعجزة .

سير الأحداث :

حدثت جريمة قتل في بني إسرائيل ، وكلم الله سبحانه بين أظهرهم ولم تظهر أدلة تدين شخصاً معيناً بالجريمة ، فاختلّفوا على أنفسهم ، واختصموا ، وتضاربت الآراء ؛ كل يأخذ جهة ، وطالما الأمر على اختلاف فمن ارتكب جريمة القتل في مآمن من القصاص ، ودم القتل سيضيع هدراً ، وقد كان بينهم عزيزاً محبوباً .

ولجأ القوم إلى موسى - عليه السلام - ليسأل الله سبحانه عن القاتل ، فكان أن أبلغهم عن الله سبحانه بأن يذبحوا بقرة . ولو كان الأمر من بشر لجاز للمرء أن يستغرب ، ويعجب ، ولكن الأمر من الله سبحانه ، الذي يعلم السر وأخفى ، وخاصة أنهم توجهوا إليه موقنين بأن الله سبحانه سيخبرهم بالحقيقة ، ولكن القوم عجبوا فعلاً ، ووجهوا تعجبهم إلى موسى - عليه السلام - على الرغم من أنه مبلغ عن الله سبحانه ؛ ظنا منهم بأن هذا الطلب باجتهاد منه ، دون رجوع إلى الله سبحانه ، ولكن موسى - عليه السلام - يقول لهم : إن الله يأمركم ، والرسول أمين في النقل والبلاغ ، ولكن القوم دون هذا التفكير السوى ، فوصموا نبيهم بالهزء والسخرية - حاشاه عن ذلك - وفي هذا الشأن يقول الله تعالى على لسانه ، ولسانهم :

﴿ وإذ قال موسى لقومه : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . قالوا : أتتخذنا هزواً ؟ قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ (٣٢) .

وكان من الممكن أن يكتفوا بهذا ، وينفلوا ؛ فقد سيقّت كلمة « بقرة » النكرة ؛ لتدل على أى بقرة ، ولكن القوم وقد بدعوا باعتراض تبادوا في التعنت ؛ فأضافوا مخالفة إلى مخالفة . فعن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لو أخلوا أدنى بقرة لاكتفوا بها ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم . (٣٣)

(٣٢) سورة البقرة ، الآية رقم ٦٧ .

(٣٣) بإستاد صحيح عن غير واحد عن ابن عباس - رضى الله عنهما .

فطلبوا من جديد أن يبين لهم . ماهى ؟ فجاء قيد جديد يضيق عليهم في العثور عليها . وكان القيد بهذه المواصفات : ليست كبيرة السن « لا فارض » وليست صغيرة « ولا بكر » ولكنها وسط « عوان بين ذلك » وطلب إليهم الامتثال الحرفي والضمنى لما يؤمرون ، قال تعالى على لسانه ، ولسانهم :

﴿ قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ؟ قال : إنه يقول : إنها بقرة لا فارض ، ولا بكر ، عوان بين ذلك ، فافعلوا ما تؤمرون ﴾ (٣٤) .

وعلى الرغم من ختام الآية الكريمة السابقة ، الذى لا يتحمل تأويلاً « فافعلوا ما تؤمرون » ، عاودوا الكرة من جديد . فطلبوا تحديد اللون ، فكان أن حدد الله سبحانه : فاللون أصفر ، والاصفرار نقى ، وهى من حيث الشكل تسر الناظرين بجمال لونها . يعنى بقرة بقاؤها على قيد الحياة أفضل من ذبحها ، وقد كانوا السبب في ذلك . قال تعالى :

﴿ قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا مالونها ؟ قال : إنه يقول : إنها بقرة صفراء ، فاقع لونها ، تسر الناظرين ﴾ (٣٥) .

وتابع القوم تعنتهم ، وكأن الموضوع قد نُسي تماماً ، في ثانيا هذه المطالب ، والقيود ، فكيف وقد ظهر اهتمامهم وحرصهم على معرفة الجانى . فالتعنت قد طغى على أصل الموضوع مما يدل على طبعهم في تعاملهم مع نبيهم - عليه السلام - وربهم سبحانه . فبرغم التحديد السابق لم يكتفوا به زاعمين أن البقر تشابه عليهم ، والتعليل الذى ساقوه ينقض صنيعهم ؛ فهم لم يكلفوا - في ضوء ما سبق - إلا أن يذبحوا أى بقرة تنطبق عليها هذه المواصفات . قال تعالى :

﴿ قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ؟ إن البقر تشابه علينا ؛ وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ (٣٦) .

(٣٥) سورة البقرة ، الآية رقم ٦٩ .

(٣٤) سورة البقرة ، الآية رقم ٦٨ .

(٣٦) سورة البقرة ، الآية رقم ٧٠ .

وكان تحديد جديد كما طلبوا : فهي ليست مذلة مسخرة لحرث الأرض ،
ولست مذلة لسقيها ، ولا علامة فيها ؛ فالاصفرار النقي يعم كل جسمها ،
وليس بها أى عيب ؛ من قطع ، أو عرج ، أو هزال ، أو مرض . وسمع القوم
تلك الصفات الجديدة ، وبدل أن يفهموا منها التشديد عليهم حيث طلبوه ،
اعتقلوا أنه الحق ، وما سبق والعياذ بالله غير الحق . وليتهم حين توجهوا إلى الذبح
كانوا على رضا تام ، ففي اللحظة الأخيرة والحاسمة بدا منهم تردد وشك ، وكأنهم
رأوا أن يعودوا من جديد للتشدد وطلب المواصفات ، قال تعالى :

﴿ قَالَ : إِنَّهُ يَقُولُ : إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ ، وَلَا تَسْقِي
الْحَرْثَ ، مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا . قَالُوا : الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ، فَذَبْحُوهَا ،
وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٧) .

وتها الجميع لما سيحدث بعد ذلك ، فهو غيب عليهم ، واستعادوا ماظن
أنه قد نسي من شأن الجناية ، قاتلاً ومقتولاً . فقال لهم موسى - عليه السلام :
خذلوا قطعة من تلك البقرة المذبوحة ، واضربوا بها جثة المقتول . والله أعلم بمدى
إذعانهم لهذا الأمر ، فالآيات طوت تلك الصفحة ؛ فما تقدم فيه الدليل الكافي
على طبع قوم ملء بالتعنت والتشدد . وعادت الحياة من جديد للقتيل بعد أن
ضرب بجزء من البقرة ، وسئل عن القاتل فقال : فلان .

وأضافت الآيات إلى موضوع القصة شيئاً مهماً ولازماً في أمر العقيدة .
هو موضوع البعث والنشور ، وإحياء الموتي ، ولعل تعميق الإيمان في هذا الجانب
يعمل من سلوكهم وسلوك أمثالهم ، وسوف لا يتأتى هذا التعديل في السلوك
إلا إذا استعمل المرء عقله وتفكيره ، وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ، وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ، فَقُلْنَا :
اضْرِبُوهُ بَعْضُهَا ، كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ؛ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴾ (٣٨) .

(٣٧) سورة البقرة ، الآية رقم ٧١ .

(٣٨) سورة البقرة ، الآيتان رقم ٧٢ ، ٧٣ .

دعوة بنى إسرائيل إلى دخول الأرض المقدسة :

وأوشكت رحلة نبي الله موسى - عليه السلام - على الانتهاء حين بدا العزم على دخول الأرض المقدسة ، أرض فلسطين ، موطن الكريم بن الكريم بن الكريم ، يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم - ويعقوب - عليه السلام - هو إسرائيل ، وهؤلاء جميعاً أحفاده ، وأبناؤه بنو إسرائيل ، والذي يؤمن يعقوب إيماناً حقاً هم كما وصفهم الله تعالى :

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ (٣٩) .

والرحلة من الطور إلى فلسطين دون الألف من « الكيلو مترات » وهى أقل من نصف المسافة بين نهر النيل والطور تقريباً - إذا نظرنا إلى الخريطة بخط مستقيم دون اعتبار آخر - وإذا كانوا قد عاشوا في مصر تحت نير فرعون ، واستبداده ، وتسخيره ، فقد عاشوا في الطور أحراراً ؛ سلطتهم بأيديهم ، وقيادتهم في يد نبي منهم هو موسى - عليه السلام - وطعامهم من وسلوى ، ثم بقل وعدس وقثاء ، وبصل ، وثوم ، حسب ما طلبوا ورغبوا . ما يريدونه يفعلونه ، حتى ولو كان تحايلاً على الشرع ، أو حراماً بشكل صريح ، وإن كان من هلاك لبعضهم ، أو مسخ فهو للمصرّ على الاعتداء ، والمعصية ، فيخلو مجتمعهم من جديد ممن يصر على المعصية .

وما يظن والحال هكذا إلا أنهم يلبون نداء التحرك إلى أرض يعقوب ، يبذلون في سبيلها دماءهم ، وأرواحهم وأموالهم ، ويقاومون كفراً استبدت بالأرض ، وعاث فيها بالفساد - ولكن الذي حدث أنهم استمروا النعمة

(٣٩) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٥٧ .

سياسيا ، واقتصاديا ، واجتماعيا ، فاستناموا وتراخوا ، ورفضوا أن يُقَدِّمُوا في سبيل الأرض المقدسة أى جهد عسكري ، ويرغم النصائح من بعضهم ، وإلحاق موسى - عليه السلام - عليهم بالتحرك والتضحية في سبيل الهدف المنشود . فلم يتحركوا أبداً بل سخروا ، وطلبوا إلى موسى - عليه السلام - أن يقاتل مع ربه سبحانه ، دون أى إسهام منهم ؛ ففعودهم في الصحراء أغراباً متعة لهم ، وأفضل من أن ينعموا بالأرض المقدسة التي تسبقها تضحية ، وجهاد .

هكذا كان الحال المؤسف منذ فجر التاريخ - توطئة وتمهيداً لقوم آخرين ، هم الذين سيلبون النداء عند أول صيحة ؛ لإنهم المسلمون الذين يؤمنون بمحمد وموسى ، وكل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ولا يفرقون بين أحد من رسله .

وحكم الله سبحانه على القاعدين عن الجهاد من بنى إسرائيل أن يتبوه في أرض سيناء أربعين سنة جزاء قعودهم ، وجبنهم ، وعدم تلييتهم داعي الجهاد في سبيل الله تعالى .

وأخذ هذا الموقف جملة مراحل :

١ - مرحلة التهيئة والتذكير بالنعم :

قال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ ، اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ؛ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ ، وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ، وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤٠) .

قبل أن يدعو النبي موسى - عليه السلام - بنى إسرائيل إلى التحرك نحو الأرض المقدسة ، حاول أن يهيئ نفوسهم بالتركيز على الآتي :

- إنه يريد منهم أن يسترجعوا النعم التي ساقها الله سبحانه إليهم بشكل عام ، من أول نجاتهم من فرعون الطاغية حتى الآن كما مرت سابقاً .

(٤٠) سورة المائدة ، الآية رقم ٢٠ .

- ثم هو يقدم لخطابه إياهم بما يفيد هذا التودد ، والعطف ، بهذا النداء « يا قوم » بالميم المكسور ، دلالة على ياء المتكلم المخنوفة ، أى فأنتم قومي وعشيرتي ؛ أرسلت لأنقذكم من ضلال الوثنية من جهة ، ومن ظلم فرعون من جهة أخرى .

- ثم هو يضرب الأمثلة على تلك النعم المسداة إليهم ؛ ليلفت أنظارهم إليها ، والأمثلة التي ضربها اختارها مقابلة لما كانوا عليه قبلها . كما سيأتى .

- فقد جعل فيهم أنبياء رسل الهداية والنور ، والأنبياء الذين سجلهم القرآن الكريم حتى عصر هذا الموقف ، يعقوب ، يوسف ، موسى وهارون - عليهم السلام .

- وجعلهم ملوكا ، واختلاف التعبير هنا عن سابقه ﴿ جعل فيكم أنبياء ﴾ بحذف الجار والمجرور يدل على أنهم جميعاً صاروا ملوكا ، وتعميم هذه الصفة عليهم جميعاً يخرجها عن المركز السياسى المعروف ، ويضعها في حيز الاستغناء ، وحضور ضروريات الحياة المادية والاجتماعية ، والحرية الشخصية التي فقدت منهم تحت نير فرعون .

- وقد آتاهم الله سبحانه الطيب من المطعم ، والمشرب ، والظل ، مالم يؤت أحداً من العالمين في زمانهم كما سبق .

والشخص الذى يدرك قيمة النعمة ويحسها أكثر من غيره . من كان فاقداً لها ثم أعطاها ، أما من ولد في بحبوحة من الحياة فأمر النعمة في نظره عادى . وبنو إسرائيل تترى عليهم النعم من كل صوب ، بعد أن كانوا فاقدين لها .

وموقف موسى - عليه السلام - مثل كريم في الدعوة إلى الله سبحانه لمن يأتى بعده من الدعاة والمصلحين ، حين يدرسون ظروف المدعوين ، ويختارون لهم الأمثلة المناسبة التي تهيبهم نفسياً لتلقى الدعوة ، وقبولها .

٢ - مرحلة الدعوة إلى التحرك :

قال الله تعالى :

﴿ يا قوم ، ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ، ولا تتردوا على أديباركم فتقلبوا خاسرين ﴾ (٤١) .

بعد المقدمة السابقة فى المرحلة الأولى ، والتى ذكرت فيها النعم السابقة ، والمسلمة من الطرفين جاء عرض الموضوع الذى من أجله كان الموقف ، وتتضمن هذه المرحلة عرض الآتى :

- التحرك إلى تحرير الأرض المقدسة ، أرض فلسطين .
- وهذا التحرير سيوفر لبنى إسرائيل الإقامة بها ، والعيش فى ظلها « ادخلوا » .
- مشاركة النبي القائد لهم فى هذا ، كما يشير إليه النداء « يا قوم » .
- إن النصر على الخصم محقق ، ومؤكد ؛ لأن هذه الأرض كتبت للمؤمنين من بنى إسرائيل ، الذين لا يحرفون ولا يبدلون . ﴿ التى كتب الله لكم ﴾ .
- التحذير من المخالفة والردة ، فالمخالفة ستؤدى إلى خسارة كبرى ، ولا يتحقق للمخالفين ما وعد به الله سبحانه للمؤمنين .
- وتعليق الخسارة على المخالفة ، والتى وقعت بالفعل بعد ذلك يفسر المفهوم من قوله تعالى :
- ﴿ التى كتب الله لكم ﴾ أى أن هذه الأرض لا تكون لمخالف عاص ، وأن من يستحق دخولها هو الذى يؤمن بالله سبحانه ، وليست خصوصية لجنس أى جنس ، فقد تلقى بنو إسرائيل عبارة الأمر « ادخلوا » وتلقوا بعدها أيضاً عبارة النهى « ولا تتردوا ... » وفى ذلك من الدلالة ما فيه .

(٤١) سورة المائدة ، الآية رقم ٢١ .

٣ - رفض التحرك ، والاعتذار بأسباب واهية :

قال الله تعالى :

﴿ قالوا : يا موسى ، إن فيها قوماً جبارين ، وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإننا داخلون ﴾ (٤٢) .

هالت بنى إسرائيل تلك الدعوة على الرغم من وجاهتها وفائدتها لهم شخصياً ؛ إنهم فزعوا وأصابهم ذعر ، وخوف . لماذا ؟ ؛ لأن فيها قوماً جبارين ، ووصف القوم بالجبارين على لسانهم يشير - قبل ذكر العبارة التالية - إلى أن القوم معذرون عن التلبية للدعوة .

وتصور قوماً يقول لهم : تقدموا إلى المعركة ، فتكون العبارة التي يردوا بها : إن فيها قوماً جبارين ، أى : لا طاقة لنا بمواجهتهم ، ومواجهتهم في معركة ، ولا نرضى لأنفسنا الموت على هذه الحال ، وأولى بنا أن نظل حيث نحن الآن ، مهما كان أمر الإقامة .

- ثم يكون الرد الصريح « وإننا لن ندخلها » حكموا على أنفسهم ابتداءً بأنهم لن يدخلوها ، وفرق كبير بين « لن ندخلها » ولن نستطيع دخولها ، فالعبارة الأولى تتضمن الرفض المباشر للدخول . ثم هم علقوا دخولها على خروج الجبارين منها ، وخروج الجبار من مكان أقام فيه دون قوة تجبره على ذلك أمر مخالف للعقل والعرف . ثم هم كرروا قضية الرفض بشكل معكوس . ﴿ فإن يخرجوا منها فإننا داخلون ﴾ .

والموقف هنا فيه تقاعس ظاهر ، وتخاذل مؤسف ، وقعود عن تحرير أرض باركها الله سبحانه ، وسبق للقوم أن عاشوا فيها مع الجد الأكبر يعقوب - عليه السلام - ويدل على مرض نفسى ، وطبع غير سوى ، ومبدأ بعيد عن المنطق مضمونه : أن نصرى على غيرى ، لا بد أن يعتمد على قوة خارجة عنى ، كما نراه الآن ونشاهده .

(٤٢) سورة المائدة ، الآية رقم ٢٢ .

٤ - مرحلة الناصحين :

قال الله تعالى :

﴿ قال رجلان من الذين يخافون ، أنعم الله عليهما ، ادخلوا عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ (٤٣) .

ولم يعلم القوم من طائفة خيرة طيبة ، كما سبق أيضاً في قصة أهل القرية ، ويجوز أن يكونوا هم النقباء الاثنى عشر كما قال تعالى :

﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل ، وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ، وقال الله : إني معكم ؛ لئن أقمتكم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسلي ، وعزرتموهم ، وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ... ﴾ (٤٤) .

فماذا كان من أمر هذين الرجلين وتلك الطائفة المؤمنة ؟

- كانت طائفة تخاف الله سبحانه ، وتخاف مخالفة أمره ، وأمر نبيه ، إذن فهذه الطائفة تنكر على القوم تخاذلهم وتقاعسهم ، وترى ما لا يرون .

- ولكن هذه الطائفة لم تقم كلها بالنصح ، فالذى قام به اثنان منها فقط ، وقد بلغا درجة أكبر في الخير ، وتفوقا عليهم في تلك المحنة وذلك الاختبار ، فقد أنعم الله سبحانه عليهما بالرشد في العقل ، والسلامة في السلوك ، والقوة في الشخصية .

- وأن نعمة الله سبحانه عليهما من جهتين : جهة المصدر ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وجهة النوعية ، وهي كما ترى فتوى عسكرية ، برسم خطة هجوم سهلة .

- إن الرجلين أرادا أن يكسرا حدة الخوف من مجابهة القوم الجبارين ؛ بالتحايل عليهم ، وإحكام الخطة .

(٤٣) سورة المائدة ، الآية رقم ٢٣ . (٤٤) سورة المائدة ، الآية رقم ١٢ .

- مؤدى هذه الخطة العسكرية الهجومية : الصبر حتى دخول الباب ، ودخول هذا الباب سجداً أى تخفياً من عرض الجسم بكامله أمام الخصم كما يحدث من دورية استكشاف واستطلاع ، بالإضافة إلى معنى الشكر لله سبحانه ، قال تعالى :

﴿ وقلنا لهم : ادخلوا الباب سجداً ﴾ (٤٥) .

ودخول الباب يعنى فتح المدينة ، وأن هذا الصبر المطلوب للدخول بحاجة إلى توكل على الله سبحانه ، وأن الإيمان الصحيح يستلزم هذا التوكل والصبر ، وإن انتفى التوكل انتفى الإيمان .

- كما أن الخطة لخصت سريعة ؛ لتوحى بسهولة ﴿ ادخلوا عليهم الباب ﴾ ثم جاء بعدها ما يشير إلى النتيجة ﴿ فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴾ وتلخيص الخطة فيه ردٌ مباشر على الرفض السابق « لن ندخلها » ؛ لتكون أقرب إلى الاستساعة والقبول من الرفضين .

ذانكم رجلا نأعم الله سبحانه عليهما ، يضربان مثلاً حياً لمن يريد أن يزن نفسه بميزان الإيمان فيضع نفسه حيث أمر الله سبحانه ، ناصحاً متوكلاً ، مستعداً للأحداث العسكرية المناسبة وظروف الوقت والقوم .

هذا وقد أعطت آية النقاء معاني إضافية من بذل لأسباب تحقق المعية الإلهية . فى الدنيا ، والفوز بالجنة فى الآخرة .

٥ - إصرار ، وتأکید على القعود :

قال الله تعالى :

﴿ قالوا : يا موسى ، إنا لن ندخلها أبداً مادلموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا ؛ إنا هاهنا قاعدون ﴾ (٤٦) .

(٤٥) سورة النساء ، الآية رقم ١٥٤ .

(٤٦) سورة المائدة ، الآية رقم ٢٤ .

وكان النصيحة لم تذكر بالكلية ، ولم يسمعوها من شخصين اثنين .

فالنداء « يا موسى » يدل على تحولهم عن الرجلين اللذين قدما النصيحة السابقة . وقد يوحى بما هو أكثر غرابة . أن هذين الرجلين - في زعمهم - مدفوعان من موسى - عليه السلام - عليهم ، أو بالتعبير الحديث من صنائعه وعملائه ، وتدل على ذلك بقية الآية . والرفض الجديد جاء فيه لفظ « أبداً » ليدل على الإصرار الكبير برغم الدعوة الأولى ، وبرغم النصيحة بعد ذلك ، وبرغم التهيئة في مقدمة الآيات .

وكانت الخاتمة المفجعة التي ظلت عاراً وسبباً لهم إلى الأبد ، حين أعلنوا صراحة ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا ﴾ ، إنا ها هنا قاعدون ﴿ ، وبعد هذا الإعلان لم يُجرَّ موسى - عليه السلام - جواباً ؛ لأن المخالفة للأمر العسكرى مشحونة بالخوف ، والذعر ، من القتال ، حيث صرَّحوا بلفظ القتال « فقاتلا » وطالما وصلت بهم الحال المعنوية إلى هذا الحد ، فلا يجدى معهم نقاش ، حتى ولو تحركوا إلى قتال فستكون الهزيمة من نصيبهم ؛ لأن الإيمان يتنافى وهذا النوع من الخوف (٤٧) .

(٤٧) قال ابن شهاب : سمعت ابن مسعود - رضى الله عنه - يقول : شهدت من المقداد بن الأسود - رضى الله عنه - مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به ، أتى النبي - ﷺ - وهو يدعو على المشركين ، فقال : لا نقول كما قال قوم موسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، ولكننا نقاتل عن يمينك ، وعن شمالك ، وبين يديك وخلفك ، فرأيت النبي - ﷺ - أشرق وجهه ، وسره . يعنى قوله . (صحيح البخارى ، قصة غزوة بدر ، ج ٤ ص ٩٣ ، وأورده ابن كثير أيضاً في تفسير سورة المائدة ج ٦ ص ٦٤) .

وقد وردت رواية أخرى ، عن طارق ، عن عبدالله بن مسعود ، قال : قال المقداد يوم بدر : يا رسول الله ، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا ﴾ ، إنا ها هنا قاعدون ﴿ ولكن امض ونحن معك ، فكأنه سرى عن رسول الله - ﷺ - . (صحيح البخارى ، تفسير سورة المائدة ج ٦ ص ٦٤) .

وعن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - - شاور حين بلغه إقبال أبى =

= سفیان ، قال : فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ، ثم تكلم عمر فأعرض عنه ، فقام سعد بن عبادة ، فقال : إيانا تريد يا رسول الله ؟ والذي نفسى بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا ، قال : فندب رسول الله ﷺ - الناس ، فانطلقوا حتى نزلوا بدرأ ... (أخرجه مسلم - مختصر مسلم ج ٢ ص ٦٩ ، ٧٠ باب في غزوة بدر ، كتاب الهجرة والمغازي) . لأخضناها : أى لو أمرتنا بإدخال خيولنا في البحر لفعلنا . برك الغماد بفتح الباء عند الأكثرين وكسرهما بعضهم : هو موضع في أقصى أرض هجر ، ذكره في « معجم البلدان » عن عياض « محقق المختصر . وبهامش السيرة النبوية لابن هشام : برك الغماد موضع ناحية اليمن .. ، « وإيانا تريد » يعنى الأنصار الذين بايعوا النبي ﷺ - على أن يحموه حين يهاجر إليهم ، والموقف في بدر هجوم على قريش ، وليس دفاعاً عن المدينة ، أو حماية لأهلها .

وبين الموقفين اختلاف :

ففى غزوة بدر طلب النبي ﷺ - المشورة إلى أصحابه ، وفى بنى إسرائيل كان الأمر صريحاً لهم . وفى بدر لم يحدد النبي الأنصار تحديداً صريحاً باللفظ ولكنهم فهموا ذلك فهماً وكان فهمهم صحيحاً ..

وقبل بدر كانت بيعة من شروطها أن الأنصار يحمون النبي ﷺ - - حين يقدم عليهم ، ولا يدخل في الحماية هذه استرداد أموال المهاجرين من قافلة قريش ، فلمهم إذن عندهم ، أما بنو إسرائيل فلم يسبق مايجعل لهم مثل هذا العذر ..

وبالرغم من ذلك فقد رضى الأنصار بعد المشورة بالقتال ، أما بنو إسرائيل فقد رفضوه بإصرار .

وأدرك الأنصار قيمة العبرة والعظة من التاريخ ، وعرضوا التضحية بكل مالههم من قوة وفى أى مجال يؤمرون به ، أما بنو إسرائيل فقد سخروا بقولهم ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا ﴾ .

فالفارق كبير جدا بين الأنصار - رضى الله عنهم - وبنى إسرائيل .

٦ - ما على الرسول إلا البلاغ :

قال الله تعالى :

﴿ قال : رب ، إني لا أملك إلا نفسي وأخي ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ (٤٨) .

تضرع موسى - عليه السلام - إلى ربه سبحانه ، فقد بذل كل ما في وسعه مع هؤلاء القوم فلم يستجيبوا له ، وأنه أصبح لا يملك في الامتثال إلا نفسه ، وأخاه هارون - عليهما السلام ، وأنه طلب إلى ربه سبحانه أن يعزله عن هؤلاء القوم المخالفين ؛ لأنهم لا يستحقون حتى الإقامة بينهم . ولا تطلب العزلة إلا بعد أن تبذل الوسائل والأسباب التي في مقلود البشر ، فإذا لم يجد النصح كانت الهجرة والعزلة ، كما طلب موسى - عليه السلام - وكما صنع النبي الخاتم ﷺ - حين ترك مكة مهاجراً إلى المدينة .

٧ - ختام الموقف ، واستحقاق العقوبة :

بعد المقدمة في أول الآيات ، وبعد عرض القضية ، ومناقشتها ، ودخول عنصر الناصحين فيها ، وإصرار القوم على قعودهم ، جاءت الخاتمة التي تناسب قوماً هذه حالهم . قال الله تعالى :

﴿ قال : فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ (٤٩) .

ذلك حكم المحكمة الإلهية :

- أن الأرض المقدسة التي وعدتهم بها حرام عليهم .

- وأن هذا التحريم بسبب عملهم ، ولذا جاءت الفاء في قوله : « فإنها » .

(٤٨) سورة المائدة ، الآية رقم ٢٥ .

(٤٩) سورة المائدة ، الآية رقم ٢٦ .

- وأن هذا التحريم مدته أربعون سنة^{٥٠}

- وأنهم في هذه المدة في حالة ضياع ، وضلال ، وتيه ، حيث لم يرضوا بالتضحية في سبيل الأرض المقدسة .

- وأنهم بذلك سجلوا في قائمة الفاسقين .

وسكتت الآيات عما سيحدث بعد أربعين سنة ، ليدل على أن القوم إذا حدث فيهم تغير إلى الإيمان بالله سبحانه ، والتزام طاعته ، وطاعة رسوله في شخصية الأنبياء جميعاً - عليهم الصلاة والسلام - فهم بتلك الصفة الإيمانية سيدخلون فلسطين ، ولا يدخلونها لمجرد الجنسية الإسرائيلية ، التي ليست في ميزان الله سبحانه أى شيء ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ أيا كان جنسه أو لونه ، أو مركزه ، والله سبحانه أعلم بالصواب .

متى كان دخول الأرض المقدسة ؟ وكيف ؟

لم يجب بنو إسرائيل الدعوة التي دعاهم إليها كريم الله سبحانه في التحرك إلى الأرض المقدسة ، وحكم عليهم بأن يتبها في الأرض أربعين سنة كما سبق .. وحمد هذا التحرك إلى حين .

وعاجل الموت نبي الله سبحانه قبل أن يدخل الأرض المقدسة ، والتي كان يريد من قومه أن يتحركوا معه فنكصوا وقعلوا .

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : أرسل ملك الموت إلى موسى - عليهما السلام - فلما جاءه صكه ، فرجع إلى ربه ، فقال : أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت ، قال : ارجع إليه فقل له : يضع يده على متن ثور ، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة ، قال : (أى بعد أن حكى له ملك الموت هذا الكلام) أى رب ، ثم ماذا ؟ قال : ثم الموت ، قال : فالآن ، قال : فسأل الله

(٥٠) إما أن يكون تعلق أربعين سنة بكلمة « محرمة » السابقة ، أو « يتبهون » اللاحقة ، وكلاهما جائز حصوله في وقت حصول الآخر .

أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر ، قال أبو هريرة - رضى الله عنه : فقال رسول الله - ﷺ - :

« لو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر » (٥١) .

والشاهد هنا قوله : (فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر) يعنى أنه خارجها ، وأنه لم يتحقق بعد فتح فلسطين الأرض المقدسة في حياته ، فما كان منه - عليه السلام - إلا أن يدعو ربه سبحانه بأن يقربه منها ، وأن يكون هذا القرب بمسافة قصيرة ، كما أن الله سبحانه أخبر نبيه الخاتم - ﷺ - بمكان قبره ، ولو كان هناك لأخبر الناس عن هذا المكان إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر .

وبقى بنو إسرائيل يتجرعون كأس التيه ، والحرمات ، من عدم دخولهم الأرض المقدسة تلك المدة الطويلة المخبر عنها .

وتذكر بعض الروايات أن يوشع بن نون هو الذى قاد حملة الفتح بعد أربعين سنة ، وقد كان نبيا . فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال :

« كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي ، وإنه لانيى بعدى ، وسيكون خلفاء كثيرون » قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : « فُؤا بَيْعَةَ الْأَوَّلِ فَأَلَّوْا ؛ أعطوهم حقهم ؛ فإن الله سائلهم عما استرعاهم » (٥٢) .

وفى شأن دخول الأرض المقدسة من حيث الخطأ ، والدافع ، ومدى

(٥١) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الفضائل ، باب فضائل موسى - عليه السلام - رقم ١٥٣٣ ص ٦٢٥ ، وصحيح البخارى فى كتاب الأنبياء ، باب وفاة موسى عليه السلام - ج ٤ ص ١٩١ ، ١٩٢ .
(٥٢) أخرجه الشيخان ، المرجع السابق ، كتاب الإمارة ، رقم ١٢٠٨ ص ٤٨٣ .

استجابة القوم ، وردت هذه النصوص . قال الله تعالى .

﴿ وإذ قلنا : ادخلوا هذه القرية ، فكلوا منها حيث شئتم رغداً ،
وادخلوا الباب سجداً ، وقولوا : حطة ، نغفر لكم خطاياكم ، وسنزيد
المحسنين ، فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم : فأنزلنا على الذين ظلموا
رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ (٥٣) .

وقال أيضاً :

﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم : وقلنا لهم : ادخلوا الباب سجداً ،
وقلنا لهم : لا تعدوا فى السبت ، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ (٥٤) .

وقال :

﴿ وإذ قيل لهم : اسكنوا هذه القرية ، وكلوا منها حيث شئتم ،
وقولوا : حطة ، وادخلوا الباب سجداً ، نغفر لكم خطيئاتكم . سنزيد
المحسنين . فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم ، فأرسلنا عليهم
رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾ (٥٥) .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :

« قيل لبنى إسرائيل : ادخلوا الباب سجداً ، وقولوا : حطة ، فبدلوا ،
فدخلوا يزحفون على أستاههم ، وقالوا : حبة فى شعرة » (٥٦) .

(٥٣) سورة البقرة ، الآيتان ٥٨ ، ٥٩ .

(٥٤) سورة النساء ، الآية رقم ١٥٤ .

(٥٥) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٦١ .

(٥٦) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب التفسير ، رقم ١٨٩٣

ص ٨٣٩ ، وصحيح البخارى كتاب الأنبياء ج ٤ ص ١٩٠ ، ورواه الترمذى . وقال :
حسن صحيح ، ورواه غيرهم أيضاً .

الخطبة في ضوء النصوص السابقة على هذا النحو :

- ١ - التحرك نحو الأرض المقدسة .
 - ٢ - التوجه إلى أبواب المدينة للتمكن منها .
 - ٣ - قصد الأبواب الصغيرة للنفاذ منها سجوداً وركوعاً .
 - ٤ - القتال حتى الغلبة والنصر .
 - ٥ - الدعاء وطلب حط الذنوب عنهم ، وبخاصة ذنب النكوص عن الفتح من أربعين سنة .
 - ٦ - الانتشار في القرية ، والإقامة بها سكناً ، ومعيشة .
- وترى هذه الخطبة المطلوب تنفيذها في هذه العبارات :
- ﴿ ادخلوا هذه القرية ﴾ ، ﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغداً ﴾ ،
﴿ وادخلوا الباب سجداً ، وقولوا حطة ﴾ .
- ﴿ ادخلوا الباب سجداً ﴾
- ﴿ اسكنوا هذه القرية ، وكلوا منها حيث شئتم ، وقولوا : حطة ،
وادخلوا الباب سجداً ﴾
- ﴿ ادخلوا الباب سجداً ، وقولوا : حطة ﴾ .

الدافع لدخول الأرض المقدسة :

- ١ - النجاة من تدمير جبل الطور لهم ، وذلك حين رفع فوقهم ؛ تهديداً لهم من مغبة الإعراض ثانية عن دخول الأرض المقدسة .
- ٢ - الوفاء بالميثاق الغليظ مع الله سبحانه وتعالى .
- ٣ - تحصيل حياة رغدة ، حين تكون الإقامة والسكنى .
- ٤ - تحصيل كل متطلبات الإنسان في حياته من أنواع الأكل والشرب ،

بما يتوافق مع ما طلبوه سابقاً من تغيير المنّ ، والسلوى إلى قضاء المدينة وعدسها
وبصلها ...

٦ - التنافس في إحسان العمل ؛ فمن يحسن سيزيد ثواباً على ثواب .

وفي هذا الدافع على اختلاف جوانبه وردت هذه العبارات :

﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾ وردت قبل الأمر بالدخول .

﴿ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ وردت بعد الأمر بالدخول .

﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغداً ﴾ .

﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ والعبارتان تسهمان في الخطئة والدافع .

﴿ نغفر لكم خطاياكم وسنزيد الحسنين ﴾ .

﴿ نغفر لكم خطيئاتكم ، سنزيد الحسنين ﴾ .

مدى الاستجابة والتففيذ من القوم :

١ - تركوا لأنفسهم حرية التبديل والتغيير في الخطئة ، على الرغم من
وضوحها ، وصراحتها .

٢ - كان تبديلهم في القول : أن قالوا « حبة في شعرة » أى حبة في
شعرة ، أو فيها شعرة ؛ هزأً وسخرية . وقد أمروا أن يقولوا : « حِطَّة » أى
نرجو منك يا ربنا ، حطّ الذنوب .

٣ - كان تبديلهم في الحركة ، أن زحفوا على أستاذهم أى أدبارهم ؛
ليدخلوا الباب الصغير ، وقد أمروا بالدخول سجداً ، وبرغم تأكيد هذا الأمر في
كل النصوص ..

وفي هذا الشأن وردت هذه العبارات :

﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم ﴾ .

﴿ فبدّلوا . فدخلوا على أستاذهم ، وقالوا : حبة في شعرة ﴾ .

جزاء العاصين :

هذا ويفهم من النصوص أيضاً أن هذا التبديل لم يكن منهم جميعاً ، ولكن كان من بعضهم .

﴿ الذين ظلموا منهم ﴾ .

وأن الذين بدلوا وحرفوا كانوا فاسقين بالخروج عن الطاعة ، وظالمين بتجاوزهم الحد ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ و ﴿ بما كانوا يظلمون ﴾ .

وأنهم استحقوا عقاب الله سبحانه ، وهو رجز وعذاب من السماء مثل الطاعون ؛ فقد سأل سعد بن أبي وقاص أسامة بن زيد - رضى الله عنهم - ماذا سمعت من رسول الله - ﷺ - فى الطاعون ؟ فقال أسامة : قال رسول الله - ﷺ - :

« الطاعون رجس أرسل على طائفة من بنى إسرائيل ، أو على من كان قبلكم ... » (٥٧) .

(٥٧) أخرجه البخارى ج ٤ ص ٢١٣ كما رواه مسلم والنسائى من طرق مختلفة (وقد مر الحديث بتمامه) .

دروس وعبر :

- تختار الأمة من يمثلها ، وينطق باسمها من الأشخاص الأكفاء ، في صورة مجلس يتفاوض أعضاء هذا المجلس فيما بينهم بما يوفر المصلحة العامة للأمة ، وسندنا في ذلك هنا اختيار سبعين عند بنى إسرائيل للميقات ، واختيار اثني عشر نقيباً في بيعة العقبة .

- من كمال الإيمان عدم التعنت في الطلب ، والاشتراط على الله سبحانه ، كما اشترط بنو إسرائيل .

- إن الهلاك العام يكون بسبب ارتكاب المعصية من جهة ، والسكوت وعدم النصح من جهة أخرى ؛ فالسكوت على المنكر معصية أيضاً .

- إن رحمة الله سبحانه تخص من عباده :

من اتقى الله سبحانه ، وخاف عقابه ، فاجتنب محارمه في الدنيا .

من عامل الناس بالحسنى ، فعال فقيرهم ، وسدَّ عَوَزَ المحتاج منهم ، وأدى زكاة ماله ، ولم يلوثه بأى كسب حرام ينتقص به حقوق الآخرين .

- إن اتباع النبی الخاتم محمد - ﷺ - لازم وضرورى لنجاة أهل الكتاب من النار ، كما أن الإيمان بالرسل السابقين جزء من الإيمان .

- ارتبط إيمان بنى إسرائيل بالعنف : حين يخافون العقوبة والإهلاك بالدنيا يكون الإيمان ؛ فلم يأخذوا التوراة بجد إلا حين رفع جبل الطور فوقهم . وهذا المسلك ليس سوياً ، فالصديق والإذعان ، والتسليم المطلق لأخبار الغيب من ديدن المسلم ، وموقف الصديق - رضى الله عنه - من الإساءة والمعراج خير مثل على ذلك .

- الذين يقاومون المنكر يجابهون في دعوتهم :

من يرتكب المعصية ، من ينكر باللسان فقط ثم يشارك العاصين ويعايشهم ، من لم يفهموا الغرض من الإنكار وهو الإغذار إلى الله سبحانه ، والأمل في هداية العاصين . من لم يعرفوا الأسلوب الصحيح في الإنكار بالتدرج .

- التحايل على الشرع حرام ؛ فالله سبحانه أدرى بالقلوب ؛ فتحايل أهل القرية لم ينجهم من العقوبة .

- إن إنكار المنكر يجب أن يتسم بالوضوح ، والصراحة ، ومراعاة حال العاصين المفسدين ، وأن تكون الغاية هي لإرضاء الله سبحانه ، كما يجب أن تكون المفاصلة الشعورية ، والتمايز عن المنحرفين - برغم دعوتهم - فلا مؤاكلة ، ولا مشاركة ، ولا تزاور ، إلا في حدود المصلحة للدعوة من التعرف على الآخرين ، وأجدى السبل في دعوتهم .

- على المسلمين أن يسعوا لاختيار الأرض التي تقوم عليها دولتهم والتي تحكم بشرع الله سبحانه ؛ فعناصر الدولة تتكون من :
آ - الأرض التي تقوم عليها .

ب - الدستور وهو هنا الكتاب المنزل ، والسنة المبينة ، وما يلحق من اجتهادات في ضوئهما .

ج - القائد وهو هنا النبي المرسل ، ومن يخلفه ..

د - الشعب وهو أتباع النبي أو خليفته .

ففقدان عنصر من العناصر الأربعة يخل بقيام الدولة ، ولنا المثل في طلب كليم الله سبحانه دخول بني إسرائيل الأرض المقدسة . كذلك لم تقم دولة الإسلام إلا حين توفر لها الأرض بالمدينة المنورة بعد الهجرة .

- لا يتحقق النصر بمجرد وجود قائد ، ولكن لابد من وجود أمة على استعداد أن تقدم التضحيات في سبيل إقامة الدولة ، ولذا تأخر قيام الدولة في الأرض المقدسة لنكوص بني إسرائيل - على الرغم من وجود موسى - عليه السلام ، وقامت الدولة المسلمة حين لبى أبنائها نداء الهجرة إلى المدينة المنورة .

- الداعية المسلم يختار في خطابه للمدعوين :

مقدمات مسلمة ، يتدرج بها إلى الموضوع المطلوب ، ويذكر من الأدلة على صحة دعواه ؛ وذلك في ضوء طلب موسى - عليه السلام - إلى

قومه ، دخول الأرض المقدسة .

- والداعية المسلم أيضاً ، يراوح في عرض المكاسب حين التبليية ، ووخيم العواقب حين التولى والإعراض ، ولا يركز على إحداها دون الأخرى .

- استفادة الأنصار من تجارب السابقين حين التعرض لقريش في بدر ، وشأن المسلم دائماً أن يستلهم العبر والعظات من الأحداث السابقة .

- القائد المسلم ، يشرح خطة الهجوم إذا ما أمن عدم وصولها إلى الخصم ؛ فالناصحون من قوم موسى - عليه السلام - وضعوا للقوم أساس الخطة ، أما حين فتح مكة - مثلاً - كان إخفاء أمر الهجوم مهماً جداً ، والسرعة في مساءلة من حاول إفشاء أمر الهجوم ، والحصول على رسالته قبل وصولها إلى الخصم .

- إن الجهاد في سبيل الله مناط الاستقرار والاطمئنان في الأرض ، لا كما يزعم الغافلون الساذجون ؛ فالجهاد في سبيل الأرض المقدسة سبيل إلى استقرار الفاتحين ، ونكوصهم عن الجهاد جعلهم في ثيه وضلال أربعين سنة .

- حب الأماكن المقدسة ، لتكون مركز إشعاع إيماني للجنابات الأرض - لا لتكون مكان انزواء وقعود عن الجهاد في سبيل الله تعالى .

- يتحقق الفتح للبلد إذا ماتوفر : الدافع للفتح ، الخطة للفتح ، حماسة الجنود للتنفيذ ، التعرف على السليبيات ، ومناقشتها إذا ما فترت الحماسة .

- من دواعي الإيمان السوى تلبية أمر الله سبحانه في عزائمه وفي رخصه ، لا التعت والتحايل على شرع الله سبحانه .

إلياس - عليه السلام .

- أصله .
- قومه .
- دعوته .
- أثر دعوته في قومه .
- عاقبة المكذبين .
- جزاء المؤمنين .

أصله :

ورد اسمه - عليه السلام - ضمن أنبياء بنى إسرائيل ، مما يرجح أنه منهم ، قال الله تعالى :

﴿ وزكريا ويحيى وعيسى ، وإلياس . كل من الصالحين ﴾ (١) .

وورد اسمه مرتين مع سرد قصته - بعد ذكر موسى وهارون - عليهم السلام - يرجح أيضاً بأنه تال لهما ، وقد يكون من نسل أحدهما - والله أعلم بالصواب .

قال الله تعالى بعد ذكر موسى وهارون - عليهما السلام . -

﴿ وإن إلياس لمن المرسلين ؛ إذ قال لقومه : ألا تتقون ؟ أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ، ورب آبائكم الأولين ؟ فكذبوه ، فإنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين ، وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على إل ياسين ؛ إنا كذلك نجزي المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ (٢) .

والمتأمل فى الآيات السابقة يتعرف على الأحداث التى عاشها إلياس - عليه السلام .

قومه :

إن قوم إلياس - عليه السلام - ككل الأقوام السابقين - ارتدوا عن الصراط المستقيم الذى ورثوه عن المؤمنين من بنى إسرائيل ، وعبدوا من الله سبحانه إلهاً لا يضر ، ولا ينفع . وتظل البشرية تنهض ، وتكبو فى مسيرتها ، فإذا ما كان نهوض فسببه الأصيل توحيد الله سبحانه ، وتطبيق منهجه فى الأرض ، وإذا ما كان ارتكاس وضلال ؛ فلأن القوم انحرفوا عن توحيد خالقهم وربهم

(١) سورة الأنعام ، الآية رقم ٨٥ .

(٢) سورة الصافات ، الآيات من رقم ١٢٣ إلى رقم ١٣٢ .

سبحانه ، ولذا كانت القضية الأولى في دعوة كل رسول ، وكل مصلح ، تصفية العقيدة مما أصابها من ضعف ، أو تبديل ، أو تغيير .

واتجه القوم إلى صنم جديد ، وعكفوا عليه ، وعلقوا عليه آمالهم ، وأطلقوا عليه اسماً هو « بعل » لمزيد اهتمامهم ، وعبوديتهم له .

دعوته :

وجه إلياس - عليه السلام - دعوته إلى قومه ، معتمداً على أمرين :

١ - توجيه القوم إلى الطريق المستقيم .

٢ - تحطيم فكرة الوثنية التي شاعت بينهم .

وفي الأمر الأول حضهم على تقوى الله سبحانه ، والخوف منه « ألا تتقون » وبين لهم أنه سبحانه هو الذى خلقهم فأحسن خلقهم ، الذى رباهم ، وربى آبائهم ، وعليهم أن يعبدوه .

وفي الأمر الثانى : عقد مقارنة بين عقيدتين : عقيدة الشرك ، وعقيدة التوحيد ، فالإله المزعوم « بعل » لم يخلقهم ، والله سبحانه هو الذى خلقهم وأحسن خلقهم ، وساق العبارة « أتدعون بعلأ » بأسلوب الاستفهام الإنكارى ، وقصر العبارة لأنه لا يستحق من الذكر إلا الإنكار وكفى ، ثم هو يفسح التعبير نسيباً عن أحسن الخالقين .

أثر الدعوة في قومه :

انقسم القوم إلى فريقين اثنين :

١ - أكثرية كذبت ، وظلت تعبد « بعلأ » وأصمت الآذان وألغت العقول ، ولم تفد معها المقارنة بين باطل وحق .

٢ - قلة استجابت للدعوة ، وهجرت الشرك ، وأخلصهم الله سبحانه إليه ، فوحدته وعبدته .

عقوبة المكذبين :

ذكرت الآيات أن هؤلاء المكذبين سيحضرون إلى العذاب يوم الحساب
يوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب .

جزاء المؤمنين :

وبالمقابل فجزاء المؤمنين الذين آمنوا بإلياس - عليه السلام - هو ثوابه
سبحانه في الآخرة . كما أن المؤمنين اللاحقين سيذكرونه بالخير والسلام عليه ،
وذلك جزاء من أحسن العمل وأتقنه مرضاة لله سبحانه ﴿سلام على
إلياسين﴾ .

وهذا توجيه من الله سبحانه إلى الجيل المسلم أن يزف تحيته وسلامه للرعية
الأول ، الذى جاهد فى سبيل الله سبحانه ؛ دعوة وسلوكا ، وإنكاراً للشرك ،
وتطبيقاً لحكم الله سبحانه ، فسلام الله عليهم أجمعين .

داود - عليه السلام .

- بين طالوت وجالوت .
- آ - التفكير والنظر .
- ب - تعيين القائد .
- ج - تحرك الجيش تحت إمرة القائد ، واختباره كفاءة الجنود .
- د - التحام الجيشين ، وانتصار الفئة القليلة المؤمنة .
- داود - عليه السلام .
- أصله .
- قوته .
- أكله من عمل يده .
- صيامه وصلاته .
- كتابه .
- تسخير الجبال ، والطير ، وإلانة الحديد ، وعمل الدروع ،
والملك الكامل ، وفصل الخطاب .
- نبأ الخصم .
- آ - مفاجأة مفرزة .
- ب - موضوع القضية .
- ج - الحكم في القضية .
- د - في أعقاب القضية .
- دروس ، وعبر .

بين طالوت ، وجالوت :

آ - التفكير والنظر :

تعرفنا فيما سبق على رواية أنى هريرة - رضى الله عنه - عن
النبي - ﷺ - أنه قال :

« كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء . كلما هلك نبي خلفه
نبي ... » (١) .

وبدا التفكير فى تلك المعركة أن اتجه رؤساء القوم ووجهائهم إلى نبيهم
الذى بينهم ، يطلبون إليه أن يعين لهم قائداً يقاتلون معه فى سبيل الله ، واستمع
النبي إليهم ووقف على الرغبة والشرط ، والشخصية المتحدثة ، وعلى الرغم من
ذلك أراد أن يستوثق ويتأكد بالسؤال :

إذا ما عينت القائد لكم ، وأمرتكم بالقتال فصار مفروضاً ولازماً عليكم
الامتنال ، فهل سيكون منكم أداء هذا الفرض ؟

ويأتى الجواب بإلحاح جديد على القتال فى سبيل الله سبحانه ، ولهم من
المبررات للنهوض بهذا الفرض ما يكفى ، وحدث أن كان تعيين القائد ، والأمر
بالقتال ، ولكن الذين لبّوه قلة ، وكان المظنون أن يكونوا جميعاً ، أو على الأقل
الكثرة ، لا القلة . قال الله تعالى فى هذا الشأن :

﴿ ألم تر إلى الملاء من بنى إسرائيل من بعد موسى ؛ إذ قالوا لنبي لهم :
ابعث لنا ملكاً نقاتل فى سبيل الله ، قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال
ألا تقاتلوا ؟ قالوا : وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا
وأبنائنا ، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم ، والله عليم

(١) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان رقم ١٢٠٨ ، ورياض الصالحين رقم ٢٥٤
باب أمر الولاة بالرفق . وقد سبق فى موضوع : متى كان دخول الأرض المقدسة ؟ وكيف ؟
فصل : مواقف لبني إسرائيل فى سيناء ، ص ٥٤٧ .

بِالظَّالِمِينَ ﴿٢﴾ .

ونرى في ضوء هذه الآية الكريمة :

- أن النبي في القوم كان محل تقدير بشكل علم ، ويده تصريف
شئونهم .

- توجه الملأ والسادة من بنى إسرائيل - على الرغم من علو
منزلهم - إلى هذا النبي الكريم يؤكد تقديرهم له .

- عرض هؤلاء السادة على نبيهم أن يعين لهم قائداً ؛ يقاتلون تحت إمرته .

- وأن هذا القتال ليس لغرض دنيوى ، ولكن في سبيل الله سبحانه ،
ورفع كلمته ، ونشر دعوته .

وتلك الأمور تين حرص القوم على القتال . فقد اختاروا من يتوجهون إليه
بالسؤال ، وحددوا صفة من يقودهم ، وأظهروا رغبتهم وهدفهم من القتال .

- وأراد نبيهم أن يستوثق من امثالهم لما طلبوا ، فأثارهم وحمسهم
بأسلوب الاستفهام ، « هل عسى ... » .

- وبين لهم أن الأمر سيختلف بالنسبة للقتال ، فهو بعد الأمر يصير فرضاً
لزاماً ، دونه قيل الأمر . وهذا اختبار من القائد ، وتبصير لجنوده حتى يكونوا
على علم كامل بالحكم الشرعى .

- دلل القوم على صلق نيتهم في القتال بأمرين :

آ - أنهم قد أخرجوا من ديارهم التي أقاموا فيها ، وربما تكون هي
المقصودة بالجهاد لتحريرها .

ب - وأنهم فصلوا عن آبائهم ، وأهلهم ، ومن العقوق تركهم دون

(٢) سورة البقرة الآية رقم ٢٤٦ .

تخليصهم من العدو ، وربما يكون هذا الأمر قد حدث لهم في سابق تاريخهم .

- وبينت الآية المرحلة الأخيرة في تلك الجولة حين فرض القتال عليهم :

آ - الكثرة تولت وأعرضت عما طلبته سابقاً ، وأعلنت الأسباب التي تدل على السلبية .

ب - وأن هذه الكثرة ظلمت نفسها ، وغيرها بالنكوص عن أداء الغرض وهو القتال .

ج - وأن الله سبحانه عليم بهم في كل أحوالهم السابقة واللاحقة .

د - وأن القلة التزمت بالعهد ، فوفت ، وبدأت تسير نحو المرحلة الثانية في السير نحو المعركة ، وبعد أن تولت وانسحبت الكثرة الظلمة .

تعيين القائد :

يقول الله تعالى :

﴿ وقال لهم نبيهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، قالوا : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال ؟ قال : إن الله اصطفاه عليكم ، وزاده بسطة في العلم والجسم ، والله يؤتي ملكه من يشاء ، والله واسع عليم ، وقال لهم نبيهم : إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم ، وبقيّة مما ترك آل موسى ، وآل هارون تحمله الملائكة ؛ إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ (٣) .

والحوار هنا بين القلة الباقية ، بعد انسحاب الكثرة ، وبين النبي الكريم المبعوث فيهم ، ومنهم . وتضمن هذا الحوار :

- تحديد القائد وتعيينه ، وهو طالوت .

- وأن هذا التحديد من الله سبحانه بوساطة نبيهم .

(٣) سورة البقرة ، الآيتان رقما ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

وكان المظنون من القلة هذه أن تسلم بهذا التحديد ، وقد أعلن عليهم صراحة أنه من الله سبحانه ، ولكن الاعتراض عليه بدا واضحاً في كلامهم ، فقد قاسوه على أسس أرضية لا تقبل أن تكون أسساً للتقويم من المؤمنين ؟

آ - فطالوت في نظرهم دونهم فهم أحق منه بالقيادة .

ب - وهو ليس ذا مال وفير يضمن له احترامنا ، وتقديرنا .

إنها مقاييس جاهلية تعلن ممن ؟ من القلة التي لم تُعرض ، وتنسحب فما بال الكثرة المنسحبة لو كانت مشتركة هنا ؟! . وكان لابد أن تبين الأسس السليمة لتقويم الإنسان .

آ - اصطفاء الله سبحانه للإنسان ، فالله سبحانه واسع العلم ؛ يختار للأمة من يصلحها ، ومن يكون على يديه الخير .

ب - وأن القائد تلزمه خبرة ، ودراسة بفنون القتال ، وقد زاده الله سبحانه في هذا العلم .

ج - كما أن القائد يكون له من الصفات الجسمية تمكنه من ممارسة عمله ، ونشاطه ، بكفاءة وجدارة .

د - البرهنة الظاهرة على صلاح هذا القائد ، وكانت هنا في صورة معجزة على يد طالوت ؛ فقد رأى القوم ملائكة بين السماء ، والأرض تحمل تابوتا تضعه بين يدي طالوت ، وبهذا التابوت بقية تتصل بآل موسى ، وآل هارون - عليهما السلام ، ونزول التابوت على هذا النحو ، وبهذا المحتوى سيبعث على السكينة ، والطمأنينة في مواجهة العدو .

ج - تحرك الجيش تحت إمرة القائد ، واختباره كفاءة الجنود :

قال الله تعالى في هذا الشأن :

﴿ فلما فصل طالوت بالجنود ، قال : إن الله مبتليكم بنهر ؛ فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه إلا قليلاً منهم ، فلما جاوزوه هو والذين آمنوا معه ، قالوا : لا طاقة

لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله ؛ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين ﴿٤﴾ .

في الآية الأولى كان فرض القتال على بنى إسرائيل بناء على طلبهم ، فلما فرض تولى الكثير منهم ، وبقي على العهد قليل . وفي الآية الثانية عين لهذا القليل قائد ملك هو طالوت ، فكان من القليل اعتراض على تعيينه ، ورد عليهم نبهم ببيان المقياس الصحيح في اختيار القادة للمعارك ، وفي الآية الثالثة ظهرت معجزة تدعم اختيار طالوت فتمت موافقة ، وفي الرابعة ، والتي نحن بصددنا الآن تعرض هذا العدد الموصوف بالقليل - بالنسبة لبنى إسرائيل - إلى نقص جديد . وسارت الأحداث الجديدة على هذا النحو :

بعد أن جمعت المعجزة شمل الجنود تحت إمرة طالوت تحرك بهم صوب ميدان المعركة ، وكان عليهم أن يعبروا نهراً وهم بالطريق إلى العدو ، ووضع طالوت جنوده أمام اختبار قبل التحامه بالعدو ؛ ليتأكد في لحظاته الأخيرة من عزيمتهم ، وصدق نيتهم ، وهو في هذا الاختبار يخبر عن الله سبحانه ، ولا يخبر عن الله سبحانه إلا نبي كريم ، وموضوع الاختبار بالنهر الذي سيمرون عليه ، عدم الشرب من النهر ، ومن يشرب منه فليس معدوداً حيثث من أتباع طالوت . وجنوده ، أما إذا كانت ضرورة فلتكن غرفة باليد فقط .

لم يذعن الجنود لأمر القائد - على الرغم من وضوح الأمر العسكري - ماعدا القليل منهم .

ترى ماذا بقى منهم ممثلاً حتى الآن ؟

عن أبي إسحاق ، عن البراء بن عازب (٥) - رضى الله عنه - قال : كنا ،

(٤) سورة البقرة ، الآية رقم ٢٤٩ .

(٥) البراء بن عازب بن الحارث ، الأنصارى ، الأوسى ، يُكنى أبا عمارة ، وأبا عمرو ، استصغره النبي - ﷺ - هو وابن عمر - رضى الله عنهما - يوم بدر ، وأول مشاهدته أحد ، وهو الذى افتتح الرى سنة أربع وعشرين ، وشهد معركة تستر مع أبى موسى ، وشهد مع على - رضى الله عنهم - الجمل ، وصفين ، وقاتل الخوارج ، ونزل =

أصحاب محمد ﷺ - نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت ، الذين جاوزوا معه . ولم يجاوز معه إلا مؤمن ، بضعة عشر وثلاثمائة (٦) .

هذا وقد كان داود - عليه السلام - من هؤلاء الذين جاوزوا ، ويظهر أنه لم يكلف الرسالة حتى الآن .

وفوجئت الفئة القليلة المؤمنة ، والتي جاوزت النهر مع طالوت ، أنهم أمام عدو كثير العدد ، والعدة . تحت إمرة قائدهم جالوت ، فأصابهم هزة كادت أن تؤثر فيهم ، ولكن الله سبحانه ثبتهم ، وأعاد السكينة إلى قلوبهم .

د - التحام الجيشين ، وانتصار الفئة القليلة المؤمنة :

قال الله تعالى :

﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده . قالوا : ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ، فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين ، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، وإنك لمن المرسلين ﴾ (٧) .

على الرغم من المحاولات السلبية السابقة ، التي أنقصت من عدد المؤمنين ، ومحصّتهم ، وميّزتهم عن غيرهم من ضعاف النفوس ، فقد انتهت المعركة بسرعة ، وتحقق النصر إلى جانب الفئة القليلة المؤمنة التي لا تزيد على بضعة عشر وثلاثمائة عدة أصحاب بدر .

= الكوفة وابتنى بها داراً ، ومات في إمارة مصعب بن الزبير سنة اثنتين وسبعين . الإصابة ، لابن حجر ، ج ١ ص ١٤٢ رقم ٦١٨ .

(٦) أخرجه البخاري في باب عدة أصحاب بدر ج ٥ ص ٩٤ ، وقد روى عن ابن إسحاق من ثلاث طرق ...

(٧) سورة البقرة ، الآيات من رقم ٢٥٠ إلى رقم ٢٥٢ .

وتضمن هذا اللقاء على سرعته مواقف :

- آ - موقف المواجهة ، ورؤية كل من الجيشين للآخر ، هذا بعده القليل ، وذلك بكثرته عددا ، وعدة .
- ب - موقف اللجوء إلى الله سبحانه ، وقد رأوا تفوق العدو عليهم ؛ وقد ظهر هذا اللجوء في :

رجائهم أن يفرغ الله سبحانه عليهم من الصبر ما يكفل تحقيق النصر ، وجاءت كلمة « أفرغ » لتوحى بأنهم محتاجون لكثير من الصبر ، يشملهم من كل ناحية .

٢ - رجائهم أن يثبت الله سبحانه أقدامهم ، فلا يرتلون على أعقابهم أيا كانت الظروف .

٣ - رجائهم النصر على الكافرين .

ج - موقف الانتصار الباهر على الكافرين ، وجاء التعبير مبدؤاً بالفاء « فهزمهم » ؛ ليدل على سرعة النصر بعد اللجوء إلى الله سبحانه .

د - موقف داود - عليه السلام - البارز من بين الجنود ؛ لأنه هو الذي تصدى لجالوت ، واستطاع أن يقتله ، وكان هذا سبيلا إلى :

- أن الله سبحانه وتعالى قد آتاه الملك ، وآتاه الحكمة ، وعلمه مما يشاء وكان ختام هذا اللقاء ببيان أمرين :

الأمر الأول : أن الجهاد في الإسلام ، لإزالة الفساد من الأرض ؛ من طغيان ظالم ، وكبت للحريات ، وانتقاص الناس حقوقهم . وأنه بهذه الصفة يقرر العدل في الحكم ، وفي كل أمور الحياة .

الأمر الثاني : أن هذه الدروس السابقة في التاريخ ، لا تذكر دون هدف وغاية ، إنما هي رصيد مقدم لخاتم الأنبياء محمد - ﷺ - ليكون زاداً له في مسيرة الدعوة إلى الله سبحانه . ومقدم أيضاً إلى دعاة الأمة المسلمة أيا كانوا ؟ ومتى عاشوا ؟

داود - عليه السلام :

أصله :

قال الله تعالى في أول العرض لأحداث المعركة السابقة :

﴿ ألم تر إلى الملائكة من بنى إسرائيل من بعد موسى ﴾ (٨) .

وقال أيضاً في نهاية هذا العرض :

﴿ وقتل داود جالوت ﴾ (٩) .

وهذا يدل صراحة على أن داود - عليه السلام - كان من بنى إسرائيل ، وأنبيائهم .

قوته :

قال الله تعالى في هذا الشأن :

﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد ﴾ (١٠) .

والأيد : القوة ، كقوله تعالى : ﴿ والسماء بنيها بأيدي ، وإنا لموسعون ﴾ (١١) أى بنيها بقوة ، وإذا ما أطلقت بالنسبة للإنسان أريد بها القوة الجسمية ، كما ورد في قصة موسى - عليه السلام - قوله تعالى على لسان الفتاة لأبيها :

﴿ ياأبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ (١٢) ووجه الاستشهاد أن الله سبحانه ذكر لموسى - عليه السلام - صفتين : الأولى :

(٨) سورة البقرة ، الآية رقم ٢٤٦ .

(٩) سورة البقرة ، الآية رقم ٢٥١ .

(١٠) سورة ص ، الآية رقم ١٧ .

(١١) سورة الناريات ، الآية ٤٧ .

(١٢) سورة القصص ، الآية رقم ٢٦ .

جسمية وهى : القوى ؛ حيث قوى على سقى الغنم وحده للفتاتين ، والثانية : معنوية ، وهى الأمين .

وقد ظهر أثر هذه القوة لداود - عليه السلام - حين كان جندياً من جنود طالوت ، وحين وجهها للدفاع عن الدين الحق ضد الكفر ، فهى نعمة يجب أن توجه إلى طاعة من وهبها سبحانه ؛ فقد استطاع داود - دون غيره - أن يتجه إلى رأس الكفر جالوت ، القائد العام للعدو ، ويقتله . على الرغم من أن المؤمنين كانوا قلة ، والكافرين كثرة .

أكله من عمل يده :

عن جابر بن عبد الله (١٣) - رضى الله عنهما - قال : كنا مع رسول الله - ﷺ - بنجى الكباث ، وإن رسول الله - ﷺ - قال :

« عليكم بالأسود منه ؛ فإنه أطيبه » قالوا : أكنت ترعى الغنم ؟ قال : « وهل من نبي إلا وقد رعاها » (١٤) .

وهذا الحديث يدل بوجه عام على أن كل نبي كان يعمل بيده ، وفى رعى الغنم ، وأنه لم يعيش عائلة على غيره من أهل وأقارب . ولكن داود - عليه السلام - كان ملكاً ؛ فقد قال تعالى فى شأنه :

﴿ وآتاه الله الملك والحكمة ﴾ .

(١٣) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام ، الأنصارى ، السلمى ، ومن كناه أبو عبد الله ، وأبو عبد الرحمن ، من المكثرين فى الرواية عن النبى - ﷺ - كان مع من شهد العقبة ، وأسهم فى سقى القوم يوم بدر ، وقيل منعه أبوه فى بدر ، وأحد ، كانت له حلقة درس فى المسجد النبوى ، يؤخذ عنه العلم ، ومات بالمدينة بعد أن كُف بصره سنة أربع وسبعين ، عن نيف وتسعين زمن الحجاج ، وكان قد أوصى ألا يصلى عليه . الإصابة لابن حجر ج ١ ص ٣١٢ رقم ١٠٢٦ .

(١٤) أخرجه الشيخان . صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩١ ، مختصر مسلم ، وقد سبق الاستشهاد به .

ومثل هذه المراكز كثيراً ما نرى أصحابها يُخَدِّمُونَ من غيرهم ، وَيُعَفِّونَ من العمل باليد . فماذا كان من أمر نبي الله داود - عليه السلام - وحاله على هذا النحو ؟

عن أنى هريرة - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال :
« خفف على داود القرآن (القراءة) ، فكان يأمر بدوابه فتسرج ، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ، ولا يأكل إلا من عمل يده » (١٥) .

وذلك في وقت أن كانت له خيول تسرج ، ويملك الأمر لمن يقوم بإسراجها من جنود . وأتباع ، ومع ذلك يكون التأكيد بأسلوب الحصر في العبارة « ولا يأكل إلا من عمل يده » والأكل من عمل اليد يدل من جهة أخرى على القوة الجسمية التي سبق الحديث عنها .

صيامه ، وصلاته :

قال الله تعالى في هذا الشأن :

﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد ؛ إنه أواب ﴾ (١٠) .

والأواب هو الكثير الرجوع إلى الله سبحانه ، فكيف كان بيان ذلك في السنة النبوية ؟

عن عمرو بن أوس الثقفي ، سمع عبدالله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : قال لى رسول الله - ﷺ - :

« أحب الصيام إلى الله ، صيام داود ؛ كان يصوم يوماً ، ويفطر يوماً ، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود ؛ كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سُدُسُهُ » (١٦) .

(١٥) أخرجه البخارى من طريقين عن أنى هريرة - رضى الله عنه - ج ٤ ص ١٩٤ ، ١٩٥ ، كتاب الأنبياء .

(١٦) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الصيام رقم ٧٢٠ ، صحيح =

ودرجة الحب الواردة في الحديث السابق ، لا تعنى قيام داود - عليه السلام - بما عليه من فرض وواجب ، وإنما تعنى أداء النوافل - والتطوع التي تدل على رغبة العابد الشديدة في التقرب إلى الله سبحانه .

فمن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« إن الله تعالى قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » (١٧) .

وقد منع النبي - ﷺ - عبدالله بن عمرو - رضى الله عنهما - أن يفعل أكثر من ذلك ، برغم حرصه على المزيد ؛ لأنه لا أفضل من ذلك ، والمعنى : أن داود - عليه السلام - فعل قمة العبادة من صلاة وصيام ، واستحق وصف الله سبحانه له « إنه أواب » .

كتاب داود - عليه السلام .

أنزل الله سبحانه على نبيه داود - عليه السلام - كتاب الزبور ، وفي ذلك قال الله تعالى :

﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ (١٨) .

وفي الكتاب كانت الحكمة ، والعلم ، قال تعالى :

﴿ وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء ﴾ (١٩) .

= البخارى ، كتاب الأنبياء ج ٤ ص ١٩٦ ، وقد رواه أيضاً من طريق سعيد بن المسيب ، وأبى سلمة بن عبدالرحمن ، وأبى العباس ، وفي الروايات الأخرى ذكر السبب في نصيحة عبدالله بن عمرو بهذا .

(١٧) أخرجه البخارى . الأربعون النووية ، الحديث الثامن والثلاثون .

(١٨) سورة النساء ، الآية رقم ١٦٣ ، وسورة الإسراء ، الآية رقم ٥٥ .

(١٩) سورة البقرة ، الآية رقم ٢٥١ .

وكما تعلم منه ، ومن غيره الحكمة ، والعلم ، علم الأسلوب الصحيح في القضاء ، وفصل الخطاب ، بالفهم في المسائل التشريعية ، والقضائية (٢٠) .

تسخير الجبال ، والطير ، وإلانة الحديد ، وعمل الدروع ، والملك الكامل ، وفصل الخطاب .

قال الله تعالى في هذا الشأن :

﴿ ولقد آتينا داود منا فضلاً ؛ يا جبال أوى معه ، والطير ، وألنا له الحديد ، أن اعمل سابغات ، وقدر في السرد ، واعملوا صالحاً ؛ إني بما تعلمون بصير ﴾ (٢١) .

وقال أيضاً :

﴿ اصبر على ما يقولون ، واذكر عبدنا داود ذا الأيد ، إنه أواب ، إنا سخرنا الجبال معه يسيحن بالعشى والإشراق ، والطير محشورة كل له أواب ، وشددنا ملكه ، وآتيناه الحكمة ، وفصل الخطاب ﴾ (٢٢) .

ينخر الله سبحانه عما أنعم به على نبيه داود - عليه السلام - مما آتاه من الفضل المبين :

- فقد سخر له الجبال تردد التسييح معه ، إذا ما سبح وذكر الله تعالى .
- وقد أمرت الجبال مباشرة من الله سبحانه أن تؤوب معه ، وتسبح في كل وقت .

- كما أن داود - عليه السلام - قد أعطى في هذا المقام من الصوت الجميل الرقيق ، وقد سمع النبي - ﷺ - صوت أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - يقرأ من الليل ، فوقف ، واستمع لقراءته ، ثم قال :

(٢٠) عزاه البخارى إلى مجاهد ج ٤ ص ١٩٦ كتاب الأنبياء .

(٢١) سورة سبأ ، الآيتان ١٠ ، ١١ .

(٢٢) سورة ص ، الآيات من رقم ١٧ إلى رقم ٢٠ .

« لقد أوتيت زمماراً من مزامير آل داود » (٢٣) أى صوتاً جميلاً مثل

صوته .

— وألان الله تعالى له الحديد ؛ إما بإلأته مباشرة ، وصيرورته فى يده مثل الجسم اللين ، وإما بتعريفه سبل الإلأنة ، والإذابة ليصنع منه ما يشاء ، والثانى أرجح والله أعلم .

(٢٣) رواه الشيخان - رياض الصالحين ، للنووى ، كتاب الفضائل باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن رقم ١٠٠٣ ص ٤١٨ .

قال صاحب القاموس : مزامير داود : ما كان يتغنى به من الزبور ، وضروب الدعاء . والمفرد : زممار ، ومزمو ، ما يزمر به ، وزَمَرَ يَزْمُرُ : غنى فى القصب .

وما يتصل بالصوت أيضاً عزف الرياح : أصواتها ، والمعازف : الملامى (أى أدوات اللهو) ، والواحد : عَزَفَ أو مِعَزَفَ ، والمعازف اللاعب بها ، والمعنى . اهـ .

هذا وقد وردت فى مثل هذا أحاديث :

١ - عن محمد بن حاطب ، قال : قال رسول الله - ﷺ : « فصل ما بين الحلال ، والحرام ، اللدْف ، والصوت فى النكاح » رواه الخمسة إلا أبا داود .

٢ - وعن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار ، فقال النبى - ﷺ : « يا عائشة ، ما كان معكم من لهو ؛ فإن الأنصار يعجبهم اللهو » رواه البخارى ، وأحمد .

٣ - وعن عمرو بن يحيى المازنى ، عن جده أبى حسن ، أن النبى - ﷺ - كان يكره نكاح السر ، حتى يضرب بدف ، ويُقال : أتيناكم ، أتيناكم ، فحيونا نحييكم » رواه عبد الله بن أحمد فى المسند .

٤ - قال فى الفتح فى رواية شريك : فقال : هل بعثتم جارية تضرب بالدف وتغنى ؟ قلت : تقول ماذا ؟ قال : تقول :

أتيناكم أتيناكم	فحيانا وحياكم
ولولا الذهب الأحـ	مر ما حلت بواديكم
ولولا الحنطة السمرا	ء ما سمت عذارىكم

قال أبو العباس ، وأبو حنيفة ، وأصحابه : ضرب الدف مباح ، قال الشوكانى : =

= وهذا هو الظاهر للأحاديث المذكورة في الباب ، بل لا يبعد أن يكون ذلك مندوباً ؛ ولأن ذلك أقل ما يفيد الأمر في قوله : « أعلنوا هذا النكاح » قال المهلب : وفي هذا .. إعلان النكاح بالدف ، والغناء المباح ، وفيه إقبال الإمام إلى العرس ، وإن كان فيه لهو ، ما لم يخرج عن حد المباح . اهـ . نيل الأوطار ، للشوكاني ج ٦ ص ٢١٠ باب الدف ، واللهو في النكاح ، وكتاب آداب الزفاف للشيخ ناصر الدين الألباني .

٥ - وعن عبد الرحمن بن عُثْم ، قال : حدثني أبو عامر ، أو أبو مالك الأشعري ، سمع النبي - ﷺ - يقول : « ليكونن من أمتي قوم يستحلون الحرَّ ، والمحريم ، والخمر والمعازف » أخرجه البخاري تعليقاً ، وأبو داود ، وصححه ابن حبان ، وله شواهد . قال الجوهري ، وغيره : المعازف : الملاهي . والحر بكسر الحاء : الفرج ، أي يستحلون الزنا ، قال الشوكاني : المعازف : آلات الملاهي : ونقل عن الجوهري أيضاً : الغناء ، والذي في صحاحه ، أنها اللهو ، وقيل : صوت الملاهي ، ونقل الشوكاني حجج من قالوا بالتحريم ، وحجج من قالوا بالجواز ... في كتابه نيل الأوطار ج ٧ ص ١٠٠ باب ما جاء في آلة اللهو . و ج ٢ ص ١٠٣ ولم يسند البخاري الحديث للشك الواقع من المحدث ؛ حيث قال أبو عامر ، أو أبو مالك .

وفي ضوء ما تقدم أرى والله أعلم بالصواب :

- أن تحسين الصوت بالقرآن مرغوب فيه شرعاً ، كما أن تحسين الصوت بالدعاء محبب أيضاً .

- أن آلات العزف واللهو قسمان .

(١) الأول ما هو مقطوع بإباحته مثل الدف .

الثاني ما فيه اختلاف بين الإباحة ، والحرمة .

- أن اللهو ، والغناء ، مطلوبان شرعاً في مناسبات الأفراح مثل الأعراس .

- أن المعازف بمعنى ما يعزف الإنسان ، ويصرفه عن ذكر الله حرام قطعاً . واستعمالها بهذا المعنى مقرون بالزنا . وشرب الخمر ، ولبس الرجال للحرير . في الحرمة .

- أن ما يباح مما تقدم مشروط ألا ينسى الإنسان ذكر ربه ، وألا يصرفه عن الكلام المباح إلى الحرام .

- وقد كانت إلانة الحديد لهدف سام يسعى إليه داود - عليه السلام - هذا الهدف هو صناعة الدروع السابقة بشكل سهل وسريع ، ثم تكون الدروع بعد التصنيع على صلابتها ومتانتها ، ويتضح هذا الهدف من قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ ﴾ (٢٤) .

- وبلغ داود - عليه السلام - من المهارة في تلك الصناعة أن قدر كل شيء فيها . من مسمار وغيره ، حتى تفوقت على ماسبقها من ذروع .

- وها هي الطيور أيضاً ذات الصوت الجميل إذ بها وهي تسبح في الفضاء تسمع صوتاً أجمل من صوتها ، وهو صوت داود - عليه السلام - فتردد معه تسبيحه ، وذكره .

- وقد أمر داود - عليه السلام - بأن يتخذ الصالح في كل عمل يعمل به ؛ لأن المراقب والبصير يراه ويسمعه ، وبذلك وجهت هذه النعم إلى الإصلاح في الأرض ، وإزالة الفساد .

- وإذا ما كانت الجبال متجاوبة معه ، وكذا الطير ، وإذا ما كان الحديد قد سخر ، وصنعت منه أدوات القوة والنصر . كان ملك داود - عليه السلام - على هذا الأساس شديداً مهاباً .

فأى ملك أعظم لإنسان من ملك داود - عليه السلام ؟

- وإذا ما كان التسخير السابق ، فمؤدى هذا أن يكون تابعوه من البشر كثرة تعمل له الحساب ، ولا ينتظر منهم التمرد عليه ؛ خوفاً منه .

نبأ الخصم .

قال تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسُوْرُوا الْخِرَابَ ؟ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ، قَالُوا : لَا تَخَفْ ، خَصِمَانِ بَغْيَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ، فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ،

(٢٤) سورة الحديد ، الآية رقم ٢٥ .

ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط ؛ إن هذا أخى له تسع وتسعون
نعجة ، ولى نعجة واحدة ، فقال : أكفلنيها ، وعزنى فى الخطاب ، قال : لقد
ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على
بعض إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود
أنما فتاه . فاستغفر ربه ، وخر راکعاً وأناب ، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا
لزلزلة وحسن مآب ، يا داود ، إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس
بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله
لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴿٢٥﴾ .

فى موقف آخر خاطب الله سبحانه نبيه محمداً - ﷺ - بقوله بعد
حديث عن نبي إسرائيل :

﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين
لا يعلمون ﴾ ﴿٢٦﴾ .

وأخبره أيضاً ببيان أساس هذه الشريعة بقوله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ ﴿٢٧﴾ .

ثم قدم له فى نص (نبأ الخصم) الجديد رصيذاً من التجربة الإنسانية على
يد الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وهو سبحانه يهينه ويشوقه إلى ما سيخبره
من أمر الغيب ، الذى لا يعلمه إلا هو سبحانه ؛ ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم ؟ ﴾
وقد أجرى الله سبحانه اختياره أيضاً على داود - عليه السلام - الذى
آتاه الله الملك ، وعلمه مما يشاء . فماذا كان من أمر هذا الاختبار ؟

(٢٥) سورة ص ، الآيات من رقم ٢١ إلى رقم ٢٦ .

(٢٦) سورة الجاثية الآية رقم ١٨ .

(٢٧) سورة النحل ، الآية رقم ٩٠ .

آ - مفاجأة مفزعة .

جماعة من البشر بينهم خصومة شديدة ، دفعتهم إلى ارتكاب خطأ ؛ رغبة في الوصول بسرعة إلى حكم داود - عليه السلام - فيما بينهم .

- فهم قد تسوروا المحراب ، ولم يتمهلوا ليدخلوا من الباب .

- وهم لم يخففوا من مفاجأتهم ، وقد واجهوا نبيهم ، وحاكمهم بنهى حيث قالوا : « لانتخف » الذى كان عرض القضية بعدها مباشرة .

- وهم جماعة من البشر قد حضروا مع خصمين ، مما يدل على أن الخصومة أخذت أبعاداً أوسع .

- وفي تقديمهم القضية كان تهديد وأمر ؛ بالحكم بينهم بالحق « فاحكم بيننا بالحق » وتهديد وتحذير من الجور ، والشطط « ولا تشطط » وآخر أمر كان أقرب إلى الرقة والهلوء « واهدنا إلى سواء الصراط » فهنا نبيان ، وأمران في آن واحد ، وبعد تسور المحراب ، وقبل التعرف على موضوع الخصومة التى جاءوا من أجلها .

فالجو يوحى بالفزع بشكل عام ؛ وظهر أثره على داود - عليه السلام - منذ أن تسوروا المحراب . تلك الحالة النفسية الأولى لمحكمة ، قاضيا فزع ، وخصومها يهددون .

ب - موضوع القضية :

بدأ عرض القضية من الطرف الأول ، الذى ظن أن ظلما وقع عليه . وفحواها من وجهة هذا الطرف .

أنه كان يملك شاة ، فهو بذلك فقير ليس هناك ما يدل على امتلاكه غيرها ، وهو بحاجة إلى مساعدة من غيره ، قبل أن يساعد هو غيره ، وقد تأدب حين بدأ الحديث عن خصمه ، فعبر عنه بأنه أخوه « إن هذا أخى » وإن كان هذا الأدب قد تناوله بخذر ، مخافة الاتهام بالضعف ، وهو أمام قاض عادل ، فأشار إلى أخيه بهذا دون ذكر اسم هذا الأخ .

إن هذا الأخ يملك تسعا وتسعين شاة ، عدداً هائلاً بالنسبة لشاة واحدة فقط وقد طمع هذا الأخ الغنى في مال أخيه الفقير وأراد أن يضم الواحدة إلى الكثير لتبلغ المائة . وأعطته سلطته الاقتصادية سلطة بيانية ، فغلب أخاه في النقاش والحوار . ومحاولات الإقناع بأن مسألة الضم هذه شرعية لا ضير فيها ، وعجز الفقير المسكين عن مبادلة الحجّة بالحجة « وعزنى في الخطاب » فجاء ليعرض مشكلته أمام عدة أطراف :

- ١ - جماعة الناس التي حضرت مع الخصمين .
 - ٢ - الأخ الذي حاول ضمّ شاته ، إلى شياهه ، وقد عزّزه في الخطاب .
 - ٣ - القاضي داود - عليه السلام .
- وهو إذ يعرض مشكلته ودعواه متهلف إلى أن يأخذ حقه ، وعلى وجه السرعة ، ولذا أسهم مع الآخرين في تسور المحراب .
- ج - الحكم في القضية :

تلك هي الحال التي عرضت القضية في جوها ، والتي أخذت على داود - عليه السلام - لبّه ، ففزع ، فأراد أن ينهى الموقف بحكم سريع ، في ضوء الظاهر من عرض طرف واحد في الخصومة .

فماذا كان الحكم ؟ وما حيثياته ؟

إن ضم الشاة الواحدة إلى التسع والتسعين ظلم ، وهذا الظلم يجب أن يزال ، وتفض الخصومة .

ثم علل مرشداً وموجهاً ببيان طريقين :

١ - طريق ظالم ، ينجح إليه كثير من الخلطاء والشركاء ، حين يبغي القوى على الضعيف وهذا الطريق يجب أن ينبذ ، ولا تبرره وصمة الكثرة به ، وتمرغهم في وحله .

٢ - طريق عادل ، يؤمن به من البشر من أخلص قلبه لله سبحانه ، وعلم أنه مطلع عليه في سره ، وعلنه ، وأنه سيجازيه على الصغيرة والكبيرة ، وأنه

سيقتصر لعباده المظلومين يوم الحساب ، ومع هذا الإيمان عمل صالح ﴿ آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ﴾ .

ورفعت الجلسة ، وانتهت الخصومة على هذا النحو ، وبدأ داود - عليه السلام - يستعيد ما حدث آنثذ ، وبسرعة .

د - في أعقاب القضية :

إن داود - عليه السلام - لا يعلم ما بالقلوب والنوايا ، فعلمها عند الله سبحانه ، ولكنه مكلف ومطالب بالشكل القضائي : البيئة على من ادعى ، واليمين على من أنكر . ثم هو يسمع كلا من الطرفين في عرض رأيهما ، ويجتهد بحسب طاقته البشرية في محاولة الوصول إلى الحقيقة ، بوضع الخصوم في اختبارات ، ومساءلات ، فإذا ما كانت بعد هذه الجهود القضائية بلاغة أحد الخصمين ، ومهارته في عرض خصومته ، فحكم القاضي له برغم أنه ليس بصاحب حق . فليس على القاضي إثم ، وأمر الظالم موكلول إلى الله سبحانه .

عن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - أنه سمع رسول الله ﷺ - يقول :

« إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » (٢٨) .

إن داود - عليه السلام - تذكر جانب الشكل في القضاء فوجد فيه جانباً لم يكتمل . فماذا كان من أمره بعد أن استرجع القضية ؟

(٢٨) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الأقضية ، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ رقم ١١١٨ ص ٤٣١ ، ومختصر مسلم رقم ١٠٥٦ ج ٢ .

وقد حذر النبي ﷺ - هؤلاء الظالمين الذين يقتطعون لهم من مال الناس ، دون وجه حق ، لمجرد أنهم يجهلون تزويرهم ، وإلباسه ثوب الحق .

فمن أم سلمة - رضى الله عنها - زوج النبي ﷺ - أنه سمع جليلة خصم يباب حججته ، فخرج إليهم فقال :

رأى أنه مر باختبار شديد في تلك القضية ، وليس الاختبار إلا تعليماً وتوجيهاً لما يأتي من اختبارات أخرى ، فكان منه :
- استغفار مما ظن أنه تقصير في تناول القضية ، والحكم بناء على سماع طرف واحد .

- سرعة الخضوع والذلة لله سبحانه « خر واكع » .

- رجوع وتوبة ، وتعديل لخطأ عمل قضائي .

« إنما أنا بشر ، وإنه يأتيني الخصم ، فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق ، فأقضي له ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هي قطعة من النار ، فيحملها ، أو يذرها » (أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان رقم ١١١٥ باب الحكم بالظاهر ، واللحن بالحجة ص ٤٢٨ ، ومختصر مسلم رقم ٤٠٥١ ج ٢ ص ٤٠) .

وعن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله - ﷺ - :

« إن أبعض الرجال إلى الله الألد الخصم » .

والألد : بفتح اللام ، وتشديد الدال الشديد الخصومة . والخصم : بكسر الصاد الحاذق بالخصومة (أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب العلم ، باب في الألد الخصم ، رقم ١٧٠٧ ص ٧٢٤ ، ومختصر مسلم ، باب إذا حكم الحاكم ، رقم ١٠٥٢ ج ٢ ص ٤٠)

وعنها أيضاً قالت : قال رسول الله - ﷺ - :

« من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد » .

أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الأقضية ، باب نقض الأحكام الباطلة ، ورد محدثات الأمور رقم ١١٢٠ ص ٤٣١ في أمرنا : في ديننا . فهو رد : من باب إطلاق المصدر على اسم الفعول ، أي فهو مردود . أي باطل غير معتد به ، ويفهم من هذا أنه إذا تبين في الحكم نوع من الخلل يلزم الرجوع إلى الحق من أي الأطراف : المدعى ، المدعى عليه ، القاضي ، الشهود وانظر أيضاً إلى فصل سليمان - عليه السلام - موضوع . الهدهد وملكة سبأ ، وقوله تعالى : ﴿ منتظر ، أصدقت أم كنت من الكاذبين ؟ ﴾ .

واستحق داود - عليه السلام - بعد الاستغفار والإنابة جائزتين :

١ - جائزة المغفرة ، والقرى من الله سبحانه ﷻ فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﷻ .

٢ - جائزة تكليفه الخلافة عن الله سبحانه في الأرض ، ومن لوازم هذه الخلافة :

آ - الحكم بين الناس بالحق .

ب - عدم اتباع الهوى في هذا الحكم ؛ لأن اتباع الهوى يضل عن سبيل الله سبحانه ، والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يقومون الأحكام بميزان الله سبحانه .

دروس وعبر :

- كثير من الناس يتعجلون الأحداث ، ويتحمسون وهم خارج دائرة المعاناة ، والابتلاء ، ولكنهم حين يجد الجد ، ويدعون إلى القتال ينكصون عنه ، وأولى بهم أن يتبعوا منهجاً مرحلياً ، ويصدقوا النية مع الله سبحانه ، ومع أنفسهم .

- على المسلم أن يذعن إذعانا كاملاً لأمر الله سبحانه ، وأمر نبيه - ﷺ - ولا يخالجه أى تردد فى التنفيذ .

- قد يظهر على ألسنة الكثرة من الناس أنهم على خير ، والحقيقة غير ذلك ، فالأحداث هى التى تمحص النفوس ، وتظهر الصادق من غيره .

- يجب أن يُختارَ القائد العسكرى على أساس الإيمان والكفاءة الحربية ، من خبرة علمية ، وقوة جسمية .

- القائد الناجح هو الذى يجعل حس المعركة فى أذهان جنوده دائماً ؛ بالمناورات العسكرية التى تظهر جلد الجندى ، ومدى صبره عليها .

- إن الكثرة التى تضم ضعاف الإيمان لا تساوى شيئاً ، وإن القلة المؤمنة ذات الكفاءة الحربية تبدد شمل الخصم العنيد ، والكثير العدد والعدة ، وتلحق به الهزيمة ، وتنتصر عليه .

- من علامات الإيمان للجنود ، الالتجاء إلى الله سبحانه ، وطلب المدد منه ، والثبات عند اللقاء ، والصبر على لأواء الحرب ، والرغبة الملحة فى النصر مع بذل أسبابه .

- إن الجهاد فى الإسلام تعمير للأرض ، وإصلاحها ، وإزالة للفساد والخراب ، ومن أسس الإعمار التوازن فى تلبية متطلبات الإنسان فيها . وإفسادها يكون بإعلاء جانب على حساب جانب آخر ، كما نرى فى الحضارة الحديثة المادية من جهة ، وما نراه من مغالاة فى التعبد وإهمال الدنيا ومصالح الناس فيها .

وما تقدم فى ضوء المعركة بين طالوت وجالوت .

- الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أعطاهم الله سبحانه من ما تكفل لهم القيام بأعباء الرسالة ، « الله أعلم حيث يجعل رسالته » وقد اختارهم من أفضل البشر .

- خير لقمة يقدمها المرء لنفسه ما كان من عمل يده ، فالعمل نعمة ومنهج حيوى ؛ لتسير الحياة نحو الرق دائماً .

- إن الله سبحانه قد خص داود - عليه السلام - بتسخير كائنات له من غير البشر ؛ وذلك لإخضاع البشر الذين تعودوا التمرد على أنبيائهم من قبل ، وهم بنو إسرائيل .

- إن الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وتسخيره للإنسان من نعم الله سبحانه ؛ فيجب أن يستغل في إعمار الأرض ، وقمع الظلم .

- على القاضى أن يترث في الحكم ؛ حتى يسمع حجة كل من الخصمين ولا يقضى بعد أن يسمع طرفاً واحداً فإذا جاء أحد الخصمين ، وقد فقئت عينه فلا يحكم حتى يسمع ويرى الخصم الآخر فقد تكون العينان قد فقئتتا ، أو ماهو أكبر من ذلك .

- إن القاضى مطالب بمراعاة الظاهر أمامه ، ويجتهد في الوصول إلى الحق ، كما نص الحديث في ذلك .

- إن الله سبحانه يطالب عباده المؤمنين :

بأن يحكموا بالعدل ، وعلم اتباع الهوى في الحكم .

- على الخصم في عرض قضاياهم أمام القضاء أن يراقبوا الله سبحانه ، ولا يحاولوا أن يضللوا القاضى بما يملكون من بلاغة ومهارة في الإقناع .

سليمان — عليه السلام

- هبة الله سبحانه لداود — عليه السلام .
- نعم الله سبحانه على سليمان — عليه السلام .
- حكمه بشأن الطفل .
- جيش سليمان — عليه السلام :
- (ا) القيادة .
- (ب) قصة الهدهد — جنديا — وملكة سبأ :
- ١ — شجاعة أديبة .
- ٢ — النبأ اليقين .
- ٣ — وعى الجندي .
- ٤ — التحقق من الدعوى .
- ٥ — الملكة تناقش أمر الكتاب .
- ٦ — موقع الهدية في نفس سليمان — عليه السلام .
- ٧ — العفرين الذي عنده علم من الكتاب .
- ٨ — الملكة في الأرض المباركة .

- (ج) تسخير الجن .
- (د) تسخير الريح .
- (هـ) الجياد ، وفتنة سليمان — عليه السلام
- تعلمه منطق النمل .
- موت سليمان — عليه السلام .
- الشياطين يعلمون الناس السحر .
- السحر في ضوء الكتاب والسنة :
- (ا) السحر لا يغير حقائق الأشياء .
- (ب) الاشتغال بالسحر ، والاعتماد عليه .
- (ج) عقوبة الساحر .
- (د) اتهام الكفار الرسل بالسحر .
- قصة سبأ .
- دروس وعبر .

هبة الله سبحانه لداود — عليه السلام :

قال الله تعالى :

﴿ ووهبنا لداود سليمان ، نعم العبد ؛ إنه أواب ﴾ (١) .

وقال :

﴿ وورث سليمان داود ﴾ (٢) .

وكانت الهبة جليلة القدر ، عظيمة الشأن :

— فقد أخبر الله سبحانه عنها بقوله : ﴿ نعم العبد ﴾ أى نعمت الهبة التى تحققت فى شخص سليمان — عليه السلام .

— ومن أبرز صفات سليمان — عليه السلام — أنه أواب كثير الأوب والرجوع إلى الله سبحانه .

— وكانت النبوة فى قمة معطيات الله سبحانه لسليمان — عليه السلام — فقد ورثها عن أبيه داود — عليه السلام (٣) .

نعم الله سبحانه — على سليمان — عليه السلام :

إن الله سبحانه وتعالى ، قد أعطى نبيه — عليه السلام — العلم ؛ فقال فى ذلك :

(١) سورة ص ، الآية رقم ٣٠ .

(٢) سورة النمل ، الآية رقم ١٦ .

(٣) إن من أفضل ما يكون للمرء بعد عمله أن يرزق بابن صالح ، فعن أنى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ : « إذا مات ابن آدم ، انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » (رواه مسلم ، رياض الصالحين ، كتاب العلم رقم ١٣٨١ ص ٥٢٥ ، والمختصر كتاب الوقف ، باب ما يلحق الإنسان ثوابه بعده ، رقم ١٠٠١ ص ٢٤ ج ٢) .

﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً ، وقالوا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ (٤) .

ونعمة العلم المعطاة إلى كل منهما : داود ، وسليمان — عليهما السلام — كانت سبباً في التوفيق إلى نعمة أخرى ، وهى شكر الله سبحانه ، على هذا العلم الخاص ، وهذا التفضيل . وقد حدثنا القرآن الكريم عن هذا الشكر من زاوية أخرى فقال :

﴿ نعم العبد ؛ إنه أواب ﴾ (١) .

أى من شكره لربه سبحانه توبته ، واستغفاره ، وكثرة الرجوع إليه . كما أعطاه ربه سبحانه اتساع الملك ؛ فقد دعا ربه سبحانه بما قال على لسانه :

﴿ رب اغفر لى وهب لى ملكاً ، لا ينبغى لأحد من بعدى ﴾ (٥) .

وقد أجاب الله سبحانه دعاءه ، فكان له ملك لم يتمتع به أحد من بعده .

فعن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ :

« إن عفريتاً من الجن تفلت على البارحة ؛ ليقطع على صلاتى ، فأمكننى الله منه ، فأخذته ، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد ؛ حتى تنظروا إليه كلكم ، فذكرت دعوة أخى سليمان ﴿ رب هب لى ملكاً ؛ لا ينبغى لأحد من بعدى ﴾ فرددته خاسئاً » (٦) .

(٤) سورة النمل ، الآية رقم ١٥ .

(٥) سورة ص ، الآية رقم ٣٥ .

(٦) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب المساجد ، ومواضع الصلاة ، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة رقم ٣١٤ ص ١٠٩ ، وصحيح البخارى ، واللفظ له ، كتاب الأنبياء وغيره ج ٤ ص ١٩٧ ، وقال البخارى : عفريت : متمرد من إنس أو جان ، وبهامش اللؤلؤ ما يخصه بالجن ، وقيل بالهامش أيضاً : رده الله خاسئاً : أى مطروداً .

ومن مظاهر اتساع الملك أيضاً أن كان تحت إمرته : الصيبر ، والريح
والإنس والجن ، والحياد ، وسيأتي كل في مجاله الخاص إن شاء الله تعالى .

حكمه بشأن الطفل :

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أنه سمع رسول الله — ﷺ — يقول :

« مثلى ، ومثل الناس ، كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعل الفراش ،
وهذه الدواب ، تقع في النار » وقال : « كانت امرأتان ، معهما ابناهما ، فجاء
الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت صاحبتها : إنما ذهب بابنك ، وقالت
الأخرى : إنما ذهب بابنك ، فتحاكما إلى داود ، فقضى للكبرى ، فخرجتا
على سليمان بن داود ، فأخبرته ، فقال : اتنوني بالسكين أشقه بينهما ، فقالت
الصغرى : لا تفعل ، يرحمك الله هو ابنها . فقضى به للصغرى » (٧) .

والقصة المطروحة تدل على أن المرأة الكبرى كاذبة في دعواها أن الطفل
ابنها ، وأن الذئب جاء فذهب بابن الصغرى ، وأن هذا الكذب لم يظهر حين
عرضت القضية على داود — عليه السلام — ولكن سليمان — عليه
السلام — يعلم ما تكنه الأم لابنها من حب ، وما تتمناه له من طول الحياة ،
والعافية البعيدة عن أى مصيبة تلحقه . وأى مصيبة أفدح من القتل ؟ ! فالقتل
دون كل المصائب في نظر الأم ، حتى ولو كانت مصيبة الحرمان منه .

واستغل نبي الله سبحانه سليمان — عليه السلام — علمه بنفسية الأم ،
فأراد أن يقوم باختبار ، فقد طلب سكيناً لقطع الطفل نصفين ، وهم بذلك دون
نية التنفيذ — حاشاه أن يفعل ذلك ؛ لأنه سيعلم قبل أن يكون هذا التنفيذ : من

(٧) أخرجه الشيخان ، صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٨ ، كتاب الأنبياء ، باب ووهنا
لداود سليمان ، ومختصر مسلم ج ٢ ص ٤١ رقم ١٠٥٧ كتاب القضاء
والشهادات ، باب اختلاف المجتهدين في الحكم ، واللفظ للبخارى .

الأم الحقيقية التي تود بقاء ابنها على قيد الحياة ؟ وكانت الصغرى ، فحكم برد
الطفل إليها ، ونزعه من الكبرى .

وهذا الفهم والعلم من نعم الله سبحانه على سليمان — عليه السلام —
الذى خصه به ، قال الله تعالى فى شأنه فى موقف آخر :

﴿ ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما ، وعلماً ﴾ (٨) .

فالفهم الذى تميز به نتيجة تفهيم الله سبحانه إياه ، كان بدرجة أعلى من
فهم أبيه داود — عليه السلام — كما تدل الآية الكريمة .

حكمه فى الحرث :

قال الله تعالى فى هذا الشأن :

﴿ وداود ، وسليمان ، إذ يحكمان فى الحرث ، إذ نفشت فيه غنم
القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما
وعلماً ﴾ (٩) .

تصرح الآيتان الكريمتان بموضوع القضية دون تفصيل : حرث لشخص ،
أفسدته غنم لقوم آخرين ليس لهم حق فيه .

كما تصرح بشهادة الله سبحانه لكل من داود ، وسليمان — عليهما
السلام — وعلمه بهما . وأن حكم سليمان — عليه السلام — تميز بدرجة
كبيرة من الفهم ، كما سبق .

وتوقفت الآيتان عند هذا ، ولكنهما تشيران — مجرد إشارة — إلى
جوانب أخرى فى القضية ، وعرضها ، والحكم فيها ، ويعيننا فى ذلك ما سبق من
نص الحديث ، الذى يدل على أسلوب كل منهما فى الحكم ، وما تشير إليه أيضاً

(٨) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٧٩ .

(٩) سورة الأنبياء ، الآيتان رقما ٧٨ ، ٧٩ .

الأحاديث الأخرى ، وإن كانت بها علة تضعفها — وقد أخذت على نفسى ألا أستشهد بحديث إلا بما اطمأنت إليه من حيث الصحة — ولكنها هنا فى مقام الاستئناس بما يفهم منها توضيحاً لما تشير إليه الآيتان الكريمتان ، والعلم عند الله سبحانه وتعالى . وبناء على هذا أقول :

موضوع القضية :

— أرض بها زرع قد يكون عنباً ، أو شجراً آخر ، وقد يكون عشباً ، أو بقولاً ، أو غيرها . فالأرض المقدسة التى بها سليمان — عليه السلام — أرض باركها الله سبحانه ، وفى شأنها قال تعالى :

﴿ الأرض التى باركنا فيها ﴾ (١٠) .

— هذا الزرع بذل فيه جهد من صاحبه ، وجهد ظاهر ، وأوله حرث ، وما يتبعه من سقى ، وعناية ، ورعاية له مما يفسده ، ولذا أطلق عليه الحرث ، ولا يراد الحرث فى ذاته ، حيث لا تفسده أغنام ، فبقى لنا أن نفهم أنه يدل على ما يتبعه من زرع قد نما وكبر .

— أن الغنم تجولت فيه ، وتناولته بالإفساد من نواح كثيرة متفرقة ، حيث ﴿ نفشت فيه ﴾ وإن كانت لم تأت على جميعه بالإفساد ، فأفسدته تدل على إفساده كله ، وأفسدت فيه تدل مما تدل على إفساد البعض .

— التصريح بملكية القوم للأغنام يشير إلى أن التهمة موجهة إليهم جميعاً ، فهم قد أهملوا كلهم ، وأثر هذا الإهمال واضح مشاهد فى الحرث .

— ولأن التهمة ظاهرة فلم يكن من اللازم التصريح بما يدل على صاحب الحرث ؛ لأن ذلك معلوم ، والمعلوم فى مقام المذكور ، وإلا فكيف وصلت الدعوى إلى القضاء ؟ .

(١٠) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٨١ .

هيئة المحكمة :

— مكونة من الأصل ، وهو داود — عليه السلام — ويساعدنا في الاستنباط :

(١) تقديمه في الآية .

(ب) هو الوالد ، والأكبر .

(ج) التعبير الأخير ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ أى بعد أن كان تفكير سابق ، واجتهاد ، ولكنه ليس بدرجة اجتهاد سليمان — عليه السلام — والتفكير ، والاجتهاد السابق لشخص ثان ، وليس غير داود — عليه السلام . — إن الله سبحانه هو أحكم الحاكمين ، والشاهد لهما ، يعلم سير الأحداث في القضية ، وطرق علاجها قضائياً .

— إن سليمان — عليه السلام — فرع مساعد لداود — عليه السلام — فالحكم منوط بهما ، وكل منهما يبذل جهده حسب توفيق الله سبحانه له .

في الحكم :

— يظهر أنه قد صدر حكمان :

(١) حكم من الأصل وهو داود — عليه السلام .

(ب) حكم من المساعد وهو سليمان — عليه السلام . كما سبق في حديث الطفل . وأن حكم سليمان — عليه السلام — أكثر دقة وفهماً ، وأنه هو الذى نفذ في القضية .

ويمكننا أن نأخذ من هذه القضية ، وسابقتها :

— أن الأمور الاجتهادية التى ترتبط ببشرية الإنسان ، ويصدر بها

حكم ، يتبين بعد ذلك فيه خطأ ، يلزم الرجوع عنه (١١) .

جيش سليمان — عليه السلام :

(١) القيادة:

بلغت القيادة درجة لم تتحقق لأى نبي من الأنبياء ، فضلا عن البشر جميعاً ، فقد استجاب الله دعاء نبيه سليمان — عليه السلام — حين قال على لسانه :

﴿ رب اغفر لي ، وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى ﴾ (٥) .

وأدار هذا الملك بعلم ، وحكمة قال تعالى :

﴿ وكلا آتينا حكما ، وعلماً ﴾ (٨) .

﴿ ولقد آتينا داود ، وسليمان علما ﴾ (٥) .

يعلم شئون جنده ، وما يدور على ألسنتهم من أحاديث ، قال تعالى على لسانه :

(١١) فإذا كانت عن إقرار ، وظل المقر على إقراره يجب إقامتها ، إما إذا رجع عن إقراره فيلزم الرجوع عن إقامة الحد ، وذلك في ضوء ما حدث من ماعز حين فكر بالهروب .

أصل الحديث أخرجه الشيخان عن أبى هريرة - رضى الله عنه - كما في بلوغ المرام من أدلة الأحكام لابن حجر العسقلاني ، وقال الصنعاني في شرحه للحديث في كتابه سبل السلام ، كتاب الخلود ج ٤ ص ٦ ، ٧ .

وأخرج أبو داود أنه قال - ﷺ - حين علم بهربه :

« هلا رددتموه إلى » وفي رواية « هلا تركتموه ، لعله يتوب الله عليه » .

وبصحة رجوع المقر أخذ الشافعى وأحمد .

﴿ علمنا منطق الطير ﴾ (١٢) .

يأمر فيؤتمر لأمره ، قال تعالى :

﴿ ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ﴾ (١٣) .

ويتفقد جنوده ؛ اطمئنانا على الضبط ، والربط . ويعاقب المقصر منهم ﴿ وتفقد الطير ، فقال : ما لي لا أرى الهدهد ، أم كان من الغائبين ، لأعذبه عذاباً شديداً ﴾ (١٤) .

وقال أيضاً في ذلك :

﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن ، والإنس ، والطير ﴾ (١٥) .

ويجمع تحت يده ما يتم من عمل ، وصناعات .

﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب ﴾ (١٦) .

﴿ وأسلنا له عين القطر ﴾ (١٦) . أى له دون غيره .

يوجه الموروث من الدروع وجهته القويمة ، حيث النفع العام ، لا الخاص (١٧) .

(١٢) سورة النمل ، الآية رقم ١٦ .

(١٣) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٨١ .

(١٤) سورة النمل الآيتان رقما ٢٠ ، ٢١ .

(١٥) سورة النمل الآية رقم ١٧ .

(١٦) سورة سبأ الآية رقم ١٣ - سبأ الآية ١٢ .

(١٧) أخرج البخارى عن عائشة أم المؤمنين ، وأبى هريرة ، وعمر بن الخطاب - رضى الله عنهم - أن ما تركه النبي - ﷺ - صدقة ، ولا يورث .

فمن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال :

« لا يقتسم ورثتى ديناراً ، ما تركت بعد نفقة نسائي ، ومؤنة عاملى فهو صدقة »

= كتاب الوصايا ، باب نفقة القيم للوقف ج ٤ ص ١٥ : وباب فرض الخمس ج ٤ ص ٩٩
باب نفقة نساء النبي - ﷺ - بعد وفاته .

وعن عمرو بن الحارث - رضى الله عنه - قال : ما ترك النبي - ﷺ - إلا بغلته
البيضاء ، وأرضاً ، تركها صدقة . الكتاب السابق ، باب بغلة النبي - ﷺ - البيضاء ،
أهداها إليه ملك أيلة ج ٤ ص ٣٩ .

وعن عروة بن الزبير ، أن عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - أخبرت أن فاطمة
- رضى الله عنها - سألت أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - بعد وفاة النبي - ﷺ - أن
يقسم لها ميراثها ما ترك رسول الله - ﷺ - مما أفاء الله عليه ، فقال لها أبو بكر : إن رسول
الله - ﷺ - قال :

« لا نورث ، ما تركناه صدقة » .

وكان مما قال أبو بكر : لست تاركا شيئا كان رسول الله - ﷺ - يعمل به
إلا عملت به ، فإني أخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ . باب فرض الخمس ج ٤
ص ٩٦ في المرجع السابق .

ومما قال أيضاً : إنما يأكل آل محمد من هذا المال - يعنى مال الله - ليس لهم أن
يزيدوا على المآكل ... باب مناقب قرابة رسول الله - ﷺ - ج ٥ ص ٢٥ ، وص ١٧٧ ،
المرجع السابق .

هذا وقد ذكر صاحب مفتاح كنوز السنة ص ٤٤٨ أن الرواية بهذا المعنى فقط وهو :
ما تركه النبي - ﷺ - صدقة ولا يورث . قد رواها كل من :

مسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وأحمد وغيرهم .

أما ابن كثير فقد ذكر الحديث بلفظ .

« نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » .

ولم يذكر من أخرجه ، وذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ورث سليمان داود ﴾
ج ٥ ص ٢٢٥ وعزاه في البداية والنهاية ج ٢ ص ١٨ ، ١٩ إلى الترمذى وقال : صحيح .

=

(ب) قصة الهدهد — جنديا — وملكة سبأ :

سبق أن عرفنا أن سليمان — عليه السلام — بصفته ملكاً ، وقائداً عاماً ، علم منطق الطير ، وأعطى القدرة على تسخيرهم ضمن الجيش ، في خدمة مؤمنى بنى إسرائيل ، وأنه كان على إحاطة بأفراد هذه الفرقة من الجيش ، يتفقد جنودها بين الحين ، والآخر ، وفي إحدى المرات نظر إلى فرقة الطير ، فلم ير الهدهد . أموجود هو أم غائب ؟ وكيف يتغيب عن حشر الجنود في عرضهم العسكري أمام القائد العام للجيش ؟ إنه له عقاباً أليماً على هذا التغيب ؛ ومخالفته النظام ، وأعلنت العقوبة على ملأ من القوم ؛ ليرتدع غيره ، ويتهيب من تكرار التأخير من أى جندي . ولم يكن الأمر انتقاماً ، وسارت الأحوال على هذا النحو :

— تأخر الهدهد عن موعد العرض العسكري أمام القائد العام .

— يقظة هذا القائد ، ووقوفه على تلك المخالفة بين الصفوف .

— دواعى الضبط والربط ، والهيمنة توجب مخالفة المقصر ، وهو هنا الهدهد .

— إعلان العقوبة : تعذيب أليم ، أو قتل ؛ حسب حجم التقصير بعد

مجيئه .

= والحديث بلفظه الأخير صراحة يلزمنا أن نفسر كلمة « ورت » في الآية . بوراة النبوة ، وما يكون من مال فيوجه نحو الخدمة العامة كما حدث من سليمان — عليه السلام — توفيقاً بين الآية والحديث الصريح ، والروايات السابقة التى تشير فقط ، ولا تصرح بعموم المعنى على كل الأنبياء .

انظر تكملة لهذا عند قوله تعالى : ﴿ فهب لى من لدنك ولياً ؛ يرثى ، ويرث آل يعقوب ﴾ (مريم ٥ ، ٦) فصل آل عمران وزكريا — عليهم السلام . موضوع : طلبه الذرية والولد الصالح .

— لم تحدد العقوبة ؛ لأن المدعى عليه ، والمقصر لا زال غائباً ، فقد يحضر الآن. ، وقد يطول تأخره .

— وتلغى العقوبة بنوعها إن كان له عذر يقدم على صحته دليلاً واضحاً .

فليس في الأمر أى شبهة انتقام ، أو استبداد من القائد العام — حاشاه عن ذلك .

وفي هذا يقول تعالى :

﴿ وتفقّد الطير ، فقال : ما لى لا أرى الهدهد ، أم كان من الغائبين ؟ لأعذبه عذاباً شديداً ، أو لأذبحنه ، أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ (١٨) .

١ — شجاعة أدبية :

إذا نظرنا إلى أنواع الفرق في العرض العسكرى أمام سليمان — عليه السلام — كما سبق ، وجدناها على هذا النمط :

(أ) فرقة من الإنس .

(ب) فرقة من الجن .

(ج) فرقة من الريح .

(د) فرقة من الطير .

فأى مبلغ تبلغه فرقة الطير ، بالموازنة مع الفرق الأخرى ؟ إنها بالنظرة العاجلة تمثل أضعف الفرق بالنسبة لغيرها ، ويكون الجندي الفرد منها دون غيره منزلة . هذا ما يمكن أن يقال ابتداءً إن جاز لنا أن نقوله ، وإذا ما كانت المنزلة على هذا المستوى الضئيل ، فإنها تترك أثراً بيناً في الاستماع إلى صاحبها . ونرى هذا في المجتمعات الجاهلية التي تقيس الناس بمراكزهم المادية ، ولا تصغى إلى عامة الناس ، ولو امتلكوا من الخبرة ، والرؤية الواضحة لما يعايشونه .

.. (١٨) سورة النمل الآيتان ٢٠ ، ٢١ .

فعلى أى نمط كان الهدهد الجندى الصغير فى جيش النبى الكريم سليمان ؟
إن ظرفا ضروريا دعاه إلى أن يتغيب ، ليس من رغبة فى عدم الالتزام ، بل لأداء
المهمة التى من أجلها كان الجيش كله ، وهو أحد جنوده .

إنه يمثل فى عرفنا الحديث طائفة استكشاف عسكرية ، انطلق من الأرض
المباركة بفلسطين ، إلى أقصى الجنوب ، حيث سبأ ، أكثر من ألفى كيلو متر
ذهابا ، ومثلها إيابا .

واجه الموقف بقوة يحسد عليها وقال مخاطبا سليمان — عليه السلام :
﴿ فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ نبأ
يقين ﴾ (١٩) .

شخصية الهدهد فى الخطاب واضحة جدا « أحطت » « جئتك » والثقة
فى عمله قوية « نبأ يقين » وشجاعته فى خطاب سليمان — عليه السلام —
لا يعترها خوف . « بما لم تحط به » شجاعة يحسد عليها هذا الجندى فى جيش
سليمان النبى ، الملك — عليه السلام .

٢ — النبأ اليقين :

قال الله تعالى على لسان الهدهد ، وهو يبين مضمون النبأ اليقين :
﴿ إني وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم ،
وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ﴾ (٢٠) .
إنه شاهد امرأة تملك أهل سبأ ، وقد أوتيت من كل شيء يتصل بهذين
الوصفين :

لأنها امرأة أوتيت جمالا ، وزينة . ولأنها ملكة أوتيت قوة وسلطة ضابطة
لقومها .

(١٩) سورة النمل ، الآية رقم ٢٢ .

(٢٠) سورة النمل ، الآيتان رقما ٢٣ ، ٢٤ .

ولكن للأسف ، وقد حظيت بنعم سابعة عليها لم تتوجه إلى واهبها بالشكر والعبادة ، بل توجهت إلى الشمس هي وقومها فعبدها من دون الله سبحانه . فأى قيمة إذن للإنسان وقد جمع لديه من كل الأمور المادية ، أن يعبد مخلوقاً مثله ؟ بل أدنى منه . فإن الإنسان قد أوتى عقلاً ليفكر فأنى له وقد عبد الشمس المسخرة للإنسان ؟ .

وأحسن الهدهد فداحة هذا الجرم ، فجمع من الأخبار عنه ، وعرضه على النبي سليمان — عليه السلام .

٣ — وعى الجندي :

إن اليد التي تقيض على البندقية ؛ تشدد من قبضها ، إذا امتلأ قلب صاحبها بالإيمان ، والبصيرة النافذة ، والوعى بالأحداث ، والفقه بالأصول العقيدية التي يحارب من أجلها ، ويسعى إلى الشهادة في سبيلها ، وقد قدم إلينا الهدهد نموذجاً من هذا :

— إنه اعتبر السجود للشمس ضلالاً وكفراً ، وازداد الضلال بكونه من أمة بأكملها .

— وعرف أن مصدر إغواء الإنسان من الشيطان .

— وإن الشيطان يزين للإنسان القبيح من الأعمال ، فيجعله جميلاً على الرغم من قبحه .

— ويعلم أن الضلال في العقيدة يصد عن الطريق المستقيم ، والسعادة في الدنيا ، والآخرة .

— ثم هو يضع البديل الواضح ، وهو إذ يعرضه فمن وجهة نظره كجندي مسلم .

— وهذا البديل الحق هو : أن السجود لا يكون إلا لله سبحانه ، ويعرض من الدلائل على صدق هذا البديل الحق ، فيما نشاهد — فهو الذي يخرج الخبء في السموات من نجم ورياح .

— وهو الذى يخرج الخبء فى الأرض من بذرة تنبت ، فتكون شجرة كبيرة .

وهو الذى يعلم ما تخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله شئ فى الأرض ولا فى السماء .

— وإذا كانت امرأة سباً لها عرش عظيم فى نظر الناس ، فالله سبحانه لا إله إلا هو رب العرش العظيم واللائق به سبحانه ، ودونه كل العروش .

إن الجندى الهدهد لم يكن آلة تصوير ، ولا آلة تسجيل فقط ، بل كان فوق هذه وتلك ، ناقدًا واعيًا ، ملركا للمسيرة الإسلامية ، ووظيفة الدولة المسلمة ، وجيشها القوى .

فهل يصيخ العالم الإسلامى إلى هذا الصوت من أعماق التاريخ ؟ ويستفيد من موقف الهدهد الجندى المسلم ، ومن وعيه وإدراكه ؟ .

وفى هذا يقول الله تعالى :

﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل ، فهم لا يمتدون ، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ (٢١) .

وكان التهديد الذى أعلنه سليمان — عليه السلام — من عقابه للهدهد بالعذاب الأليم ، أو القتل قد نسى ولكن شجاعة الجندى المسلم أمام حبل المقصلة هى التى بهرت النفوس .

٤ — التحقق من صحة الدعوى :

قال الله تعالى على لسان سليمان — عليه السلام — مخاطبا الهدهد ، وعلى لسان ملكة سباً أيضاً :

(٢١) سورة النمل ، الآيات من رقم ٢٤ إلى رقم ٢٦

﴿ قال : سننظر . أصدقت أم كنت من الكاذبين ؟ اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ، ثم تول عنهم . فانظر ماذا يرجعون ؟ قالت : يأبىء الملأ ، إني ألقى إلى كتاب كريم ، إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، ألا تعلوا على وأتوى مسلمين ﴾ (٢٢) .

على الرغم من وضوح الدعوى ، وتكامل أطرافها ، وتأکید القائل لها ، فلا بد أن يتحقق القائد ويتبين أمرها على وجه اليقين . فقد ارتبطت هذه الدعوى بأميتين : أمة كافرة مشركة فى سبأ ، وأمة مسلمة ستتحرك تجاه هذا المنكر ، وتؤدب أهله ، أمة تضع المنهج الصحيح فى القضايا والأحكام . إن سليمان - عليه السلام - يعلن : سننظر فى تلك المسألة ، أصدقت ، أم كنت من الكاذبين ؟ وربما يدل التقديم للصدق ، والخطاب بالتاء إشارة إلى الحالة النفسية التى عليها سليمان - عليه السلام - من ترجيحه صدق الهدد . وأيا كان الأمر ، فستحمل الهدد من جديد جزءاً كبيراً من عملية التحقيق ، إنه كلف حمل رسالة إلى أرض اليمن ، يلقيها إلى الملكة ، ولا يدرى فحوى رسالة كلف حملها هذه المسافة البعيدة « اذهب بكتابى » ولم يقل ولو على سبيل التعظيم اذهب بكتابنا . فدلّت العبارة على أن القائد العام هو الذى يعلم دون غيره مضمون الكتاب ، كما دل هذا المضمون من جديد على قوة سليمان - عليه السلام - ؛ حيث وجه أمره صراحة إلى ملكة سبأ ، بأن تأتى إليه مدعنة ومليية . ورأت الملكة طيراً صغيراً ملحقاً فى الفضاء يهبط عليها ، ويلقى إليها رسالة ، فتفرض الرسالة وترى عجباً :

- إنها رأت هذا الطائر ، قد سخر لملك أكبر منها وأعظم .
- ويقوم بتنفيذ الأمر بحيلة وأمانة إلى نفس الشخص المرسل إليه .
- والكتاب من ملك اسمه سليمان ، واستفتحته باسم الله الرحمن الرحيم ، ولم يستفتحته باسمه شأن الملوك المعروفين ، فهو كتاب كريم إذن .

(٢٢) سورة النمل ، الآيات من رقم ٢٧ إلى رقم ٣١ .

- وها هي تقرأ المراد من الكتاب : ألا تخالفوا أمرى لكم ، وأتوني على جناح السرعة مدعين ومستسلمين طائعين .
ورأت الملكة الملابس المتعلقة بالكتاب ، ورأت المضمون بخطورته وقوته ، فكان عليها أن تفكر في الامثال .
٥ - الملكة تناقش أمر الكتاب :

إن هذه المرأة من نمط فريد من الناس ، نمط يستعمل عقله ، وتفكيره إلى حد ما ، ولا يعيبه إلا تغلب الشيطان عليه بالإغواء ، شأن العقلاء من قريش .
الذين تأخر إسلامهم ، ثم هداهم الله سبحانه ، فكانوا من أفضل المسلمين جهاداً ، وقيادة ، فخيرهم في الجاهلية ، خيرهم في الإسلام إذا فقهوا .
وخطب الكتاب القوم جميعاً ؛ لأن الأمر متعلق بهم جميعهم ، وما على الملكة إلا التنفيذ .

وإن كان قد سبق لفرعون مصر الطاغية أن حرم قومه مجرد المناقشة فيما يتعلق بمصيرهم ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ (٢٣) فإن ملكة سبأ كانت على النقيض منه ؛ جمعت سادة القوم في مجلسهم الخاص ، وطرح عليهم المشكلة للمناقشة ، وفي هذا يقول الله تعالى :
﴿ قالت : يا أيها الملأ ، أفتوني في أمرى ، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ﴾ (٢٤) .

واعترفت في بداية النقاش أن هذا الأمر أمرها ، ولكنها قررت على سبيل التأكيد بأسلوب القصر . أنها لا يمكن أن تقطع في أمرها والمتعلق بهم حتى يوافقوا عليه ، ويشهدوا له . ولكن أنى لقوم ذابت شخصيتهم أن تتحرك ألسنتهم إلا بالنفاق ، والعبودية : وفي هذا يقول الله تعالى :

(٢٣) سورة غافر ، الآية ٢٩ .

(٢٤) سورة النمل ، الآية ٣٢ .

﴿ قالوا : نحن أولو قوة ، وأولو بأس شديد ، والأمر إليك ، فانظري ماذا تأمرين ﴾ (٢٥) .

عجيب أمر الجاهلية ، إنها تنطق بلغة واحدة قديماً ، وحديثاً .

منطق الجبن ، والخوف ، والعبودية للبشر الذين لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، إنّ الملكة تعطيهم الحق في المشورة ، ولكنهم يرفضونها ، لأنهم لم يتعودوا رفع الرعوس ، وظلت متصلة على الانحناء للبشر ، فماذا عليكم إذن أيها القوم ، وقد رفضتم الإسهام بإبداء الرأي ؟ عليهم بذل قوتهم ، وإلى أى اتجاه ، معصوى العيون ، لا يدرون إلى أين يسرون ؟ وإلى أين يقاتلون ؟ أو يُقتلون ؟ (٢٦) .

ووقعت الملكة في حيص بيص ؛ تطلب إليهم مناقشة ما جاء بالكتاب ، وهى أصلاً بحاجة إلى هذه المناقشة الشورية ، ولكنهم يرفضون بإصرار ، لا عن معصية لها ، بل عن مزيد من الذل والخنوع للأسف الشديد .

وأصاب الملكة ذعر شديد ، حيث وقفت وحيدة في الميدان ، أمام من هو أعظم منها ملكاً ، وأوسع سلطاناً . وفي هذا يقول الله تعالى :

(٢٥) سورة النمل ، الآية ٣٣ .

(٢٦) في صباح ١٧ من تموز يوليو عام ١٩٥٨ م سمع العالم أنباء انقلاب عسكري ، أطاح بالملكية حيثئذ ، وتلقى هذا النبأ كالملايين من البشر رئيس دولة ووزير خارجيته ، ونائبه ، وقد كانوا بإحدى الدول الأوربية الاشتراكية ، وكانوا متجهين للعودة إلى الوطن ، واضطر الرئيس إلى أن يتعرف على شخصية هذا الانقلاب ، واتجاهه ، ولم يجد بدا من أن يسأل المرافقين له ؛ الوزير ، والنائب ، إن كان لهما رأى في ذلك . وما سبق ليس هو الشاهد هنا .. ولكن السؤال والإجابة كانتا على هذا النحو : أنواصل المسيرة إلى الوطن ؟ أم نغير المسيرة ونظير إلى موسكو ؟ نسألها عن هوية الانقلاب ، ومن قاموا به ؟ ولم يكن من العادة أن يسمع الرئيس ما يخالف رأيه ، وإلا فالويل لمن يخالف . فاتفق كل من الوزير والنائب على إجابة من نوع = غريب . وهى :

﴿ قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون ﴾ (٢٦) .

فالملك سليمان - عليه السلام - يغطي نفوذه مساحة كبيرة من الأرض ، وها نحن قد وقعنا في دائرة نفوذه . ودل كتابه على ذلك .

والشأن بالملوك في نظرها إذا ما دخلوا فاتحين أرضاً ، أن يفسدوا فيها ، لا أن يصلحوا ، وحتى يقيموا لأنفسهم سلطاناً في تلك الأرض يذلون أعزة القوم ، وفي مقدمتهم القائد العام ، وهو هنا الملكة . إن الوضع السياسي سينقلب ، وكذلك الوضع الاجتماعي ، والاقتصادى .. وعلى الرغم من كل هذا لم يتحرك الملأ لما يتعلق بمصيرهم إلا بالذل والهوان .

هؤلاء هم الملوك في نظر ملكة سبأ ، تحركهم المادة ، من أجلها يفتحون البلدان ، وعليها يعيشون ، ولها يسيل لعابهم ، وملوك على هذا النمط تؤثر فيهم الهدايا الضخمة التي تنتفخ بها جيوبهم هم دون شعوبهم المسكينّة الذليلة .

= أيها القائد الزعيم ، اخل بنفسك ، فإلهام العبقريّة سيرشدك حتّى إلى الصواب ، ونحن موافقان على أى الرأيين تختار . وفي صباح اليوم التالى طلعت الصحف بهذا الخبر . وقرأ الشعب المسكين ما قرأ ، وللأسف كان لسان حاله مع الوزير ، والنائب . وأعاد التاريخ قولة العبيد القدامى : « الأمر إليك ، فانظري ، ماذا تأمرين » وقد صنع النائب نفس الصنيع حين تولى الزعامة بعد موت صاحبه ، وقال وزراؤه كل منا لا يتكلم إلا إذا رأى الضوء الأخضر ، ثم مات أيضاً وبدأت كالعادة تظهر فضائح أخرى .

وفي جلسة مجلس الثورة فى ١١ من فبراير سنة ١٩٥٤ م نوقش فيها ، كيف يبعد القادة الأحرار شبح الحكم النيابى ، والحرية للشعب للأسف ، وقد أعطى الأعضاء زعيمهم تفويضاً باتخاذ أى قرار يراه صالحاً دون الاجتماع بالمجلس (ص ٩٣ مذكرات البغدادي ج ١ عن صفحات من التاريخ لصلاح شادى ص ٢٣٦) .

فإن كان من فارق بين مواقف التاريخ ، فالمواقف المعاصرة أشد لؤماً ، وخبثاً ، وأشدّ جنباً من الأتباع الجاهليين .

(٢٦) سورة النمل ، الآية رقم ٣٤ .

وتصور أخى القارئ هدية من ملكة خائفة ؛ من كل شيء ، وعلى كل شيء ، ترسلها مرضاة لمن ترسل إليه ، وهو أعظم منها ، وأكبر ، فكيف تكون هى ؟ الله أعلم ، وفى هذا يقول تعالى :

﴿ وإني مرسله إليهم بهدية ، فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ (٢٧) .

٦ - موقع الهدية فى نفس سليمان - عليه السلام :

جاء رسل الملكة بهديتهم ، فعلم سليمان - عليه السلام - على الفور مغزاها ، والهدف منها ، وكثيراً ما حولت الهدايا المادية مجريات الأمم ، ورسالتها .

قد تكون الهدية فى صورة سبائك من الذهب ، والجواهر .

وقد تكون فى صورة معونة غذائية .

وقد تكون فى صورة سلاح تقليدى ، لا يجدى فى حرب أمام ما استحدث من سلاح .

وقد تكون فى صورة معلومات ، وأسرار إخبارية .

وقد تكون فى صورة وهمية لتعاشى سلمى .

وقد تكون فى معاضدة ضد دولة كبرى لها خطر على الدولة .

وقد تكون فى صورة متع رخيصة . سلاحها العاهرات ، مثل الأفلام الجنسية حديثاً .

وعلى أى حال ، إن محتويات الهدية ، التى لم يصرح القرآن بها ، غالباً ما تكون فى الحيز المادى وبعيدة عن الجوهر السامى الذى تقوم عليه دولة الحق (٢٨) .

(٢٧) سورة النمل ، الآية رقم ٣٥ .

(٢٨) « فى سنة ١٩٠٠ دخل قره صو أفندى على السلطان (عبد الحميد) بفضل الفريق عارف بك ، وأبلغه ؛ أنه موفد من قبل الجمعية الصهيونية ، وأنه قادم يطلب إليه إعطاء تلك الجمعية الأراضى الواقعة فى المثلث القائم ، ما بين يافا ، وغزة ، والبحر الميت ، مقابل خمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية تدفعها الجمعية الصهيونية هدية إلى

الخزينة السلطانية الخاصة ، وعشرين مليوناً ، تعرضها الجمعية إلى الحكومة دون فائدة لمدة تعينها الحكومة ..

فغضب السلطان ، وطرده من حضرته .

فقد كان السلطان عبد الحميد . قد أصدر فرماناً في ١٨٨٨ بمنع الهجرة الجماعية اليهودية إلى أراضي الدولة العثمانية ، ومنها فلسطين ، كذلك قرر عدم السماح للحجاج اليهود بالبقاء أكثر من ثلاثة أشهر في فلسطين .

وعلى أثر طرده قره صو أفندى ألف اليهود جمعية سرية أكثر أعضائها من اليهود المعروفين بالدوثة .. والدوثة كما هو معروف ، لقب يطلقه الأتراك على جماعة اليهود ، الذين هاجروا من أسبانيا ، واستوطنوا « سلانيك » وهم طائفة يتظاهر أفرادها بالإسلام مع احتفاظهم باطناً بالدين اليهودي (بمجرد نجاح المؤامرة ، واستيلاء تنظيمهم على السلطة بقيادة مصطفى كمال أتاتورك ، أعلنوا يهوديتهم التي أخفوها أربعة قرون) ومنهم جاويد بك ، وبعض كبار رجال الاتحاد والترقي ، فاتصلت بأحرار الترك ، ودخل أعضاؤها حزب الاتحاد والترقي ، وتعاونوا مع كثيرين من شبان الضباط كأتانور ونيازی ، وكانت لهم اليد الطولى في الانقلاب وخلع عبد الحميد .

ومما يؤسف له أن الأحرار لم يختاروا لتبليغ قرار الخلع إلى عبد الحميد غير عمانوئيل قره صو أفندى ، زعيم يهود « سلانيك » الذي طرده عبد الحميد - قبل ربع قرن - ورفض هديته .

ألا ما أبشع اليوم أن نقف ضد عبد الحميد ومع عمانوئيل قره صو !! .

ولا ننسى أن عبد الحميد ، رفض توقيع اتفاقية تسليم البترول العراق للإنجليز . وكان توقيعها من باكورة أعمال الاتحاديين ، عند وصولهم إلى السلطة بعد الانقلاب .

كتاب القومية والغزو الفكري ص ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، والفهرس ، نشر مكتبة الأمل بالكويت ، محمد جلال كشك . نقلا عن كتاب خطر الصهيونية على الإسلام والمسيحية ، وعن الأهرام ٢٤ / ٢ / ١٩٢٠ ، ٦ / ٣ / ١٩٢٠ نقلا عن يوميات الإمام محمد شاکر ، بقلم الشيخ على شاکر .

ويكون الملك أو الحاكم . أيا كان الاسم أمام امتحان عنيف : أيقبلها ويرجع عن قراره ؛ حيث الرخاء المؤقت ، والأمن المزيف ، أم يرفضها ، ويصر على دعوة الحق ؟ .

وليس هناك من أى شك أن سليمان - عليه السلام - كان من الصنف الثاني .

وعلى درب الأنبياء الكرام . الحكام الصالحون ، الذين يأخذون بلوهم إلى بر الأمان . .

رد سليمان - عليه السلام - إلى ملكة سبأ هديتها ، فالحمد لله سبحانه قد أعطاه خيراً منها ، وقرر الزحف إليهم بجنود لا قبل لهم بها ، يذل بهم أعداء الله سبحانه .

وفرق بين ذلة إفساد ظنتها الملكة حسب ما ألفته من ملوك الدنيا ، وذلة المادى الملحد الذى اتخذ الهدايا وسيلة لتطويع الشعوب ، وتحويل مسيرتها ، وتنكيس غاياتها قال الله تعالى :

﴿ فلما جاء سليمان قال : أتعدونن بما لى ؟ فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون ، ارجع إليهم ، فلنأتينهم بجنود ، لا قبل لهم بها ، ولنخرجهم منها أذلة ، وهم صاغرون ﴾ (٢٩) .

تلك هدية مطلع القرن العشرين ، وهى على فلاحتها وعظم الجرم فيها أهون بكثير من هدايا توالى رزاياها على الأمة وابتلعها ملاء القوم باستساعة ، ولا زالت حتى الآن . والله أعلم بالمستقبل . وهى امتداد - مع مزيد من الخبث - للأسلوب ذاته الذى اتخذته ملكة سبأ فى إرسال هديتها إلى سليمان - عليه السلام .

ولكن سليمان نبي الله سبحانه عصمه ربه أن يكون إلا حيث إقرار الأمن والأمان فى الأرض ، فى ظل شريعة الحكيم الخبير شريعة الحق الذى توازره القوة بكل أنواعها ، وألوانها .

(٢٩) سورة النمل ، الآيتان رقما ٣٦ ، ٣٧ .

وقد علم سليمان - عليه السلام - أن مثل هذه الرسالة ، ستزيدهم خوفاً على خوف وجبنا على جبن ، وسيتحركون مرغمين ملين مضمون الكتاب الأول :

﴿ ألا تعلوا على ، وأتوني مسلمين ﴾ (٣٠) .

ولذا بدأ يهئ أمر استقبالها ، دون أن تخبره الملكة بذلك ، ولكن هذا الاستقبال من نوع فريد في تاريخ البشرية كلها .

٧ - العفريت الذى عنده علم من الكتاب :

طوت الآيات الكريمة توضيح الأثر لرفض الهدية ، والرد الحازم والحاسم ، والأثر النفسى الذى ملك على الملكة ، والملا جميعاً نفوسهم ، فالسياق ، والسباق ، واللاحق تؤكد أن الأثر كان بالغاً لدرجة أنها لم تقو على أدنى مخالفة لما طلب إليها سلفاً ، وعزمت على الانتقال من أقصى الجنوب ، حيث سبأ اليمن ، إلى أقصى الشمال ، حيث أقصى المبارك .

وفى مجلس نبي الله سليمان - عليه السلام - كان حوار ، ذكرته آيات كريمة ، قال تعالى :

﴿ قال : يأيتها الملا ، أياكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ؟ قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإنى عليه لقوى أمين ، قال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده ، قال : هذا من فضل ربي ، لييلوني ؛ أشكر أم أكفر ؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر ، فإن ربي غنى كريم . قال : نكروا لها عرشها ننظر ، أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون ؟ ﴾ (٣١) .

(٣٠) سورة النمل ، الآية رقم ٣١ .

(٣١) سورة النمل ، الآيات من رقم ٣٨ إلى رقم ٤١ .

موضوع الحوار فى هذه الآيات السابقة هو إثبات أن ما أعطاه الله سبحانه ، لنبيه سليمان - عليه السلام - فوق ما تخيله الملكة .. .
والوسيلة لإثبات ذلك ؛ هى نقل عرشها من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال فى لمح البصر ، أى قبل أن تحضر هى مع ملئها .
فكيف تم ذلك ؟ .

- طلب سليمان - عليه السلام - إلى جنوده من الجن . من يستطيع أن يحضر عرش الملكة قبل أن يأتونى مسلمين ؟ .
- ويتضح بدءاً أن تلك القوة المعطاة لنبي الله سبحانه ، مسخرة لهداية البشرية إلى الإسلام لا للإفساد فيها ، كما زعمت الملكة قبل ذلك .
- العفريت الأول الذى أراد أن يتحمل إحضار عرش الملكة بين :
أنه يستطيع إحضار العرش ، قبل أن يقوم سليمان - عليه السلام - من مقامه .

وأن لديه القوة والكفاءة اللازمة لتنفيذ هذا الأمر العسكرى .
وأنه أمين على العرش ؛ يحفظه من الخلل ، ويمنعه من الانتفاص (٣٢) .

(٣٢) تأمل أيها القارئ ما ذكر هنا على لسان العفريت ﴿ وإني عليه لقوى أمين ﴾ وما ذكر فيما سبق على لسان إحدى فتاتى شيخ مدين بشأن موسى - عليه السلام : ﴿ ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ (القصص ٢٦)
وما ذكر على لسان يوسف - عليه السلام - بعد خروجه من السجن ، وتقريب الملك له : ﴿ قال : اجعلنى على خزائن الأرض ؛ إني حفيظ عليم ﴾ (يوسف ٥٥) تر فى ضوء الآيات المتقاربة الآتى :

١- حين يكون العمل بحاجة إلى جهد عضلى ، وقدرته تتناسب والعمل فلا بد من صفتين :

(١) القوة . (ب) الأمانة ؛ فالقوة للقيام بالعمل فعلاً ، والأمانة حتى =

ولكن هذا في نظر سليمان - عليه السلام - وقت طويل ، فقد يعنى هذا العفريت ساعة أو اثنتين ، وفي ضوء ما ذكره « قبل أن تقوم من مقامك » وقد يأخذ مقام نبي الله سبحانه هذه المدة أو قريبا منها .

وبرز في هذا الحين العفريت الذى عنده علم من الكتاب ، وهو اسم الله الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، فعن بريدة - رضى الله عنه - قال : سمع النبي - ﷺ - رجلاً يدعو ، وهو يقول : اللهم ، إني أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله ، لا إله إلا أنت ، الأحد ، الصمد ؛ الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

قال : فقال :

« والذى نفسى بيده ، لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » (٣٣) .

= لا يكون غش ، أو إهمال ، أو خيانة ، أو إفساد لآلة مثلاً ، أو سرقة ، فإذا فقدت الأمانة أصبحت الفائدة من القوة معلومة . والأمانة التى ذكرت على لسان العفريت ، سيظهر أثرها بعد قولها ، والذى سيحاسبه على تقصيره فيها هو سليمان - عليه السلام - ، أما الأمانة التى وردت بشأن موسى - عليه السلام - فقد جريت في عالم الواقع عند البئر ، فقول الفتاة إذن بمثابة الشهادة لمن يستحقها .

٢- وحين يكون العمل بحاجة إلى جهد ذهنى ، تصير الكفاءة العلمية بديلة للقوة العضلية ، وتبقى الأمانة صفة لازمة لأى عمل ، كما تدل عليه الكلمة « حفيظ » فيما ورد على لسان يوسف - عليه السلام .

(٣٣) رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه . وقال الترمذى : قال شيخنا أبو الحسن المقدسى : هو إسناد لا مطعن فيه ، ولا أعلم أنه روى في هذا الحديث أجود منه ، وقال الحافظ ابن حجر : هذا الحديث أرجح ما ورد في هذا الباب من حيث السند .

واختلف العلماء في تعيين اسم الله الأعظم ، والراجح من أقوالهم أنه دعاء مؤلف من عدة أسماء من أسمائه سبحانه ، إذا دعا به الإنسان مع توفر شروط الدعاء

قال هذا العفريت مخاطباً نبي الله سبحانه ، سليمان - عليه السلام :

﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ أى امدد بصرك ، فلا يبلغ مداه حتى آتيك به ، ويكون العرش حاضراً عندك ، دون انتقاص لأى جزء منه .

ورأى سليمان - عليه السلام - العرش مائلاً أمامه ، فتوجه إلى الله سبحانه بالشكر ، فالشكر لله سبحانه على نعمه ، سبيل إلى امتدادها ، وسبيل إلى مرضاة الوهاب الرزاق ، سابغ النعم ، أما كفران النعمة ، والعياذ بالله سبيل إلى غضب الله العزيز الجبار ، والغنى عن عباده ، فسوف لا تزيد طاعة الطائعين ، ولا تنقصه - سبحانه - معصية الجاحدين ، والمرء أمام هذه النعم فى ابتلاء واختبار ، يفوز أو يكون من الهالكين .

عن أبى ذر الغفارى - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال :

« يا عبادى ، إني حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا ، يا عبادى ، كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم . يا عبادى ، كلكم جائع إلا من أطعمته . فاستطعموني أطعمكم . يا عبادى ، كلكم عار إلا من كسوته . فاستكسبوني أكسبكم . يا عبادى ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم . يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا ضرى فتضروني . ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكي شيئاً ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم

= المطلوبة شرعاً استجاب الله له ، وليس هو سرا من الأسرار الذى يعطيه الله لبعض الأفراد ، فتتحرق لهم العادات ، ويحققون ما يعجز غيرهم عن تحقيقه ، ولا ينبغي أن نزيد شيئاً فى كتاب الله سبحانه ، وسنة رسوله - ﷺ . (العقائد الإسلامية للشيخ فنيك سابق . موضوع : اسم الله الأعظم ص ٣٠ ، ٣١) .

وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر . يا عبادى ، إنما هى أعمالكم ، أحصيا لكم ، ثم أوفىكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله عز وجل ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (٣٤) .

٨ - الملكة فى الأرض المباركة :

جاء من عنده علم من الكتاب بعرض الملكة إلى الأرض المباركة ، وصار فى حوزة سليمان - عليه السلام - فطلب إلى جنوده تمويه هذا العرش بتغيير بعض صفاته ، ويلاحظ أن التغيير هنا بأمر سليمان - عليه السلام - ولم يكن انتقاصاً منه بالطريق ، كما نلاحظ الغاية منه ، وهى اختبار ذكاء الملكة حين تراه ، بعد أن تحضر .. وقد وضع هذا العرش فى صرح ممرد من قوارير .

وجاءت الملكة فرأت مشهداً لم يخطر على بالها أبداً ، رأت عرشاً عظيماً فى صرح حسبت أرضه لجة .

قيل لها : أهذا العرش الذى تشاهدينه مثل عرشك الذى تتباهين به ، وتجلسين عليه فى سبأ ؟ ولم يكن السؤال على نحو « أهذا عرشك » لأمرين :

١ - أنه نكر ، وغيرت بعض صفاته .

٢ - التمهيد لما سيأتى بعد ذلك مما هو أعجب .

(٣٤) أخرجه مسلم ، المختصر ، كتاب الظلم ، باب فى تحريم الظلم ، والأمر بالاستغفار والتوبة رقم ١٨٢٨ ض ٣٤٣ ج ٢ ورد عقبه . قال سعيد : كان أبو إدريس الخولاني إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه ، واختاره النووي فى الأربعين النووية رقم ٢٤ . وعزاه أيضاً زين الدين المنلاوى إلى أبى عوانة ، وابن حبان والحاكم . فى الإتحافات السننية بالأحاديث القدسية رقم ٤٨ ص ٣٨ ، ٣٩ .

وكانت الملكة ذكية في إجابتها ؛ فلم تقل إنه هو لأسباب منها :

١ - ما تشهد من مخالفة صغيرة .

٢ - استحالة نقله في نظرها .

٣ - أنها تركت العرش وراءها في ملكها ، والمدة الوجيزة لا تكفى لنقله ، لو كان نقله ممكناً .

وللأسباب السابقة ، قالت : كأنه هو ، ولم تقل : إنه هو .

ثم قال سليمان - عليه السلام - إنه أوتي العلم منذ أن أرسله الله سبحانه ، وقد أنعم عليه بالإسلام . أما هي وحتى هذه اللحظة فقد حَجَبَ عنها العلم والخير شركها بالله سبحانه . وفيما سبق يقول الله تعالى :

﴿ فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو . وأوتينا العلم من قبلها ، وكنا مسلمين ، وصددها ما كانت تعبد من دون الله ، إنها كانت من قوم كافرين ﴾ (٣٥) .

وطلب إلى الملكة أن تدخل الصرح ، وقد كانت تظن ألا يملك أحد غيرها أكثر منها ، وحين همت بالدخول ، وقد رأت في أرضه شكل أمواج ، هي والحقيقة سواء ، لصفاتها ودقة إحكام صنعها فما داخل نفسها أى شك في أنها أمواج ، وعلى الفور شممت عن ساقها ؛ حتى لا تبطل ثيابها بالماء ، وعزمت على الدخول تلبية لأمر سليمان - عليه السلام - فقليل لها : إنها ليست بأمواج حتى ترفعى ثيابك ؛ إنه صرح ممرد من قوارير شفافه راقية .

رأت الملكة بعينها مدى العظمة التي يعيش فيها سليمان - عليه السلام - وعلمت منه أن هذا كله من فضل الله سبحانه عليه وعلمت أن القوم جميعاً مسلمون موحدون لا يعبدون إلا الله ولا يشركون به أحداً . فأعلنت إسلامها ، واعترفت بأنها قد ظلمت نفسها في سابق عهدها ، وما كان لها أن تفعل ذلك ، وفي

(٣٦) سورة النمل ، الآيتان : ٤٢ ، ٤٣ .

هذا يقول الله تعالى :

﴿ قيل لها : ادخلي الصرح ، فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقها ، قال : إنه صرح ممرد من قوارير . قالت : رب إنى ظلمت نفسى ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ (٣٦) .

أما أبرز الأسباب التى دعت الملكة إلى الإسلام فيمكن أن تكون :

- أنها رأت اثثار الطير بأمره ، حين جاء الهدهد بالكتاب .
- ورأت أنّ سليمان - عليه السلام - لا يتحول عن هدفه بالعطايا ، والهبات .

- وأن هدفه هو إخضاع الناس لرب الناس ، لا للشمس ، ولا للقمر .
- وأنه قد ملك من متاع الدنيا فوق ماتتصور .
- وأن هذا المتاع سخر لطاعة الله سبحانه ، وليس سبيلا لطغيان .
- ولذا كان إسلامها أن تقول : أسلمت مع سليمان ، وليس لسليمان ، وإسلامها لله ، وليس لشمس أو قمر .

- وهذا الإله هو الرب للعالمين ، ولا رب سواه ، ويجب أن يخضع له - دون غيره - البشر أجمعون .

(ج) - تسخير الجن :

سبق جانب من هذا فى قصة الهدهد ، تسخير الجن ، لإحضار عرش الملكة ، وحين بناء الصرح الممرد من القوارير ؛ تنفيذاً لأمر الملك سليمان - عليه السلام ، وقد سخرهم - عليه السلام - أيضاً فى جوانب أخرى ، وفى هذا يقول الله تعالى :

(٣٦) سورة النمل ، الآية ٤٤ .

﴿ومن الشياطين من يفوضون له ، ويعملون عملاً دون ذلك ، وكنا لهم حافظين﴾ (٣٧) .

وقال أيضاً :

﴿والشياطين كل بناء ، وغواص ، وآخرين مقرنين في الأصفاد ، هذا عطاؤنا ، فامنن ، أو أمسك بغير حساب ، وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ (٣٨) .
وقال :

﴿ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب ، وتماثيل ، (٣٩) وجفان

(٣٧) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٨٢ .

(٣٨) سورة ص ، الآيات من رقم ٣٧ ، إلى رقم ٤٠ .

(٣٩) ربما لم تكن محرمة في شريعة سليمان - عليه السلام - كما قال الحسن . وقد حرمت في شريعتنا سداً للذريعة ، لئلا تعبد من دون الله (صفوة التفاسير ، للصابوني) . فإذا كانت ضرورة أو حاجة مع الأمن من تقديسها كانت مباحة بمقدار الضرورة والحاجة فقط ، ومما ورد بشأن هذه الحاجة .

عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : كنت ألعب بالبنات عند النبي - ﷺ - وكان لى صواحب يلعبن معى ، فكان رسول الله - ﷺ - إذا دخل يتقمعن منه (أى يهرين ، ويخفن) فيسر بهن إلتى ، فيلعبن معى « صحيح البخارى ، كتاب الأدب ، باب ، الانبساط إلى الناس . ج ٨ ص ٣٧ ، وعزاه أيضاً صاحب - مفتاح كنوز السنة إلى الإمام أحمد ، وأبى داود ، وابن سعد ص ٣٢٥ .

وعن الربيع بنت معوذ - رضى الله عنها - قالت : أرسل النبي - ﷺ - غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار « من أصبح مفطراً فليتم بقية يومه ، ومن أصبح صائماً فليصم » قالت : فكنا نصومه بعد ، ونصوم صبيانا ، ونجعل لهم اللعبة من العهن ، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك ، حتى يكون عند الإفطار . أخرجه الشيخان ، كتاب الصيام ، باب ، من أكل في عاشوراء فليكف بقية يومه . رقم ٦٩٦ ص ٢٥٢ .

كالجواب ، وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكراً ، وقليل من عبادى
الشكور ﴿٤٠﴾ .

وفى ضوء الآيات الكريمة السابقة نرى :

- أن القائد العام للدولة الإسلامية جمع فى يده - بإذن الله سبحانه -
كل أسباب القوة ، وأنها قد سخرت لصالح الأمة ، ولم تكن الأمور فوضى تسير على

والشاهد فى الحديثين : « البنات » التى كانت تلعب بها عائشة - رضى الله
عنها - وهى صغيرة مع صواحبها وإقرار النبى - ﷺ - ذلك . وأيضاً : « ونجعل
لهم اللعبة من العهن ، أى من الصوف لشغل الصغار عن التفكير فى الطعام حتى
المغرب .

قال الشيخ ناصر الدين الألبانى فى كتابه آداب الزفاف فى السنة المطهرة .
الطبعة الثالثة ص ١٠٨ بعد ذكره هذين الحديثين : فقد دل هذان الحديثان على جواز
التصوير ، واقتناؤه ، إذا ترتبت من وراء ذلك مصلحة تربوية تعين على تهذيب
النفس ، وتثقيفها ، وتعليمها ، فيلحق بذلك كل ما فيه مصلحة للإسلام ، والمسلمين
من التصوير ، والصور ، ويبقى ما سوى ذلك على الأصل ، وهو التحريم ، مثل
صور المشايخ ، والعظماء ، والأصدقاء ، ونحوها ، مما لا فائدة فيه . اهـ

هنا ، ومما ورد من الأحاديث المحرمة للصور والتماثيل المستثنى كما سبق :

قال أبو طحله - رضى الله عنه : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول :
« لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ، ولا صورة تماثيل » أخرجه الشيخان . اللؤلؤ
والمرجان . كتاب اللباس والزينة ، باب ، لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ،
ولا صورة . رقم ١٣٦٣ ص ٥٤٧ ، وفى الباب أيضاً أحاديث عن عائشة ، وابن
عمر ، وابن عباس ، وأبى هريرة - رضى الله عنهم - فى نفس المرجع .

ومن أراد المزيد فى هذا المبحث فليرجع إلى الحلال والحرام للدكتور يوسف
القرضاوى وآداب الزفاف للشيخ ناصر الدين الألبانى . ففيهما فوائد جلية . والله
أعلم .

(٣٩) ، (٤٠) سورة سبأ ١٢ ، ١٣ .

عواهنها ، بل كانت مضبوطة محكمة بيده كما تدل عليه « يغوصون له » « هذا عطاؤنا » أى هذا عطاؤنا لك ، « يعمل بين يديه بإذن ربه » « يعملون له » .

- تسخيره للجن كان فى الميدان الذى لا يستطيع أن يقوم به غيرهم ، فقد كلف كلا حسب كفاءته ، وقدرته ؛ وهذا من وضع الأمور فى نصابها ، واختيار الشخص المناسب فى المكان المناسب .

- وأن تسخير الجن بلغ الدرجة الكبرى فى ذلك ؛ فهو يملك أمرهم - بإذن الله سبحانه - كما أنه يملك عقاب من يتمرد على الأوامر بالحبس ، والقيود فى الأصناف ، وإذاقته العذاب .

- ومن ميادين العمل للجن :

(أ) ما سبق فى قصة الهدهد وملكة سبأ من بناء الصروح ، ونقل ما لا يستطيع غيرهم نقله مثل عرش الملكة .

(ب) الغوص فى الماء ؛ بحثاً عن كنوزه ، وأسراره ، مثل الأسماك بألوانها ، وأنواعها ، واللآلئ والمرجان ، ومغاراته ، ونباتاته ، ودرجات عمقه من مكان إلى آخر .

(ج) العمل الصناعى ، فى بناء المحارِب للعبادة ، والتماثيل المصورة ، والأحواض للماء ، والقصور الثابتة . على نحو يفوق عمل الإنسان .

(د) تسخير الريح :

قال الله تعالى :

﴿ ولسليمان الريح عاصفة ، تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ، وكنا بكل شئ عالمين ﴾ (٤١) .

وقال أيضاً :

(٤١) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٨١ .

﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ، ورواحها شهر﴾ (٤٢) .

وقال :

﴿فسخرونا له الريح ، تجرى بأمره رخاء حيث أصاب﴾ (٤٣) .

وفي ضوء الآيات الكريمة نرى :

- أن الدائرة التي كانت خاضعة لنفوذ سليمان - عليه السلام - بمقدار تحرك الريح العاصفة لمدة شهر غادية ، وشهر آخر رائحة . مع العلم بأن الرياح العاصفة تزيد عن خمسين كم في الساعة ، وعلى وجه التقريب تكون النقطة البعيدة التي تقع في دائرة النفوذ على هذا النحو : $٥٠ \times ٢٤ \times ٣٠ = ٣٦,٠٠٠$ كم تقريباً من كل جهة من الجهات الأربع .

- وأن هذه الريح تتحرك به لينة رخية ليبلغ ما يريد ﴿تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾ .

- وأن المركز الذي تنطلق منه ، وتأتى إليه هو الأرض التي باركها الله سبحانه ، وهى أرض فلسطين .

- وأن كل شيء من ذلك وفق علم وتخطيط من العليم الخبير سبحانه وتعالى .

(هـ) الجياد :

قال الله تعالى :

﴿ووهبنا لداود سليمان ، نعم العبد ؛ إنه أواب ؛ إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد . فقال : إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي ، حتى توارت بالحجاب . ردها على . فطفق مسحاً بالسوق ، والأعناق ، ولقد فتنا

(٤٢) سورة سبأ ، الآية رقم ١٢ .

(٤٣) سورة ض ، الآية رقم ٣٦ .

سليمان ، وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب . قال : رب اغفر لي . وهب لي ملكا ، لا ينبغي لأحد من بعدي ؛ إنك أنت الوهاب ﴿ ٤٤ ﴾ .

وتشير الآيات الكريمة السابقة إلى سلاح آخر بجيش سليمان - عليه السلام - إنه سلاح الخيل المعد للقتال ، وإعدادها من حيث دربتها على السرعة ، والقوة ، والكثرة . كما أنها جميلة حتى وصلت بمجموع هذه الصفات إلى درجة شغلت بها سليمان عن ذكر الله سبحانه .

وقد عبر سليمان - عليه السلام - عن الخيل بالخير ، لأنها من أسبابه .

فمن عروة البارقي (٤٥) - رضى الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال :

« الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة . الأجر ، والمغنم » (٤٦) .

وذلك الخير كان تحت إمرة النبي الملك سليمان - عليه السلام - كما يطلب أن يكون تحت إمرة الصالحين من أبناء الأمة .

وبقية الآيات في أمر الجياد تناول :

- أنها من كثرتها شكلت عرضاً عسكرياً أمام سليمان - عليه السلام .

- وقد بلغت عدداً كبيراً أن أخذت وقتاً طويلاً ، حتى بعد غروب الشمس .

(٤٤) سورة ص ، الآيات من رقم ٣٠ إلى رقم ٣٥ .

(٤٥) هو عروة بن عياض بن أبي الجعد البارقي ، ذكره ابن عبد البر ، وكان استعمله عمر

على قضاء الكوفة ، وضم إليه سليمان بن ربيعة قبل أن يستقضى شريحاً . قال

ابن حجر إن كان محفوظاً فهو ابن أخي عروة بن أبي الجعد الماضي ، ومنهم من

جزم بأنه هو ، وكان في دار عروة سبعون فرساً . الإصابة ج ٣ ص ١٠٥

رقم ٦٤٢٢ . والاستيعاب هامش الإصابة ج ٣ ص ١١١ .

(٤٦) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإمارة ، باب الخيل في نواصيها الخير ،

رقم ١٢٢٧ ص ٤٩١ ، وفي باب أيضاً عن أنس بن مالك ، وابن عمر - رضى الله

عنهم أجمعين .

- وحين غابت عنه (الشمس ، أو الجياد) وتوارت بالحجاب ، تذكر
أمراً واجبا عليه ، وقد فات وقته فأحس الندم .
- طلب سليمان - عليه السلام - إلى جنوده أن يردوا عليه جياده التي
كانت السبب في شغله عن ذكر ربه سبحانه ، فبدأ يذبها كحركة عملية في
الرجوع إلى الله سبحانه والتوبة إليه .

- وكانت فتنة لسليمان - عليه السلام - واختبار له ، سرعان ما تاب
ورجع إلى ربه سبحانه ، وقبل الله توبته ، فوهبه ملكا لا ينبغي لأحد من بعده .
وبذلك نرى أن جيش سليمان - عليه السلام - قد تكون من :

- ١ - الإنس ، وهم الجنود العاديون .
- ٢ - الجن ، وهم يقومون بما لا يمكن أن يقوم به الإنس .
- ٣ - الطير ، ويقوم بلور الاستطلاع ، والاستكشاف ، وما يشبه ذلك .

- ٤ - الريح ، وتحمل ما يرى سليمان - عليه السلام - حمله عليها .
 - ٥ - الجياد ، وهي لاستعمال الإنس قادة ، أو جنوداً .
- وكل هذه الفرق في سبيل الله سبحانه تستخدم ؛ فلم يكن هذا الجيش على
ضخامته مدعاة لغرور ، واستعلاء على الناس ، واستبداد بهم ، بل كان سبيلاً إلى
الشكر والحمد .

قال الله تعالى :

﴿ اعملوا آل داود شكراً ، وقليل من عبادي الشكور ﴾ (٤٧) .
﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني
كريم ﴾ (٤٨) .

(٤٧) سورة سبأ ، الآية رقم ١٣ .

(٤٨) سورة النمل ، الآية رقم ٤٠ .

فتنة سليمان - عليه السلام :

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال :

« قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله ، فقال له صاحبه : إن شاء الله . فلم يقل . ولم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً إحدى شقيقه (أو أحد شقيقه) فقال النبي - ﷺ : لو قالها لجاهدوا في سبيل الله » (٤٩) .

ويتضمن هذا الحديث جملة أمور خاصة بسليمان - عليه السلام .

- رغبته الشديدة في إيجاد جيل صالح قوى يجاهد في سبيل الله سبحانه ، وهذا ما يجب أن يكون من كل مسلم باختيار الزوجة الصالحة ، والتربية الصالحة ، وذكر الله سبحانه وتعالى .

- تقديم النصيح لكل مسلم ، فهذا صاحبه ، يلفت نظره إلى ما يلزم عليه أن يقوله ، على الرغم من العظمة التي كان عليها سليمان - عليه السلام .

- وأن ذكر الله سبحانه يجنب الإنسان الضر ، ويبارك به في النرية .

فعن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : قال النبي - ﷺ :

« أما لو أن أحدهم يقول حين يأتي أهله : باسم الله ، اللهم جنبني الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا ، ثم قدر بينهما في ذلك ، أو قضى ولد لم يضره شيطان أبداً » (٥٠) .

(٤٩) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإيمان ، باب الاستثناء رقم ١٠٧٣ ص ٤٠٩ ، وفي الباب حديث آخر ، الصاحب فيه مالك والبخارى . كتاب الأنبياء ، باب ، ووهنا لداود سليمان ، ج ٤ ص ١٩٧ كما ذكره أيضاً في النكاح ، والأيمان والنور ، والاستثناء في الأيمان ، والتوحيد (فهارس البخارى - محمد محمود رضوان) .

(٥٠) أخرجه البخارى ، كتاب النكاح ، باب ما يقول الرجل إذا أتى أهله ج ٧ ص ٢٩ ، ٣٠ ، وعزاه أيضاً الشيخ ناصر الدين الألبانى في آداب الرفاف ص ٢٤ إلى أصحاب =

هذا وقد سبق التعبير عن الفتنة في أمر الجياد قال تعالى :

﴿ ولقد فتنا سليمان ، وألقينا على كرسيه جسداً ، ثم أناب . قال : رب اغفر لي ، وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي ، إنك أنت الوهاب ، (٥١) .

فيجوز أن يكون ما يتضمنه الحديث بيانا وتفسيراً لما أشارت إليه الآية الكريمة ، ولا يمنع أيضاً أن تكون الفتنة قد تكررت مرتين ، الأولى حين شغلت الجياد سليمان - عليه السلام - عن ذكر الله سبحانه ، والثانية ما صرح به الحديث بشأنها . والله أعلم بالصواب .

علمه بمنطق الثمل :

إن جيش سليمان - عليه السلام - أحس وجوده كل من بالأرض آتخذ ، فيها هي الريح العاصفة اتسعت دائرة وظيفتها ، وها هو الطير الصغير يعلم بشأن الملكة في سبأ ، وها هو الجن يجوب أعماق البحار والمحيطات ، وقوفاً على أسرارها . . .

وفي استعراض عسكري لكل الفرق العاملة في جيش سليمان - عليه السلام - اشتركت حشرات الأرض ، مشاهدة له ، وإعجاباً به ، وضرب المثل بأصغر هذه الحشرات - من حيث رؤية الإنسان بالعين المجردة - للدلالة على ما هو أكبر . ضرب المثل بالمثل الصغير . قال الله تعالى :

﴿ حتى إذا أتوا على وادي الثمل . قالت غملة : يا أيها الثمل ، ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان ، وجنوده ، وهم لا يشعرون * فتبسم ضاحكاً من قولها ، وقال : رب ، أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي ،

= السنن ، إلا النسائي ففي « العشرة » والطبراني .
(٥١) سورة ص الآيتان رقما ٣٤ ، ٣٥ .

وعلى والدى ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك
الصالحين ﴿٥٢﴾ .

كأن إحدى النمل قائمة على ثغر من ثغور الوادى ؛ تحرسه ، وتنذر قومها
إذا ما أحست قلوب غريب عنهم ؛ فهى التى قامت بالإندار حين رأت
سليمان - عليه السلام - وجيشه وإذا ما كانت هذه النملة على مثل هذه الصفة ،
فلقومها مساكنهم ، وحصونهم الخاصة التى تحميهم من المغير عليهم ، أو من مار
لا يدرى عنهم شيئاً ، وتلك المساكن جهزت لهم ، لا لغيرهم « مساكنكم » .

ولم كان الإنذار ؟ مخافة هذا الهجوم غير المقصود ، وعلى الرائد المنذر أن
يحذر أبناء قومه من مغبة السكون ، وعدم الحركة ، وينصحهم بالتحصن ،
والحركة ، ففى الحركة نجاة ، وفى الجمود موت ، وهلاك ، ولكنها ترفع اللوم عن
سليمان - عليه السلام - وتبعد عنه تعدد الإضرار بالآخرين ﴿٥٣﴾ وهم
لا يشعرون ﴿٥٤﴾ أى ولو شعروا بوجودنا لتغير الحال ، فالقائد نبى ، والنبي مصلح
فى الأرض ، ويجنب الكائنات من الهلاك ، وعلى درب الأنبياء يسير الصالحون
الأتقياء .

أليست هذه أمة فى الأرض تحافظ على كيانها ، ووجودها آمنة مطمئنة ،
يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ؟ أليست أمة النمل هذه مجالاً للتأمل والنظر ،
وقد أمرنا أن نسير فى الأرض لهذا ؟ قال تعالى :

﴿ قل : سيروا فى الأرض ، فانظروا ، كيف بدأ الخلق ؟ ثم الله ينشئ
النشأة الآخرة إن الله على كل شئ قدير ﴾ (٥٣) .

وشاهدنا فى اعتبار النمل أمة ، وأن هذه الأمة تسبح بحمد ربها ، وأن لهذه
الأمة مساكن وقرى :

(٥٢) سورة النمل ، الآيتان رقم ١٨ ، ١٩ .

(٥٣) سورة العنكبوت ، الآية رقم ٢٠ .

عن أنى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول :

« قرصت غملة نيبا من الأنبياء ، فأمر بقرية النمل فأحرقت . فأوحى الله إليه : أن قرصتك غملة أحرقت أمة من الأمم تسبح » (٥٣) .

والشاهد فى قوله : « بقريه » « أمة » « تسبح » .
ويقول الله تعالى :

﴿ وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شئ ، ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ (٥٤) .

والشاهد فى قوله : « أمم أمثالكم » .

وأمة النمل هذه تعرف :

كيف تحمى نفسها ؟ .

وكيف تبنى مساكنها ، وقراها ؟ .

وكيف تميز خصمها من غيره ؟ .

وكيف تتعرف على تحركاته ؟ .

وكيف تترك من يريد التحطيم عن قصد ؟ ومن يقع التحطيم منه عن غير قصد ؟ .

وهذه المساكن هيئت للإقامة ، والإقامة لا تكون إلا بالغذاء والأمن .

(٥٣) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب السلام ، باب النهى عن قتل النمل ،

رقم ١٤٤٥ ص ٥٨٢ وعزاه ابن كثير إلى مسلم فقط فى تفسيره ، وهو بصحيح

البخارى فعلا ، كتاب الجهاد ج ٤ ص ٧٥ ، ٧٦ من طبعة كتاب الشعب .

(٥٤) سورة الأنعام ، الآية رقم ٣٨ .

وأن الغاية من الخلق عبادة الله سبحانه « أمة من الأمم تسبح » .

وسمع نبي الله سبحانه سليمان - عليه السلام - صياح النملة بأبناء قومها فتبسم ضاحكاً من قولها . والتبسم يدل على رضا وفرح ، واطمئنان ، و « ضاحكاً » (٥٥) بعده يدل على بلوغ التبسم مبلغاً كبيراً ، ودعاء النبي الكريم ربه سبحانه أن يوقفه إلى الشكر على نعمه من كل جانب ، وأن يوقفه إلى عمل الصالحات ، وأن يدخله في عباده الصالحين في الدنيا والآخرة .

(٥٥) وأمر الضحك المنبى عنه ، إذا استجمعه الضاحك ، وبالحق فيه ، حتى ترى اللحمة التي في سقف الفم ، وهي اللهاة .

فمن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - قالت : ما رأيت رسول الله ﷺ - مستجمعاً قط ، ضاحكاً حتى ترى منه لهواته ، إنما كان يتبسم . متفق عليه . (رياض الصالحين للنووي ، رقم ٧٠١ ، ٣١٦) واللهوات : جمع لهة ، وهي اللحمة التي في أقصى سقف الفم .

أما الضحك دون هذا الاستجماع ، وغير المصحوب بالصوت فمشروع ، وهو الذي صدر من النبي سليمان - عليه السلام .

وقد صدر هذا من النبي الخاتم - ﷺ - فعن محمد بن سعد عن أبيه قال : استأذن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على رسول الله ﷺ - وعنده نسوة من قريش يسألنه ، ويستكثرنه ، عالية أصواتهن على صوته ، فلما استأذن عمر تبادرن الحجاب ، فأذن له النبي - ﷺ - فدخل والنبي - ﷺ - يضحك . فقال : أضحك الله سنك يا رسول الله ، ... البخارى كتاب الأدب ، باب التبسم والضحك ج ٨ ص ٢٨ .

وقد ضحك حين رجع المجاهدون عن الطائف أخيراً بعد أن طلب إليهم القفول أولاً البخارى ج ٨ ص ٢٨ نفس الكتاب ، والباب .

وقد ضحك حين اشتد به رجل ، وقال : يا محمد ، مر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعتاء . ص ٢٩ .

وضحك حتى بدت نواجذه حين رجع من جامع أهله في نهار رمضان يفرق =

موت سليمان - عليه السلام :

قال الله تعالى :

﴿ فلما قضينا عليه الموت ، ما دهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ﴾ (٥٦) ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴿ (٥٧) .

إن سليمان - عليه السلام - ظل يشرف على رعيته حتى آخر لحظة من حياته ، فهو بينهم ، وليس بعيداً عنهم ، لم يلهه الملك - الذى لا ينبغي لأحد من بعده - عن القيام بمهام الأمة ، بيده عصاه التى يزجر بها دابته ، على الرغم من تسخير الرياح والجن له ، فهو على وضعه البشرى لم يتعداه ، أو يتجاوزه ؛ إنه مركّز على عصاه ، تعينه وتسندة ، وظلت الجن تعمل بين يديه ، تخشى التمرد

= من تمر ، لأنه أفقر من غيره ص ٢٩ .

وعبر عنه بالتبسم فى حديث جرير - رضى الله عنه - قال : ما حجبنى النبى ﷺ - منذ أسلمت ، ولا رآنى إلا تبسم فى وجهى ص ٢٩ .
وقد أسر النبى ﷺ - إلى ابنته فاطمة - رضى الله عنها - فضحكت ص ٢٧ .

وأجاب عن سؤال لأم سلمة - رضى الله عنها - فضحكت ص ٢٩ .
ففرق بين ضحك وضحك كما ترى فى ضوء ما سبق ، أما التبسم فقط فهو خارج عن دائرة المقارنة ، وبذلك يكون المراد - والله أعلم - من قوله تعالى : ﴿ فتبسم ضاحكاً ﴾ التبسم الشديد القريب من الضحك ، أو الضحك دون مبالغة فيه ، والقريب من التبسم .

(٥٦) المنسأة : العصا ، كما قال صاحب القاموس من نسأه ، أى زجره ، وسميت العصا بذلك لأن الدابة تزجر بها .
(٥٧) سورة سبأ الآية رقم ١٤ .

فتكون من المقرنين في الأصفاد ، وكان الله سبحانه حافظا له من أى شر يحيق به منهم ، وأراد سبحانه له الموت فمات ، وما علم بموته إلا هو ، فهو ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ﴾ (٥٧) ، وها هم الجن ما علموا بذلك على الرغم من قدرتهم الخارقة ، فقدره الله سبحانه فوق القدر ، حتى ولو كانت للجن ، إنهم ظلوا يعملون مسخرين ، ويعملون لسليمان - عليه السلام - ليس لذاته فردا ، ولكن له أمة ونييا ، وقائدا لرعية . فهم يعملون لصالح هذه الرعية . . .

وظل الجسم الميت مرتكزا على العصا مدة من الزمن لا يعلم مداها إلا خالق الزمن وصانعه سبحانه ، وجاءت حشرة الأرضة تأخذ طعامها من عصا سليمان - عليه السلام - حتى ضعفت العصا عن تحمل جسم النبي الكريم ، فهوت وخر سليمان - عليه السلام - على الأرض وكان قد مات قبل ذلك . . .

حيثذ ، وليس قبل الآن ، علمت الجن أنهم كانوا يعملون خوفا من شخص ظنوه على قيد الحياة ، ولكنه قد مات ، واعتبروا هذا العمل عذابا مهينا ، وكانوا يعدونه طاعة وامثالا ، وذاك مؤشرا إلى أنهم أفلتوا مما سخروا له بعد أن مات ، وأعطوا من الفرصة للعودة إلى صراعهم للإنسان ومحاولاتهم للإغواء والاحتيال .

بل إنهم قد بدءوا يضيقون ويبدلون في شريعة سليمان بعد موته كما ستعرف بعد ذلك إن شاء الله مثل السحر وغيره .

الشياطين يعلمون الناس السحر :

يتصل هذا الموضوع بقصة سليمان - عليه السلام - لأن الشياطين نسبوا

(٥٧) سورة الجن ٢٦ ، ٢٧ .

السحر إلى عهده - وهو براء - وقد علموا أن الله سبحانه قد سخرهم له وهو
حى . ومن يزغ عن أمره أذيق عذاب السعير ؛ عملوا له المحاريب ، والتماثيل ،
والجفان ، والقلود الراسيات ، وغاصوا له فى الماء ، وبنوا له الصروح ،
والقلود .

وقد كان الله سبحانه حافظا له من شرهم ، ومكنه من حبس المتنرد
منهم ، وتصفيده بالسلاسل ، له أن يمن على من يريد عليه المن ، وله أن يبقى من
شك فى أمره .

ومات سليمان - عليه السلام - فماذا كان من أمرهم ، وما الذى نسبوه
إليه زورا وبهتانا ؟ .

قال الله تعالى فى هذا الشأن :

- ١ - ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ﴾ .
- ٢ - ﴿ وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا ؛ يعلمون الناس
السحر ﴾ .
- ٣ - ﴿ وما أنزل على الملكين ببابل ؛ هاروت ، وماروت ،
وما يعلمان من أحد حتى يقولوا : إنما نحن فتنه ، فلا تكفر ، فيتعلمون
منهما ﴾ .
- ٤ - ﴿ ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد
إلا بإذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ما له
فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ .
- ٥ - ﴿ ولو أنهم آمنوا . واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا
يعلمون ﴾ (٥٨) .

أراد الله سبحانه وتعالى أن يتضمن النص الكريم السابق أكثر من (واو)

(٥٨) سورة البقرة ، الآيتان رقما ١٠٢ ، ١٠٣ .

وأكثر من (ما) وأن تحتل الواو العطف ، أو الحال ، وأن تحتل (ما) النفي ، أو الموصولية ، ويتغير المعنى حسب كل توجهه ، وما أظنه ، والله أعلم بالصواب . من وجود هذه الاحتمال أن يعالج موضوع السحر بحذر شديد ، وألا يتوغل المرء فيه أكثر مما تتضمنه النصوص (٥٩) .

وكتابة النص الكريم على هذا النحو ، تبين ما اخترته في ضوء الأحاديث الشريفة ، والسياق القرآني - والعلم عند الله - فإن وفقت إلى صواب فمن الله سبحانه ، وإن أخطأت فمن الشيطان ، والخير أردت ، وعلى الله قصد السبيل . وأقول وبالله التوفيق :

١ - إن الله سبحانه في هذا الجزء الأول من النص يخبرنا عن بني إسرائيل : أنهم اتبعوا الشياطين في أمر السحر ، وما ألصقوه زوراً وبهتاناً بسليمان - عليه السلام - وما ألصقوه بعهد ، وهذا الجزء يدين بني إسرائيل مقدماً ، ويدل على أنهم اتخذوا الشياطين حجة صادقة ، وأنهم اتبعوهم عن يقين ، ولكنهم يعيدون عن الحق في واقع الأمر .

و « ما » في هذا الجزء موصول ، مفعول به ، وضمير الصلة مخوف ، أى ، اتبعوا ما تتلوه الشياطين .

٢ - ويخبرنا الله سبحانه في الجزء الثاني . أى الطرفين على حق ؟ وأيهما على كفر ؟ سليمان - عليه السلام - النبي الكريم ، الذى اصطفاه ربه واختاره ، أم الشياطين ؟ فيحكم صراحة بأن سليمان - عليه السلام - هو الذى على

(٥٩) ويشبه هذا قوله تعالى :

﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ؛ ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم ، يقولون : آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب ، ربنا ، لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ؛ إنك أنت الوهاب ﴾ (سورة آل عمران ٧ ،

(٨) .

الحق ، وما كان كافرا بتناوله السحر ، ويحكم أيضاً صراحة بأن الشياطين هم الكافرون ، ثم يعلل ، ويبين السبب في هذا الكفر ، وهو : أنهم يعلمون الناس السحر .

والواو هنا عاطفة جملة على جملة ، و « ما » نافية ، وجملة « يعلمون » في محل نصب حال من الشياطين .

٣ - بعد أن بين الله سبحانه أن مصدر علمهم بالسحر هو الشياطين ، أخبرنا أنه لم ينزل على الملكين يبابل ، هاروت وماروت ما نسبوه إليهما من تعليم السحر ، والملكان من هذا براء ، وبنو إسرائيل في هذه التهمة مخطئون ، ويخبرنا الله سبحانه أيضاً أن الدليل على براءة الملكين ، أنهما حين كانا يعلمان أى أحد من بنى إسرائيل يوصيانه بالإيمان ، وعدم الكفر ، فيكون التعليم على أيديهما . ووضعت كلمة « فتنة » هنا ، لأن تعليم الملكين للبشر فيه غرابة ، وفتنة ، واختبار ، وقد اتضح أن بنى إسرائيل سقطوا في هذا الاختبار ؛ بنسبة تعلم السحر على أيدي الملكين .

فبعض العلماء اختار الوقوف على لفظ الجلالة ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ وابتدأ بما بعده مستأنفاً . فيكون رفع كلمة « الراسخون » على أنها مبتدأ مرفوع بالواو ، والخبر هو الجملة الفعلية « يقولون » في محل رفع ، والمعنى على هذا : أن الذى يعلم المتشابه من الكتاب ، ويعلم تأويله هو الله سبحانه فقط ، وموقف العلماء هو الرد إلى الله سبحانه ، وعدم الخوض في ذلك على الإطلاق ، يؤمنون به مدعين مسلمين .

وبعض آخر اختار الوقوف على كلمة « العلم » على اعتبار رفع كلمة « الراسخون » بالعطف على لفظ الجلالة المرفوع على أنه فاعل الفعل « يعلم » والجملة الفعلية « يقولون » في محل نصب حال ، وصاحب الحال « الراسخون » .

وفي ظنى - والله أعلم - أن هؤلاء الراسخين في العلم إن أسهموا في التأويل بنصيب عليهم أن يدركوا أهمية هذا المسلك ، ويعالجوه بحذر شديد دون توغل ، ودون لى الآيات ليا مجرد التأويل .

والواو الأولى هنا للحال ، و « ما » نافية ، والواو الثانية في « وما » عاطفة ، و « ما » نافية ، أى : ولا يعلمان من أحد إلا أن يقولاً . بأسلوب الحصر .

والإشكال في الواو الأولى ، و « ما » الأولى ، والذي اخترته من المعنى حدد إعراب كل منهما كما سبق .

٤ - وعادت الآية في الجزء الرابع لتحكم على السحر ، وتبين إن كان له من أثر أم لا ؛ إن الله سبحانه يخبرنا في هذا الجزء أن سحرهم هذا الذي تعلموه على أيدي الشياطين - وليس على أيدي الملكين ، كما اتضح في الجزأين : الثاني ، والثالث . . هذا السحر لا يفرق في حقيقة الأمر بين المرء ، وزوجه ، وأن السحرة لا يضررون أحداً إلا بإذن الله تعالى ، وأن الضرر في الحقيقة لاحق بمن تعلم هذا السحر ، وهم السحرة ، وبمن علم هذا السحر ، وهم الشياطين - كما في المقطع الثاني - ولقد علموا علماً لم يظهر أثره على جوارحهم ، أن الذي يشتري السحر ليس له من حظ في الآخرة ، وبئس هذا العمل الذي سلكه حين باع نفسه لقاء ما أخذه من سحر الشياطين .

ولا يتجه المعنى هذا الاتجاه إلا على اعتبار أن كلا من « ما » الأولى والثانية نافية .

وختمت الآية الأولى من النص الكريم بأجزائها الأربعة ، وتلتها آية أخرى بمعنى لازم لهذا الموقف .

٥ - والآية الكريمة التالية للسابقة ، تقوم بدور النصح لبنى إسرائيل ؛ بأن يلتزموا الجانب الإيماني ، ويتجنبوا جانب الكفر بتعلم السحر ، وتعاطيه ، وأنهم بإيمانهم ، وتقواهم ، وخوفهم من عذاب الله سبحانه يحصلون الخير الحقيقي فعلاً إن كانوا يريدون خيراً لأنفسهم ، وإن كانوا يعلمون ما يضرهم ، وما ينفعهم . هذا والله سبحانه أعلم بالصواب ، وبالمراد .

السحر في ضوء الكتاب والسنة :

(١) السحر لا يغير حقائق الأشياء .

قال الله تعالى في شأن فرعون :

﴿ فَإِذَا جَاءَهُمْ ، وَعَصِيْمٌ يَخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ (٦٠) .
فعلى الرغم من أن السحرة قاموا بسحر عظيم ، وكان له من أثر بالغ في موسى - عليه السلام - نفسه ، وفي نفوس كل المشاهدين ، أخبرنا الله تعالى ، أن هذا السحر مجرد تخييل ، وكيد ، وليس له أثر في تغيير حقائق الأشياء ، وتبديلها .

ومما يدل على أثره في نفس موسى - عليه السلام - قوله تعالى :

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ﴾ (٦١) .

فعلى الرغم من يقينه بالله سبحانه ، ونصره إياه على كذبهم ، ولكن المفاجأة ، وإتقان السحر كان لهما أثر ظاهر ، كما دلت الآية الكريمة .

ومما يدل على أثر السحر في نفوس المشاهدين جميعاً ، قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيْنَ النَّاسِ ، وَاسْتَهِبَهُمْ ، وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴾ (٦٢) .

فلم يشك أى واحد من المشاهدين في كون العصي ، والحبال تغيرت حقائقها ، فأصابتهم رهبة ، وخوف من ذلك السحر العظيم ، وإن كان الواقع أن الحقائق لم تتغير عكس ما ظنوا واعتقدوا .

(٦٠) سورة طه ، الآية رقم ٦٦ .

(٦١) سورة طه ، الآية رقم ٦٧ .

(٦٢) سورة الأعراف ، الآية رقم ١١٦ .

ومما يدل على أنه لم يتجاوز دائرة التدبير ، والكيد ، قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدًا سَاحِرًا ، وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ (٦٢) .

وفي هذا روت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان رسول الله - ﷺ - سُحْرَ ، حتى كان يرى أنه يأتى النساء ، ولا يأتين ، قال سفيان (أحد رجال السند) : وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذلك ، فقال :

« يا عائشة ، أعلمت أن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه ؟ أتانى رجلان ؛ فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى ، فقال الذى عند رأسى للآخر : ما بال الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن أعصم ، رجل من زريق ، حليف لليهود ، كان منافقا . قال : وفيم ؟ قال : فى مشط ، ومشاقة . قال : وأين ؟ قال : فى جف طلعة ذكر تحت رعوفة ، فى بئر ذروان » .

قال : فأتى النبى - ﷺ - البئر ، حتى استخرجه ، فقال :

« هذه البئر التى أريتها ، وكأن ماءها نقاعة الحناء ، وكأن نخلها رءوس الشياطين » قال : « فاستخرج » . [فأمر بها فدفنت] .

قالت : فقلت : أفلا ؟ أى تنشرت . فقال :

« أما والله فقد شفانى ، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرًّا » (٦٣) .

(٦٢) سورة طه ، الآية رقم ٦٩ .

(٦٣) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب السلام ، أبواب الطب ، باب السحر ، رقم ١٤١٢ ص ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، والزيادة [...] فى صحيح البخارى . فى كتاب الطب ، باب السحر ج ٧ ص ١١٦ وما بعدها . وقد ورد بهامش اللؤلؤ تفسير لبعض ألفاظ الحديث للدكتور عبد الستار أبو غدة . المحقق : « يأتى النساء ولا يأتين : أى وطئ زوجاته ، ولم يكن وطئن . أتانى رجلان : هما جبريل ، وميكائيل . مطبوب : أى مسحور . وفيم ؟ : أى سحره . مشاقة : المشاقة هى

والحديث يدل على أن تأثير السحر في الإنسان عند حدود الظن (٦٤)
 « كأن يظن أنه جامع نساءه ، وما جامعهن » وأنه - ﷺ - يكره المعاكس

المشاطة ، وهى الشعر الذى يسقط من الرأس واللحية عند التسريح بالمشط . جُف : الجف وعاء الطلع ، وهو الغشاء الذى يكون فوقه . طلعة : الطلع بالفتح من النخلة ، ثم يصير تمرأ إن كانت أنثى ، وإن كانت النخلة ذكراً لم يصير تمرأ ، بل يؤكل طرياً ، ويترك على النخلة أياماً معلومة حتى يصير فيه شيء أبيض مثل الدقيق ، وله رائحة ذكية فيلقح به الأنثى . رعوفة : وهو حجر يترك في البئر عند الحفر ، ثابت لا يستطيع قلعه ، يقوم عليه المستقى . وقيل : حجر على رأس البئر يستقى عليه المستقى ، وقيل : حجر بارز من طيها ، يقف عليه المستقى ، والناظر فيها ، نُقَاعَة الحناء : فى حمرة لونه . رعوس الشياطين : فى قبح منظرها . نشرت : النشرة ، الرقية التى يحل بها عُقْد الرجل من مباشرة زوجته .

(٦٤) وقد ذكر الشوكانى فى نيل الأوطار ج ٧ ص ١٨٦ ، ١٨٧ باب ما جاء فى حد الساحر ، ودم السحر والكهانة رأيين للفقهاء فى تأثير السحر فقال : نقلا عن صاحب البحر :

وحكى عن العترة ، وأكثر الفقهاء أنه لا حقيقة له ، ولا تأثير ؛ لقوله تعالى : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ (البقرة ١٠٢) .

وحكى عن غيرهم ، ومنهم الشافعى أن له حقيقة وتأثيراً ... فيفرق بين المرء وزوجه ؛ لقوله تعالى :

﴿ ومن شر النفاثات فى العقد ﴾ (الفلق ٤) . أراد الساحرات . فلولاً تأثيره لما استعاذ منه ، وقد يحصل به إبدال الحقائق ... قلنا (أى فى البحر) : سماه الله خيالا ، والخيال لا حقيقة له فقال :

﴿ يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ (طه ٦٦) اهـ كلام البحر .

واختار الشوكانى الرأى الثانى . قائلا إنه مذهب جمهور العلماء ، واعتبره الحق فى هذه المسألة . معتمداً فى ذلك على حديث عائشة - رضى الله عنها .

والمبطل للسحر ، برغم أن السحر أشد أنواعه ، كما قال سفيان (٦٥) .

(٦٥) قال البخارى : وقال قتادة : قلت لسعيد بن المسيب : رجل به طَبُّ (أى سحر) أَوْ يُؤَخِّدُ عن امرأته ؟ (بتشديد الخاء ، وبناء الفعل للمجهول) أَيْجَل عنه أو يُنْشَرُ (يحل عقد السحر) ؟ قال : (أى سعيد) لا بأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، فأما ما ينفع الناس فلم يَنْفَعُ عنه (صحيح البخارى ، كتاب الطب ، باب ، هل يستخرج السحر ؟ ج ٧ ص ١٧٧) .

أما الرقية المشروعة ، فتكون بذكر الله سبحانه ، وبقراءة القرآن الكريم .
وورد بشأنها نصوص .

فعن عائشة - رضى الله عنها - أن النبى - ﷺ - كان ينفث في المرض الذى مات فيه بالمعوذات . فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن ، وأمسح بيد نفسه ليركتها . فسألت الزهرى (أحد رجال السند) : كيف ينفث ؟ قال : كان ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهه (أخرجه البخارى ، كتاب الطب ، باب الرقى بالقرآن والمعوذات ج ٧ ص ١٧٠) وعزاه ابن كثير إلى مالك أيضاً . فى التفسير ، وزاد مسلم فى أول الحديث : قالت : أى السيدة عائشة - رضى الله عنها - كان رسول الله - ﷺ - إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذات ... (المختصر ، كتاب الرقى ، باب القراءة على المريض بالمعوذات . والنفث ج ٢ ص ١٤١ رقم ١٤٤٦) .

وعن أبى سعيد - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - كان يتعوذ من أعين الجان ، وأعين الإنسان ، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما ، وترك ما سواهما . (رواه الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح . ابن كثير) .

وعنه أيضاً أن ناساً من أصحاب رسول الله - ﷺ - كانوا فى سفر ، فعمروا بحى من أحياء العرب ، فاستضافوهم ، فلم يضيفوهم ، فقالوا لهم : هل فيكم من راقى ؟ فإن سيد الحى لذيغ أو مصاب . فقال رجل منهم : نعم ، فأتاه ، فرقاه بفاتحة الكتاب فبرأ الرجل ، فأعطى قطيعاً من غنم ، فأتى أن يقبلها . وقال : حتى أذكر ذلك لرسول الله - ﷺ - فأتى النبى - ﷺ - فذكر ذلك له . فقال : يا رسول الله ، ما رقيت إلا بفاتحة الكتاب ، فتبسم ، وقال : « وما أدراك أنها رقية ؟ » ثم =

(ب) الاشتغال بالسحر ، والاعتماد عليه .

كما سبق قول الله تعالى :

﴿ ولكن الشياطين كفروا ؛ يعلمون الناس السحر ﴾ (٦٥) .

قال : « خلدوا منهم ، واضربوا لي بسهم معكم » (أخرجه الشيخان ، واللفظ لمسلم . صحيح البخارى ، كتاب الطب ، باب الرق بفاتحة الكتاب ، ج ٧ ص ١٧٠ ، ومختصر مسلم ، كتاب الرق ، باب رقية اللديغ بأمر القرآن ج ٢ ص ١٤١ رقم ١٤٤٩) وفى رواية للبخارى ص ١٧٣ فانطلق فجعل يتفل ، ويقرأ الحمد لله رب العالمين ، حتى لكأنما نشط من عقال ، فانطلق يمشى ما به قلبه .
ومن الرقية بذكر الله سبحانه .

عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ - رقه جبريل - عليه السلام - قال : « بسم الله يريك ، ومن كل داء يشفيك ، ومن شر حاسد إذا حسد ، وشر كل ذي عين » (أخرجه مسلم . المختصر رقم ١٤٤٣ وفى الباب عن أبى سعيد - رضى الله عنه - قريب من هذا رقم ١٤٤٤) .

ودخل ثابت على أبى حمزة ، أنس بن مالك - رضى الله عنه - فقال : يا أبا حمزة ، اشتكى . فقال أنس : ألا أريك برقية رسول الله ﷺ ؟ قال : بلى . قال : « اللهم ، رب الناس ، مذهب الباس ، اشف أنت الشافي ، لا شافي إلا أنت ، شفاء لا يغادر سقماً » . (أخرجه البخارى ج ٧ ص ١٧١ وفى الباب عن عائشة - رضى الله عنها - قريب منه) .

وعن عثمان بن أبى العاص الثقفى - رضى الله عنه - أنه شكأ إلى رسول الله ﷺ - وجعاً يجده فى جسده منذ أسلم ، فقال له رسول الله ﷺ : « ضع يدك على الذى تألم من جسده . وقل : بسم الله ، ثلاثاً ، وقل سبع مرات : أعوذ بالله وقدرته ، من شر ما أجد ، وأحاذر » (أخرجه مسلم ، المختصر رقم ١٤٤٧) .

(٦٥) سورة البقرة ، الآية رقم ١٠٢ .

فقد حَكَمَ اللهُ سبحانه على الشياطين بالكفر معللاً إياه هنا ، بأنهم يعلمون الناس السحر ، وإذا كان التعليم للسحر كُفْراً ، فتعلمه كذلك كفر ، والعياذ بالله تعالى ؛ ولأنه لا يكون معلم ، دون متعلم .

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال :
« اجتنبوا الموبقات : الشرك بالله ، والسحر » (٦٦) .

وقال أيضاً :

« من سحر فقد أشرك » (٦٧) .

وإذا كان تعليمه ، وتعلمه سبباً من أسباب الكفر ، والشرك بالله سبحانه ، فقد حرم أيضاً ما يأتي عن طريقه من نقود ، أو أى نفع مادي ، أو معنى .

فمن أبي مسعود - رضى الله عنه - قال : نهى النبي - ﷺ - عن ثمن الكلب ، ومهر البغي ، وحلوان الكاهن » (٦٨) .

وقال - ﷺ - أيضاً :

« من أتى كاهناً أو عرافاً ، فقد كفر بما أنزل على محمد » (٦٩) .

(٦٦) أخرجه البخارى ، كتاب الطب ، باب الشرك والسحر من الموبقات ج ٧ ص ١٧٧ .

(٦٧) أخرجه أبو داود ، والنسائى ، وأحمد . مفتاح كنوز السنة ، مادة السحر .

(٦٨) أخرجه البخارى ومسلم ، رياض الصالحين رقم ١٦٧١ ص ٦٣٨ باب النهى عن إتيان الكهان ، والمنجمين . صحيح البخارى ج ٧ ص ١٧٦ كتاب الطب . وحلوان الكاهن : هو ما يعطاه ثمناً على كهنته .

(٦٩) أخرجه أحمد ومسلم عن أبي هريرة - رضى الله عنه - نيل الأوطار ، للشوكانى ، باب ما جاء فى حد الساحر ج ٧ ص ١٩٠ ، وصححه ابن كثير فى التفسير ، مع تقديمه « عرافاً » على « كاهناً » (والعراف من يزعم معرفة مكان المسروق) .

وعن معاوية بن الحكم - رضى الله عنه - قال : يا رسول الله ، إني حديث عهد بجاهلية ، وقد جاء الله بالإسلام ، وإن منا رجالاً يأتون الكهان . قال :

« فلا تأتيم » (٧٠) .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ : « من اقتبس علماً من النجوم ، اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد » (٧١) .

وعن أئى موسى - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن خمر ، وقاطع رحم ، ومصدق بالسحر » (٧٣) .

ومعنى ذلك أن تعليم السحر ، وتعلمه ، والنقود الناتجة عن تعاطيه ؛ أخذاً ، أو إعطاءً ، وأن كل أنواع السحر : من كهانة ، وعرافة ، وخط بالرمل ، والطرق بالحصى لزجر الطير ، والتطير ، والنظر فى النجوم ، ليس بقصد التأمل فى الكون ، ولكن زعماً لاستكشاف الغيب . معنى ذلك كله . أن هذه الأمور من الجبت والكفر ، وأن درجة الكفر بمقدار ما يتعاطاه المرء من هذا ، والله سبحانه أعلم .

(ج) عقوبة الساحر :

لم يرد فى هذه المسألة نص من آية كريمة ، أو حديث مرفوع صحيح .

(٧٠) أخرجه مسلم . رياض الصالحين رقم ١٦٧٠ نفس الباب السابق .

(٧١) قال النووى فى الرياض : رواه أبو داود بإسناد صحيح رقم ١٦٦٩ ، وورد بهامشه . وأخرجه أحمد ، وسنده قوى . وعزاه صاحب منتقى الأخبار (متن نيل الأوطار) أيضاً إلى ابن ماجه .

(٧٣) أخرجه أحمد ومسلم . منتقى الأخبار (متن نيل الأوطار) ج ٧ ص ١٩٠ .

وما ورد إنما فهم لنص قرآني ، أو أثر عن بعض الصحابة ، والسلف الصالح - رضي الله عنهم أجمعين .

ومن ذلك :

عن بُجَالَةَ بن عبدة ، قال : كنت كاتباً لَجَزْءٍ بن معاوية ، عم الأحنف بن قيس ، فأُتِيَ كتاب عمر قبل موته بشهر : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة . . . فقتلنا ثلاث سواحر . . . » (٧٤) .

وعن محمد بن عبد الرحمن بن زرارة : أنه بلغه أن حفصة ، زوج النبي ﷺ - قتلت جارية لها سحرتها ، وكانت قد دبرتها ، فأمرت بها فقتلت (٧٥) .

قال النووي : عمل السحر حرام ، وهو من الكبائر بالإجماع (٧٦) .
وقال مالك : الساحر كافر ، ويقتل بالسحر (٧٧) . ويقول : قال أحمد بن حنبل : وهو مروى عن جماعة من الصحابة والتابعين (٧٨) .

وقد روى من طرق متعددة أن أحد الصحابة كان عنده ساحر يلعب بين يديه ، فكان يضرب رأس الرجل ، ثم يصيح به فيرد إليه رأسه ، فقال الناس : سبحان الله ، يحیی الموتى . وراه رجل من صالحى المهاجرين ، فلما كان الغد جاء مشتملاً على سيفه ، وذهب ليرى ما رآه بالأمس ، فاخترط الرجل (أى الصالح

(٧٤) رواه أحمد ، وأبو داود ، والبخارى . منتقى الأخبار . وعزه ابن كثير إلى الشافعى أيضاً ، ولم يعزه إلى أبى داود .

(٧٥) رواه مالك فى الموطأ . منتقى الأخبار ج ٧ ص ١٨٦ .

(٧٦) فى شرح النووى لمسلم نقلاً عن نيل الأوطار ج ٧ ص ١٨٧ ، باب ما جاء فى حد الساحر .

(٧٧) نقلاً عن نيل الأوطار نفس الجزء ، والباب ، والصفحة ، وعزه صاحب مفتاح كنوز السنة إلى الترمذى وابن ماجه .

(٧٨) نقله الشوكانى عن القاضى عياض عن مالك . كما ذكره ابن كثير فى تفسيره .

من المهاجرين) سيفه ، ف ضرب عنق الساحر ، وقال : إن كان صادقاً فليحي نفسه ، وتلا قوله تعالى :

﴿ أفأتأتون الساحر ، وأنتم تبصرون ؟ ﴾ (٧٩) .

ولكن أ يقتل ردة لما يفهم من قوله تعالى بعد آية السحر :

﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا ﴾ (٨٠) .

أو يقتل حداً ؟ رأيان في ذلك (٨١) .

(د) اتهام الكفار الرسل - عليهم الصلاة والسلام - بالسحر :

قال الله تعالى في هذا الشأن :

﴿ كذلك ، ما أتى الذين من قبلهم من رسول ، إلا قالوا : ساحر ، أو مجنون . أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون ﴾ (٨٢) .

فحين رأى الكفار الواحد منهم ، وقد ابتعد عن عبادة آلهتهم ، وأصنامهم المصنوعة من الحجر ، أو الشجر ، أو غيرها ، ثم صار يعبد الله وحده اتهموا الرسول - ﷺ - بالسحر زوراً وبهتاناً .

ويخبرنا الله تعالى بأن الرسل السابقين لاقوا نفس الاتهام من أقوامهم ، وما صدهم هذا الظلم من قومهم عن دعوتهم ، وقد سبق ما كان من اتهام باطل لسليمان - عليه السلام - من بنى إسرائيل .

وحين رأى قوم فرعون موسى - عليه السلام - وقد ألقى عصاه فإذا هي

(٧٩) سورة الأنبياء رقم ٣ .

والأثر ذكره ابن كثير في تفسيره .

(٨٠) سورة البقرة الآية رقم ١٠٣ .

(٨١) يمكنك أن ترجع في هذه المسألة لتتعرف على الرأيين بالتفصيل في كتاب نيل الأوطار

شرح منتقى الأخبار ج ٧ ص ١٨٦ وما بعدها .

(٨٢) سورة الذاريات ، الآيتان رقما ٥٢ ، ٥٣ .

ثعبان عظيم ، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين .

﴿ قال الملأ من قوم فرعون : إن هذا لساحر عليم ﴾ (٨٣) .

﴿ وقالوا : مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾ (٨٤) .

﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : إن هذا لسحر مبين ﴾ (٨٥) .

وكان من رد موسى - عليه السلام - وإنكاره عليهم هذا الاتهام الباطل .

﴿ قال موسى : أتقولون للحق لما جاءكم : أسحر هذا ؟ ولا يفلح الساحرون ﴾ (٨٦) .

﴿ قال موسى : ما جئتم به السحر ، إن الله سيطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ (٨٧) .

وحين رأى قوم عيسى بن مريم - عليه السلام - أنه يحيى الموتى بإذن الله ، ويرى الأكمه والأبرص معجزة له اهتموه أيضاً بالسحر ، قال الله تعالى :

﴿ وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات ، فقال الذين كفروا منهم : إن هذا إلا سحر مبين ﴾ (٨٨) .

وفي كفار العرب قال الله تعالى :

(٨٣) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٠٩ .

(٨٤) سورة الأعراف ، الآية رقم ١٣٢ .

(٨٥) سورة يونس ، الآية رقم ٧٦ .

(٨٦) سورة يونس ، الآية رقم ٧٧ .

(٨٧) سورة يونس ، الآية رقم ٨١ .

(٨٨) سورة المائدة ، الآية رقم ١١٠ .

﴿وَإِذْ هَمُّ نَجْوَى ، إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ : إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا
مَسْحُورًا﴾ (٨٩) .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن الوليد بن المغيرة ، جاء إلى النبي
ﷺ - فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رَقَّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأثاه ، فقال :
يا عم ، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا ؛ ليعطوكه ، فإنك أتيت محمداً
لتتعرض لما قبله . قال : لقد علمت قریش أنى من أكثرها مالا ، قال : فقل فيه
قولا يبلغ قومك إنك منكّر له ، وأنك كاره له . قال : وماذا أقول ؟ فوالله
ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا برجزه ، ولا بقصيده منى ، ولا بأشعار
الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله لحلاوة ، وإن
عليه لطلاوة ، وإنه لمنير أعلاه ، مشرق أسفله ، وإنه ليعلو ، وما يُعلَى ، وإنه
ليحطم ما تحته ، قال (أى أبو جهل) : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .
قال : فدعنى حتى أفكر ، فلما فكر ، قال : هذا سحر يؤثر أثره عن غيره
فنزلت :

﴿ذُرِّي وَمِنْ خَلَقْت وَحِيداً﴾ (٩٠) .

ومما نزل :

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سَحَرٌ يُوْثِرُ ، إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (٩١)

وقال الله تعالى فى شأن هؤلاء :

﴿أَفَسَحَرْ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ﴾ (٩٢) .

(٨٩) سورة الإسراء ، الآية رقم ٤٧ .

(٩٠) سورة المدثر ، الآية رقم ١١ .

(٩١) سورة المدثر ، الآيتان رقماً ٢٤ ، ٢٥ والحديث أخرجه الحاكم وصححه ، وإسناده

صحيح على شرط البخارى . أسباب النزول للسيوطى طبعة دار التراث ، القاهرة ،

ج ٢ ص ١٦٨ .

(٩٢) سورة الطور ، الآية رقم ١٥ .

وذلك يوم القيامة حين يرون النار بمثابة التبكيت والتوبيخ على ما قالوه في الدنيا عن القرآن الكريم ، والرسول - ﷺ .

قصة سبأ :

قال الله تعالى في هذا الشأن :

﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ؛ جنتان عن يمين وشمال ؛ كلوا من رزق ربكم ، واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ، ذوات أكل خبط وأثل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازي إلا الكفور ؟ ، وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليلياً وأياماً آمنين ، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ، ومزقناهم كل ممزق ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ (٩٣) .

وفي ضوء الآيات السابقة نرى :

حضارة شعب :

إن الله سبحانه وتعالى جعل من قبيلة سبأ آية وعبرة لأولى الألباب ، ومرت أحداثها على هذا النحو .

فقد أنعم الله سبحانه عليها بنعم كثيرة ، اقتصادية ، وتنظيمية ، وعمرانية ، وأمنية ، وبعض الرجال الذين يدعونهم إلى التفكير السليم

أحاطت بهم البساتين من شرقهم وغربهم ، تنبت لهم أطيب الطعام ، يتفيعون ظلالها الوارفة بين أشجارها ، ويتنسمون شذا عطرها الفواح من أزهارها الجميلة ، ولم يحرموا رؤية المياه وهي تنساب بين البساتين .

وقد تفرعت من نهرها الكبير ، عند سدّ يتحكم في الماء بمقدار وحساب ،

(٩٣) سورة سبأ الآيات من رقم ١٥ إلى رقم ١٩ .

ومع تلك المياه العذبة السائغة للشاريين ، كانت مياه المحيط جنوبا حيث يمكنهم الاتصال بما وراءه من شعوب . . . ، وفي الشمال صحراء الجزيرة باب الهدهد إليهم ، وطريق الخروج للمكتهم حين اتجهت إلى أقصى الشمال إلى الأقصى ؛ لتعلن إسلامها على يد سليمان - عليه السلام . . .

كانت لهم قرى ظاهرة كالعواصم للأقاليم ، وظهورها يدل على علوها المعماري ، ودقة بنائها ، ثم هم في تنقلهم بين تلك القرى البارزة ، يسرون في طرق حددت مسافاتها وقدر فيها سيرها فالسائر يعلم متى قطع ؟ وكما الباقي من المسافة ليصل إلى القرية الأخرى ؟ .

ثم هم أيضا نعموا بأهم نعمة يتمناها الإنسان أيا كان ، ومتى عاش ، نعمة الأمن فلا احتمال لقاطع طريق ، أو لص محتال ، مهما ابتعدت المسافة ، وإذا كانوا قد نعموا بذلك في الطريق الطويل ، فهم على أتم ما يكون الأمن والاستقرار داخل قراهم .

وكان منهم رجال صالحون بلغوا رسالة ربهم إليهم ، ودعوههم إلى أن يرفلوا في رزق الله تعالى ، ويشكروه على تلك النعم الطيبة ، والله سبحانه الوهاب المنعم غفور رحيم يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات .

فأى نعمة أجل من هذه ؟ .

وأى حضارة مادية أتم وأشمل منها ؟ .

إعراض عن شكر النعمة واغترار بها :

تلك النعم السابقة من كل جانب كان من الواجب عليهم يشكروا واهبها ورازقها ، والشكر يكون :

- بأن يعترف الإنسان بها ، وأنه ليس خالقا لها ومنشأ .
- وأن يسندها إلى خالق الإنسان ورازقه وهو الله سبحانه .
- وأن يسخر هذه النعم في مرضاة الله تعالى ، ومساعدة المحتاجين من الأمة .

- وأن يقتصد في تناولها دون إسراف أو تقتير .
- وأن يلتزم بطاعة الله سبحانه في تطبيق شرعه وأوامره .
- وأن ينتهى عما نهى عنه الله سبحانه من المعاصي والآثام .
- وأن يكرم الناصحين من الأمة الذين يقومون بدور الوقاية والعلاج .
- وأن يبتعدوا عن التجبر والتسلط على ضعاف الأمة مسخرين النعمة في غير ما خلقت له .

ولكن القوم لم يشكروا الله سبحانه على تلك النعم ، وأعرضوا عمن ينصحبهم ويحذرهم دون أى تأمل في العواقب .

الحرمان من النعم لإعراضهم عن الحق :

إن القوم أوغلوا في الإعراض ، ولذا جللهم الحرمان بالقحط ، والجذب ، وسوء الطعام ، أرسل الله تعالى عليهم السيل الجارف العرم ، فأزال تلك الحضارة بين عشية وضحاها ، فلا القرى ظلت ظاهرة ، ولا الجنتان امتد عمرهما ، وأصبحت الأشجار بثمارها الرديئة القليلة ، وكأن شيئا لم يكن .

لم كان هذا الحرمان ؟ لأنهم جحدوا النعمة وكفروا بالله تعالى ، فحرموا مما كانوا فيه . .

وكانت آية :

أى عبرة للبشرية على امتداد عمرها أبلغ من هذا ؟ .

تتكرر المأساة نفسها ، فى أجيال كثيرة للبشرية ، وتكون العاقبة نفسها ، وتأمل أى دولة كانت على وجه الأرض كيف بدأت ؟ وكيف انتهت ؟ .

وسيظل دائما هؤلاء الدعاة الناصحون بصيص الأمل لكل أمة لا يحس وجودهم إلا العقلاء من البشر ، أما من تجبر فى الأرض ، واغتر بما ليس له واتخذ إلهه هواه ، وزين له الشيطان عمله فإنه ينظر إلى الدعاة المصلحين على أنهم

أعداء ، ويذلل كل جهله في اتهامهم ، وعرقلة سيرتهم ، وتصفييتهم جسديا ،
فتصعد أرواحهم شهداء ، ويبقى العار والدمار للأمة لأنها تمردت على دعوة الله
سبحانه ، قال تعالى :

﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو
شاهد ﴾ (٩٤) .

وصدق الله العظيم حيث قال :

﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ﴾ (٩٥) .

﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ (٩٦) .

(٩٤) سورة ق ، الآية رقم ٣٧ .

(٩٥) سورة سبأ ، الآية رقم ١٥ .

(٩٦) سورة سبأ ، الآية رقم ١٩ .

دروس وعبر :

- يوجهنا الله سبحانه إلى أن أجمل الهبات والعطايا ما كانت تمهد الطريق إليه سبحانه وأن النرية التي تقر بها عين المؤمن تلك النرية الصالحة . .
- كما وهب الله لداود سليمان - عليه السلام .
- إن الأنبياء والصالحين المؤمنين هم وحدهم الذين يوجهون السلطة إلى مرضاة الله سبحانه .
- فالسُّلطة تكون في يد المؤمن نعمة على البشرية ، لا ظلم ولا تجبر ، ولكن مساعدة وتكافلاً وتطبيق حكم الله في الأرض .
- النصيح في القضاء في دائرة الاجتهاد واجب تطبيقاً للعدالة ، وإعطاء الحقوق لأصحابها ، فانظر ماذا فعل سليمان مع أبيه بشأن الطفل والحِث ، وكيف قبل الأب تعديل ابنه وترشيده .
- إعداد الجيش القوى لازم للأمة المسلمة كل حسب طاقتها الممكنة ؛ من حيث الفرق ، والجنود ، من حيث التوعية للجنود ، من حيث فهمهم لهدف الدولة المراد تحقيقه .
- وإن أفراد الجيش جميعاً ملتزمون بواجب النظام والضبط . فلا تفريط ولا إفراط ولا تسبب ولا إهمال ، ولا تواكل ولا تكاسل .
- إن قيمة الجندي ليست في أن تعصب عيناه ليطيع فقط ، ولكن القيمة والتي تعتمد أول ما تعتمد على الإيمان بالله تعالى ، تكون في حريته وقوة شخصيته ، وجرأته في الحق لا يخشى لومة لائم ؛ يخاطب القائد العام كما يخاطب الهدهد الصغير أعظم ملك من البشر على الإطلاق وهو سليمان - عليه السلام - كما قال تعالى فيه :

﴿ أَحطت بما لم تحط به ﴾ .

- ترشيد الجنود إلى هذه القيمة الصحيحة ليكون كل منهم معطياً ،

ومنتجا ، وإيجابيا .

- الرقابة الأولى والأهم التي يحسها الجندي هي رقابة الله سبحانه ، وإلا فمن الذى كلف الهدهد أن يتعرف بالتفصيل على قوم سبأ ؟ عن وعى وبصيرة .

- إن الملك إذا لم يدعمه الحق فلا قيمة له ، يدين الناس لغير خالقهم ، ورازقهم ، ويعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عن الحق شيئا .

كما سجد قوم سبأ للشمس وفى مقدمة الساجدين ملكتهم .

- إن الحاكم المسلم لا يأخذ الأمور جزافا ، حتى ولو ظهرت عليها علامات الصدق ، ولكنه يعتمد على الدليل والبرهان تأكيدا وتثبيتا ، وتحذيرا للآخرين من أن يلبسوا الحق بالباطل كما فعل سليمان - عليه السلام - مع الهدهد .

- ستظل الرشوة ، والإغراء المالى ، والوظيفى قضية التحويل عن الحق فانظر إلى سرعة إبداء الملكة رأيها فى إرسال هدية إلى صاحب الرسالة .

وسیظل دعاة الحق يواجهون هذا الإغراء فى كل وقت . منهم من يسقط ، وتنجح فيه الحيلة ، ومنهم من يثبت على الدعوة موقنا بأن عرض الدنيا سينفد وما عند الله باق .

- إن المجتمع الجاهلى يتميز فى الدرجة الأولى بفقدان الذات وذوبانها فى شخص الرئيس العام .

فانظر إلى قوم الملكة ، وقارن بينهم وبين هدهد صغير جندى فى جيش سليمان - عليه السلام - لترى الفرق واضحا بين المجتمعين .

- إن تخوف المجتمع الجاهلى يكون فى الدرجة الأولى فى الخوف على ما لديه من مال واقتصاد ، وأبناءؤه حريصون على ما لديهم من أموال وليتها تسخر فى صالح الأمة .

- إن شكر الله سبحانه على النعم بالإضافة إلى تحقيق الهدف الأصلى وهو الإيمان يحقق أيضا امتدادها على الإنسان المنعم عليه .

- الشكر والإيمان يحققان أمناً ، ورخاء ، ولنا في التاريخ العبر والعظات .
- إيمان الأقوياء مكسب طيب للأمة المؤمنة ، وهم بحاجة إلى تخطيط ورعاية ، والأسلوب الذى ينجح مع أمثالهم ، وانظر كيف فرح المسلمون بإسلام الفاروق - رضى الله عنه .
- على المسلم أن يعتقد أن كل ما فى الكون يسبح بحمد الله ، ولكننا لا نفقه تسييحهم وأن الدواب فى الأرض أم مثلنا ، ومن هذه الدواب حشرات النمل . . .
- السحر حرام ، وتعليمه حرام ، وتعلمه حرام ، وله آثار ظاهرة ، وإن كان لا يبدل حقائق الأشياء .
- الرقية منه بالاستعاذة ، وقراءة المعوذتين ، والدعاء المأثور مشروعة .
- وإذا كانت الرقية ضرباً جديداً من السحر ففيها نظر ، وعلى المسلم الحذر .
- من يتعامل به يقتل .
- والمجتمع الإسلامى يجب أن ينظف منه ، ومن أشباهه .
- إن الدعاة إلى الله سبحانه على الرغم من أنهم يحرمون السحر فى مجتمعاتهم يتهمون بالسحر ، وبأن كلامهم سحر ، وذلك من التناقض ما فيه ، وبطلان الدعوى فيه واضحة .
- إن قصة سبأ آية .
- فى أن الأمن والرخاء الاقتصادى ، والتقدم المعمارى ، والوعى الفكرى ، سوف لا تلوم على أصحابها إلا إذا وجهوا هذه الطاقات والخامات وجهتها الصحيحة وتطبيق شرع الله فى الأرض .
- وأن أى حضارة مادية مهما بلغت فمآلها إلى الزوال إذا لم يدعمها الحق والسير فى الطريق المستقيم .

زكريا ويحيى - عليهما السلام .

- آل عمران ، وزكريا - عليهم السلام .
- كفالته مريم بنت عمران .
- طلبه الذرية ، والولد الصالح .
- البشرى يحيى - عليه السلام - متى ؟ وكيف ؟
- آية زكريا - عليه السلام - .
- الوصية ليحيى - عليه السلام - .
- تبليغ يحيى - عليه السلام - الرسالة .
- دروس ، وعبر .

آل عمران وزكريا - عليهم السلام .

قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا ، وَآلَ إِبْرَاهِيمَ ، وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

يخبر الله تعالى أنه اختار ، واصطفى هذه البيوت ، وجعل منهم الأنبياء والمرسلين ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، فقد اصطفى آدم - عليه السلام - خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه الأسماء كلها ، وأسكنه الجنة ، ثم أهبطه إلى الأرض إعماراً لها ، واصطفى نوحاً - عليه السلام - ، أول أولى العزم من الرسل إلى أهل الأرض ، بعد أن عبدوا آلهة شتى ، وأشركوا بالله سبحانه ما لم ينزل به سلطاناً ، وطال به المقام بينهم ، ومع ذلك لم يستجب إلى دعوته إلا قليل ، قال الله تعالى في هذا :

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ، فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ، وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ، فَالتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ، وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ، تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ، وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مَدْكُرٍ ، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ؟ ﴾ (٢) .

وكان اصطفاء كل من آدم ونوح - عليهما السلام - لشخصيهما ، ولكن الاصطفاء لإبراهيم - عليه السلام - ، له ولآله الكرام ، ومنهم سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد - ﷺ - .

واصطفى الله سبحانه أيضاً آل عمران ، وعمران هذا هو والد مريم بنت عمران ، أم عيسى بن مريم - عليه السلام - آخر أنبياء بني إسرائيل ، وليس بينه وبين النبي محمد - ﷺ - نبي كما ثبت في الصحيح .

(١) سورة آل عمران الآيتان رقم ٣٣ ، ٣٤

(٢) سورة القمر الآيات من رقم ١٠ إلى رقم ١٦

وقد تزوج زكريا - عليه السلام - أحد أنبياء بنى إسرائيل إحدى بنات عمران ، أخت مريم ابنة عمران ، كان يأكل من عمل يده ، وخير الطعام ما كان من عمل اليد ، فعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ - قال :

« وكان زكريا نجاراً » (٣) .

ويفهم من قوله تعالى :

﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ (٤) .

ما يؤكد صراحة بأنه هو وابنه من أنبياء بنى إسرائيل يعقوب - عليه السلام .

كفاله مريم بنت عمران .

تمنت امرأة عمران أن ترزق بولد ، وقد نذرته لخدمة المسجد الأقصى ، ولكن الله سبحانه أراد أن تكون أنثى لما سيكون على يديها ، فكانت أنثى سميت مريم ، واحتاجت مريم إلى من يخدمها من الرجال ، ربما يكون والدها عمران قد مات ، أو كبر في السن فلا يستطيع أن يقوم بواجب الكفالة والرعاية . وهياً الله سبحانه وتعالى لكفالتها زوج أختها زكريا - عليه السلام - . وفي ذلك حفظ لها من الإهانة والتضييع من كفالة الغريب ، وفي كفالة الجد عبدالمطلب ، ثم العم أبى طالب لخاتم الأنبياء محمد - ﷺ - نفس الغاية والهدف ، والله سبحانه أعلم .

وتكون الكفالة في مثل هذه الأحوال شكلية ، وإلا فالله سبحانه وهو الذى ساق زكريا - عليه السلام - إلى تلك الكفالة هو أيضا الذى أوجد الرزق في محراب مريم ، كما قال الله سبحانه :

(٣) رواه مسلم ، المختصر رقم ١٦١٦ ج ٢ ص ١٨٩ كتاب ذكر الأنبياء وفضلهم ، باب في ذكر زكريا عليه السلام .

(٤) سورة مريم الآية رقم ٦

﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾^(٥) .

وقد قال النبي محمد - ﷺ - في مقام كهذا :

« إني أبيت يطعمني ربي ويسقين »^(٦) .

قال الله تعالى في كفالة زكريا - عليه السلام - لمريم ابنة عمران :

﴿وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب ، وجد عندها رزقا ، قال : يا مريم ، أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ؛ إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾^(٧) .

يخبرنا الله سبحانه في الآية السابقة أنه هو الذى هيأ زكريا لهذه الكفالة ، ويفهم ذلك من تشديد الفاء في الفعل الماضى كَفَلَ ، فالفاعل إذن ضمير مستتر يعود إلى الله سبحانه ، وزكريا مفعول به ثان منصوب ، والضمير البارز-مفعول به أول ، ويختلف الأمر حين نقول كَفَلَ زكريا بفتح الفاء دون تشديد فزكريا يكون فاعلا لا مفعولا ، ولا يخفى ما في التعبير القرآنى المختار من الرعاية الإلهية لمريم ابنة عمران بشكل صريح .

وأحسن زكريا - عليه السلام - نفسه آثار تلك الرعاية ؛ فحين كان يدخل عليها المحراب يجد رزقا فيسأل متعجبا . أنى لك هذا ؟ وردها بأنه من عند الله سبحانه يدل على طيب هذا الرزق وتماه ، فالله سبحانه قد أمر عباده بأن يأكلوا من طيبات ما رزقهم ، وها هو يأتي مباشرة دون وساطة ، ودون اختيار من الإنسان فيكون إذن طيبا خالصا .

(٥) سورة آل عمران الآية رقم ٣٧ .

(٦) أخرجه الشيخان عن ابن عمر ، وأبى هريرة ، وعائشة - رضى الله عنهم - وأخرج إحدى رواياته البخارى وأبو داود عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه . منتقى الأخبار ، متن نيل الأوطار ج ٤ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ باب كراهية الوصال .

(٧) سورة آل عمران الآية رقم ٣٧ .

ويسهم السؤال التعجبي ، والرد بالصورة السابقة في إثبات أن كفالة زكريا لمريم تكريم منه سبحانه لكل من زكريا ومريم على السواء . وهذا التكريم أثار في نفس زكريا - عليه السلام - رغبة في الذرية والولد الصالح من هذا الطراز المكرم والمصطفى .

طلبه الذرية والولد الصالح :

قال الله تعالى في هذا الشأن :

﴿ هنالك دعا زكريا ربه ، قال : رب هب لي من لدنك ذرية طيبة ، إنك سميع الدعاء ﴾ (٨) .

وقال أيضا :

﴿ كهيعص . ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، إذ نادى ربه نداء خفيا ، قال : رب إني وهن العظم مني ، واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقيا ، وإني خفت الموالى من ورائي ، وكانت امرأتي عاقرا ، فهب لي من لدنك وليا ، يرثني ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا ﴾ (٩) .

وقال أيضا :

﴿ وزكريا إذ نادى ربه : رب لا تدركني فردا وأنت خير الوارثين ﴾ (١٠) .

متى كان طلب زكريا - عليه السلام - الولد ؟ :

حين كفله الله مريم ، ورأى من آيات ربه ، ورزقه لها . كما قال الله تعالى في هذا الشأن :

(٨) سورة آل عمران الآية رقم ٣٨ .

(٩) سورة مريم الآيات من رقم ١ إلى رقم ٦ .

(١٠) سورة الأنبياء الآية رقم ٨٩ .

﴿ هنالك دعا زكريا ربه ، قال : رب هب لي من لدنك ذرية طيبة ﴾

- حين وجد نفسه فردا ليس له من ولد .. ﴿ لاتدري فردا ﴾ .
- حين وهن عظمه وضعف واشتعل الرأس شيبا
- حين وجد زوجه عقيما لاتلد ﴿ وكانت امرأتى عاقرا ﴾ .
- حين خاف ممن يأتي بعده على غير سيرة الأنبياء .
- وحين أراد أن تمتد النبوة في آل يعقوب - عليه السلام .

وكيف كان طلبه ؟

- نداء من أعماقه خفى لا يعلمه إلا الله سبحانه .
- ولسان يتحرك بما في قلبه من تمن ورجاء .
- وتعظيم للخالق الوهاب ﴿ إنك سميع الدعاء ﴾
- واطمئنان إلى جانب الله سبحانه ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقياً ﴾

وماذا طلب ؟

- طلب إلى ربه ذرية طيبة ، ولداً صالحاً مرضياً ، ورضياً ، يرث منه
- ومن آل يعقوب النبوة والحكم (١١) وكان أن تنزلت رحمة الله سبحانه على عبده
- وحبيبه زكريا - عليه السلام .

(١١) كما ذكرنا سابقا عند قوله تعالى: ﴿ وورث سليمان داود ﴾ وقد سقنا الحديث المتفق عليه بين العلماء المروى في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة أن رسول الله - ﷺ - قال: « لا نورث ما تركنا فهو صدقة » فهذا نص على أن رسول الله - ﷺ - لا يورث ، ولهذا منع الصديق - رضى الله عنه - أن يصرف ما كان يختص به في حياته إلى أحد من ورائه الذين لولا هذا الحديث لصرف إليهم ، وهم ابنته فاطمة ، وزوجاته وعمه العباس - رضى الله عنهم أجمعين - واحتج عليهم الصديق في منعه لإياهم بهذا الحديث ، وقد وافقه على روايته عن رسول الله - ﷺ - عمر ابن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب ، وعبد الرحمن

البشرى يحيى :

قال الله تعالى :

﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ، أن الله يشرك يحيى مصداقاً بكلمة من الله ، وسيداً وحسبواً ونبياً من الصالحين ، قال : رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامراتى عاقر ؟ قال كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ (١٢) .

وقال :

﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً قال : رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ؟ قال : كذلك قال ربك هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ﴾ (١٣) .

وقال :

= ابن عوف ، وطلحة والزبير ، وأبو هريرة وآخرون - رضى الله عنهم - وقد ورد النص عند الترمذى بلفظ يعم سائر الأنبياء « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » وصححه .

وقد كانت الدنيا أحقر من أن يكتنوزوا لها ، أو يلتفتوا إليها أو يهتمهم أمرها حتى يسألوا الأولاد ، كما سأل زكريا - عليه السلام - ليحوزها بعدهم ، وقد عرفنا فيما سبق أنه كان يعمل نجاراً ، (أخرجه مسلم ، وابن ماجة ، وأحمد من غير وجه) أى يعمل بيده ، ويأكل من كسبها ، كما كان داود - عليه السلام - يأكل من كسب يده ، ومن كانت هذه حاله ، فأى شيء مادى يخلفه وراءه ، يكون محل سؤال الولد ، لأن يرثه ، ويثول إليه ؟

فإذا انتفى سؤال الميراث لهذه الأمور المادية ؛ لصريح النصوص ، ومفهومها ، ثبت أن سؤال زكريا - عليه السلام - الولد ، ليرث النبوة ، والحكم ، والله أعلم بالصواب .

في ضوء البداية والنهاية ج ٢ ص ١٨ ، ١٩ الطبعة الثالثة ١٩٧٧ مكتبة المعارف

بيروت .

(١٢) سورة آل عمران ، الآيتان رقما ٣٩ ، ٤٠ .

(١٣) سورة مريم ، الآيات من رقم ٧ إلى رقم ٩ .

﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾ (١٤) .

يخبرنا الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة في السور الثلاث :

- أن البشرى يحيى لذكريا - عليهما السلام - كانت في أقرب لحظات المسلم إلى ربه سبحانه ﴿ فنادته الملائكة ، وهو قائم يصلي في المحراب ﴾ (سورة آل عمران ٣٩) . فالاستجابة للدعاء مرهونة بمدى قرب المرء من ربه سبحانه ، وليست مرهونة بألفاظ يلوكلها بلسانه دون حركة الأعضاء خضوعا وسجوداً ، ودون حركة القلب شعوراً وحبا .

- أن بشرى الله سبحانه ، يحيى لذكريا - عليهما السلام - بلغت الذروة في البشريات ، وفوق ما كان يتمناه ذكريا - عليه السلام - وهذا ما يدره الله سبحانه لعباده الصالحين ، في دنياهم ، وأخراهم ؛ فهو أعلم بحالهم ، وأعلم بالصالح لهم ، وكل ما عليهم أن تلجأ ألسنتهم بالشاء عليه ، وتطويع حياتهم بتطبيق أحكامه ، وتفيض قلوبهم حباً له ، ورهبة منه ، أما النتائج فهو العليم بها سبحانه .

- سمي الله سبحانه الولد الذي يولد يحيى ، ولم يكن هذا الاسم معروفاً قبل ذلك ﴿ إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سمياً ﴾ (مريم ٧) .

فلم كان هذا الاسم الذي يدل على الحياة ، دون غيره من الأسماء ؟

إن ذكريا - عليه السلام - حين بشر به تعجب ، على الرغم من أنه الذي سأل الولد ، تعجب من كونه كبير السن ، وعقم زوجه ، ومن كانت هذه حالهما : شيخوخة ، وعقماً ، فليسا مهيين ليكونا سببا في الإنجاب ، أو في امتداد حياتهما في ولد .

(١٤) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٩٠ .

ولكن قدرة الله سبحانه فوق كل القدر ؛ يهب الحياة من الموت ؛ فكانت التسمية يحيى داعية من جديد لأن يظل زكريا - عليه السلام - على الشكر للإله المعبود ، وذكره . المحيى والمميت ، وداعية أيضاً لكل ذى لب . كيف يستجيب الله سبحانه لعباده ، من جهة لا يظن فيها الاستجابة ؛ كما استجاب لعبده زكريا - عليه السلام . (١٥) .

- وتتابعت نعم الله سبحانه ، على زكريا ، فى شخص الولد القادم يحيى - عليهما السلام - فهو مصدق بكلمة من الله - سبحانه - عيسى عليه السلام - ابن خالته (١٩) ، وهذا إخبار بغيب لا يعلمه إلا الله سبحانه ، فقد قال تعالى فى بشراه لمريم :

(١٥) وقد سبق أن علمنا أن الخليل إبراهيم - عليه السلام - تعجب أيضاً حين بشر بإسحاق - عليه السلام - قال تعالى : ﴿ قال : أبشرتمونى على أن مسنى الكبر ، فم تيسرون ﴾ (الحجر ٥٤) وقال أيضاً على لسان سارة ﴿ قالت : يا ويلتى ، أألد ، وأنا عجوز ، وهذا بعل شيخا ؟ إن هذا لشيء عجيب ﴾ (هود ٧٢) ولكن الفرق بين التعجبين ظاهر ، فإبراهيم وسارة تعجبا من البشرى بالولد ؛ لأنهما قد كبرا فى السن فقط دون تصرع بالعقم ، وإن كان مفهوماً ، أما زكريا ، فقد تعجب من البشرى بالولد ، وهو يحيى - عليهما السلام - لأمرين : كبر الزوج ، وعقم الزوجة ، فكان التعجب أشد ، وكانت البشرى بولد اسمه يحيى ألصق بحالهما . والله أعلم بالصواب .

(١٩) أخرج مسلم عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ - قال :

« أتيت بالبراق ثم عرج بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل - عليه السلام - فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . قال : ففتح لنا ، فإذا أنا بابنى الخالة ، عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، فرحبا لى ، ودعوا لى بخير » مختصر مسلم ، كتاب الإيمان ، باب ، الإسراء بالنبي - ﷺ - وفرض الصلوات ، رقم ٧٦ ص ٢٦ - ١ .

﴿إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح ، عيسى بن مريم﴾ (٢٠) .

ويحيى هو السيد فى قومه ؛ جمع من الصفات ما يؤهله لمركز القيادة ، والسيادة ، تصديقاً بالنبوات ، وحلماً ، وعلماً ، وكل ما من شأنه أن يوصف به إمام المتقين .

وهو المعصوم من الذنوب ، حُصِرَ عنها ، والمعصوم من عصمه الله تعالى (٢١) . .

وقمة البشريات أنه سيكون نبيا فى سلسلة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام .

وتعجب زكريا - عليه السلام - من أن يكون الخلق على هذه الصورة ، قال الله تعالى على لسانه :

﴿ قال رب أنى يكون لى غلام ، وكانت امرأتى عاقراً ، وقد بلغت من الكبر عتياً ﴾ (٢٢) .

وكانت إجابة السماء سهلة يسيرة على الأفهام والعقول :

(٢٠) سورة آل عمران ، الآية رقم ٤٥ .

(٢١) عن أبى سعيد ، وأبى هريرة - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ - قال :

« ما بعث الله من نبي ، ولا استخلف من خليفة ، إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف ، وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، والمعصوم من عصم الله » رواه البخارى ، رياض الصالحين ، باب حث السلطان والقاضى ، وغيرهما ... على اتخاذ وزير صالح ، وتحذيرهم من قرناء السوء رقم الحديث ٦٧٦ ص ٣٠٥ ، وعزاه المحققون أيضاً إلى النسائى ، وعزاه صاحب مفتاح كنوز السنة إلى أحمد مادة « الأئمة » .

(٢٢) سورة مريم ، الآية رقم ٨ .

﴿ قال ربك : هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾ (٢٣) .

ولم كانت الاستجابة على هذا النحو من التكريم ؟

قال الله تعالى :

﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ، ويدعوننا رغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين ﴾ (٢٤) .

هذا وقد ورد حديث شريف يبين جانباً من جوانب المسارعة في الخيرات .

فمن أنى هريرة - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال :

« من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » (٢٥) .

فهنيئاً لذكرى - عليه السلام - وقد سارع في الخيرات ، ودعا ربه سبحانه رغبة في جنته ، ورهبة من عقابه ، وهنيئاً له وقد أخلص قلبه وخشعت جوارحه لله تعالى .

(٢٣) سورة مريم ، الآية رقم ٩ .

(٢٤) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٩٠ .

(٢٥) رواه بهذا اللفظ مسلم ، ورواه البخاري أيضاً عن ابن عمر - رضى الله عنهما - بلفظ مختصر ، رياض الصالحين ، باب قضاء حوائج المسلمين ، رقم المتفق عليه ٢٤٢ ، ورقم الآخر ٢٤٣ ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

إن التكريم الذى استحقته تلك الأسرة المباركة لم يبدل هكذا جزافاً ، وإنما بذل لما قدموا من الأسباب التى تؤهلهم لهذا التكريم .

آية زكريا - عليه السلام .

قال الله تعالى فى هذا الشأن :

﴿ قال : رب ، اجعل لى آية . قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً ، واذكر ربك كثيراً ، وسبح بالعشى والإبكار ﴾ (٢٦) .

وقال أيضاً :

﴿ قال : رب اجعل لى آية . قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً ، فخرج على قومه من الخراب فأوحى إليهم ، أن سبحوا بكرة ، وعشيا ﴾ (٢٧) .

بعد الحديث عن البشرى ، وتعجب زكريا ، طلب إلى ربه سبحانه أن يجعل له علامة وآية على وجود القدرة على الإنجاب ، منه ومن زوجه ، فلبى الله سبحانه طلبه ، وجعل له آية على ذلك .

فكيف كانت هذه الآية ؟

- إن الإنسان بالنسبة للسانه فى إحدى حالين : إما ناطق ، متحدث ، وهذا النطق يكون تلبية لما يبغيه هذا الإنسان . قراءة ، ذكراً ، حديثاً مع الناس ، وإما عيى لا يتحرك لسانه الحركة السوية السابقة .

وآية زكريا - عليه السلام - كانت فى مدار النطق ، ولم تكن بإحدى الحالين السابقين . وإلا ما اعتبرت آية ، فالآية هنا هى العلامة المميزة لوضع ما ، ولا تكون علامة إلا إذا كانت على غير المألوف للإنسان بالنسبة للسان . فاللسان سيتحرك بالذكر الكثير ، والتسبيح بالعشى ، والإبكار ، وهذا نطق ، أما أن

(٢٦) سورة آل عمران ، الآية رقم ٤١ .

(٢٧) سورة مريم ، الآيتان رقماً ١٠ ، ١١ .

يخاطب الناس بالحديث سؤالاً ، أو إجابة ، أو نداء وخطاباً ، فلا ؛ إنه لا يقدر على أن يكلم الناس ، ويكلمهم ، ويبقى الرمز ، والإشارة بدليلين عن التكلم مع الناس . إن اللسان لم يصبه عي ، أو فهاهة ، فها هو يتحرك بالذكر والتسبيح ، وها هو سوى ليس به مرض ، وتلك آية .

ولم كانت هذه الآية ؟

إن هذه الآية مؤشر أخضر لذكريا - عليه السلام - للبشرى بالولد الصالح ، وليطمئن قلبه من تحقيق هذه البشرى - بإذن الله تعالى (٢٨) . ولذا كان الحديث مباشرة بعد هذه الآية عن يحيى - عليه السلام - دليلاً على أن هذه الآية علامة له على الإنجاب ، والإنبات ، وإصلاح الزوج من العقم ، وإصلاحه من ضعف الكبر ، وكأنهما دون هذه العيوب والعوائق .

الوصية ليحيى - عليه السلام :

قال تعالى :

﴿ يا يحيى ، خذ الكتاب بقوة ، وآتيناه الحكم صبياً ، وحناناً من لدنا ، وزكاة ، وكان تقياً ، وبراً بوالديه ، ولم يكن جباراً عصياً ، وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ، ويوم يبعث حياً ﴾ (٢٩) .

(٢٨) وقريب من هذا موقف الخليل إبراهيم - عليه السلام - حين سأل ربه سبحانه عن إحياء الموتى ، وإجابة الله تعالى له ، وتوضيح الغاية من السؤال ، وهى اطمئنان القلب ، وليس الشك في قدرة الله سبحانه ، قال تعالى في هذا الشأن :

﴿ وإذ قال إبراهيم : رب ، أرى كيف تحيي الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي . قال : فخذ أربعة من الطير ، فصرنهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم ادعهن يأتينك سعيًا ، واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ (البقرة ٢٦٠) .

ويمكنك أن ترجع إلى تفصيل ذلك ، في فصل الخليل إبراهيم - عليه السلام .

(٢٩) سورة مريم ، الآيات من رقم ١٢ ، إلى رقم ١٥ .

تناولت الآيات الكريمة السابقة جوانب ثلاثة بالنسبة ليحيى - عليه السلام :

- جانب الأمر ، والتكليف .

- وجانب مجال هذا التكليف .

- وجانب الأمان المشمول به دنيا ، وآخرة .

. فأما الجانب الأول ؛ جانب الأمر ، والتكليف ، فقد خاطبه الله سبحانه - بعد أن خصه ، وعينه بالنداء - وكلفه أن يأخذ الكتاب بقوة ، والكتاب الذى نزل على بنى إسرائيل هو التوراة ، أى تعلم الكتاب بجد ، وحرص ، واجتهاد ، وإذا ما كان الفهم للتوراة على هذا النحو ، استتبع الدعوة إليه تدارساً ، وفهماً ، وتطبيقاً من بنى إسرائيل ، ومعنى ذلك أن كسلاً أصابهم فى تناول الكتاب حتى صار تناوله من يحيى - عليه السلام - مميزاً له عنهم ، وإلا ما كان تخصيصه بأخذ الكتاب بقوة ، والله أعلم .

وإذا ما بدأت الدعوة إلى الله تعالى ، بدعاة جادين : يشقون طريقها بعون الله تعالى ، وإذا كان مرجعهم واضحاً هو كتاب الله سبحانه ، منهج حياة متكاملة ، عبادة ، وتشريعاً ، وإذا ما كانت القوة سمة لهم ، فى عقيدتهم ، وفى دعوتهم ، وفى جماعتهم ، يستملونها من الله القوى المتين ، إذا ما كانوا كذلك بدأت الدعوة إلى الله تعالى خطواتها الأولى ، والموفقة . وتأمل هذا كله فى هذا التعبير القرآنى الكريم :

﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾

وأما الجانب الثانى ، مجال التكليف .

وحتى يتم للجانب الأول - أخذ الكتاب بقوة - كان توفيق الله سبحانه ، وسداده ، لمن يتحمل عبء هذا التكليف ، فإذا ما وكلنا إلى أنفسنا فأى نجاح نحققه دون معية العزيز الحكيم ؟

وبين الله سبحانه أنماط السلوك الحميد التي يجب أن يتصف بها الدعاة إلى الله سبحانه ، في ضوء قصة نبي الله يحيى - عليه السلام .

وهذه الأنماط السلوكية هي :

- تعهد النشء منذ الصغر ، وتربيتهم على دعوة الله سبحانه ، فتنمو معارفهم بالتحصيل ، والحفظ ، وتنمو عقولهم بالفهم ، والاستنباط ، وتنمو مشاعرهم بالحب والتضحية ، وتنمو مهاراتهم وقدراتهم الحركية ، والقيادية ، والصناعية - إن التعهد المبكر بهذا النشء على هذا النحو نعمة يسوقها الله سبحانه لأبناء الإسلام ، على يد الدعاة المخلصين ، وكانت مجال المن ، والتفضل منه سبحانه على نبيه يحيى - عليه السلام - قال تعالى :

﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾

- إن الرفق ، والحنان ، والشفقة ، من أهم ما يتصف به عباد الرحمن ، وما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه ، وإن الله سبحانه يحب الرفق في الأمر كله . إن الحنان الذي آتاه الله تعالى يحيى - عليه السلام - من لوازم الداعية إلى الله تعالى ، لأنه يتقدم إلى الناس ببضاعة لم يألفوها برغم سلامتها ، وجودتها ، وتخالف ما تعاهد عليه الآباء والأجداد ، وتخالف الدعوات الأرضية التي تحرك الناس ببريق المال .

إن الدعوة في ذاتها صحيحة ، ولا يكفي هذا في ميادين النجاح والفوز ، لأنه يجب أن يقوم بأعبائها دعاة يتصفون بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن يكظمون الغيظ ، ويعفون عن الناس ، ويقفون مع المظلوم حتى يؤخذ له حقه ، وينتصف له ، وضد الظالم حتى يقتص منه ، وهو في الوقت نفسه يحب لكل منهما الخير والهداية .

إن هذا الرفق قد أعطاه الله سبحانه ، وآتاه للنبي يحيى ، وكل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - والسعيد من الدعاة من كان الرفق صفة له .

- إن الزكاة تطهير . فهي بالنسبة للمال تطهره من الدنس ، والحرام بمنع الفقراء حقوقهم فيه ، وهي بالنسبة للنفس تطهرها من الشح ، والبخل ، وكل

ما يعيبها من نقص ، وعيب . وهى بالنسبة للمجتمع تطهير من ظواهر الفساد ، وعناصر الإفساد . هذه التزكية ، وهذا التطهير المبكر ليحيى - عليه السلام - أهله لأن يكون نبيا ، قال الله تعالى :

﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (٣٠) .

- إن التعامل مع الناس يتم على أساس من تصنيفهم ، وتحديدهم ، وتمييزهم ، ليس على سبيل التفرقة العنصرية المنتنة ، ولكن لغرض اختيار الأسلوب الأنسب فى التعامل مع كل إنسان : فهنا والد ، وتلك أم ، وهؤلاء أولاد وذرية ، وهؤلاء رحم وأقارب ، وذلكم جيران ، وهنالك بقية الناس الذين يحتك بهم المسلم ، قريبا ، أو بعدا ، ولكل من هؤلاء حق يجب على المسلم أن يؤديه ، حسب الأولوية ، والأهمية ، دون خلط ، أو قلب ، وأول الناس الذين لهم حقوق على الإنسان الوالدان ، ولذا كان البر بهما من أول البر ، والإحسان إليهما يلى فى الدرجة توحيد الله سبحانه ، وعبادته ، وتقواه ، وقد قضى الله سبحانه ، وحكم بذلك ، ولذا جعل البر بالوالدين سمة مميزة ليحيى - عليه السلام - وتأمل هذا فى قوله تعالى : ﴿ وبرأ بوالديه ﴾ .

- وإذا ما كانت الأنماط السلوكية السابقة تمثل الجانب الإيجابى فى المرء ، فنفى الجانب السلبى يأتى لتأكيد الجانب الإيجابى من ناحية - حسب قاعدة مفهوم المخالفة - وتحذيراً للمرء من ولوج طريق الشيطان بالمعصية من ناحية أخرى ، واختير من الجوانب السلبية التى تم نفيها عن يحيى - عليه السلام - جانب التجبر ، والتمرد على الحق .

فلم اختير هذا الجانب السلبى دون غيره لينفى ؟

إن بنى إسرائيل قد عرفوا بهذا التجبر ، والظلم ، حتى وصل بهم الأمر أن تجبروا على أنبيائهم . من بنى جنسهم ، وجلدتهم ، فناسب أن ينفى عنه ما شاع بين القوم تكريما له ، وتفضيلا عليهم .

(٣٠) سورة الأنعام ، الآية رقم ١٢٤ .

كما أن الحديث عن الوالدين ، والبر بهما يناسبه بشكل أعمق أن يتجنب الابن عن كل ما من شأنه إساءة ، أو قريب من الإساءة ، أو ما يظن فيه إساءة وتضجر وتأفف ، ثم في الوقت نفسه يناسب الحنان ، والتقوى ، وما يقاربهما ابتعاد المرء عن التجبر والتمرد . وإشارة أيضاً إلى أن رسالة يحيى - عليه السلام - والدعاة إلى الله سبحانه ، رسالة تقاوم المتجبرين في الأرض ، والمتمردين على دعوة الحق . ومن كانت هذه رسالتهم فلا بد أن ينفوا عن أنفسهم الصفة التي تصدوا لحربها ، وإزالتها من نفوس غيرهم .

ويبقى الجانب الثالث والأخير ؛ جانب الأمان .

يزعم المتجبرون في الأرض أنهم بالكبت ، والقهر ، والتصفيات الجسدية ، أنهم يوفرون لأنفسهم الأمن والأمان ، وكلما أوغلوا في ظلمهم نراهم قد زادوا من الحراس عليهم ، وزادوا من الشك فيمن حولهم ، ولو كان أقرب الناس إليهم ، ويصل بهم الأمر إلى أنهم لا يتناولون طعاماً إلا بعد أن يتناول صانعه ومقدمه جزءاً منه ، ويلبسون ملابس واقية من الرصاص ، وهو وسط حراسه ، ووسط من ظن بهم أمنه وسلامته ، ومن مأمته يؤق الحذر ، ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله ؛ إنهم أرادوا الأمن من غير طريقه ، لأن طريقه ، المنصوب على قارعة إشارة خضراء ، أن يكونوا عادلين مع هؤلاء الناس ، لا محابة لقريب ، ولا تمييز على أساس عنصري جاهلي .

وتأمل كيف ينزل الأمان والسلام ، والسكينة على قلوب عباده المؤمنين ؟ ومتى ؟

يشملهم الأمن أول مواجعتهم للحياة ، يوم الولادة ، وتستمر طول حياتهم ، لأنهم مع الله رب الأرباب أقوى من الآلهة المزيفين . وفي أشد حالات المرء حين يغادر الدنيا ، تعلو وجهه بسمة الرضا والسرور ، حتى ولو كان يواجه الجلادين ، يصرح بآيات الذكر الحكيم أما غيرهم للأسف فمع قوتهم وسلاحهم - في عبوس وتجهم ، وهم في جمع غفير أمسكوا بفرد أعزل مقيد هزيل الجسم ، ولكنه يتسم !!

ألم يكن كذلك يحيى - عليه السلام ؟

ثم هناك الأمان يوم زلزلة الساعة :

﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد ﴾ (٣١) .

إن الله تعالى قد ساق إلينا هذا كله فى شخص يحيى - عليه السلام - وفى ضوء قوله تعالى بشأنه :

﴿ وسلام عليه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حياً ﴾ (٣٢) .

فعليه ، وعلى النبى - محمد - أفضل الصلاة ، وأزكى التسليم .

تبليغ يحيى - عليه السلام - الرسالة :

ورد بهذا الشأن حديث طويل يبين بعض المواقف التى كانت ليحيى - عليه السلام - مع قومه بنى إسرائيل .

عن الحارث الأشعري (٣٣) - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال :

« إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات ، أن يعمل بهن ، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، وكاد أن يبطىء ، فقال له عيسى - عليه السلام :

إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن ، وتأمر بنى إسرائيل أن

(٣١) سورة الحج ، الآية رقم ٢ .

(٣٢) سورة مريم ، الآية رقم ١٥ .

(٣٣) هو الحارث بن الحارث الأشعري ، صحابى ، تفرد بالرواية عنه أبو سلام ، كنيته ، أبو مالك ، وفى الصحابة اثنان غيره ، كنيتهما ، أبو مالك ، قال فى التهذيب : « أخرج له الترمذى ، والنسائى حديث : إن الله أمر يحيى . » وهو حديثنا هذا . الإصابة لابن حجر ج ١ ص ٢٧٥ رقم ١٣٨٤ ، ومسند الشاميين ج ١ ص ٣٥٨ .

يعملوا بهن ، فإما أن تبلغهن ، وإما أن أبلغهن . فقال :

يا أخى ، إني أخشى إن سبقتني أن أعذب ، أو يخسف بي .

قال (أى النبى محمد - ﷺ) :

(فجمع يحيى بنى إسرائيل فى بيت المقدس ، حتى امتلأ المسجد ، فقعد على الشرف ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات ؛ أن أعمل بهن ، وأمركم أن تعملوا بهن :

- وأولهن : أن تعبدوا الله ، لا تشركوا به شيئاً ، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بـورق ، أو ذهب ، فجعل يعمل ، ويؤدى غلته إلى غير سيده . فأياكم يسره أن يكون عبده كذلك ؟ وأن الله خلقكم ورزقكم ، فاعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً .

- وأمركم بالصلاة ؛ فإن الله ينصب وجهه قبل عبده مالم يلتفت ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا .

- وأمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثـل رجل معه صرة من مسك فى عصابة ، كلهم يجد ريح المسك ، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

- وأمركم بالصدقة ؛ فإن مثل ذلك كمثـل رجل أسره العدو ، فشدها يده إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه . فقال : هل لكم أن أفتدى نفسى منكم ، فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل ، والكثير حتى فك نفسه .

وأمركم بذكر الله عز وجل كثيراً ، فإن مثل ذلك كمثـل رجل طلبه العدو سراعاً فى إثره ، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه ، وأن العبد أحصن ما يكون من الشيطان ، إذا كان فى ذكر الله عز وجل .

قال : (أى الحارث الأشعري) ، وقال رسول الله - ﷺ :

« وأنا آمركم بخمس ؛ الله أمرني بهن :

- بالجماعة .
 - والسمع .
 - والطاعة .
 - والهجرة .
 - والجهاد في سبيل الله
- فإن من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه ،
إلا أن يرجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثا جهنم ،
قال : يا رسول الله ، وإن صام ، وصلى ؟
قال :

« وإن صام ، وصلى ، وزعم أنه مسلم . ادعوا المسلمين بما سماهم الله عز وجل » (٣٤) .

- ونرى في هذا الحديث بإيجاز :
- حرص الأنبياء على تبليغ دعوة ربهم ، وعدم التباطؤ في ذلك .
 - تقديم النصيح في صالح الدعوة ، وتنفيذ أمر الله سبحانه .
 - أن عمل الداعية بما يدعو إليه لا بد أن يكون سابقا للدعوة .
 - رقة مشاعر الأنبياء وخوفهم من التقصير في جنب الله سبحانه والدعوة إليه .

(٣٤) أخرجه الإمام أحمد ، وأبو يعلى ، والترمذى ، وابن ماجه ، والحاكم ، والطبرانى ، وابن عساكر . ابن كثير فى البداية والنهاية ج ٢ ص ٥٢ ، ٥٣ . ومسند الشاميين ، من مسند الإمام أحمد ، للدكتور على محمد جماز ج ١ رقم ٣٥٢ ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ . طبعة دولة قطر ، وقيل فى درجة الحديث : إسناده حسن (أى يصل إلى درجة الثبوت ، ولا ينهض إلى درجة الصحة) ، وقال الترمذى فيه : حديث حسن صحيح ، غريب .

- أن عذاب الله سبحانه مرتبط بما يرتكبه المرء من ذنوب وآثام وما أصابكم من مصيبة فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ .
- اختيار المسجد بيئة صالحة للدعوة إلى الله تعالى ، كما اختار يحيى - عليه السلام - بيت المقدس .
- أن تبليغ الدعوة ، يجب أن يكون للناس جميعاً حسب إمكانية الداعي .
- اختيار المكان البارز لجلوس الداعية ، أو وقوفه ، كشرف عال ، أو منبر ؛ حتى يسمع الحاضرون .
- الاستفتاح في الخطبة بالحمد لله تعالى ، والثناء عليه بما هو أهله .
- التقديم بما يوحي أن الأمر للجميع ، بما فيهم المتحدث .
- أهم الأوامر التي يجب أن يشغل بها الداعية نفسه أولاً ، هو توحيد الله سبحانه بالربوبية .
- ضرب الأمثلة التي توضح المعاني وتقربها من وسائل الدعاة إلى الله سبحانه .
- الأمر الذي يترجم صحة الإيمان ، بالدرجة الأولى الصلاة ، ولذا يجب أن تكون في درجتها بعد توحيده سبحانه .
- والصيام تال للصلاة ، فالعقيدة عمل قلبي بحت ، والصلاة ، والصيام امثال بالجوارح ، وتطويع الجسم للقلب المؤمن .
- والصدقة برهان على ما سبق ، وهي في محيط المجتمع كله ..
- ثم ذكر الله سبحانه في كل عمل يعمل المرء . إذا عمل عملاً أن يتقنه ؛ فهو في ذكر الله بلسانه ، وجوارحه ، في صباحه ومساءه .

دروس وعبر :

- إن الله سبحانه يصطفى من عباده لحمل عبء الدعوة من يكونون أهلاً لذلك ، وأول المصطفين هم الأنبياء ، وفي مقدمتهم أولو العزم - عليهم الصلاة والسلام .

- إن تشریف الله سبحانه لأنبيائه . لم يكن مدعاة لأن يكونوا عالة على غيرهم ، بل يزيد من تبعاتهم ، فكان كل يأكل من كسب يده ، وما من نبي إلا ورعى الغنم .

- حب بيوت الله سبحانه ، خدمة لها ، وإقامة فيها ، واختيارها أنسب مكان للدعوة إلى الله سبحانه .

- المسلم يكفل اليتيم ، ويرعاه ، ويحفظه من الإهانة ، والتضييع من كفالة الظالم .

- الله سبحانه يرعى عباده المؤمنين ، ويحفظهم ، ويرزق من يشاء بغير حساب ، وقد أحس زكريا - عليه السلام - هذا بوضوح في توالى النعم على مريم .

- نعمة الأبناء تكون إذا ما كانوا صالحين ، سائرين على منهج الله سبحانه ، ولذا حين يتمنى المسلم النرية . يجب أن تتضح في ذهنه هذه الصورة للنرية ، ولذا كان الطلب هبة النرية الطيبة .

- الله سبحانه هو الوهاب الرزاق إليه يتوجه المرء بالدعاء ، ومنه يرتجى العون ، فهو لا يعجزه شيء في الأرض ، ولا في السماء ﴿ الله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرا ، وإناثا ، ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير ﴾ (الشورى ٤٩-٥٠) فهو الذى يجعل ، وبقدرته أن يحول العقم إلى قدرة على الإنجاب .

- الاستجابة للدعاء مرهونة بتحقيق شروطه ، ومنها الإذعان التام لمنهج الله سبحانه في كل حياة المسلم ، والله سبحانه يستجيب لعباده على أى شكل من

الأشكال إذا ما بذلوا الأسباب المشروعة في ذلك .

- طلب الآية ، والعلامة ، أو البرهان إلى الله سبحانه ليس مناقضاً للإيمان ، بل يزيد القلب يقيناً ، واطمئناناً .. وعلى الداعية أن يوفر للمدعوين المزيد من هذه البراهين ، لتحقيق المزيد من يقينهم ، واقتناعهم بصحة الدعوة .

- ضرب المثل المناسب منهج قرآني ﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾ (مريم ٩) وعلى المسلم أن يتأسى به ، ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون ﴾ (آل عمران ٥٩) .

- من صفات عباد الرحمن ؛ المسارعة في الخيرات ، والخشوع والخضوع لله سبحانه ، رغبا ، ورهبا .

- من لوازم الداعية المسلم : أن يتناول الدعوة بمجد ، وفهم ، واستيعاب ، وأخذها بقوة ، وأن يُعطى من الحكمة في القول ، والسداد والتوفيق من الله سبحانه ، كما أنه وهو يقدم دعوته للناس ، عليه أن يقدمها برفق وحنان على أساس من الحكمة والحماسة والقوة ، وأن يكون مثلاً صالحاً مع أقرب الناس إليه يبرهم ، ويتودد إليهم ، وألا يكون التجبر منهجه حين يكون في السلطة .

- السلام نعمة ، وغاية ، وقد يأتي عن طريق القوة . بالضرب على أيدي العابثين .

- تربية الجيل المسلم على طاعة الله سبحانه في كل جوانب الحياة ، ليكونوا في مستقبلهم جنوداً عاملين في الدعوة إلى الله تعالى : ولذا كان إيتاؤه سبحانه الحكم والحكمة ليحيى - عليه السلام - وهو صبي .

- تكامل الدعوة : قوة في الاعتقاد ، تربية وتعليم للنشء ، تعامل برفق ، تكامل اجتماعي بالزكاة بر بالأقربين ، محاربة المتجبرين والعاصين ، وضوح الغاية والهدف بتقوى الله عز وجل .

- تكوين الجماعة المسلمة التي تحمل عبء الدعوة إلى الله تعالى ، وتقيم حكم الله في الأرض ومن صفاتها التنظيمية : أن يسمع أفرادها ، ويطيعون في

المعروف ؛ ليكون بناء الجماعة متماسكا والانتقال إلى مواطن أخرى للدعوة إلى الله ، وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية . والجهاد في سبيل الله - ذروة سنام الإسلام - هو الذى يحمى الدين وينشره ، وبالقعود عنه تفقد الدولة قيمتها . التحذير من مغبة المخالفة للجماعة ، وأن من يدعو إلى الفرقة جاهل ويدعو إلى جاهلية ، وأن على المسلم أن يحارب الجاهلية ، وأن يتبرأ من صفاتها .

عيسى - عليه السلام .

- نذر امرأة عمران .
- إنبات مريم إنباتاً حسناً .
- اصطفاء مريم .
- انتباز مريم المكان الشرقى .
- الحمل بعيسى - عليه السلام .
- مريم فى حوار مع قومها .
- نطق الطفل تبرئة ، ورسالة .
- من صفات عيسى - عليه السلام .
- من معجزات عيسى - عليه السلام .
- التأييد بروح القدس - عليه السلام .
- عيسى - عليه السلام - مصداقاً ، ومبشراً .
- دعوته لقومه .
- دعوته للحواريين .
- خبر المائدة .
- التوفية ، والرفع إلى السماء .
- تنزيه الله سبحانه عن الولد .
- نزول عيسى - عليه السلام - قبل يوم القيامة .
- عيسى - عليه السلام - فى السماء الثانية .
- دروس وعبر .

نذر امرأة عمران .

قال الله تعالى في هذا الشأن :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ ، وَنُوحًا ، وَآلَ إِبْرَاهِيمَ ، وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ، ذُرِّيَّةَ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ : رَبِّ ، إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ؛ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ : رَبِّ ، إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ، وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ، وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ، وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْهَا بَكَ ، وَذُرِّيَّتَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝ (١) .

يبدأ الحديث عن عيسى - عليه السلام - بوصف الشجرة الطيبة التي يتصل بها ، ويتفرع منها .

- فقد اصطفى الله سبحانه آل عمران ، واختارهم على عالمي زمانهم .
- وأن آل عمران امتداد لإيماني لآل إبراهيم ، ونوح ، وآدم - عليهم السلام .

- وأن سلسلة الأنبياء متصلة الحلقات ومتراصة .

- وأن الإيمان يجب أن يكون بهم جميعاً ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ .

- وأن الله سبحانه يتصف بالسمع ، والعلم ؛ يسمع عباده حين يجأرون إليه بالشكوى ، وحين ينذرون الخير له سبحانه ، ويعلم ما يصلحهم وما يضرهم ، ويعلم حين يرزق بالأنثى ، ماذا يريد بها ؟ وحين يرزق بالذكر أى خدمة يؤديها ؟

وفي ضوء هذا البيان والوصف للجوانب الإيمانية ، يبدأ الحديث على لسان امرأة عمران أم مريم ، حيث يخبرنا الله سبحانه :

(١) سورة آل عمران ، الآيات من رقم ٣٣ إلى رقم ٣٦ .

- أن امرأة عمران رأت عوارض الحمل في بطنها ، فنذرت أن تهبه لخدمة المسجد الأقصى ، حبيساً ، ومحراً له ، وخاصاً به دون أى عمل آخر . وقد اعتادوا أن القائم بهذه الخدمة أن يكون من الرجال ، لا النساء . لما بالرجال من جلد ، وقدره جسمية على تحمل أعباء الخدمة ، فهي قد نذرت ما في بطنها بشكل عام ، ولكن الهدف من النذر حدد رغبتها في نوع الجنس المتمنى ، وهو الذكر ، كما توحى عبارات النذر أن امرأة عمران لم يسبق لها أن ولدت .

- وشفعت امرأة عمران دعاءها ، وطلبها بما يجب أن يشفع به المؤمن الصالح دعاءه ، ومناجاته لربه سبحانه ، فألحت على ربها سبحانه أن يقبل منها نذرها ، وطلبها قبول النذر ، كما شفعت امرأة عمران دعاءها بما قرره الله سبحانه قبل ذلك من الاعتقاد بأنه سميع عليم . مما يدل على أن آل عمران تربوا على الاعتقاد الصحيح ، وأن امرأة عمران نموذج إيماني طيب .

وجاءت لحظة الوضع ، اللحظة المنتظرة التي يترتب عليها ما بعدها ، وكانت المفاجأة غير المنتظرة ، فقد نظرت إلى المولود فإذا به أنثى ؛ فظهرت الدهشة على وجهها ، والتعجب في قولها : رب ، إني وضعتها أنثى ، وقدمت لفظ « رب » لما بها من شدة الدهشة والتعجب ، ولم تقدم الموضوع ذاته ، وهو ولادة الأنثى ، ليدل على العلاقة الوطيدة بالرب سبحانه ، وأن القضية في ذاتها - مهما كانت ضخمة - فهي موكولة إلى الله السميع العليم .

والله أعلم بما وضعت ، فإن كانت هي على علم بأمرها فالله سبحانه أعلم ، وجاءت العبارة لتؤكد ما قرره الآيات قبل ذلك من الاعتقاد بأنه سميع عليم ، وترد برفق على امرأة عمران ، وأم مريم ، وتشير إلى أن هناك خطأ مرسوماً وهدفاً معلوماً من ولادة الأنثى ؛ لتكون أما من نوع خاص تلد دون زوج ، والعبارة جاءت معترضة لتقوم بهذه المهمة . « والله أعلم بما وضعت » وتحتمل العبارة التالية : « وليس الذكر كالأنثى » أن تكون امتداداً لقول أم مريم ، وبيانها بأن الرجل في خدمة المسجد الأقصى ليس كالأنثى ، كما يحتمل أن تكون امتداداً لما سبقها مباشرة .

وبدأت تفيق امرأة عمران على الأمر الواقع المشاهد ، وتنفذ ما يطلب إليها

حين ولادة مولود .

وأول البشريات للمولودة الأنثى التى بعثت الرضا ، والأمل فى قلب الأم ، فقد نزلت من بطن الأم دون صراخ ، وبكاء ، مع وجود الحياة ومظاهرها .

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ما من بنى آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد ، فيستهل صارخاً من مس الشيطان غير مريم ، وابنها » .

ثم يقول أبو هريرة :

« وإنى أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » (٢) .

وأسهمت امرأة عمران فى مجريات الأحداث ، بتوفيق من الله سبحانه ، فاختارت للمولودة الجديدة اسماً هو مريم فى لحظة ولادتها ، وفى ذلك دليل على جواز التسمية حين الولادة ، وقد جاءت الشريعة الخاتمة بما يفيد ذلك .

فعن أبى موسى - رضى الله عنه - قال : ولد لى غلام ، فأتيت به النبى ﷺ - فسماه إبراهيم ، فحنكه بتمر ، ودعا له بالبركة ، ودفعه إلى ، وكان أكبر ولد أبى موسى (٣) .

وعن سهل بن سعد - رضى الله عنه - قال : أتى بالمنذر بن أبى أسيد (٤) إلى

(٢) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسى - عليه السلام ، رقم ١٥٢٧ ص ٦٢٢ ، وصحيح البخارى فى كتاب الأنبياء . باب واذكر فى الكتاب مريم ج ٤ ص ١٩٩ . وقد رواه الإمام أحمد من عدة طرق عن أبى هريرة ، ورواه غيرهم أيضاً .

(٣) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان . كتاب الآداب ، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته ، وحمله إلى صالح يحكنه ، وجواز تسميته يوم ولادته ، رقم ١٣٨٧ ص ٢٥٦ .

(٤) المنذر بن أبى أسيد الساعدى ، واسم أبى أسيد مالك بن ربيعة الأنصارى الخزر جى ، ولد عام الفتح ، والرسول ﷺ - هو الذى سماه باسمه هذا ، كما ترى فى =

النبي - ﷺ - حين ولد ، فوضعه على فخذه ، وأبو سعيد جالس ، فلها
النبي - ﷺ - بشيء بين يديه ، فأمر أبو أسيد بآبئه ، فاحتمل من فخذ
النبي - ﷺ - فاستفاق النبي - ﷺ - فقال : « أين الصبي ؟ » فقال أبو
أسيد : قلبناه يا رسول الله . قال : « ما اسمه ؟ » قال : فلان . قال : « ولكن
أسمه المنذر » فسماه المنذر (٥) .

وفى الباب أيضاً تسمية مولود أبي طلحة ، وأم سليم (٦) - رضى الله
عنهما - من الرسول - ﷺ - بعد الله (٧) .

فجاءت تسمية امرأة عمران مولودتها بمريم حين ولادتها موافقة للسنة
النبوية التي عليها الأنبياء ، وعليها خاتمهم محمد - ﷺ .

وتلك التسمية وفى هذا الوقت ، وإعازة من الشيطان الرجيم أكدت

= الحديث . الإصابة لابن حجر ج ٣ ص ٤٨٠ رقم ٨٣٣٣ ، ولعل سهل بن سعد هو
الخزرجى الأنصارى الساعدى من مشاهير الصحابة ، عاش نحو مائة سنة ، وله فى كتب
الحديث (١٨٨) حديثاً عن فهارس حدائق الأنوار للشيباني ج ٢ ص ١١٦٣ .
(٥) المصدر السابق رقم ١٣٨٩ .

(٦) أبو طلحة الأنصارى اسمه زيد بن سهل بن الأسود بن حرام .. الأنصارى
النجارى الخزرجى ، شهد بدرأ وما بعدها ، وورد فى شأنه : لصوت أبى طلحة فى الجيش
خير من مائة رجل ، وقتل فى حنين عشرين رجلاً ، وكان يتناول بصره يقى به رسول الله
- ﷺ - ويقول : نحرى دون نحرى . توفى سنة إحدى وثلاثين ، وهو ابن سبعين سنة ،
وصلى عليه عثمان - رضى الله عنهما . الاستيعاب لابن عبد البر ، هامش الإصابة
ج ٤ ص ١١٣ .

وزوجته أم سليم (بضم السين ، وفتح اللام) واسمها : سهلة ، وقيل : رُميلة ،
أو رُمَيْة ، أو مُليكة ، أو الرميضاء ، أو الغميضاء . كانت تحت مالك بن النضر أبى أنس
- ابن مالك ، فلما جاء الله بالإسلام ، أسلمت مع قومها ، وعرضت الإسلام على زوجها فغضب
عليها ، وخرج إلى الشام فهلك هناك ، ثم تزوجها بعده أبو طلحة الأنصارى . فهارس الأعلام ،
لحدائق الأنوار ، للشيباني ص ١١١٤ ، و ص ١١٦٣ .
(٧) المصدر السابق رقم ١٣٨٦ .

اصطفاه الله سبحانه لآل عمران ، بذكر أسبابه ، ومنذ ذاك الحين بدأ الحديث عن مريم ، بعد أن أدت أمها أهم الأدوار في حياتها .

إنبات مريم الإنبات الحسن :

قال الله تعالى :

﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتنا نباتاً حسناً ، وكفلها زكريا ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال : يا مريم ، أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ (٨) .

وقال تعالى :

﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم . أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ (٩) .

ولدت امرأة عمران ، وسمت ابنتها مريم ، وأعازتها بالله سبحانه من الشيطان الرجيم ، وتمت هذه الأمور الثلاثة لحظة الولادة ، وبدأت فترة الحضانة في رعاية الأم ، وإن لم تحدثنا الآيات عن هذه الفترة على وجه التصريح ، فقد أشارت إليها قبل كفالتها ، وأن الأصل في ذلك أن تكون الأم هي دون غيرها الموكولة إليها رعاية الطفل الرضيع ؛ لما تقوم به من الرضاعة حولين كاملين .

والعبارة التي أشارت إلى فترة الحضانة هي :

﴿ فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتنا نباتاً حسناً ﴾ (٨) .

والتقبل هنا استجابة لدعاء الأم ، وهي حامل : « فتقبل مني » وامتداد لما صنعتته عقب الولادة ، وسياق العبارة على هذا النحو يدل على :

- أن الله سبحانه هو الذى سيربها ، ويرعاها الرعاية الخاصة ، التى تختلف عن تربية الأخريات من البنات .

(٨) سورة آل عمران ، الآية رقم ٣٧ .

(٩) سورة آل عمران ، الآية رقم ٤٤ .

- وأن الله سبحانه استفتح حياتها بالقبول ، والرضا .
- وأن هذا القبول خاص بمريم ، وما كانت الأم إلا سببا من الأسباب ، فلم يكن التعبير مثلاً « فتقبل الله دعاء امرأة عمران في مريم » ولكن كان : « فتقبلها ربها » .
- وأن حياة مريم بمعرفة الله سبحانه ، وتعهده لها التعهد الحسن الطيب .
- وأنها أيضاً بالصورة القويمة المكتملة ، ليس بها من عيب خَلَقَ (بكسر الخاء) أو خَلَقَ (بضم الخاء) .
- وانتهت فترة حضانة الأم لابنتها مريم ، وعليها أن توفي بالنذر ، وتقدمها إلى المسجد الأقصى خادمة له ، وحيث يقيم الصالحون فيه .
- فأى هؤلاء الصالحين الأتقياء يكفل مريم ؟
- ورأى الجميع بشائر الرضا الإلهي بمريم الصغيرة ، والقبول الطيب الحسن ، تسارعوا ، وتنافسوا . كل يريد أن يكون هو من يشرف برعايتها ، وكفالتها .
- وتلك الرغبة تعنى أمرين :
- ١ - الأمر الأول : أنه لابد في نظرهم من تحديد مسئول عن الصغيرة ، ولا تترك ليعتمد هذا على ذاك ، وفي ذلك ضمان للصغيرة مريم ، وأن ذلك كان من شأنهم في تعيين الوصى ، والولى .
- ٢ - الأمر الثانى : أن العمل الصالح ، يتنافس على القيام به الناس الصالحون . دون مقابل مادي ، وأن ذلك واجب شرعى يحسونه جميعاً ، ويدركونه ، وقد بدعوا تنفيذه منذ اللحظة الأولى دون توائٍ ، أو تراخ .
- وانخذت هذه الرغبة طريقها إلى التنفيذ ، فواجهت عدداً يريد أن يقوم كل منهم بالكفالة ، فكانت القرعة هى الحل لما بين القوم من خصومة وتنازع في الخير ، فاختر كل منهم قلماً مميزاً باسمه مثلاً ، ووضعت جميع الأقلام في مكان بعد أن خلطت ببعضها ، ليسحب واحد منهم أيها ، وخرجت القرعة بقلم زكريا - عليه السلام .

وفصلت هذه القرعة بين فترتين :

١ - فترة حضانة الأم بالإرضاع ، ومايلزم للصغيرة من رعاية أمها لها .

٢ - وفترة كفالة زكريا - عليه السلام - لها ، بعد أن ضمت إلى المسجد الأقصى .

وتأتى العبارة « وكفلها زكريا » مفتتح الفترة الثانية على هذا النحو من الضبط للفعل الماضى بتشديد الفاء ، فعُدَّى الفعل إلى مفعولين ، ضمير الغائبة ، وهى مريم ، وزكريا ، والفعل دون التشديد مثلاً تكون كلمة زكريا معه فاعلاً لا مفعولاً . فما الأثر إذن فى المعنى ؟

أعطانا التضعيف هذا حكماً لطيفاً ، هو أن الله سبحانه وتعالى هو المتكفل لمريم فى الحقيقة ، وأنه أعدّ ، وهياً ، وكفل شخصاً هو زكريا ليقوم بمباشرة هذه الكفالة ، وبما يوفقه الله سبحانه فى ذلك . ولا يتأتى هذا المعنى إذا ما ألغى التضعيف .

فالقبول الحسن من الله تعالى ، والإنبات الحسن من الله تعالى ، والتكفيل من الله سبحانه ، وهو حسن أيضاً ؛ لأن الله سبحانه هو الذى اختار زكريا - عليه السلام - ليقوم بلور الكفالة .

ويأتى الدليل الحاسم على ما سبق من تلك النعم الثلاث :

فقد تكرر أن زكريا - عليه السلام - حين كان يدخل على مريم فى محرابها ، ليقوم بما كلف إياه ، يجد الرزق الطيب عندها ، فيتساءل :

من أين لك هذا ؟ أحضره أحد المنافسين فى الخير ، وقد فزت عليهم بالقرعة ؟ أم من ؟ ﴿ أفى لك هذا ﴾ .

فتكون الإجابة ، والدليل على القبول ، والإنبات ، والتكفيل .

﴿ قالت : هو من عند الله ؛ إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ (١٠) .

فأى تكريم أجمل ، وأفضل من تكريم الله سبحانه لخير نساء العالمين ؟
إن الله سبحانه وتعالى ، يرزق عباده على النحو الذى يراه ، ويفضل بعضهم على بعض ، على النحو الذى يراه ، ويشأؤه بغير حساب . فخزائنه لا تنفذ ولا تنقص ، وليست كخزائن البشر التى تنقص بالأخذ ، وتزيد بالإضافة .

وتأتى أمنية زكريا - عليه السلام - أن يرزق بولد يُعطى من التكريم كما تعطى مريم ؛ دليلاً ثانياً على تأكيد القبول الحسن ، والإنبات الحسن ، والتكفيل الحسن ، وقد لى الله تعالى دعاءه كما سبق أن تحدثنا فى ذلك . والله أعلم بالصواب .

اصطفاء مريم :

قال الله تعالى :

﴿ وإذ قالت الملائكة : يا مريم ، إن الله اصطفاك ، وطهرتك ، واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم ، اقتنى لربك ، واسجدى ، واركعى ، مع الراكعين ﴾ (١١) .

وعن على - رضى الله عنه - قال : سمعت النبى - ﷺ - يقول :

« خير نساءها مريم ابنة عمران ، وخير نساها خديجة ﴾ (١٢) .

(١٠) سورة آل عمران ، الآية رقم ٣٧ .

(١١) سورة آل عمران ، الآيتان رقما ٤٢ ، ٤٣ .

(١٢) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان . كتاب فضائل الصحابة - باب فضائل

خديجة أم المؤمنين - رضى الله عنها - رقم ١٥٧٣ ص ٦٤٦ وصحيح البخارى ، كتاب الأنبياء . باب « إذ قالت الملائكة : يا مريم » ورواه أيضاً أحمد ، والترمذى ، والنسائى . من طرق عدة عن على - رضى الله عنه .

وعن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :

« كمل من الرجال كثير . ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » (١٣) .

وعن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :

« حسبك من نساء العالمين بأربع : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد » (١٤) .

يخبرنا الله سبحانه في النص القرآني أنه بلغ مريم بواسطة الملائكة أنه اصطفاها ، واختارها . والاصطفاء لا يكون إلا إذا توافرت مؤهلاته ، وأسبابه ؛ فقد وهبت لخدمة المسجد الأقصى قبل أن تولد ، وحين الولادة لم يمسه شيطان فلم تصرخ ، فقد أعادتها أمها من الشيطان الرجيم ، وتقبلها ربها ، وأنبتها نباتاً حسناً ، واختار لكفالتها نبياً من الأنبياء ، وأنزل لها الرزق من السماء . وتمت مؤهلات الاصطفاء وأسبابه .

كما يخبرنا أنه طهرها من الذنوب ، والآثام منذ صغرها ؛ - وحسبها أنها أقامت بالمسجد الأقصى - وهذا التطهير مقدمة لما سيحدث بعد ذلك من ولادة عيسى - عليه السلام - فإبرازه في سيرتها بين قومها ليكون أساساً في نفى التهمة عنها من الناس أنفسهم ، فقد ورد على لسانهم :

﴿ يا أخت هارون ، ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغياً ﴾ (١٥) .

(١٣) أخرجه الشيخان . المصدر السابق رقم ١٥٧٤ ، وصحيح البخاري كتاب الأنبياء ، باب قوله : ﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا ﴾ (التحريم ١١) .

(١٤) رواه الترمذي ، وصححه ، كما رواه أحمد . البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٥٩ ، ٦٠ .

(١٥) سورة مريم ، الآية رقم ٢٨ :

وعلى لسانها : ﴿وَلَمْ أَكْ بِغَيَا﴾ (١٣) .

أما تكاليف الاصطفاء والاختيار والتطهير ، فقد بينها الله سبحانه في قوله :

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ ، واسجدي ، واركعي مع الراكعين﴾ (١١)

فإذا ما كانت مريم قد بدأت مسيرتها على هذا النحو ، فهي هنا مكلفة بالثابرة على ذلك ، وملازمته ؛ استعداداً لأمر جليل سيحدث .

ومناطق التكليف هنا : القنوت ، والدعاء ، وذكر الله سبحانه ؛ وهذا إطار عام للتكليف . ثم السجود ، والركوع ، وإن كان بهما ذكر ودعاء ولكن هيئة السجود ، والركوع تمثل درجة أعلى في الخضوع والذلة لله سبحانه وتعالى . ثم هي في هذا الركوع ، والسجود تلازم جماعة المسلمين ، وفي أولهم زكريا - عليه السلام .

والنص القرآني بهذا يتضمن جانبين :

١ - جانب الحكم على الواقع الحاضر الممتد خلفاً إلى ما سبق من سيرة مريم ، وهو جانب الاصطفاء ، والتطهير ، وناسب هذا الجانب أن يكون بصيغة الإخبار .

٢ - جانب التكليف ، والأمر . والذي يبدأ بمجرد سماع الأمر ، ويمتد أمامياً إلى ما يقدم من أيام حتى الموت ، أو حتى ينسخه ناسخ . وناسب هذا الجانب أن يكون بصيغة الأمر كما ترى في النص القرآني .

كما تضمن النص القرآني مسألة متعلقة بالجانب الأول ، بينتها الأحاديث الشريفة السابقة . هذه المسألة هي اصطفاء مريم على نساء العالمين .

فالحديث الذي رواه أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - يبين أن هذا الاصطفاء كمال في الجسم ، وكمال في الأخلاق ، وقد شاركها في ذلك آسية امرأة

(١٦) سورة مريم ، الآية رقم ٢٠ .

فرعون ، دون تفضيل لإحدهما على الأخرى . والحديث الذى رواه أنس - رضى الله عنه - أضاف اثنتين هما خديجة ، وفاطمة - رضى الله عنهما - على اعتبار أنهما تاليتان لمريم ، وآسية ، وليس فى هذا أى تناقض . أما الحديث الذى رواه على - رضى الله عنه - فقد جاءت صيغة التفضيل بكلمة خير مضافة إلى كل من مريم ، وخديجة ، ووجود صيغة التفضيل فى نص واحد تدفعنا إلى أن نقول :

إما أن يكون اسم التفضيل على غير بابہ يعنى من خير نساء الدنيا كل من مريم وخديجة . وإما أن يكون على بابہ بمعنى أن خير نساء الدنيا فى زمان مريم هى مريم ، وأن خير نساء هذه الأمة ، أى منذ البعثة هى خديجة ، ولكل منهما امتداد طيب ؛ فقد كانت مريم أم عيسى - عليه السلام - أحد أولى العزم من الرسل ، وكانت خديجة إحدى الأربع الكاملات كما فى رواية أنس ، وكانت أم فاطمة - رضى الله عنهم أجمعين .

ولا يمنع أن تكون مريم أفضل النساء على الإطلاق ، وقد لقبها ربها بالصديقة حيث قال :

﴿ ما المسيح بن مريم إلا رسول ، قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ﴾ (١٧) .

فهى صديقة ، وهى أم نبي ، وكان حملها معجزة من المعجزات ، والله أعلم بالصواب .

انتباز مريم المكان الشرقى :

قال الله تعالى :

﴿ واذكر فى الكتاب مريم ؛ إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجابا ، فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشراً سويا ، قالت : إني

(١٧) سورة المائدة الآية رقم ٧٥ .

أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴿١٨﴾ .

إن مريم وقد أقامت بالمسجد الأقصى ، لا بد أنها كانت تخرج من المسجد في زمن حيضتها ، أو لحاجة ضرورية لا بد منها من استقاء ماء ، أو تحصيل غذاء ، أو دخول غائط ، وهى فى أى حال من هذه الأحوال تبتعد عن مكان إقامتها بالمسجد من ناحية ، وعن أهلها من ناحية أخرى ، وأن اتجأها كان إلى جهة الشرق ، وفى بعض هذه الأحوال تأخذ لنفسها سترأً يحجبها عن الناس جميعاً ، بحيث تكون فى مأمن من رؤية أحد لها .

وفى إحدى هذه المرات فوجئت بهيئة رجل سوى الخلق . فمن أين جاءها هذا الرجل ؟ وماذا يريد منها وهى عزلاء ؟

ما كان منها إلا أن تعوذت منه بمن يرحمها ويصون عفتها ، ويشفق عليها ، ومن اصطفاها على نساء العالمين ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وهى فى هذه الاستعاذة تستعطف هذا الرجل ، وتلوح إليه بتقوى الله سبحانه ، والخوف منه ، لعلّه يرجع عما ظنته فيه .

الحمل بعيسى - عليه السلام :

قال الله تعالى :

﴿فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشراً سوياً ، قالت : إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ، قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ، قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغياً ؟ قال : كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمراً مقضياً ، فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، قالت : يا ليتنى مت قبل هذا ، وكنت نسياً منسياً ، فناداها من تحتها : ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً ، وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ، فكلى ، واشربى ، وقرى عيناً ، فإما ترين من البشر أحداً فقولى :

(١٨) سورة مريم ، الآيات من رقم ١٦ ، إلى رقم ١٨ .

إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ﴿١٩﴾

وقال :

﴿ والتي أحصنت فرجها ، فنفخنا فيها من روحنا ﴾ (٢٠) .

وقال :

﴿ إذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله يشرك بكلمة منه ، اسمه المسيح عيسى بن مريم ﴾ (٢١) .

وقال :

﴿ قالت : رب أنى يكون لى ولد ، ولم يمسسنى بشر ؟ قال : كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون ﴾ (٢٢) .

وقال :

﴿ إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وكلمته ، ألقاها إلى مريم ، وروح منه ﴾ (٢٣) .

وقال :

﴿ وجعلنا ابن مريم ، وأمه آية ، وآييناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ (٢٤) .

وقال :

﴿ ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ، وصدقت بكلمات ربها وكتبه ، وكانت من القانتين ﴾ (٢٥) .

(١٩) سورة مريم ، الآيات من رقم ١٧ إلى رقم ٢٦ .

(٢٠) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٩١ . (٢٣) سورة النساء ، الآية رقم ١٧١ .

(٢١) سورة آل عمران ، الآية رقم ٤٥ . (٢٤) سورة المؤمنون ، الآية رقم ٥٠ .

(٢٢) سورة آل عمران ، الآية رقم ٤٧ . (٢٥) سورة التحريم ، الآية رقم ١٢ .

في مجموع هذه الآيات الكريمة ، التي تتحدث عن اللحظات الخرجة في حياة مريم يخبرنا الله سبحانه وتعالى :

أن مريم ابنة عمران أحصنت فرجها ، وعفت عن الحرام ، فالمرأة الحصان (بفتح الحاء) هي العفيفة بكرةً ، أو متزوجة ، ولذا كان من ردها على الرسول الملك :

﴿ ولم يمسنى بشر ، ولم أك بغياً ﴾ (١٩) .

فسيرتها على طهر ، ونقاء ، وحين جاء إليها الملك في صورة بشر ، استعادت بالله منه ؛ اعتقاداً منها بأنه بشر على الحقيقة ، وحين أخبرها بأنه رسول ربها إليها ، وظهر الصدق في هذا الإخبار ، فاطمأنت إليه ، فسوف لا يكون في ربها إلا كل خير ، وفي هذه الحالة النفسية الراضية بأمر الله سبحانه ، أخبرها الملك بأنه سيب لها غلاماً زكياً طاهراً من الدنس ، وسمى هذه الهبة بشري بكلمة من الله ، وروح من الله سبحانه .

واجهت مريم معجزة جديدة هي الحمل دون زوج ، والنتيجة معلومة سلفاً ، غلام طاهر ؛ لأنه كلمة من الله وروح منه ، وكانت مفاجأة لمريم تعجبت منها ، كيف يتم ذلك دون زوج ؟ وقطع التعجب بردّ الملك :

﴿ كذلك قال ربك : هو على هين ﴾ (١٩) .

﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء ؛ إذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون ﴾ (٢٢) .

فأذعنت للأمر ، وصدقت بكلمات ربها ، وكتبه . وما كان منها إلا ذكر الله وتقديسه .

وتخبرنا الآيات أيضاً بأن الذي تم لبء الحمل هو النفخ فقط ، والله على كل شيء قدير . وبقي عليها أن تعد شهور الحمل يوماً يوماً ، وتفكر مبدئياً . كيف تظهر أمام الناس حاملاً ؟ ثم كيف تظهر أمامهم حاملة وليدها ؟

ورأت أن تتخذ لنفسها مكاناً قصياً بعيداً عن أعين الناس ، وحن وقت

المخاض ، فاضطرها إلى اللجوء إلى جذع نخلة حيث بيت لحم الآن^(٢٦) ، ووصل بها الضيق في هذه الحالة أن تمت الموت بسبب الفتنة الشديدة التي ستعرض إليها ، وذلك أنها علمت أن الناس سيتهمونها ، ولا يصدقونها ، بل سيكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها ، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات ، المجاورات للمسجد ، المنقطعات إليه ، المعتكفات فيه . فحملت بذلك من الهم ماتمت أن لو كانت ماتت^(٢٧) قبل هذا ، أو كانت نسيا منسيا . أى لم تخلق بالكلية .

(٢٦) كما ينص الحديث الذي رواه النسائي بإسناد لا بأس به عن أنس مرفوعاً ، والبيهقي بإسناد وصححه عن شداد بن أوس مرفوعاً أيضاً ، ابن كثير في البداية ، والنهاية ج ٢ ص ٦٦

(٢٧) عن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ - :

« لا يتمنين أحد منكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لابد متمنيا الموت ، فليقل : اللهم ، أحيى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفى إذا كانت الوفاة خيراً لى » (أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الذكر ، والدعاء ، والتوبة ، والاستغفار . باب كراهة تمنى الموت لضر نزل به رقم ١٧١٧ ص ٧٢٩ وصحيح البخارى . كتاب الدعوات ، باب الدعاء بالموت والحياة) .

وقد قال الدكتور عبدالستار أبو غدة في هامش اللؤلؤ :

ضر أصابه : حملة جماعة من السلف على الضر الديوى ، فإن وجد الضر الأخرى ؛ بأن خشى فتنة في دينه لم يدخل في النهى . وقال الإمام النووي : فيه التصريح بكراهة تمنى الموت ، لضر نزل ؛ من مرض ، أو محنة من عدو ، أو نحو ذلك من مشاق الدنيا . فأما إذا خاف ضرراً في دينه ، أو فتنة فيه ، فلا كراهة فيه ؛ لمفهوم هذا الحديث وغيره . وقد فعل هذا الثاثير خلائق من السلف عند خوف الفتنة في أديانهم . انتهى كلام النووي .

وعن قيس ، قال : أتيت خباباً - رضى الله عنهما - وقد اكتوبر سبعا في بطنه . فسمعتة يقول : لولا أن النبى ﷺ - نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به (أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان ، الكتاب ، والباب السابقان رقم ١٧١٨) .

هذا ، وليس هناك حالة أشد من حال مريم هذه . والله أعلم بالصواب .

وجاءت الطمأنينة بوساطة جبريل - عليه السلام - ﴿ فنادها من تحتها ﴾ وأصاحت إلى النداء الصادر من منطقة الخوف ، والفرع ، ولم يكن من فوقها ، أو من أى جهة أخرى ، ولكن كان من تحتها ، واستمعت للصوت فإذا به ﴿ ألا تخزنى ، قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ (١٩) .

دعاها جبريل - عليه السلام - إلى عدم الحزن ، وأن الله سبحانه قد تكفل أمورها منذ اللحظة الأولى ، مادياً ، ومعنوياً . وها أنت فى هذا المكان القصي بجوارك الماء الجارى ، والنخلة المثمرة بالرطب الجنى ، ويتساقط ثمرها بمجرد هز الجذع من مريم (٢٨)

وما تصورته مريم منذ لحظات سببا فى تمنى الموت أصبح هو نفسه سببا لتنزل جلايب الرحمة من الله سبحانه ، وأهلت عليها بشائرها .
وقدم لها جبريل - عليه السلام - تلك الوصية تبليغاً عن ربه سبحانه ، حين تواجه قومها للمرة الأولى ، تقول :
﴿ إني نذرت للرحمن صوماً ، فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ (١٩) .

(٢٨) ليس فى ذكر النخلة أى إشارة إلى طولها ، فتبقى على المألوف من النخل إذا ما بلغ القدرة على الإثمار ، والله سبحانه الذى جعلها تحمل دون بشر ، ورزقها من الطيبات وهى فى محراب المسجد الأقصى ، قادر على مضاعفة هزها الضعيف ليصل إلى درجة إسقاط الرطب اللازم لأكلها ، والله أعلم .

وقد أضاف النبى - ﷺ - إلى الرطب القثاء فأكلهما سوياً .

فمن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب - رضى الله عنهما - قال : رأيت النبى - ﷺ - يأكل الرطب بالقثاء . (أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان . كتاب الأشربة . باب أكل الرطب بالقثاء . رقم ١٣٢٥ ، وصحيح البخارى كتاب الأطعمة ، باب الرطب بالقثاء ج ٧ ص ١٠٢ . ومختصر مسلم . كتاب الأطعمة ، باب أكل القثاء بالرطب ج ٢ ص ١١٤ وزاد المعاد لابن القيم ج ٣ ص ١٦٦ باب ذكر الأغذية والأدوية (حرف الراء) ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، وفى رواية أخرى لمسلم : « كان يأكل البطيخ بالرطب » ويقول : « تكسر حر هذا بيرد هذا ، ويرد هذا بحر هذا » وقال محقق المختصر الألبانى :

وهذا النذر مرحلة تمهيدية لما سيحدث بينها ، وبين قومها من حوار (٢٩) .

(وهو مخرج في الأحاديث الصحيحة رقم ٥٦) والرطب : ثمر النخل إذا أدرك ، ونضج قبل أن يتثمر ، الواحدة ، رطبة ، والقثاء : اسم لما يسمى بالخيار والعجور ، والفقوس ، واحده قثاء .

وأغنى عن القثاء بالنسبة لمريم ، إضافة الماء بعد الرطب ، ﴿ فكل ، واشربى ، وقرى عينا ﴾ وقد روى البخارى من حديث جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - حين أخبر النبى - ﷺ - عن تمره : فقال لأصحابه :

« امشوا نستظّر لجابر من اليهودى » قال جابر : فجاءونى فى نخل ... فقلت فجئت بقليل رطب فوضعت بين يدى النبى - ﷺ - فأكل ... (وتكرر إحضاره للرطب ، وكان يأكله وحده - مع وجود فترة صغيرة بين كل مرة) .

الحديث بتمامه وطوله أخرجه البخارى فى صحيحه بالكتاب ، والباب السابقين ص ١٠٣ ج ٧ .

وهو يوافق إلى حد ما مارواه أبو داود فى سننه عن أنس - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله - ﷺ - يفطر على رطبات قبل أن يصلى ، فإن لم تكن رطبات فتمرات ، فإن لم تكن تمرات حسا حسوات من ماء . زاد المعاد لابن القيم نفس الجزء والباب والصفحة ، وإن كان فى فضل الإفطار بالتمر ورد حديث أقوى عند الشيخين . فعن سعد ابن أنى وقاص - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول :

« من تصبح سبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سمٌّ ، ولا سحر » (اللؤلؤ والمرجان . كتاب الأشربة ، باب فضل تمر المدينة رقم ١٣٢٧ ص ٥٣٢ ، وقال النووى : فى هذا الحديث فضيلة تمر المدينة ، وعجوتها ، وفضيلة التصبح بسبع تمرات ، وتخصيص عجوة المدينة دون غيرها .. هذا والله أعلم بالصواب ، وبالمراد ، وهو الحكيم العليم بما يصلح عباده . فاللهم اجعل صلاحنا فى إيماننا .

(٢٩) والصوم هنا بمعنى عدم مخاطبة الناس والتحدث معهم ، وناسب التعبير هذا المعنى حيث كانت الفاء فى قوله « فلن » دون الواو . فالنذر فى الآية لشيء واحد هو الصوم بمفهومه ، والذي من لوازمه عدم مخاطبة الناس ، وغير ذلك مع الواو . والله أعلم .

مريم في حوار مع قومها :

قال الله تعالى :

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا : يَا مَرْيَمُ ، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً قَرِيحاً
يَا أُخْتَ هَارُونَ ، مَا كَانَ أَبُوكَ امْراً سَوْءَ ، وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيَا . فَأَشَارَتْ
إِلَيْهِ . قَالُوا : كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيحاً ؟ قَالَ : إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ، آتَانِي
الْكِتَابَ ، وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَا كُنْتُ ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ ،
وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ
يَوْمَ وَلَدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ ، وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ (٣٠) .

قضت السيدة مريم زمن نفاسها أيا كان مقداره ، فقد يصل إلى أربعين
يوماً ، وقد ينقطع وينتهي في لحظة ، وبعد انقضاء هذه الفترة حملت وليدها ،
وأتت به قومها ، وفوجئ القوم بمريم تحمل طفلاً صغيراً ، ولم يسبق لهم علم بأنها
تزوجت . فمن أين جاءت بالوليد ؟ وخاطبوها منكرين لما رأوا ، متعجبين منه
بقولهم :

﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فَرِيحاً ﴾ .

ونداؤها باسمها في مطلع خطابهم يشير إلى ما عهدوه بشأنها من صلاح ،
وتقوى ، ورعاية الله سبحانه لها ، وهي تخدم أشرف مكان علموه ، وهو المسجد
الأقصى . - أى ، يا مريم ، يا من تحققت فيك كل المكرمات ، لقد جئت شيئاً
فريحا ، جئت أعظم المنكرات ، وتوجهت التهمة إلى مريم ، على الرغم مما سبق لها
من تاريخ ناصع ، فقد أتت في نظرهم شيئاً منكراً عظيماً . فالفرية تدل على عظم
المنكر قولاً ، أو فعلاً ، ولا يرون أفدح منكراً مما رأوه من فعلها .

والعبارة الأولى التي تضمنت النداء لمريم ، والإنكار عليها . تتوجه إلى
شخصية مريم في ذاتها ، والأعمال التي قامت بها هي . وتأتي العبارة التالية .

(٣٠) سورة مريم ، الآيات من رقم ٢٧ إلى رقم ٣٣ .

فتتوجه إلى السلسلة التي تتصل بها ، والشجرة التي تفرعت منها ، فأخلاقها شبيهة بأخلاق هارون ، التي تتصل نسباً به ، وقد عرفوا عنه أخلاقه الكريمة ، وسجاياه النظيفة ، وأبوها عمران من الناس الصالحين ، ولم يسمع عن أمها إلا كل خير ، ولم تخدش سمعتها بأى نقيصة خلقية . فلم يا مريم تشذين عن أسرتك ، وتخالفين مسيرتك ؟ .

يعنى أن السيدة مريم لم تقع تحت ضغوط اجتماعية ظالمة لتلجئها إلى مثل هذا التصرف - كما نعبّر في أسلوبنا الحديث ، ويتحمل المجتمع الظالم مقداراً كبيراً من الخطأ ، وما الأشخاص إلا أدوات ، وظواهر لهذا المرض الاجتماعى .

وحين تتجمع الدلائل المادية ضد البريء ، يقع فى حيرة شديدة من أمره ، ولكن السيدة مريم هنا أمام معجزة . وستمند إلى معجزات أخرى ، وقد علمت أن تبرئتها ستكون بوساطة هذا الطفل المعجزة ، عيسى بن مريم ، عليه السلام - وتدل الآيات الكريمة على نوع من الوحي لمريم بأن تشير إلى عيسى - عليه السلام - لينطق بالحق ، ويبرئ أمه ، . ويضع قومه أمام الحقيقة ، وأمام المعجزة ، وأمام حقيقته هو التي ضلّ بنو إسرائيل فى فهمها ، على الرغم من أنهم رأوها رأى العين ، وسمعوها بأذانهم .

فهم القوم من إشارة مريم إلى الطفل قصدها بأنه هو الذى سيجيب ؛ بدليل استنكارهم تلك الإشارة . فقد قالوا :

﴿ كيف نكلم من كان فى المهد صبياً ؟ ﴾ .

أى كيف نحيلينا فى الجواب ، على صبي صغير لا يعقل الخطاب ؟ وهو مع ذلك رضيع فى مهده ، ونحن نرفض هذا التهكم بنا ، والازدراء ؛ إذ لا تردى علينا بحديث منك ، وقد ملكت القدرة على النطق ، وتحيلين الجواب على من لا يملك القدرة على النطق .

نطق الطفل تبرئة ، ورسالة :

وإذ بالطفل ينطق ، ويخاطب القوم جميعاً ، وبمجرد النطق كانت تبرئة السيدة مريم من التهمة التي وجهها قومها إليها .

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال :

« لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى بن مريم ، وصاحب جريج ،
وبينا صبي يرضع من أمه ، فمر رجل راكب على دابة فارهة ، وشارة حسنة ،
فقال أمه : اللهم اجعل ابني مثل هذا ، فترك الثدى ، وأقبل إليه ، فنظر
إليه ، فقال : اللهم لا تجعلني مثله ... » (٣١) .

وقال الله تعالى ، على لسان عيسى - عليه السلام ، وهو بالمهد صبيا :

﴿ قال : إني عبد الله ، آتاني الكتاب ، وجعلني نبيا ، وجعلني مباركا
أيما كنت ، وأوصاني بالصلاة ، والزكاة مادمت حيا ، وبراً بالوالدين .
ولم يجعلني جباراً شقيا ، والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث
حياً ﴾ (٣٢) .

ويتضمن كلام عيسى - عليه السلام - وهو في المهد :

- أنه اعترف لربه سبحانه بأنه عبد له ، وأنه برىء من المغالين فيه ،
وزعموا أنه ابن الله سبحانه ، وأنه ثالث ثلاثة ، تعالى الله عما يقولون علوا
كثيراً . ﴿ إني عبد الله ﴾ أول صفة ردّها . ويذكر الله سبحانه عبودية الرسل ،
والصالحين له في مقام التكريم ، والتبجيل ؛ قال الله تعالى في النبي
محمد - ﷺ - في حادثة الإسراء :

(٣١) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان . كتاب البر والصلة والآداب . باب تقديم
بر الوالدين رقم ١٦٥٤ ض ٦٩٤ صحيح البخارى ، كتاب الأنبياء ، باب . واذكر في
الكتاب مريم ، ج ٤ ص ٢٠١ .

ومختصر مسلم . كتاب البر والصلة . باب تقديم بر الوالدين على العبادة رقم ١٧٥٥
ص ٢٢٨ وذكر المحقق الشيخ ناصر الألباني تعليقا مهما بالهامش :

لا يخالف هذا الحصر كلام صبي الأخلدود - رواه مسلم أيضاً - لأنه ليس فيه أنه
كان في المهد ، بل كان أكبر من صاحب المهد ، وإن كان صغيراً يرضع .
(٣٢) سورة مريم ، الآيات من رقم ٣٠ إلى رقم ٣٣ .

﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام ، إلى المسجد الأقصى﴾ (٣٣) .

وقال فى وصف الصالحين المؤمنين :

﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً﴾ (٣٤) .

فالعبودية لله سبحانه عزة للمسلم ؛ لأنه يرفض أى عبودية لغير الله تعالى ، من بشر أو غيرهم .

- وبعد أن قرر عبوديته لربه سبحانه ، ورتب على ذلك إيتاء الكتاب له ، فالله سبحانه هو الذى يؤتى ، ويعطى ، والكتاب الذى سيعطاه عيسى - عليه السلام - هو الإنجيل . وجاء الإيتاء بصيغة الماضى ، مع العلم بأنه سيكون بعد أن يكبر ، فى المستقبل ، لتحقيق وقوعه من ناحية ، والإخبار بالغيب إعجازاً من ناحية أخرى ، ثم تأكيداً لتبرئة أمه مريم .

- وإيتاء الكتاب يعنى نبوة ، وتأكد هذا بما ألحقه من جملة فعلية ﴿وجعلنى نبياً﴾ ، ورسولاً من أولى العزم من الرسل - عليهم جميعاً أفضل الصلاة ، وأزكى التسليم .

- وقد وهبه الله تعالى البركة والخير ، وسوف يرى القوم حقيقة هذه البركة ، وآثارها ؛ بإحياء الموتى بإذن الله تعالى ، وإبراء الأكمه والأبرص .
وبذا بين أصل الرسالة الإيماني : عبودية ، ومعبود ، وكتاب ، ونبوة ، وبركة .

- وتوجه إلى أصل الرسالة التشريعى مبتدئاً بالصلاة ؛ فأداء الصلاة مظهر تشريعى للأصل الإيماني السابق ، فأداؤها إذعان الجوارح تبعاً لإذعان القلب وعلى

(٣٣) سورة الإسراء ، الآية رقم ١ .

(٣٤) سورة الفرقان ، الآية رقم ٦٣ .

المرء أن يداوم على أدائها مادام حيا على أى صورة مستطاعة ، ومشروعة للمسلم .

عن ابن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - أنه ذكر الصلاة يوما ، فقال :

« من حافظ عليها ، كانت له نوراً ، وبرهاناً ، ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ، ولا برهاناً ، ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون ، وفرعون ، وهامان ، وأبى بن خلف » (٣٥) .

- وتلى الزكاة الصلاة ، فالصلاة ترجمة بالجوارح ، والزكاة ترجمة بالمال لما يكون بالقلب من إيمان ، كما أنها الأساس لبناء الدولة الإسلامية ، التى تقوم بإعمار الأرض ، وتنظيم المجتمع على أساس من التكافل والتراحم ، وإسعاد البشرية جمعاء بتطبيق حكم الله سبحانه فى الأرض ، ودولة على هذا النحو لابد أن تكون لها موارد مالية تغطى حاجياتها ومطالبها . ومن أهم هذه الموارد الزكاة .

- وأول بنود التراحم بين الناس ، أن يشمل الأسرة البر ، وبخاصة الوالدين ، فالأسرة هى الخلية الأولى لبناء المجتمع ، فإذا ما انحلت عراها فلا مجتمع ، ولذا قال : ﴿ وبروا بالوالدين ﴾ . والبر بالوالدين ، والإحسان إليهما ، والسعى فى إرضائهما ذكرت كثيراً بعد توحيد الله سبحانه ، قال تعالى :

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحساناً ﴾ (٣٦) .

- وإذا كان ما تقدم أموراً إيجابية يقوم بها المسلم السوي ، فقد نفى عن نفسه ذلك الجانب السلبي السيئ ، وهو التجبر ، والتكبر ، والظلم ؛ وهو إذ ينفى عن نفسه هذا يحذر قومه من الإفساد فى الأرض بالظلم عن طريق غير

(٣٥) رواه أحمد ، وأخرجه أيضاً الطبرانى فى الكبير ، والأوسط ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد : رجال أحمد ثقات . (نيل الأوطار للشوكانى ج ١ ص ٤٤٣ باب حجة من كفر تارك الصلاة . وفى الباب أحاديث كثيرة .
(٣٦) سورة الإسراء ، الآية رقم ٢٣ .

مباشر ، ثم هو يحكم على هذا الجبار المتكبر بالشقاء في الدنيا ، والآخرة . وأى شقاء أفدح في الدنيا من كراهية الناس للظالم ، وبغضهم له ، ولعنهم إياه ، وأى بلاء أشد من السعير في جهنم ، والعياذ بالله تعالى .

- وبعد أن بين الأصل الإيماني ، ثم الأصل التشريعي ، وحذر من السليبيات ، ختم حديثه بذكر أيام ثلاثة في حياته .

١ - أولها : يوم الولادة ، وهو أخص الأيام بعيسى - عليه السلام - لأنه يوم اكتمال معجزة الإنجاب دون زوج ، معجزة طفل من أم دون أب ، ومعجزة نطق الطفل وهو بالمد ، وقد أظل هذا النطق المكان ، والقوم جميعاً ، وبخاصة الأم ، أظلمهم بالسلام ، والأمن والهنوء .

٢ - وثاني الأيام ، هو يوم الموت ، ويلى اليوم الأول في الخصوصية بعيسى - عليه السلام - فقد توجه القوم إليه ؛ سعياً في إيذائه ، وقتله ، فسلمه منهم ، ورفع الله سبحانه إليه حيث قال :

﴿ وما قتلوه ، وما صلبوه ، ولكن شبه لهم ﴾ (٣٧) .

وقال : ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ (٣٨) .

وبين اليومين مسيرة السلام والصفح ، والحلم والتسامح ؛ - حيث بدأت بالسلام ، وانتهت بالسلام .

٣ - وثالث الأيام ، هو يوم البعث والنشور والجزاء ، حين يجازى المحسن على إحسانه ، والمسيء على إساءته ؛ إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

من صفات عيسى - عليه السلام :

وردت أحاديث في هذا المجال نسوق منها :
عن أنى هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - ليلة أسرى به : « ولقيت عيسى »

(٣٧) سورة النساء ، الآية رقم ١٥٧ .

(٣٨) سورة النساء ، الآية رقم ١٥٨ .

فنعته النبي - ﷺ - فقال :

« ربعة أحر ، كأنما خرج من ديماس » يعنى من حمام . (٣٥)

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال النبي - ﷺ :

« رأيت عيسى ، وموسى ، وإبراهيم ؛ فأما عيسى ، فأحر ، جعد ، عريض الصدر ... » (٤٠) .

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - (أيضاً) قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« أراى الليلة عند الكعبة فى المنام ، فإذا رجل آدم ، كأحسن ما يرى من آدم الرجال ، تضرب لفته بين منكبيه ، رَجُلُ الشَّعَر ، يقطر رأسه ماء ، واضعاً يديه على منكبى رجلين ، وهو يطوف بالبيت ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : هذا المسيح بن مريم ... » (٤١) .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبي - ﷺ - قال :

« رأيت ليلة أسرى نى موسى ، رجلاً آدم طوالاً ، جعداً ، كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى رجلاً مربوعاً ، مربوع الخلق ، إلى الحمرة ، والياض ، الرأس ... » (٤٢) .

(٣٩) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان . كتاب الإيمان ، باب الإسراء رقم ١٠٦

ص ٣٩ وصحيح البخارى كتاب الأنبياء . باب واذكر فى الكتاب مريم ج ٤ ص ٢٠٢ .

(٤٠) أخرجه البخارى . الكتاب والباب السابقان ، ص ٢٠٢ ج ٤

(٤١) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإيمان ، باب فى ذكر المسيح

ابن مريم ، والمسيح الدجال رقم ١٠٨ ص ٤٠ .

وصحيح البخارى كتاب الأنبياء ، باب واذكر فى الكتاب مريم ج ٤ ص ٢٠٢ ،

٣٠٣ (رجل الشعر : بكسر الجيم أى ممشط مسرح)

(٤٢) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان . كتاب الإيمان ، باب الإسراء رقم ١٠٤

ص ٣٨ ، ٣٩ .

وتدل هذه الأحاديث مجتمعة على جملة صفات لعيسى بن مريم - عليه السلام - وصفه بها النبي - ﷺ - فهو :

- مربع وربعة ، أى ليس بالطويل ، ولا بالقصير ، بل معتدل الجسم بينهما .

- مربع الخلق (بفتح الخاء) إلى الحمرة ، والبياض ؛ أى مائلا لونه إليهما ، فلم يكن شديدتهما ، وقد ورد فى لونه أيضاً ، كلمة آدم ، وهى فى الأصل أسمر ، وورود العبارة « كأحسن ما يرى من آدم الرجال » بعدها تقرّبها من الوصف السابق ، ويكون وصفه من مجموعها : إن لونه ليس بالشديد السمرة ، ولا بالشديد البياض ، ولا بالشديد الحمرة ، بكل كان لونه معتدلا بين هذه الصفات والألوان - عليه السلام .

- تضرب لفته بين منكبيه ، واللّمة هى الشعر إذا جاوز شحمتى الأذنين ، أى فى شعره طول بين جعود الشعر ، وسبطه أى استرساله ، وقد عني - عليه السلام - بشعره ، فرجله ، وسرّحه ، ودهنه .

- « كأنما خرج من ديماس » أى بلغت به النظافة مبلغاً حسناً ، شأن المرء إذا ما خرج من حمام وديماس ، ومعالم النظافة والحسن بادية عليه دائماً . والأحاديث فى جملة تدل من جانب آخر على ما يشترط فى اختيار القادة ؛ حيث يفضل السوى الخلق على من تساوى معه فى الصفات المعنوية ، ليس لأن العيب الجسمى منقصة يحاسب عليها ، بل حتى لا يكون مجال استهزاء وسخرية من ضعاف النفوس ، والإيمان .

من معجزات عيسى - عليه السلام - وصفاته :

قال الله تعالى :

﴿ ويعلمه الكتاب ، والحكمة ، والتوراة ، والإنجيل ، ورسولا إلى بنى إسرائيل ، أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه ، فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرئ الأكمه والأبرص ، وأحيى الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تآكلون وما تدخرون فى بيوتكم ؛ إن فى

ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ، ومصداقاً لما بين يدي من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجتكم بآية من ربكم ، فاتقوا الله ، وأطيعون ، إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴿٤٣﴾
وقال أيضاً :

﴿ إذ قال الله : يا عيسى بن مريم ، اذكر نعمتى عليك ، وعلى والدتك ، إذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس فى المهد ، وكهلاً . وإذ علمتك الكتاب ، والحكمة ، والتوراة ، والإنجيل ، وإذ تخلق من الطين كهية الطير بإذنى ، فنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى ، وتبرىء الأكمه ، والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى ، وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات ، فقال الذين كفروا منهم : إن هذا إلا سحر مبين ﴾ ﴿٤٤﴾ .

يخبرنا الله سبحانه فى هذه الآيات ، وغيرها . عن صفات عيسى ابن مريم - عليه السلام - بأنه :

- قد علمه ربه سبحانه الكتابة ، والقراءة ، وفهم ما يقرأ ؛ فالأسباب الطبيعية للاستزادة من العلم متوفرة لديه . أما كون النبی محمد - ﷺ - أمياً ، فلأن معجزته ، وهى القرآن الكريم ، تحدى بها العرب الفصحاء ، فأमितه أبلغ فى المقصود ، والهدف من المعجزة . والأمر يختلف مع عيسى - عليه السلام .

- وقد علمه ربه أيضاً أهم كتابين حتى عصره . هو ، وهما التوراة التى أنزلت على موسى - عليه السلام - والإنجيل الذى أنزل عليه هو .
- وتأتى المعجزات التى ظهرت على يديه - عليه السلام .

وفى أول هذه المعجزات من حيث الزمن ، أنه ولد من أم هى مريم دون أب ، مثل بقية البشر ، ماعدا آدم - عليه السلام - فقد سواه الله سبحانه من

(٤٣) سورة آن عمران ، الآيات من رقم ٤٨ إلى رقم ٥١ .

(٤٤) سورة المائدة ، الآية رقم ١١٠ .

طين ، ونفخ فيه من روحه ، فصار بشرا سويا .

والثانية : كلامه في المهد كما سبق .

والثالثة : تصويره من الطين شكل طير ، ثم نفخه ، فطير عياناً بإذن الله سبحانه .

والرابعة : إبراء الأكمه ، والأبرص ، والأكمه يطلق على من ولد أعمى ، أو من فى بصره ضعف ، والأبرص هو مريض الجلد ، ويبدو فى شكل بقع بيضاء على الجلد ، وكانت معجزة عيسى - عليه السلام - بالنسبة لهذين النوعين من المرض ، هى إبراء صاحبيهما بإذن الله سبحانه .

والخامسة : وكانت أبلغ من سابقتها فى مجال الطب ، وهى إحياء الموتى بإذن الله سبحانه ، والسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو .

لماذا كانت معجزة عيسى - عليه السلام - على هذا النحو ؟

ويمكن أن يقال فى هذا المجال :

إن العصر الذى بعث فيه عيسى - عليه السلام - اشتهر بالمهارة فى الطب ، فجاءهم نبيهم من الآيات بما لاسبيل لأحد إليها . إلا أن يكون مؤيداً من الذى خلق الموت ، والحياة ، وخلق الإنسان ، وكل ما فى الكون ، وإلا فمن أين للطبيب القدرة على إحياء الجماد ، أو مداواة الأكمه ، والأبرص ، وبُعْث من هو فى قبره ؟ .

ومما يؤكد هذا نوع المعجزة التى كانت لموسى - عليه السلام - فقد بعث فى زمن اشتهر أهله بالسحر ، وتعظيم السحرة ، فبعثه الله سبحانه بمعجزة من جنس ما اشتهروا به ، بهرت الأبصار ، وحيرت الماهرين فى السحر ، وحين استيقن السحرة بأن ما تم على يد نبيهم فوق السحر كانوا أول المؤمنين ، وتحملوا فى سبيل إيمانهم كل صنوف العذاب ، وبنفس الصورة معجزة القرآن الكريم .

والمعجزة السادسة لعيسى - عليه السلام - إخبارهم بغيب أخفوه عنه ، ولكنه معلوم لديهم . ماذا أكلوا ؟ وماذا ادخروا وحفظوا فى بيوتهم ؟ . ثم ردهم عيسى - عليه السلام - إلى عقولهم ، وطلب إليهم أن يفكروا :

﴿ إن في ذلك لآية لكم ، إن كنتم مؤمنين ﴾ (٤٣) .

قال الله تعالى :

﴿ ولما جاء عيسى بالبينات قال : قد جئتكم بالحكمة ، ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه ، فاتقوا الله وأطيعون ﴾ (٤٥) .

التأييد بروح القدس :

قال الله تعالى :

﴿ وآتينا عيسى بن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس ﴾ (٤٦) .

يخبرنا الله سبحانه أنه أيد نبيه عيسى - عليه السلام - بجبريل - عليه السلام - وقد سبق أن أرسل إلى أمه مريم فتمثل لها بشراً سوياً ؛ ليهبها بأمر الله تعالى ولداً دون أب ، والتأييد بروح القدس نوع من التكريم للنبي حين يكلف مساندة النبي ، والدفاع عنه ، والله سبحانه من فوق ذلك أحاط بكل شيء علماً .

عن سعيد بن المسيب (٤٧) ، قال : مر عمر في المسجد ، وحسان (٤٨) ينشد ،

(٤٥) سورة الزخرف ، الآية رقم ٦٣ . (٤٦) سورة البقرة ، الآية ٨٧ .

(٤٧) ولد سنة ١٣ هـ - ٦٣٤ م ، وتوفي سنة ٩٤ هـ - ٧١٣ م ، وهو سعيد

ابن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي ، القرشي ، كنيته أبو محمد ، سيد التابعين ، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، يجمع بين الحديث والفقه ، والزهد والورع ، توفي بالمدينة . فهرس حقائق الأنوار ، لابن الديبع الشيباني ، ج ٢ ص ١١٥٦ ، طبعة دولة قطر .

(٤٨) هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام ، الأنصاري ، الخزرجي ، ثم

النجاري ، شاعر النبي - ﷺ - وكنيته المشهورة أبو الوليد ، ولم يكن له في الحرب ، قال ابن حجر : وابن عبد البر : والجمهور على أنه عاش مائة وعشرين سنة ؛ ستين في الجاهلية ، ومثلها في الإسلام . الإصابة لابن حجر ، ج ١ ص ٣٢٦ رقم ١٧٠٤ ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر النمرى القرطبي . هامش الإصابة ج ١ ص ٣٣٥ .

فقال : كنت أنشد فيه ، وفيه من هو خير منك ، ثم التفت إلى أبي هريرة - رضى الله عنه - فقال : أنشدك بالله !! أسمعت رسول الله - ﷺ - يقول :

« أجب عني ، اللهم أيده بروح القدس » ؟

قال : نعم (٤٩) .

وعن البراء بن عازب (٥٠) - رضى الله عنه - قال : قال النبي - ﷺ - لحسان : « اهجهم ، أو هاجهم ، وجبريل معك » (٥١) .

والحديثان يؤكدان أن روح القدس هو جبريل - عليه السلام - وليس غير ذلك ، كما زعم بعض المفسرين . وبما يؤكد هذا أيضاً قوله تعالى :

﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ، قَالَتْ : إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ، قَالَ : إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ، قَالَتْ : أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ، وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ؟ ﴾ (٥٢) .

فالذى تمثّل بشراً هو جبريل - عليه السلام - وهو مرسل من ربه ، وقد كانت هذه الخصوصية - أيضاً - للنبي الخاتم محمد - ﷺ - فقد قال الله تعالى عن القرآن الكريم :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ ، لَتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (٥٣)

(٤٩) ، (٥١) الروايتان متفق عليهما . اللؤلؤ والمرجان ، كتاب فضائل الصحابة .

باب فضائل حسان بن ثابت - رضى الله عنه رقم ١٦١٦ ورقم ١٦١٧ ص ٦٧٣ . (٥٠) هو أبو عمارة « في الأشهر » بن عازب بن الحارث الأوسى ، الأنصارى ، الحارثي . أول مشاهدته الخندق ، نزل الكوفة ، وافتتح الرى سنة ٢٤ في قول وشهد مع أمير المؤمنين على - رضى الله عنه - الجمل ، وصفين ، والهروان مات بالكوفة أيام مصعب بن الزبير . سبل السلام ج ١ ص ١٨٢ .

(٥٢) سورة مريم ، الآيات من رقم ١٧ إلى رقم ٢٠ .

(٥٣) سورة الشعراء ، الآيات من رقم ١٩٢ ، ١٩٥ .

والإمداد ، والتثبيت في غزوة بدر كانا بواسطة الملائكة . قال تعالى :
﴿ فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ (٥٤) .
وقال :

﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ﴾ (٥٥) .
عيسى - عليه السلام - مصداقاً ، ومبشراً :
قال تعالى :

﴿ ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ﴾ (٥٦)

وقال :
﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم ، مصداقاً لما بين يديه من
التوراة ، وآتيناه الإنجيل ﴾ (٥٧) .
وقال :

﴿ وإذ قال عيسى بن مريم : يا بنى إسرائيل ، إني رسول الله إليكم ،
مصدقاً لما بين يدي من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه
أحمد ﴾ (٥٨) .

إن عيسى - عليه السلام - يخاطب بنى إسرائيل ، ويذكرهم بالكتاب
الذى أنزل على موسى - عليه السلام - ويؤكد تصديقه للكتاب ، ومافيه من
تشريع . والتصديق للتوراة تصديق بالتالى لموسى - عليه السلام - وتوجه
التصريح بالتوراة تنبيهاً لبنى إسرائيل ، وتحذيراً لهم من تحريف الكتاب ، وتبديله ،
فقد بدلوا التحريف ، والتبديل في نصوص الكتاب قبل الطعن في شخصية
موسى - عليه السلام .

-
- (٥٤) سورة الأنفال ، الآية رقم ٩ .
(٥٥) سورة الأنفال ، الآية رقم ١٢٠ .
(٥٦) سورة آل عمران ، الآية رقم ٥٠ .
(٥٧) سورة المائدة ، الآية رقم ٤٦ .
(٥٨) سورة الصف ، الآية رقم ٦ .

وفي نفس الوقت بشر بالنبي الخاتم محمد - ﷺ - وبالتالى يصدق بكتابه ، وهو القرآن الكريم - عكس ما سبق - لأن اعتراض بنى إسرائيل حين البعثة توجه مباشرة إلى شخصية النبي - ﷺ - عناداً منهم واستكباراً . فالبشرى تتضمن التصديق ، وتشير إلى ما سيحدث - فى المستقبل - من بنى إسرائيل ، وهذا لإخبار بغيب ، وقد حدث .

وبالتصديق ، والبشرى تأكيد لوحدة الرسالات ، فهى فى الأصل الإيمان واحدة ، وإن اختلفت الأحكام التشريعية التى تناسب كل عصر وظرف .

دعوته لقومه :

بعد أن أخبر عيسى - عليه السلام - بأنه رسول من الله إليهم ، وأنه أيده بالمعجزات ، دعاهم ، إلى الأصل الإيماني . قال الله سبحانه على لسانه :

﴿ فاتقوا الله ، وأطيعون ، إن الله ربي ، وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم ﴾ (٥٩) .

تلك هى الدعوة على بساطتها ، ووضوحها ؛ تقوى الله سبحانه بالخوف منه وحده ، دون أى قوة أخرى من البشر ، أو غيرهم . وإذا ما تحرر المسلم من الذلة لخلق أيا كان هو كانت تقواه لربه سبحانه ، وبمقدار التقوى أيضاً تكون درجة التحرر من الخرافة ، والأباطيل ، والخضوع لطواغيت البشر . إن التقوى تستقر بالنفس ، وتعلن الجوارح عن درجتها . وأول مظاهر التقوى طاعة الله سبحانه ، وهذه الطاعة أصول فى العقيدة ، والتشريع . وأمر بنى إسرائيل بطاعة نبيهم عيسى - عليه السلام - هو طاعة الله سبحانه ، لأن من يطع الرسول فقد أطاع الله تعالى .

وجاء الأمر الثالث بعبادة الله تعالى ، والعبادة تكون بالشكل الذى ارتضاه الله سبحانه لعباده ، وما سبق هذا الأمر بيان أن الله سبحانه هو الرب للجميع ، رباهم ، وأنشأهم ، وإذا ما كان الناس تجاه ربهم فى هذه المنزلة ، لابد أن تكون العبودية منهم ، فالعبودية تستقر فى شعورهم ، وتظهر فى شكل عبادة مشروعة .

(٥٩) سورة آل عمران ، الآيتان ٥٠ ، ٥١ .

وماذا يحدث لو أصاب كلا من الطاعة والعبادة خللٌ وانحرافٌ ؟
 معنى ذلك أن العقيدة الإيمانية أصابها ، شرخ ، وتصدع ، وفطور .
 والعلاج بتقوية الأصل الإيماني بالخوف من الله سبحانه دون سواه .
 هذا صراط مستقيم ، سار عليه عيسى وكل الأنبياء - عليهم الصلاة
 والسلام - ودعوا أقوامه أن يسيروا عليه ، ولا يتبعوا السبل المعوجة التي تفرقهم
 عن هذا السبيل المستقيم .

دعوته للحواريين :

وعلى الرغم من عظم المعجزات ، وبساطة الدعوة ، ووضوحها ، فقد كان
 من بنى إسرائيل عناد مبكر ، واضطر إلى أن يخص بعضهم ، ويدعوهم إلى تكوين
 جماعة صغيرة أشد تماسكا ، تقوم بالدعوة إلى الله تعالى ، قال سبحانه :

﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ، قال : من أنصاري إلى الله ؟ قال
 الحواريون : نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، واشهد بأنا مسلمون ، ربنا آمنا
 بما أنزلت ، واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ (٦٠) .

وقال أيضاً :

﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي ، قالوا : آمنا ،
 واشهد بأنا مسلمون ﴾ (٦١) .

وقال :

﴿ قال عيسى بن مريم للحواريين : من أنصاري إلى الله ؟ قال
 الحواريون : نحن أنصار الله ، فآمنت طائفة من بنى إسرائيل ، وكفرت طائفة ،
 فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ، فأصبحوا ظاهرين ﴾ (٦٢) .

يخبرنا الله تعالى : أن عيسى - عليه السلام - حين دعا قومه بنى إسرائيل

(٦٠) سورة آل عمران ، الآيتان ٥٢ ، ٥٣ . (٦١) سورة المائدة ، الآية رقم ١١١ .

● (٦٢) سورة الصف ، الآية رقم ١٤ .

شعر بعنادهم ، وإصرارهم على الكفر ، فتوجه إلى من آمن منهم بأن يتحمل عبأ أكبر في سبيل دعوة هؤلاء القوم إلى دين الله سبحانه ، فقال : من أنصارى إلى الله ؟ فتطوع من القوم من لقبوا بالأنصار ، وهم الحواريون ، فالأنصارى هو الحوارى .

فعن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال : قال
النبي - ﷺ - (يوم الأحزاب) :

« من يأتينى بخبر القوم ؟ » .

قال الزبير (٦٣) : أنا . ثم قال :

« من يأتينى بخبر القوم ؟ »

قال الزبير : أنا . فقال النبي - ﷺ - :

« إن لكل نبي حواريا ، وحوارى الزبير » (٦٤) .

(٦٣) الزبير بن العوام بن خويلد ، القرشى ، الأسدى ، حوارى رسول الله - ﷺ -
- وابن عمته ، أمه صفية بنت عبد المطلب ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأحد
الستة أصحاب الشورى ، وكانت أمه تكنيه أبا الطاهر ، واكتنى هو بأبى عبد الله ، وأسلم
وله اثنتا عشرة سنة ، هاجر الهجرتين . وقتل بعد أن انصرف يوم الجمل غدرأ ، وقد بدأ
المعركة ضد على - رضى الله عنهما - فى سنة ست وثلاثين ، عن ست وستين سنة .
الإصابة لابن حجر ج ١ ص ٥٤٦ رقم ٢٧٨٩ .

(٦٤) أخرجه الشيخان ، اللؤلؤ والمرجان . كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل
طلحة ، والزبير - رضى الله عنهما - رقم ٥٦٤ ص ٦٤٢ ، ٦٤٣ .

أما إرسال حذيفة بن إيمان - رضى الله عنه - يوم الأحزاب فقد كان إلى مهمة
أخرى ؛ حيث كانت الأحزاب بقيادة أنى سفيان ؛ وذلك لما ورد عن إبراهيم التيمى عن
أبيه . قال : كنا عند حذيفة ، فقال رجل : لو أدركت رسول الله - ﷺ - قاتلت معه
وأبليت ، فقال حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله - ﷺ - ليلة
الأحزاب ، وأخذتنا ريح شديدة ، وقر ، فقال رسول الله - ﷺ - :

« ألا رجل يأتينى بخبر القوم جعله الله عز وجل معى يوم القيامة ؟ ، فسكتنا =

وأعلن الحواريون عن أساس هذه النصرة في الله سبحانه :

- الإيمان بالله سبحانه ، ونبذ الكفر .
- الإشهاد على إسلامهم ، وتنفيذهم مستلزمات النصرة .
- الإيمان بالإنجيل ، وما سبقه من التوراة .
- اتباع عيسى - عليه السلام - لأنه رسول الله سبحانه .
- إشهاد الله سبحانه على ما استعدوا للقيام به ، مع نبيهم عيسى - عليه السلام .

ومن هذه اللحظة تميز فريق عن فريق ؛ فريق مؤمن هم الحواريون ، وفريق كافر متربص بالفئة المؤمنة .

خبر المائدة :

قال الله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : يَا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ ، هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ؟ قَالَ : اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَالُوا : نَرِيدُ أَنْ

فلم يجبه منأحد ، فقال :

« قم يا حذيفة ، فأتنا بخبر القوم » .

فلم أجد بلأ إذ دعانى باسمى أن أقوم ، قال :

« اذهب فأتنى بخبر القوم ، ولا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ » (أى لا تترهم على بالذعر) .

فلما وليت من عنده ، جعلت كأفأ أمشى في حمام ، حتى أتيتهم ، فرأيت أبا سفيان يَصَلِّي ظهره بالنار ، (أى يدفأ ظهره بالنار) فوضعت سهماً في كبد القوس ، فأردت أن أرميه ، فذكرت قول رسول الله - ﷺ - « وَلَا تَدْعُرْهُمْ عَلَيَّ » ولو رميته لأصبته ، فرجعت وأنا أمشى فى مثل الحمام (يعنى أنه كان يشعر بالدفء حين كان يؤدى المهمة) فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم ، وفرغت ، قررت (أى بردت بعد أن أدت المهمة) ، فألبسنى رسول الله - ﷺ - من فضل عباءة كانت عليه ، يصلى فيها (أى يدفأ) ، فلم أزل نائماً ، =

نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين ، قال عيسى بن مريم : اللهم ، ربنا ، أنزل علينا مائدة من السماء ، تكون لنا عيداً لأولنا ، وآخرنا ، وآية منك ، وارزقنا ، وأنت خير الرازقين . قال الله : إني منزلها عليكم ، فمن يكفر بعد منكم ، فإني أعذبه عذاباً ، لا أعذبه أحداً من العالمين ﴿ ٦٥ ﴾ .

حين عبر بنو إسرائيل خليج السويس ، وجدوا أنفسهم دون طعام ، ودون شراب ، فأنزل الله سبحانه عليهم المن والسلوى ، وفجر لهم الماء العذب من الحجر ، وعلى الرغم من شهية هذا الطعام ، طلبوا أن يستبدل به العدى ، والبصل ، والخيار .

وحين كانت الصديقة مريم بنت عمران فى المحراب كان الرزق يأتيها من السماء ، ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ﴾ ﴿ ٦٦ ﴾ .

وأعتقد أن بنى إسرائيل يعلمون تاريخهم هذا ، وبخاصة لقربه الزمنى منهم ، وأهميته فى حياتهم . فأمر الرزق من الله سبحانه يجب أن يعلم بداهة ، وأن إنزاله على هذا النحو فى سيناء ، وفى المحراب دليل أكبر لعامة الناس ، فضلاً عن خاصتهم .

والموقف الذى نحن بصدد هنا شديد الغرابة :

- فالرزق يطلب من الحوارين صراحة ﴿ أن ينزل علينا مائدة ﴾ .
- والذى يقدم هذا الاقتراح خلاصة القوم إيماناً ، وفقهاً ، وهم الحواريون ، ﴿ إذ قال الحواريون ﴾ .

= حتى أصبحت ، فلما أصبحت ، قال :

« قم يا نومان »

(أخرجه مسلم . مختصر مسلم . كتاب الهجرة ، والمغازى ، باب فى غزوة الأحزاب . رقم ١١٧٢ ج ٢ ص ٧٦) .

(٦٥) سورة المائدة الآيات من رقم ١١٢ إلى رقم ١١٥

(٦٦) سورة آل عمران الآية ٣٧ .

- ويلقون الإيمان بعيسى - عليه السلام - على تلبية هذا الطلب ﴿ ونعلم أن قد صدقنا ﴾ .
ويبقى من طبع بنى إسرائيل ، على مدى تاريخهم الطويل قدر المادة في نظرهم على كل شيء ، بها يقاس الحق ، والباطل ، إلا من عصم الله .
وتفصيل هذا الموقف كما يلي :

يخبرنا الله سبحانه ، عن خبر المائدة التى أنزلها من السماء ، وهى مما امتن به على عبده ، ورسوله عيسى بن مريم - عليه السلام - لما أجابه حين دعاه بشأنها .
قال الحواريون أتباع عيسى - عليه السلام - وأنصاره ، ومعاونوه ، وحاملو رسالته ، والذين أيدهم الله سبحانه ؛ لإيمانهم ، وأعانهم على من كفر من بنى إسرائيل . هؤلاء الحواريون توجهوا إلى عيسى بن مريم بالنداء باسمه المجرد ، دون وصف بالنبوة ، أو الرسالة كأن نبوته علقت من جديد على تلبية هذا الطلب ، فقالوا : « يا عيسى بن مريم » وساقوا سؤلهم بما يحمل من شك ، وريب فى الأصل الإيماني ، وهو الاعتقاد بقدرة الله سبحانه ﴿ هل يستطيع ربك ﴾ وأضافوا كلمة « رب » إلى كاف المخاطب ، ولم يضيفوها إلى ضمير المتكلمين ، وكأن تلك الربوية وضعت هى الأخرى موضع الاختبار والتجربة ، وليس ذلك من شأن صادق الإيمان .

وإذا كان النداء والاستفهام يعكسان نفسية القائلين ، والطالبين ، فموضوع الطلب أكثر دلالة على تلك النفسية ، وهو إنزال مائدة من السماء .
وجاء رد عيسى - عليه السلام - بالرد عليهم نيتهم وشكهم ، والنصح لهم من جديد مثل النصيحة التى توجه بها إلى بنى إسرائيل سلفاً ﴿ فاتقوا الله ، وأطيعون ، إن الله ربي وربكم فاعبدوه ﴾ (٦٧) وهنا يقول لهم : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين أى اتقوا الله ، ولا تسألوا هذا السؤال ، وابدلوا الأسباب الطبيعية فى طلب الرزق ، إن كنتم مؤمنين حقاً .

(٦٧) سورة آل عمران ، الآيتان ٥٠ ، ٥١ .

ولم يرضوا بنصحية عيسى - عليه السلام ، وأصرروا على طلبهم ، وقالوا :
﴿ نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ﴾

إلى أى شئ تطمئن قلوبهم ، وقد رأوا من المعجزات الباهرات على يد
عيسى - عليه السلام - إن هذا الاطمئنان يتوجه إلى ما أشير إليه من شك في
أصل الإيمان ، ولذلك جاء عقبها ﴿ ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من
الشاهدين ﴾

وما كان من نبي الله عيسى - عليه السلام - إلا أن يطلب إلى ربه سبحانه
إنزال المائدة ، متأدياً بأدب الداعي المتضرع إلى الله سبحانه ، وقد تضمن
دعاؤه ؛ النداء :

اللهم ربنا ، يا من تفردت بالعظمة والألوهية ، ويا من هو رب الجميع ،
رب عيسى ، وموسى ، والحواريين ، ومثل هذا التعبير في النداء والدعاء هو
الصورة المثلى في دعاء المؤمن ، أما القوم فقد جاء على لسانهم : هل يستطيع
ربك ؟ .

- طلبه إنزال مائدة عليها أصناف الطعام ، والشراب تظل حديث الناس ؛
لإنزالها من السماء ، ولما احتوت من طعام وشراب ، ويستمر الحديث عنها
أجيالاً ، وتظل أيضاً دليلاً واضحاً على قدرتك وعظمتك .

- وقد طلب عيسى - عليه السلام - أيضاً ، أن يستمر الرزق الطيب
لهم ، اليسير المأخذ ، والأسباب ، دون معاناة ، وكد ، وتعب ، فأنت يارب ،
خير الرازقين .

وقد تضمنت الاستجابة لهذا الدعاء :

- ضرورة الإذعان ، وتحصيل الغاية التي من أجلها تنزل المائدة من
السماء ، وقد رأوا قدرة الله سبحانه ، وعظمته في خلقه .

- مضاعفة العذاب لمن ينكص بعد ذلك ، وبعد أن علم وشاهد مايدل
على قدرة الله سبحانه . ﴿ فمن يكفر بعد منكم ، فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه
أحداً من العالمين ﴾ .

– الجزء على قدر المسؤولية ، وعلى قدر العلم بالأمر ، فشخص لم يفعل تكليفاً ؛ لأنه يجهله ، أو اجتهد في طريق الأداء وأخطأ ، غير العالم الذي يعظ الناس دون الاهتمام بعمله هو .

التوفية ، والرفع إلى السماء :

يقول الله تعالى في هذا الشأن :

﴿ وقولهم : إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه ، وما صلبوه ، ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقيناً ، بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزاً حكيماً ، وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ (٦٨) .

وقال أيضاً :

﴿ ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين ، إذ قال الله : يا عيسى ، إني متوفيك ورافعك إلى ، ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إلى مرجعكم ، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ، فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا ، والآخرة ، وما لهم من ناصرين ، وأما الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، فيوفيهم أجورهم ، والله لا يحب الظالمين ﴾ (٦٩) .

تدل الآيات الكريمة السابقة على جملة أمور في مسألة الرفع إلى السماء وما يسبقها ويلحقها من أحداث ، ومن هذه الأمور :

– أن بنى إسرائيل واجهوا دعوة عيسى – عليه السلام – ، بالجحود ، ولم يذعنوا إليه ، بل تماثلوا ، وحاكوا المؤامرات ضده في جو من المكر والدهاء ..

(٦٨) سورة النساء الآيات من رقم ١٥٧ إلى رقم ١٥٩ .

(٦٩) سورة آل عمران الآيات من رقم ٥٤ إلى رقم ٥٧ .

- وأنهم فى هذا المكر قد أحكموا الخطة للتخلص من عيسى - عليه السلام - بقتله ، كما تعودوا وألفوا هذا الأسلوب فى تصفية الخصوم وقتلهم الأنبياء بغير حق .

- وأنهم ظنوا النجاح والوصول إلى الغرض الذى توهموه سيقع ، وهو قتل عيسى - عليه السلام .

- ولأنهم قد كفروا بالله سبحانه لم يعلموا أن تلك الخطة على إحكامها ستفشل ، فالله سبحانه هو الحافظ لنبىه ، ومن كان الله حافظه ، لم تنله أيدى العوادر .

- توجه القوم الكافرون إلى المكان الذى يمكن أن يكون به عيسى - عليه السلام - ورأوا فى هذا المكان من ظنوه عيسى فباشروا عملية القتل بأنفسهم .
- أنهم خرجوا بعد أن أتموا جريمة القتل هذه متباهين مفتخرين بأنهم قتلوا عيسى بن مريم رسول الله .

- وأنهم حين وصفوا عيسى بأنه ابن مريم أرادوا الواقع الذى لا ينكرونه آنخذ ، ولكنهم سخروا بعد ذلك واستهزؤوا بإسناد الرسالة إليه .

- أنهم حين التنفيذ لم يجمعوا على أن القتل هو عيسى فقد اختلفوا فيما بينهم ، ولكن تغلب رأى من زعم أنه هو لعدم وجود شخص آخر يجمعون على أنه عيسى .

هذا ما حدث من القوم ، من مكر ، وتآمر ، وتحرك ، وتنفيذ ، وتباه بالجرم وبدأت الآيات الكريمة تعرض الوجه الآخر :

- أن الله سبحانه قد خيب مكرهم ، ولم يمكنهم من شخص عيسى نفسه ليصلبوه ويقتلوه ، بل رفعه الله حيا إلى السماء ، حيث لم يكن القتل له فعلا .

- وأن الله سبحانه وتعالى قد وصف نفسه بالعزير الحكيم فى آيات النساء ؛ لنفهم أن العزير لا يُغلب ، من يلجأ إليه ، ومن لجأ إليه هنا هو عيسى - عليه السلام .

- وتدل آيات آل عمران على أن الله سبحانه قد طهر نبيه بالرفع إليه دون أن تصل إليه أيدي هؤلاء السفاكين الكافرين .

- وأن الله سبحانه بهذا الرفع إلى السماء قد توفي نبيه أى توفي أعماله في تبليغ الرسالة إلى الناس في الأرض ؛ حيث صار بين أهل السماء ، وأن التوفية هنا تفسر بما يتناسب والسياق .

وتأتى الجولة الثالثة للآيات :

- أن الناس بعد رفع عيسى - عليه السلام - وقبل يوم القيامة أصناف بالنسبة لعيسى - عليه السلام - ، من هؤلاء الأصناف :

١ - الذين اتبعوا عيسى - عليه السلام - اتباعاً حقاً ، وآمنوا به على أنه عبدالله ورسوله ، وأنه لم يصلب ولم يقتل ، بل رفعه الله إليه ، وهؤلاء هم المسلمون . وقد جعلهم الله سبحانه أعلى منزلة ، وأرق مكاناً في الدنيا ، وأنهم يؤمنون أيضاً بأن عيسى - عليه السلام - ينزل آخر الزمان ، ثم يموت موتاً حقيقياً .

٢ - الذين زعموا أنه قد صلب وقتل ، وهم الأدنون منزلة ، وخسروا وخابوا .

عن سعيد بن جبير (٧٠) ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال :

لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء ، خرج على أصحابه ، وفي البيت اثنا عشر رجلاً منهم ، من الحوارين - يعنى فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماءً - فقال :

(إن منكم من يكفر لى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن لى)

(٧٠) هو سعيد بن جبير ، الأسدى بالولاء ، الكوفى ، أبو عبد الله ، تابعى ، كان أعلمهم على الإطلاق ، وهو حبشى الأصل ، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس ، وابن عمر - رضى الله عنهم - ولد سنة ٤٥ هـ - ٦٦٥ م ، ومات شهيداً حين أمر بقتله الحجاج الظالم ، أيام بنى أمية سنة ٩٥ هـ - ٧١٤ م ، فهرس حداثى الأنوار لابن الديبع الشيبانى ص ١١٥٦ عن الأعلام .

ثم قال :

(أياكم يلقي عليه شبي فيقتل مكانى فيكون معى فى درجتى فى
الجنة ؟)

فقام شاب من أحدثهم سناً .

فقال له :

(اجلس)

ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب ، فقال :

(اجلس)

ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب ، فقال : أنا ، فقال :

(أنت هو ذاك)

فألقي عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روضة فى البيت إلى السماء .
قال : وجاء الطلب من اليهود ، فأخذوا الشبه فقتلوه ، ثم صلبوه فكفر به بعضهم
اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به ، وافترقوا ثلاث فرق .

فقالت طائفة : كان الله فىنا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء
اليعقوبية .

وقالت فرقة : كان فىنا ابن الله ما شاء ، ثم رفعه الله إليه وهؤلاء
النسطورية .

وقالت فرقة : كان فىنا عبدالله ورسوله ما شاء ، ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء
المسلمون .

فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوهما ، فلم يزل الإسلام طامسا حتى
بعث الله محمداً - ﷺ -

قال ابن عباس ، وذلك قوله تعالى :

﴿ فَأَيُّدِنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عُدُودِهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ (٧١) .

- ثم في يوم القيامة يكون العذاب لمن كفر بعيسى - عليه السلام - أو زعم أنه ابن الله ، وأنه ثالث ثلاثة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .
- ويكون الثواب لمن رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، ولم يفرق بين أحد من رسله .

عن عبادة بن الصامت (٧٢) - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال :
« من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل ﴾ (٧٣)

(٧١) سورة الصف ، الآية رقم ١٤

قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس ، وقال ابن كثير هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم ، ورواه النسائي عن أبي كريب عن أبي معاوية به نحوه ، ورواه ابن جرير عن مسلم بن جنادة عن أبي معاوية .

وهكذا ذكر غير واحد من السلف ، ومن ذكر ذلك مطولاً محمد بن إسحاق ابن يسار . انتهى كلام ابن كثير في البداية والنهاية ج ٢ ص ٩٢ في رفع عيسى - عليه السلام - إلى السماء .

(٦١ م) هو أبو الوليد عبادة بن الصامت بن قيس الخزرجي الأنصاري السلمي ، كان من نقباء الأنصار ، وشهد العقبة الأولى ، والثانية ، والثالثة ، وشهد بدرًا والمشاهد كلها ، وجهه عمر - رضى الله عنه - إلى الشام قاضياً ، ومعلماً ، فأقام بمحصر ، ثم انتقل إلى فلسطين ومات بها في الرملة ، وقيل في بيت المقدس سنة ٣٤ عن ٧٢ سنة . سبل السلام ج ١ ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٧٣) رواه الشيخان - اللؤلؤ والمرجان - كتاب الإيمان ، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار رقم ١٧ ص ٧

تنزيه الله سبحانه عن الولد

حين توجه بنو إسرائيل إلى السيدة مريم أم عيسى - عليه السلام - بالانتماء ، أشارت إلى عيسى ، وقد كان إذ ذاك طفلاً .

﴿ قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صبياً ؟ ﴾

قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً ، وجعلني مباركاً أينما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، وبراً بوالدتي ، ولم يجعلني جباراً شقياً ، والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حياً ﴿ (٧٤) .

وقد سبق أن عرفنا أن مجرد نطق الطفل الصغير كان تيرئة لأمه من الانتماء ، وأن أول صفة نطق بها لأهميتها وخطورتها أنه عبد الله ، فالله سبحانه الإله الخالق وعيسى مخلوق وعبد للخالق سبحانه ، ولكن حدث في محيط النصارى أن قال بعضهم في عيسى - عليه السلام - أنه الله ، وقال آخرون : أنه ابن الله ، وقال بعض ثالث : إنه ثالث ثلاثة ... تعالى الله عن ذلك علواً كثيراً .

وكان من تمام كلام عيسى - عليه السلام - وهو في المهد ما قاله الله سبحانه على لسانه :

﴿ وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ (٧٥) .

وقد روى الشيخان فيما سبق عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال :

« من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل »

(٧٤) سورة مريم الآيات من رقم ٢٩ إلى رقم ٣٣ .

(٧٥) سورة مريم الآية رقم ٣٦ .

وعلى الرغم من وضوح قضية الخلق منذ أن تكلم عيسى - عليه السلام - وهو فى المهد ، فإن القوم اختلفوا بشأن عيسى - عليه السلام .
قال الله تعالى بعد حكايته حديث المهد :

﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ (٧٦) .

فبينت الآية أن بنى إسرائيل صاروا أحزابا كل يزعم فى عيسى - عليه السلام - زعما باطلا ، وقد كفروا بهذه المزاعم التى لا تستند إلى دليل وبرهان ، والويل والعذاب لمن تجرأ على الله سبحانه ونسب له الولد حاشاه عن ذلك وتعالى علوا كبيرا ، وناقشت الآيات المتفرقة فى القرآن الكريم تلك القضية ؛ قال الله تعالى على لسان هذه الأحزاب :

﴿ وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا ، تكاد السموات يتفطرن منه ، وتتشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ، لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتية يوم القيامة فردا ﴾ (٧٧) .

فأحزاب الكفر من بنى إسرائيل زعمت أن الله سبحانه اتخذ ولدا وقد رد الله سبحانه على هذا الزعم فى الآيات السابقة بعدة ردود :

- الرد على القضية وإبطالها بالكلية ، فهم قد جاءوا بشيء عظيم ، ومنكر من القول وزور وبهتان .

- ثم بين مقدار خطورة هذا الزعم الباطل ، بأن الكون كله ؛ من سموات وأرض وجبال ينكر هذا الزعم ، ويرفضه .

(٧٦) سورة مريم الآية رقم ٣٧ .

(٧٧) سورة مريم الآيات ، من رقم ٨٨ إلى رقم ٩٥ .

– وأن لا ينبغي لإله خالق أن يكون له ولد ، وإلا كان شبيهاً بالمخلوقين .
– وأنه يوم القيامة يأتيه كل امرئ بمفرده ، مسئولاً عن نفسه ، وكل امرئ بما كسب رهين .

قال الله تعالى :

﴿ قالوا : اتخذ الله ولداً ، سبحانه هو الغنى ، له ما في السموات ، وما في الأرض ، إن عندكم من سلطان بهذا ، أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ (٧٨) .

ومن الأحزاب الكافرة من النصارى من زعم أن كلا من الله سبحانه وعيسى – عليه السلام – شيء واحد .

قال الله تعالى :

﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح : يا بني إسرائيل ، اعبدوا الله ربي وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ (٧٩) .

فقد حكم الله سبحانه عليهم بالشرك والكفر ؛ لادعائهم في عيسى – عليه السلام – ما نفاه هو عن نفسه .

وخرجت الأحزاب أيضاً بكفر جديد فقد زعموا أن الآلهة ثلاثة .

قال الله تعالى :

﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ (٨٠) .
وكفر النصارى بما زعموه بالتثليث ، وقد حذرهم الله سبحانه وتعالى منه صراحة في الآية السابقة ونهاهم عن قوله .

(٨٠) سورة المائدة ، الآية رقم ٧٣ .

(٧٨) سورة يونس ، الآية رقم ٦٨ .

(٧٩) سورة المائدة ، الآية رقم ٧٢ .

ثم دعاهم في الآية اللاحقة إلى التوبة عنه ، والاستغفار منه ، قال تعالى :

﴿ أفلا يتوبون إلى الله ، ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾ (٨٠) .

ثم بدأ يناقش عقولهم لعلهم يهتدون ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون ﴾ (٨١) .

فمظاهر البشرية بادية واضحة على عيسى - عليه السلام .

يأكل ويشرب ، كما تأكل أمه وتشرب ، وأنه رسول مثل الرسل السابقين - عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

نزول عيسى - عليه السلام - قبل يوم القيامة :

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« والذي نفسى بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال ؛ حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا ، وما فيها » ثم يقول أبو هريرة ، وقرأوا إن شئتم : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل يوم موته ، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ (٨٢) .

وقال :

(٨٠) سورة المائدة ، الآية رقم ٧٤ .

(٨١) سورة المائدة ، الآية رقم ٧٥ .

(٨٢) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان . كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى - عليه السلام - رقم ٩٥ ، وصحيح البخارى . كتاب الأنبياء . باب نزول عيسى - عليه السلام ج ٤ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ وقال البخارى عقبه : تابعه عقيل ، والأوزاعى ، والآية من سورة النساء ١٥٩ .

« كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم ، وإمامكم منكم » (٨٣) .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال :

« والذي نفسى بيده ليهلن ابن مريم بفج الروحاء ، حاجاً ، أو معتمراً ، أو ليثنييهما » (٨٤) .

وعنه أنه قال :

« لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق ، أو بدابق ، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ ، فإذا تصافوا ، قالت الروم : خلوا بيننا ، وبين الذين سبوا منا نقاتلهم ، فيقول المسلمون : لا ، والله ، لا نخلى بينكم وبين إخواننا ، فيقاتلونهم ، فينهمز ثلث لا يتوب الله عليهم ، ويقتل ثلثهم ، أفضل الشهداء عند الله ، ويفتح الثلث ، لا يفتنون أبداً ، فيفتحون قسطنطينية ، فيبنا هم يقتسمون الغنائم ، قد علقوا سيوفهم بالزيتون ، إذ صاح فيهم الشيطان : إن المسيح قد خلّفكم في أهلكم ، فيخرجون وذلك باطل ، فإذا جاءوا الشام خرج ، فيبنا هم يعدون للقتال ، يسوون الصفوف ، إذ أقيمت الصلاة ، فينزل عيسى بن مريم - عليه السلام - قائمهم ، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء ، فلو تركه لانداب حتى يهلك ، ولكن يقتله الله بيده (أى بيد عيسى) فيريهم دمه في حربته » (٨٥) .

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال :

(٨٣) نفس المصدرين السابقين . اللؤلؤ والمرجان رقم ٩٦ ، وعزاه ابن كثير أيضاً إلى الإمام أحمد .

(٨٤) أخرجه مسلم . المختصر رقم ٦٦٣ باب في التلبية بالعمرة والحج ج ٢ ص ١٧٦ وعزاه ابن كثير إلى أحمد .

(٨٥) أخرجه مسلم . المختصر ، باب في فتح قسطنطينية رقم ٢٠٢٩ ص ٢٩٧

ج ٢ .

« لقيت ليلة أسرى نبي ، إبراهيم ، موسى ، وعيسى - عليهم السلام - فتذاكروا أمر الساعة ، فردوا أمرهم إلى إبراهيم ، فقال : لا علم لي بها ، فردوا أمرهم إلى موسى ، فقال : لا علم لي بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى ، فقال : أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله ، وفيما عهد إلى ربي عز وجل أن الدجال خارج ، ومعى قضييان ، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص ، قال : فيهلكه الله إذا رآني ، حتى إن الحجر ، والشجر يقول : يا مسلم ، إن تحتي كافراً ، فتعال فاقتله ، قال : فيهلكهم الله ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم ، وأوطانهم ، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيطئون بلادهم ، فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه ، ولا يبرون على ماء إلا شربوه ؛ قال : ثم يرجع الناس يشكونهم ، فادعوا الله عليهم فيهلكهم ، ويميتهم ، حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم ، وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر ، ففيما عهد إلى ربي عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك ، أن الساعة كالحامل المئتم ، لا يدرى أهلها متى تفاجئهم بولأدها ليلاً ، أو نهاراً » (٨٦) .

وفي ضوء النصوص السابقة يتبين لنا بالنسبة لعيسى - عليه السلام :
 - أن عيسى - عليه السلام - اختصه الله سبحانه ، بالرفع إلى السماء حياً ، وأنه سينزل قبل يوم القيامة يحكم بشريعة الإسلام .
 - وأن بلوغ حكمه بشريعة الإسلام ، درجة كبيرة يكون من نتيجته الخير ، فيكون الأمن ، وإفاضة المال ، وإشاعة التكافل حتى لا يبقى فقير يريد مالاً ، وأن اهتمام المسلم بعبادة ربه سبحانه تبلغ درجة كبيرة .

(٨٦) الحديث بهذا النص أخرجه الإمام أحمد كما قال ابن كثير . وأقول : إن معاني الحديث فيما رواه البخاري ، ومسلم بالفاظ أخرى . انظر اللؤلؤ والمرجان أرقام ١٨٣٥ ، ١٨٣٥ ، ١٨٤٥ ، ١٨٤٩ ، ١٨٥٠ ، كتاب الفتن وأشرط الساعة ، وانظر مختصر مسلم أرقام ٢٠٠٨ ، ٢٠٠٩ ، ٢٠٢٣ ، ٢٠٢٥ ، ٢٠٢٧ ، وفي الباب أحاديث أخرى كثيرة .

- وأن أهل الكتاب آتخذ يؤمنون به على أنه عبد الله ورسوله ، وأنه يكسر صليبيهم ، ويقتل خنزيرهم .

- وأن عيسى - عليه السلام - وهو ينفذ شريعة الإسلام يؤدي الحج ، أو العمرة ، أو هما سويا .

- وأنه عليه السلام ، يقتل بعد نزوله كلا من المسيح الدجال والشیطان ، وأنه سيقود جيش المسلمين في حربهم للكافرين . ويقاقل معه الصالحون من الأمة ، ويشترك الحجر والشجر في دلالتها على من تخفى وراءها من الكفار ، واليهود ، إلا شجر الغرقد فإنه شجر اليهود . كما أنه ينتصر بعون الله سبحانه على يأجوج ، ومأجوج .

- وأنه عليه السلام . يعتبر بذلك علامة من علامات الساعة ، كما قال تعالى عن عيسى بن مريم - عليه السلام :

﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ ، فَلَا تَمْتَرْنَ بِهَا ﴾ (٨٧) .

عيسى - عليه السلام - في السماء الثانية :

عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال :

« أتيت بالبراق ، وهو دابة أبيض طويل يضع حافره عند منتهى طرفه »

وفي الحديث :

« ثم عرج بنا إلى السماء ، فاستفتح جبريل ، فقليل له : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . قال : ففتح لنا ، فإذا أنا بابن الخالة : عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، فرحبا بى ، ودعوا لى بخير ... » (٨٨) .

(٨٧) سورة الزخرف ، الآية رقم ٦١ . قرئت بكسر العين ، وفتحها .
(٨٨) أخرجه مسلم . في كتاب الإيمان ، باب الإسراء .. وفرض الصلوات ، رقم ٧٦ ص ٢٦ ج من مختصر مسلم .

وفي رواية له أيضاً :

« ثم مررت بعيسى ، فقلت : مرحباً بالأخ الصالح ، والنبي الصالح ، قلت : من هذا ؟ قال : هذا عيسى » (٨٩) .

وعن مالك بن صعصعة - رضى الله عنه - قال : قال النبي - ﷺ - :
« بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان »

وفي الحديث :

« فأتينا السماء الثانية . قيل : من هذا ؟ قال : جبريل . قال : من معك ؟ قال : محمد . قيل : قد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قيل : مرحباً به ، ولنعم المعجىء جاء ، فأتيت على عيسى ، ويحيى ، فقالا : مرحباً من أخ ونبي ... » (٩٠) .

وفي ضوء الأحاديث السابقة ، يتبين لنا بالنسبة لعيسى - عليه السلام :
- أن عيسى - عليه السلام - بالسماء الثانية ، وقد التقى به النبي - ﷺ - ليلة الإسراء .

- وأن بصحبته يحيى بن زكريا - عليهم السلام - ابن خالته .
- وأنه هو ويحيى - عليهما السلام - قد رحبا بالنبي - ﷺ - ، ودعوا له بالخير .
- أن الأنبياء جميعاً إخوة يدعون إلى عقيدة واحدة هي عقيدة التوحيد .

(٨٩) أخرجه الشيخان اللؤلؤ والمرجان ، كتاب الإيمان ، باب الإسراء ، رقم ١٠٢ ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٩٠) أخرجه الشيخان المصدر السابق رقم ١٠٣ ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

- وأنهما قد أديا مهمة الحراسة على خير وجه من سؤال عن الداخل ، والإذن لمن يحمل تصريحاً بالدخول .
- وأن الأدب في الحديث من شيم الأنبياء ، والصالحين كما ظهر في السؤال ، والجواب ..
- وأن وجوده بالسماء تكريم له ، ورفعته ، وأن من يصعد به إلى السماء أيضاً تكريم له أيضاً ورفعته « ونعم المجيء جاء » .

دروس ، وعبر :

- الاعتقاد بأن رسل الله سبحانه قد اصطفاهم ، واختارهم ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، فتعميق الإيمان بهم ، امتداد للإيمان بالله تعالى . وأنهم جميعاً يدعون إلى عقيدة واحدة ، هي عقيدة التوحيد . فلا يصح التفريق بين أحد من المرسلين - عليهم الصلاة والسلام .

- الاعتقاد بأن هؤلاء الرسل ، قد عصمهم الله سبحانه ، وحماهم ، ورباهم ، وصنعهم على عينه ، وأن حياتهم الأولى قبل البعثة حياة نظيفة ، بعيدة عن الدنس والريية .

- وأن الارتباط بالمساجد صلاة فيها ، وخدمة لها دليل على إيمان المرء فامرأة عمران نذرت ما فى بطنها للمسجد ، والله سبحانه يقول :

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ، وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ، فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (٩١) .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال :

« من غدا إلى المسجد أو راح ، أعد الله له فى الجنة نزلاً ، كلما غدا ، أو راح » (٩٢) .

وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال :

« إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد ، فاشهدوا له بالإيمان ، قال الله تعالى : إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » (٩٣) .

(٩١) سورة التوبة ، الآية رقم ١٨ .

(٩٢) أخرجه الشيخان . اللؤلؤ والمرجان . كتاب المساجد ، باب المشى إلى

الصلاة ، رقم ٣٩٠ ص ١٣٢ ، ورياض الصالحين رقم ١٠٥١ ص ٤٣٣ .

(٩٣) أخرجه الإمام أحمد ، وابن مردويه ، والحاكم فى المستدرک من حديث عبد الله بن وهب ، ابن كثير فى التفسير للآية السابقة .

وأخرجه الترمذى ، وقال : حديث حسن ، وفى سننه دراج أبو السمع ، وهو ضعيف =

- الدعاء للمولود بالبركة ، وإعازته من الشيطان ، واختيار الاسم الطيب له من سنن الأنبياء والمرسلين ، ويلزم التأسي بهم ، والسير على منوالهم .
- الله سبحانه يبيء لعباده الصالحين من يكفلهم ، ويرعاهم ، ولا يضيعهم فقد هيا لمريم من يكفلها ، وهو النبی الصالح زكريا ، وأنه سبحانه يرزقهم الرزق الحلال الطيب . قال تعالى :
- ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ (٩٤) .
- وتنزل هذا الرزق على مريم في محرابها .
- التنافس في أعمال الخير سمة من سمات عباد الله الصالحين . وهكذا تنافس الصالحون على كفالة السيدة مريم ، أيهم يكفل مريم .
- تعيين وصي على الصغير ، حفظ له ، وسنة من سنن المرسلين .
- منازل الصالحين في الجنة بما يتناسب وأعمالهم في الدنيا ، فمريم لما قدمت من جليل الأعمال من خير نساء الجنة فقد اكتمل إيمانها ، وحسن عملها كما أخبر بذلك المصطفى - ﷺ .
- للأعمال القيادية تكاليف ، وواجبات ، فبعد اصطفاء مريم أمرها ربها سبحانه : ﴿ اقتنى لربك ، واسجدى ، واركعى مع الراكعين ﴾ - وتكليف الصالحين بما يناسبهم من مراكز قيادية أداء للأمانة ، وتضييع الأمانة - بتوسيد الأمر لغير أهله - نذير بانتهاء الحياة الدنيا ، وعلامة من علامات الساعة .
- الاعتقاد بأن عيسى - عليه السلام - ولد من أم دون أب ، ومع التأييد بالمعجزات ، التأييد أيضاً بالملائكة ، فقد أيد عيسى - عليه

= في حديثه عن أبي الهيثم ، وهذا من روايته عنه . رياض الصالحين . باب فضل المشي إلى المساجد ص ٤٣٤ رقم ١٠٥٨ ، وهامشه ، وقريب من هذا المعنى أحاديث أخرى أكثر قوة ، وأصح سنداً . مثل الذي سبقه .

(٩٤) سورة الطلاق ، الآيتان ٢ ، ٣ .

السلام - بروح القدس وهو جبريل - عليه السلام - وكذلك كان الأمر مع النبي محمد - ﷺ - وصحابته الكرام .

- الاعتقاد بأن عيسى - عليه السلام - قد بشر بالنبي محمد - ﷺ - وأن الإيمان بعيسى من كل مسلم جزء من الإيمان ، ومن لوازمه .

- على الداعية المسلم أن يختار معه من يعينه على الدعوة ، وأن يخصصهم بالمزيد من الأعباء ، والمزيد من العلم ، وأن يكون حكيماً في هذا الاختيار مثل اصطفاء الحواريين .

- الإيمان بأن الله سبحانه أنزل مائدة من السماء حسب طلب نبيه ورسوله ، ليزداد قومه إيماناً على إيمانهم ، وأن الهدف من المعجزة هو بعث الطمأنينة في النفوس .

- التأدب مع الله سبحانه في الدعاء ، والاعتقاد بأنه القادر على كل شيء ، ويظهر الفرق واضحاً بين عيسى - عليه السلام - والحواريين في خبر المائدة كما سبق .

- الله سبحانه يجازى المرء حسب ما اتضح له من دليل وبرهان فإنزال المائدة مدعاة لمزيد من الإيمان ، فإذا ما أصاب الإيمان نقص بعد نزولها ، وبعد اتضاح الدليل ازداد عقاب المرء ، وليس كذلك الجاهل .

- الاعتقاد بأن عيسى - عليه السلام - لم يمّت ، ولم يقتل ولم يصلب ، وأن الله سبحانه رفعه حياً إلى السماء ، بعد أن توفي أعماله في الدنيا ، وأنه ينزل قبل يوم القيامة يحكم بشرية الإسلام (٩٥) .

- وأنه عبد الله ، ورسوله ، وأن الله سبحانه الذى يخلق الإنسان من والدين

(٩٥) قال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلْمٌ لِلسَّاعَةِ ﴾ : وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله - ﷺ - أنه أخبر بنزول عيسى - عليه السلام - قبل يوم القيامة إماماً عادلاً ، وحكماً مقسطاً .

قادر على أن يخلق دون أصل سابق مثل آدم - عليه السلام - ودون أب مثل عيسى - عليه السلام - ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً ﴾ (٩٦) .

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ (٩٧) .

- انتأثر بالوضع الاجتماعي ، والأسرى ، خيراً ، أو شراً ، ولذا احتج القوم على مريم بأنها من أسرة صالحة غير سيئة ، وذلك قبل علمهم بمعجزة الحمل دون أب .

ولذا يجب تهيئة البيئة الصالحة لتربية الصغار ، واختيار الزوجة ذات الدين ، وتزويج من نرضى دينه ؛ حتى يتكون الجيل الإسلامي الصالح ، والقادر على حمل أعباء الدعوة .

- والاعتقاد بأن رسل الله سبحانه - مع دعوتهم للأصل الإيمانى - يدعون أيضاً إلى التكامل ، والتراحم ، والبر ، وتسمو هذه الأعمال بسمو الأصل الإيمانى فى نفس المسلم .

- والاعتقاد بأن رسل الله سبحانه - - بالإضافة إلى صفاتهم الخلقية - يتصفون باكتمال الهيئة ، والصورة ، والنظافة . ولذا يجب على من يتصدر الدعوة للناس ألا يغفل عن الأمر الثانى المظهرى . وقد كان عيسى - عليه السلام - ممشط الشعر نظيفاً كأنه على الدوام خارج من استحمام .

- والاعتقاد بأن الله سبحانه ، يؤيد رسله بالمعجزات ، ويختار منها ما اشتهر به القوم ، وكانوا فيه ماهرين ، مثل إحياء الموتى ، وقد اشتهر القوم بالمهارة فى الطب .

(٩٦) سورة فاطر ، الآية رقم ٤٤ .

(٩٧) سورة يس ، الآية رقم ٨٢ .

- أن الله سبحانه يحفظ أنبياءه ، والصالحين من أمته ، وقد حفظ المسيح - عليه السلام - من كيد اليهود ، وتآمرهم عليه ، وسعيهم لقتله ، فرفعه إليه حيا .

- أن الناس قد انقسموا أصنافاً بالنسبة لعيسى - عليه السلام - أركانهم هم المسلمون الذين يؤمنون بأنه عبدالله ورسوله ، وسينزل آخر الزمان قبل يوم القيامة .

- وأن أتباع الأنبياء يتسابقون في الدفاع عنهم ، ويؤثرونهم عليهم .
- الاعتقاد بأن الله سبحانه قد تنزه عن الولد والشريك ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ﴾ (٩٨) .

وأن النصارى بدعواهم البنوة كانوا كافرين ضالين مضلين .
- وأنه - عليه السلام - حين نزوله قبل يوم القيامة سيحكم بشريعة الإسلام ، فلا صليب ، ولا خنزير ويقتل الدجال ، ويأجوج ومأجوج .
- وأن الله سبحانه قد كرمه بوجوده في السماء الثانية وقد التقى به النبي - ﷺ - ليلة الإسراء .

والله أعلم .

فهرس الأحاديث والآثار

الصفحة	مطلع الحديث أو الأثر
	(أ)
١٨٧	أتانى الليلة آتيان
٢٩٠	أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟
٢٣١ ، ٢١٢	أتقاهم
٦٨٣	أتى بالمنذر بن أبى أسيد
٧٢٩ ، ٦٦٢	أتيت بالبراق ... فإذا أنا
٧٠٩	أجب عنى ، اللهم أيده بروح القدس
٦٣٩	اجتنبوا الموبقات
٥٧٢	أحب الصيام إلى الله صيام داود
١٨٧	اختتن إبراهيم - عليه السلام -
٥٨١	إذا حكم الحاكم فاجتهد
٢٣٣	إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها
٧٣٢	إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد
٤٥١	إذا كان عام المقبل إن شاء الله
٥٨٩	إذا مات ابن آدم انقطع عمله
٣٨٥	أرايتكم ليلتكم هذه ؟
٧٠٤	أرانى الليلة عند الكعبة
٤٤ ، ٤٣	ارجع إلى قومك فأخبرهم ..
٥٤٦ ، ٣٤٧	أرسل ملك الموت إلى موسى - عليه السلام -
٢٢٥	ارموا بنى إسماعيل

الصفحة	مطلع الحديث أو الأثر
٢٠٢	إزارى إزارى
٦٢٧	استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله - ﷺ -
٣٤	استوصوا بالنساء
٦٢٨	أسر النبي - ﷺ - إلى ابنته
٤٢١	أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى
٤٢١	أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء
٤٢٦	أفضل الجهاد
٤٣٨ ، ١٨	أفضل الدعاء دعائى يوم عرفة
٢٣٥	أكل ولدك نخلته مثل هذا ؟
٧١٣	ألا رجل يأتينى بخير القوم ؟
٢٠٢	ألم ترى أن قومك لما بنوا الكعبة
	الله أكبر ، قلتم : والذى نفس محمد بيده ، كما قال قوم موسى
٤٧٢	لموسى
٤١٩	اللهم اشدد وطأتك على مضر
٤٣	اللهم أكثر ماله وولده
٣٨٥	اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض
٤٠١	اللهم أنجز لى ما وعدتنى
٢٦٠	اللهم أنج الوليد بن الوليد
٤٣٦	اللهم إنى أعوذ بك من البخل
٦٣٨	اللهم رب الناس مذهب الباس
١٥٦	اللهم فقهه فى الدين
٢٣٥	اللهم هذا قسمى فيما أملك
١٧٨	أما إبراهيم ، فانظروا إلى صاحبكم
٤٩٢	أما بعد ، فإنما أهلك الذين من كان قبلكم
٤٨٠ ، ٣٧٧	أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟

مطلع الحديث أو الأثر

الصفحة

٦٢٣	أما لو أن أحدكم حين يأتي أهله ، يقول :
٦٩٧	امشوا نستنظر لجابر
٥٨٢	إن أبغض الرجال إلى الله ، الألد الخصم
٦٤١	أن أحد الصحابة كان عنده ساحر
٦٤١	ان اقتلوا كل ساحر وساحرة
٣٣	إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر
٥٣٠	إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل
١٩	أنا أولى الناس بعيسى بن مريم
٤٥	أنا سيد القوم يوم القيامة
٦٧١	إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات
٣٣	إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً
٣١	إن الله خلق آدم من تراب
٣٢	إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض
٣٨٨	إن الله رفيق يحب الرفق
٥٢٢	إن الله لم يهلك قوماً فيجعل لهم نسلأ
٢١٣	إن الله يجمع يوم القيامة الأولين والآخرين
١٦٧	انتدب لها رجل ذو عز
٤٢٢	أنتم توفون سبعين أمة
٩	إن الحمد لله
٤٨٠	إن رجلاً من اليهود قال له : يا أمير المؤمنين
٥٤٣	إن رسول الله - ﷺ - شاور حين بلغه اقبال أبي سفيان
٦٣٧	إن رسول الله - ﷺ - كان يتعوذ من أعين الجان
٣٨٨	إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه
٥٩٠	إن عفريتاً تقلت على البارحة

الصفحة

مطلع الحديث أو الأثر

- ٢٠٢ إن قومك قصرت بهم النفقة
 إن كان أصدق هؤلاء المحدثين ، وإن كنا لنبلو عليه الكذب
 ٣١ « أثر »
 ٢٧ إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث « أثر »
 ١٨٨ إنكم محشورون حفاة عراة
 ٥٨٢ إنما أنا بشر ، وإنه يأتيني الخصم
 ٥٧٠ إن ما تركه النبي - ﷺ - صدقة
 ٣٨٦ إنما سمى الخضر ؛ لأنه جلس على فروة بيضاء
 ٤٩٣ إنما هلك بنو إسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم
 ٤٩٩ إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب
 ٥٩٧ إنما يأكل آل محمد من هذا المال ، ليس لهم أن يزيدوا « أثر »
 ١٨٥ إن من أمن الناس عليّ في صحبتي
 ٣٦٣ إن موسى - عليه السلام - لما ورد ماء مدين
 ٥٢٩ ، ٤٢٦ إن الناس إذا رأوا الظالم
 ٦٣٧ إن ناساً من أصحاب رسول الله - ﷺ - كانوا في سفر
 ١٦٤ أن الناس نزلوا مع رسول الله - ﷺ - أرض ثمود
 ٥٢٨ ، ٥١٦ إنه كان فيما قبلكم من الأمم محدثون
 ٦٠٧ أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي - ﷺ - فقراً عليه القرآن ..
 ٦٥٧ إني أبيت ، يطعمني ربي ، ويسقين
 ١٤١ إني لأنذركموه ، وما من نبي إلا أنذر قومه
 ٧٠٩ اهجمهم ، وجبريل معك
 ٤٨١ أول ما بُدئ به الوحي
 ٥٤٤ إيانا تريد يا رسول الله ؟
 ١٤ الإيمان أن تؤمن

مطلع الحديث أو الأثر الصفحة

أى مسجد وضع فى الأرض	٢٠٠
أين الصبى ؟ قال أبو أسيد : قلبناه	٦٣٦
أى الناس أحب إليك ؟	٣٦

(ب)

بايعنا رسول الله - ﷺ - على السمع	٥١٥
بنى الإسلام على خمس	١٤
بيننا أيوب يغتسل	٢٨٧
بيننا رسول الله - ﷺ - يصلى بفناء الكعبة	٤٢٧
بيننا هو ذات يوم ، وسارة « أثر » ..	١٩٥

(ت)

تكلم أربعة وهم صغار	٢٤٥
تنكح المرأة لأربع ..	٣٦٢

(ث)

ثلاثة لا يدخلون الجنة ؛ مدمن خمر	٦٤٠
ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة	٢٤٠

(ج)

جاء بها إبراهيم « أثر »	١٩٧
جاء الحق وزهق الباطل	٥٠٨

الصفحة

مطلع الحديث أو الأثر

(ح)

- ٤٢ حاج موسى آدم
٦٨٩ حسبك من نساء العالمين بأربع

(خ)

- ٥٧٢ خفف على داود القرآن (القراءة)
٣٦ ، ٣٢ خلق الله آدم ، وطوله ستون ذراعاً
٢٧ خلق الله التربة يوم السبت
٣٥ خلقت الملائكة من نور
٤٢١ خير الناس أقرأهم ، وأتقاهم لله
٤٢٢ خير الناس للناس « أثر »
٦٨٨ خير نسائها مريم
٣٤ خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة
٦٢١ الخيل معقود في نواصيها الخير

(د)

- ٥٠٨ دخل النبي - ﷺ - مكة وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصباً ..
٢٠٤ دعوة أئى إبراهيم ، وبشرى عيسى لى
٢٤٢ الدين النصيحة

(ذ)

- ١٨٧ ذاك إبراهيم - عليه السلام -

مطلع الحديث أو الأثر - الصفحة

(ر)

٧٠٤ رأيت عيسى ، وموسى ، وإبراهيم
٧٠٤ ، ٣٤٨ رأيت ليلة أسرى بنى
٣٤٨ رأيت موسى وإذا رجل ضرب رجل (بكسر الجيم)
٦٩٦ رأيت النبی - ﷺ - يأكل الرطب بالقثاء
٢٣٣ رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة
٤٧٦ ربح البيع
 ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس (أى من حمام ،
٧٠٤ وهو عيسى)

(س)

٢٤٠ سبعة يظلهم الله في ظله
-----	------------------------------

(ش)

٥٤٣ شهدت المقداد بن الأسود ... مشهداً
-----	---

(ص)

٤٣٦ صدقتا ؛ إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم
٤٥١ صوموا التاسع ، والعاشر

(ض)

٦٣٨ ضع يدك على الذى تألم من جسدك ، وقل :
-----	--

الصفحة

مطلع الحديث أو الأثر

(ط)

الطاعون رجس أرسل على طائفة من بنى إسرائيل ٥٥١ ، ٥٢٥

(ع)

عجباً لأمر المؤمن ؛ إن أمره كله له خير ٤٧٦ ، ٢٩٠

عرج بى إلى السماء الثانية ١٢٧

عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه ٥٧١ ، ٣٦٩

(غ)

غفار ، غفر الله لها ٤٤

(ف)

فأتينا السماء الرابعة ١٢٧

فإذا أنا بإدريس فرحب بى ١٢٨

فأنا أحق بموسى منكم ٤٥٠

فانطلقت مع جبريل ٤٣

فذلك سعى الناس بينهما ١٩٧

فصل ما بين الحلال ، والحرام ، الدف ، والصوت فى النكاح .. ٥٧٥

فصوموه أنتم ٤٥٠

فقدت أمة من بنى إسرائيل ، لا يدرى ما فعلت ٥٢٣

فلا تأتهم ٦٤٠

فلما جاء إلى السماء الدنيا ٤٤

فمن يعدل إذا لم أعدل ، يرحم الله موسى ٤١٦

(ق)

٤٩١	قاتل الله اليهود
٤٩١	قاتل الله يهود
٦٢٣	قال سليمان بن داود
٣٨٣	قام موسى النبي خطيباً
٦٤١	قتلت جارية لها سحرتها
٤١٤	قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل
٦٢٦	قرصت نملة نبياً من الأنبياء
٣٢٠	قم يا عمر ، فأجبه
٧١٤	قم يا حذيفة ، فاتنا بخبر القوم
٥٤٨	قيل لبني إسرائيل : ادخلوا الباب سجداً

(ك)

	كان إذا اشتكى رسول الله - ﷺ - رقه جبريل
٦٣٨	عليه السلام
٢٧	كان الله ، ولم يكن شيئاً غيره
٥٦٥	كانت امرأتان معهما ابناهما ، فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما
٥٦٣ ، ٥٤٧	كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء
٣٤٥ ، ٢٨٨	كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة
	كان رسول الله - ﷺ - إذا مرض أحد من أهله نفث
٦٠١	عليه بالمعوذات
٦٩٧	كان رسول الله - ﷺ - يفطر على رطبات
٦٩٦	كان يأكل البطيخ بالرطب

الصفحة	مطلع الحديث أو الأثر
٦٣٧	كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات
٢٧	كتب الله مقادير الخلائق
٣٠	كذب كعب
٤٢٦	كلمة حق عند سلطان جائر
٤٦٤	الكمأة من المن ، وماؤها شفاء للعين
٦٨٩ ، ٣٤٠	كمل من الرجال كثير
	كنا أصحاب محمد - ﷺ - نتحدث أن عدة أصحاب
٥٦٧	بدر على عدة أصحاب طالوت
٦١٧	كنت ألعب بالبنات عند النبي - ﷺ -
٦٧٤	كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم ؟

(ل)

٥١٧	لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب
٥٢٢	لا ، إن الله لم يلعن قوماً قط فيمسخهم ، فكان لهم نسل
٤٨٧	لا تخيروني على موسى
٦١٨	لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة
١٦٨	لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا
٥٢٦ ، ٤٩٤	لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود
٢٣٦	لا تشهدني على جور
٣٧٨	لا تقل هكذا ؛ فإن الخلق يحتاج بعضهم إلى بعض
٧٢٧	لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق
٥٢٦	لا ، حتى يذوق العسيلة
٥٤٣	لا نقول لك كما قال قوم موسى « أئر »
٦٥٩ ، ٥٩٧	لا نورث ، ما تركناه صدقة
٥٢٥	لا ، ولكنه لم بأرض قومي

الصفحة

مطلع الحديث أو الأثر

لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد	٣٨٥
لا يتمنين أحد منكم الموت ، لضر نزل به	٦٩٥
لا يدخل الجنة ، من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر	٣٩
لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن	٢٤٢
لا يقتسم ورثتي ديناراً	٥٩٦
لتتبعن سنن من كان قبلكم	٥١٤
لتركن الحديث عن الأول « أثر »	٣١
لست تاركاً شيئاً كان رسول الله - ﷺ - يعمل به	
إلا عملت به « أثر »	٥٩٧
لقد أوتيت زمزماً من مزامير آل داود	٥٧٥
لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق	٢٠
لقد قف شعري مما قلت	٤٨٥
لقيت ليلة أسرى لي إبراهيم	٧٢٨
لما أراد الله رفع عيسى « أثر »	٧٢٠
لما أمر إبراهيم	٢٠٧
لما خلق الله آدم ، تركه ما شاء أن يدعه	٣٢
لما نزل الحجر في غزوة تبوك	١٦٤
لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي	٥٣٠
لم يبق من النبوة إلا المبشرات	٢٣٢
لم يتكلم في المهد إلا أربعة	٢٤٦
لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة	٢٤٥ ، ٧٠٠
لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات	٢١٣
لو أخذوا أدنى بقرة « أثر »	٥٣٣
لو كنت ثم لأريتكم قبره	٥٤٧

الصفحة

مطلع الحديث أو الأثر

- ٦٩٥ .. لولا أن النبي - ﷺ - نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به
٢٠٢ .. لولا حدثان قومك بالكفر ..
٤٢ .. لولا حواء ..
٥٧٦ .. ليكونن من أمتي قوم يستحلون الحر ، والحرير ..

(م)

- ٤٧٩ .. ما أنا بقارىء ..
ما بعث الله من نبي ، ولا استخلف من خليفة إلا كانت
له بطانتان
٦٦٣ ..
٤٩٢ .. ما تجدون في التوراه في شأن الرجم ؟
ما ترك النبي - ﷺ - إلا بغلته البيضاء ، وأرضاً ،
٥٩٧ .. تركها صدقة
٦٢٨ .. ما حجبني النبي - ﷺ - منذ أسلمت ..
٤٩٩ .. ما خير رسول الله - ﷺ - بين أمرين إلا اختار أيسرهما
٦٢٧ .. ما رأيت رسول الله - ﷺ - مستجمعاً قط ضاحكاً ..
٣٧٩ .. ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر « أثر » ..
٤٤٤ .. ما ظنك باثنين الله ثالثهما ..
٢٣٩ .. ما لهذه ؟ قلت : حمى أخذتها من أجل حديث تحدث به ..
٦٨٣ .. ما من بنى آدم مولود ..
٣٠٠ .. ما ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى ..
٥٩١ .. مثلى ، ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً ..
٢٥١ .. مروا أبا بكر فليصل بالناس
٢١٠ .. المسجد الحرام ، قال : ثم ماذا ؟ قال : المسجد الأقصى
٦٣٩ .. من أتى كاهناً ، أو عرافاً فقد كفر ..

الصفحة	مطلع الحديث أو الأثر
٤١٥	من أحب أن يقرأ القرآن غصاً
٥٨٢	من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد
٦١٧ ، ٤٥١	من أصبح مفطراً فليتم بقية يومه
٦٤٠	من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر
٦٩٧	من تصبح سبع تمرات عجوة لم يضره ذلك اليوم سمّ
٧٠٢	من حافظ عليها كانت له نوراً
٤٨٥	من زعم أن محمداً - ﷺ - رأى ربه فقد أعظم
٦٣٨	من سحر فقد أشرك
٤٥٠	من شاء صامه
٧٢٣ ، ٧٢٢	من شهد ألا إله إلا الله
٤٥٦	من صامه فليصمه
٧٣٢	من غدا إلى مسجد أو راح
٦٦٤	من نفس عن مؤمن كربة
	من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل ،
١٧٨	والمفعول به
٧١٣	من يأتيني بخبر القوم ؟
٢٨	من يبسط رداءه

(ن)

٢٥٢	نحن أحق بالشك من إبراهيم
٥٩٧	نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة
١٥٦	نصرت بالصبا ، وأهلكك عاد بالدبور
١٤١	نعم الرجل عبد الله

الصفحة

مطلع الحديث أو الأثر

١٣٣

نفسى نفسى ، اذهبوا إلى غيرى

٦٠٣

نهى النبي - ﷺ - عن ثمن الكلب

(ه)

٤٠٣

هذا سحر يؤثر ، أثره عن غيره

٥٩٥

هلا رددتموه إليّ ؟

٥٧٥

هل بعثتم جارية تضرب بالدف

٤٨٥

هل تمارون في القمر ليلة البدر ؟

(و)

١٤٢

وإنه يجيء معه بمثل الجنة والنار

٦١٢

والذي نفسي بيده ، لقد سأل الله باسمه الأعظم

٧٢٧

والذي نفسي بيده ، ليهلن ابن مريم بفج الروحاء

٧٢٦

والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم

والذي نفسي بيده ، ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك

٤٠٢ ، ٣٧٩

فجاً غير فجك

٦٥٦

وكان زكريا نجاراً

٦٨٣

ولد لى غلام ، فأتيت به النبي - ﷺ - فسماه إبراهيم

٤١٥

والله لقد أخذت من في رسول الله

١٩٩

ولم يكن لديهم حب

٦٣٧

وما أدرك أنها رقية ؟

١٧٤

ويرحم الله لوطاً ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد

(ي)

- يا أعرابي إن الله لعن ... سبط بني إسرائيل فمسخهم ٥٢٤
- يا رسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ٥٤٣
- يا عائشة ، أعلمت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه ؟ ٦٣٥
- يا عائشة ، ما كان معكم من هو ٥٧٥
- يا عائشة ، هذا جبريل يقرأ عليك السلام ٣٥
- يا عبادي ، إني حرمت الظلم على نفسي ٦١٣
- يا غلام ، إني أعلمك كلمات ٣٧٧
- يحيى نوح ، وأمه فيقول الله تعالى : هل بلغت ؟ ١٣٦
- يرحم الله أم إسماعيل ١٩٧
- يقول الله تعالى : يا آدم ٤٤
- يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ١٩٣
- يا محمد ، مولى من مال الله الذي عندك ٦٢٧

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوعات
٢٤ - ٧	التقديم
٩	● خطبة الحاجة
١٠	● لم ألف هذا الكتاب ؟
١٠	١ - السبب الأول في عام ٦٨ / ١٩٦٩ م
١٢	٢ - السبب الثاني في عام ١٩٧٩ م
١٣	٣ - السبب الثالث في عام ١٩٨٠ م
	● الرسل عليهم الصلاة والسلام يدعون جميعاً إلى
١٣	عقيدة واحدة
١٨	● توجيه النظر إلى قصص السابقين
٢٣	● لمن ألف هذا الكتاب
٢٣	● منهج الكتاب ، وطريقته
٤٧ - ٢٥	أبو البشر آدم عليه السلام
٢٧	● بدء الخلق
٣١	● مم تُخلق ؟ وكيف ؟
٣٤	● آدم وحواء
٣٥	● آدم والملائكة
٣٧	● آدم وإبليس
٤٣	● آدم في السماء الأولى
٤٤	● آدم والشفاعة
٤٧	● دروس وعبر
١٢٤ - ٤٩	التطور في الخلق
٥٣	● عرض تاريخي عام

الموضوعات	الصفحة
● أشهر القائلين بالتطور العضوى	٥٤
● النظرية كما يراها أصحابها	٥٦
● القواعد الأربعة لنظرية دارون	٥٧
١ - ناموس تنازع البقاء	٥٧
٢ - ناموس الانتخاب الطبيعى	٥٧
٣ - ناموس المطابقة	٥٧
٤ - ناموس الوراثة	٥٨
● الحفريات التاريخية التى يعتمدون عليها	٥٨
● مناقشات وردود	٦٠
١ - رأى عالم سوفياتى	٦٠
٢ - مناقشة حسائية	٦١
٣ - الانسان كما هو منذ عشرة ملايين سنة	٦٢
٤ - علم أساسه الخيال	٦٣
٥ - تلفيق	٦٦
٦ - الشك فى تحديد عصر الانسان الأول	٦٧
٧ - رأى العالم فيركو	٦٨
٨ - ماذا كان فى قارة مو المنقودة	٧٠
● أدلة من علم التشريح المقارن	٧٤
٩ - الإنسان الزنجى أو كاسر الجوز	٧٤
١٠ - زيادة نمو الدماغ فى الإنسان	٧٥
● آراء سريعة معارضة	٧٨
١١ - مذهب دارون خطأ علمى باطل فى الواقع	٧٨
● ردود منطقية	٧٩
١٢ - الصدفة لا تخلق نظاماً	٨٠
١٣ - كيف يكون مادياً ولا يثبت بداية أصله المادى	٨١
١٤ - كيف يكون الخالق أخط من المخلوق	٨٢

الصفحة

الموضوعات

٨٣	١٥ - كيف صنعت الطبيعة الحياة
٨٤	١٦ - العلم البشرى لا يعلم نهايات الأشياء
٨٦	١٧ - مواقف مخزية لبعض علماء التطور تظهر كذبهم ..
٩٢	● كيف تدرس نظرية دارون في بلادنا
٩٦	● كتاب الأحياء
٩٨ كتاب الأحياء ، والجيولوجيا وجهاً لوجه ..
١٠٠	● نظرية الكوارث
١٠٠	● الخلق الخاص
١٠٢	● التشابه والاختلاف
١٠٤	● كتاب الأحياء الجديد
١٠٤	● نظرة في أدلة التطور
١٠٤	١ - دليل التوزيع الجغرافي
١٠٤	٢ - دليل التصنيف
١٠٥	٣ - دليل الأجنة
١٠٥	٤ - دليل علم الأحافير
١٠٥	٥ - دليل علم التشرح المقارن
١٠٦	● كتاب التاريخ الطبيعى للصف الثالث الثانوى بمصر
١٠٧	● العالم يكرم عالماً يقول بالخلق الخاص
١١٠	● القرآن والعلم
١١١	● ما الهدف من إشاعة نظرية باطلية
١١٥	● مغالطات
١٢٣	● خاتمة
١٣٠ - ١٢٥	إدريس عليه السلام
١٤٨ - ١٣١	نوح عليه السلام

الصفحة

الموضوعات

- أول الرسل عليهم الصلاة والسلام ١٣٣
- نوح عليه السلام وقومه ١١٣
- نوح عليه السلام يلجأ إلى ربه سبحانه ١٣٦
- تحدى قوم نوح - عليه السلام - له ١٣٨
- نوح - عليه السلام - وزوجته ، وابنه ١٣٩
- نوح - عليه السلام - والطوفان ١٤٠
- إنذار نوح - عليه السلام - قومه من الدجال ١٤١
- دروس وعبر ١٤٢
- هود عليه السلام ١٤٩ - ١٦٠
- قبيلة عاد ١٥١
- أين كانت تسكن قبيلة عاد الأولى ١٥٢
- هود - عليه السلام - يدعو قومه ١٥٣
- موقف عاد من دعوة نبيهم ١٥٤
- إهلاك عاد ١٥٥
- نجاة هود - عليه السلام - ومن آمن معه ١٥٦
- دروس وعبر ١٥٨
- صالح عليه السلام ١٦١ - ١٧٢
- قبيلة ثمود ١٦٣
- موطن ثمود ١٦٤
- صالح - عليه السلام - يدعو قومه ١٦٥
- موقف ثمود من دعوة نبيهم ١٦٦
- سوء العاقبة ١٦٨
- دروس وعبر ١٧٠

الموضوعات	الصفحة
لوط عليه السلام	١٧١ - ١٨٢
● قوم لوط - عليه السلام - وموطنهم	١٧٣
● لوط - عليه السلام - يدعو قومه	١٧٣
● عصيان القوم وإهلاكهم	١٧٥
● عقوبة عمل قوم لوط - عليه السلام	١٧٨
● دروس وعبر	١٨٠
إبراهيم عليه السلام	١٨٣ - ٢٢٨
● من صفات إبراهيم عليه السلام	١٨٥
● إبراهيم عليه السلام يتأمل في الكون	١٨٨
● حوار مع أبيه	١٩٠
● اعتزال إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه	١٩٢
● إبراهيم ولوط عليهما السلام	١٩٤
● البشرى بإسماعيل عليه السلام	١٩٥
● هاجر وإسماعيل عليه السلام بواد غير ذي زرع	١٩٦
● إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يرفعان قواعد البيت	٢٠٠
● قصة الذبح والفداء	٢٠٥
● البشرى بإسحق - عليه السلام	٢٠٩
● الكذبات الثلاث	٢١٣
(أ) الموقف الأول وقوله: «إني سقيم»	٢١٤
(ب) الموقف الثاني وقوله: «بل فعله كبيرهم هذا»	٢١٦
(ج) الموقف الثالث وقوله عن سارة: «أختي»	٢١٩
(د) الموقف الرابع وقوله حين طلب الشفاعة:	
«نفسى نفسى»	٢٢٠
● دروس وعبر	٢٢٢

الموضوعات	الصفحة
يوسف عليه السلام	٢٢٩ - ٢٨٠
● أكرم الناس	٢٣١
● الرؤيا	٢٣٢
● يوسف عليه السلام وإخوته	٢٣٤
● في الطريق إلى مصر	٢٣٨
● عفة يوسف عليه السلام وطهره	٢٤٠
● اقتضاح أمر الزوجة ، وتبريرها لرغبتها	٢٤٨
● يوسف عليه السلام بالسجن ، يدعو إلى الله تعالى ،	
ويؤول الرؤيا	٢٥٢
● رؤيا الملك	٢٥٧
● يوسف عليه السلام وزير على خزائن الأرض	٢٥٨
● لقاءه بالإخوة	٢٥٩
● البراءة من الإهمال	٢٦٥
● نحر كإيجابى	٢٦٦
● فرحة اللقاء	٢٦٧
● دروس وعبر	٢٧١
أيوب واليسع وذو الكفل عليهم السلام	٢٨١ - ٢٩٢
● أيوب عليه السلام	٢٨٣
● اليسع عليه السلام	٢٨٨
● ذو الكفل عليه السلام	٢٨٨
● دروس وعبر	٢٩٠
يونس عليه السلام	٢٩٣ - ٣٠٢
● قومه	٢٩٥
● هروبه من قومه الأولين	٢٩٦

الموضوعات	الصفحة
● يونس عليه السلام في بطن الحوت	٢٩٧
● يونس عليه السلام وقد لفظه الحوت	٢٩٨
● جهاد جديد	٢٩٩
● دروس عبر	٣٠١
● شعيب عليه السلام	٣٠٣ - ٣٢٤
● من أرسل إليهم وأين كانوا	٣٠٥
● انحراف أهل مدين	٣٠٦
● استعلاء الكفر واستبداده	٣١٢
● جزاء عادل	٣١٦
● مبلغ الجهد قبل الجزاء	٣١٨
● دروس وعبر	٣١٩
● موسى عليه السلام قبل الرسالة	٣٢٥ - ٣٦٢
● مصر وفرعونها	٣٢٧
● فرعون يملك وحده كل خيرات مصر	٣٢٩
● فرعون يوزع عطاياه على من يخدمونه فقط	٣٣٠
● فرعون يحرم الناس التفكير	٣٣١
● فرعون ييث الفرقة ، ويفرق الجماعات ، ويقتل	
● من يشاء	٣٣٣
● قبيل ولادة موسى	٣٣٤
● موسى عليه السلام طفلاً	٣٣٦
● موسى عليه السلام في قصر فرعون	٣٣٩
● أم موسى عليه السلام ترضع طفلاً هو ابنها ،	
● ويصدق وعد الله سبحانه لها	٣٤١
● بلوغ موسى وفتوته ، واكتماله	٣٤٤

الموضوعات	الصفحة
● من مظاهر الرجولة والفتوة لموسى عليه السلام ٣٤٥	
● تطلب الرسالة اكتمال الجسم ، والعقل ،	
● والسلوك السوى ٣٥٠	
● قصة الرجلين المقتتلين ٣٥١	
● الخروج من مصر إلى مدين ٣٥٤	
● دروس وعبر ٣٥٨	
● موسى وهارون - عليهما السلام - مرسالان إلى فرعون ٣٦٣ - ٤٠٤	
● عبر سيناء في طريق العودة ٣٦٥	
● التكليف بالرسالة ، والبراهين على صدق الدعوة ٣٦٧	
● الآيات الدالة على صدق دعوة موسى عليه السلام ٣٦٩	
● سؤال موسى ربه ٣٧٣	
● لمن أرسل موسى وهارون عليهما السلام ٣٨٠	
● من فضائل الخضر عليه السلام وتعلم موسى - عليه	
السلام - منه ٣٨١	
● الذهاب إلى فرعون بمصر ٣٩٠	
● اللقاء بفرعون ٢٩٢	
● حوار حول العقيدة ٣٩٤	
● دور المعجزة في الدعوة ٣٩٨	
● دروس وعبر ٤٠١	
● الإيمان برسالة التوحيد ٤٠٥ - ٤٣٨	
● في يوم الزينة موسى وفرعون وحشود الناس ٤٠٧	
● فتنة السحرة ، وصبرهم على تعذيب الطاغية لهم ٤١١	
● إيمان بنى إسرائيل ٤١٦	
● تفضيل بنى إسرائيل ٤١٩	

الموضوعات	الصفحة
● مؤمن آل فرعون	٤٢٤
● دروس وعبر	٤٣٦
الإنتقام من المفسدين في الأرض	٤٣٩ - ٤٥٨
● مقدمات	٤٤١
● تجمع بنى إسرائيل ، والاتجاه صوب البحر ليلاً	٤٤٢
● غرق فرعون وجنوده	٤٤٤
● إيمان الفراعنة	٤٥٣
● استخلاف المؤمنين	٤٥٥
● دروس وعبر	٤٥٧
بنو إسرائيل في سيناء	٤٥٩ - ٤٧٦
● مواجهة جذب الصحراء	٤٦١
● إنقاذ جديد	٤٦٢
(أ) بالغمام يظلمهم	٤٦٢
(ب) والمن طعام وحلوى	٤٦٣
(ج) والسلوى لحم طير طيب	٤٦٤
(د) والماء العذب السائق للشارين	٤٦٥
● زهدهم في المن والسلوى ، ورغبتهم في البصل والثوم ..	٤٦٨
● حنين بنى إسرائيل إلى الوثنية	٤٧٠
● دروس وعبر	٤٧٥
موسى عليه السلام كلم الله سبحانه	٤٧٧ - ٥١٢
● كلام الله سبحانه لموسى عليه السلام وطلب الرؤيا	٤٧٩
● إيتاء الله سبحانه كلمه الكتاب	٤٨٨
● تشريعات التوراة التي ورد ذكرها في القرآن	٤٨٩
والسنة الشريفة	٤٨٩

الصفحة

الموضوعات

- عبادة بنى إسرائيل للعجل في غيبة موسى عليه السلام ... ٤٩٥
- (أ) خطة السامرى ٤٩٦
- (ب) مساعدة بنى إسرائيل له ٤٩٦
- (ج) دور هارون عليه السلام ٤٩٨
- (د) عودة موسى عليه السلام بعد إخبار
الله سبحانه وإياه ٤٩٩
- (هـ) تحقيقه مع الأطراف الثلاثة ٥٠٠
- ١ - بنى إسرائيل ٥٠٠
- ٢ - هارون عليه السلام ٥٠٤
- ٣ - السامرى ٥٠٦
- دروس وعبر ٥١٠
- مواقف لبنى إسرائيل في سيناء ٥١٣ - ٥٥٤
- طلبهم رؤية الله سبحانه ٥١٥
- نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة ٥١٩
- أهل القرية ، وطوائفها الثلاث ٥٢١
- (أ) الطائفة الأولى : التى اعتدت فى السبت
فمسخت ٥٢١
- (ب) الطائفة الثانية : من أنكرت على الأولى فنجت ٥٢٦
- (ج) الطائفة الثالثة : من سكنت لم تشارك الأولى
ولا الثانية ٥٢٨
- (د) وفى التاريخ طائفة أخرى ٥٢٩
- قصة ذبح البقرة : موضوعها ، عناصرها ، سير الأحداث
فيها ٥٣٢

الصفحة	الموضوعات
٥٣٦	● دعوة بني إسرائيل إلى دخول الأرض المقدسة ومراحلها:
٥٣٧	(أ) مرحلة التهيئة والتذكير بالنعم
٥٣٨	(ب) مرحلة الدعوة إلى التحرك والفتح
٥٤٠	(ج) رفض الدعوة والاعتذار بأسباب واهية
٥٤١	(د) دور الناصحين
٥٤٢	(هـ) إصرار وتأکید على القعود
٥٤٥	(و) ما على الرسول إلا البلاغ
٥٤٥	(ز) ختام الموتى واستحقاق العقوبة
٥٤٦	● متى كان دخول الأرض المقدسة ، وكيف
٥٤٩	● الخطة
٥٤٩	● الدافع لدخول الأرض المقدسة
٥٥٠	● مدى الإستجابة والتنفيذ
٥٥١	● جزاء العصاة
٥٥٢	● دروس وعبر
٥٥٥ - ٥٦٠	● الياس عليه السلام
٥٥٧	● أصله
٥٥٧	● قومه
٥٥٨	● دعوته
٥٥٨	● أثر دعوته في قومه
٥٥٩	● عاقبة المكذبين
٥٥٩	● جزاء المؤمنين
٥٨٦ - ٥٦١	● داود عليه السلام
٥٦٣	● بين طالوت وجالوت
٥٦٣	(أ) التفكير والنظر

الصفحة	الموضوعات
٥٦٥	(ب) تعيين القائد
	(ج) تحرك الجيش تحت أمره القائد ، واختباره
٥٦٦	كفاءة الجنود
٥٦٨	(د) التحام الجيشين ، وانتصار الفئة القليلة المؤمنة
٥٧٠	● داود عليه السلام
٥٧٠	● أصله
٥٧٠	● قومه
٥٧١	● أكله من عمل يديه
٥٧٢	● صيامه وصلاته
٥٧٣	● كتابه
	● تسخير الجبال والطير وإلانة الحديد ، وعمل الدروع ،
٥٧٤	والملك الكامل ، وفصل الخطاب
٥٧٧	● نبأ الخصم
٥٧٩	(أ) مفاجأة مفرقة
٥٧٩	(ب) موضوع القضية
٥٨٠	(ج) الحكم في القضية
٥٨١	(د) في أعقاب القضية
٥٨٤	● دروس وعبر
٦٥٢ - ٥٨٧	سليمان عليه السلام
٥٨٩	● هبة الله سبحانه لداود عليه السلام
٥٨٩	● نعم الله سبحانه على سليمان عليه السلام
٥٩١	● حكمة بشأن الطفل
٥٩٢	● حكمة في الحرث
٥٩٥	● جيش سليمان عليه السلام :

الموضوعات	الصفحة
(أ) القيادة	٥٩٥
(ب) قصة الهدد - جندياً - وملكة سبأ :	٥٩٨
١ - شجاعة أديبة	٥٩٩
٢ - النبأ اليقين	٦٠٠
٣ - وعى الجندي	٦٠١
٤ - التحقق من الدعوى	٦٠٢
٥ - الملكة تناقش أمر الكتاب	٦٠٤
٦ - موقع الهدية في نفس سليمان عليه السلام	٦٠٧
٧ - العفريت الذى عنده علم من الكتاب	٦١٠
٨ - الملكة في الأرض المباركة	٦١٤
(ج) تسخير الجن	٦١٦
(د) تسخير الريح	٦١٩
(هـ) الجياد	٦٢٠
● علمه بمنطق الثمل	٦٢٤
● موت سليمان عليه السلام	٦٢٨
● الشياطين يعلمون الناس السحر	٦٢٩
● السحر في ضوء الكتاب والسنة :	٦٣٤
(أ) السحر لا يغير حقائق الأشياء	٦٣٤
(ب) الاشتغال بالسحر ، والاعتماد عليه	٦٣٨
(ج) عقوبة الساحر	٦٤٠
(د) اتهام الكفار الرسل بالسحر	٦٤٢
● قصة سبأ (حضارة شعب ، إعراض عن شكر النعمة ، واغترار بها ، الحرمان من النعم لإعراضهم عن الحق ، وكانت آية)	٦٤٥
● دروس وعبر	٦٤٩

الموضوعات	الصفحة
زكريا ويحيى عليهما السلام	٦٥٣ - ٦٧٨
● آل عمران وزكريا عليهم السلام	٦٥٥
● كفالته مريم بنت عمران	٦٥٦
● طلبه النرية والولد الصالح	٦٥٨
● البشرى يحيى عليه السلام : متى وكيف	٦٦٠
● آية زكريا عليه السلام	٦٦٥
● الوصية ليحيى عليه السلام	٦٦٦
● تبليغ يحيى عليه السلام الرسالة	٦٧١
● دروس وعبر	٦٧٥
عيسى عليه السلام	٦٧٩ - ٧٣٦
● نذر امرأة عمران	٦٨١
● انبات مريم انباتاً حسناً	٦٨٥
● اصطفاء مريم	٦٨٨
● انتباز مريم المكان الشرق	٦٩١
● الحمل بعيسى عليه السلام	٦٩٢
● مريم في حوار مع قومها	٦٩٨
● نطق الطفل تبرئة ، ورسالة	٦٩٩
● من صفات عيسى عليه السلام	٧٠٣
● من معجزات عيسى عليه السلام	٧٠٥
● التأييد بروح القدس عليه السلام	٧٠٨
● عيسى عليه السلام مصداقاً ومبشراً	٧١٠
● دعوته لقومه	٧١١
● دعوته للحواريين	٧١٢
● خبر المائدة	٧١٤
● التوفية ، والرفع إلى السماء	٨١٧

الموضوعات	الصفحة
● تنزيه الله سبحانه عن الولد	٧٢٢
● نزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة	٧٢٦
● عيسى عليه السلام في السماء الثانية	٧٢٩
● دروس وعبر	٧٣٢
فهرس الأحاديث والآثار	

هذا الكتاب

من حيث المضمون :

- يجمع بين القديم والحديث ؛ فيه من القديم أصل الموضوعات ، من سير الأنبياء عليهم السلام .
- والاعتماد على النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية .
- ومن الجديد ؛ استخلاص العبر والدروس التي تلزمتنا على وجه الضرورة في حياتنا المعاصرة .
- ودحض الأفكار الفاسدة ، مثل فكرة التطور .
- كما حدث من إسقاط تاريخي ؛ لمزيد من الربط بين الأحداث مع تباعد العصور والربط بين الأحداث القديمة والمعاصرة في إسقاطات تاريخية .

ومن حيث الغاية :

- يثير الجانب الوجداني لدى القارئ ؛ ليحب الله ، وأنبياءه ، وقول الحق .
- ويحب من سار معه على الدرب ، فيأخذه أخاً وصديقاً .
- ويرسم الطريق الأقوم لشباب هذه الأمة ، فيتناولون الأحداث بفكر سديد ، وسلوك صائب .

ومن حيث الشواهد :

- فقد أخذت النصوص القرآنية الدرجة الأولى ، وجموعها في نقطة واحدة وضع الأساس الأول للمعاني .
- وتم الاستشهاد بالأحاديث النبوية بعد التأكد من صحتها أو ثبوتها ، مع بيان مصدر كل حديث بياناً شافياً ييسر رجوع من يفي من القراء إلى أصل الحديث متاً وسنداً .

والكتاب بهذا وغيره محاولة متواضعة لتربية جيل مسلم على أساس سليم . نرجو من الله سبحانه أن يجعله سبيلاً هداية ورشاد ،

الناشر